الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي





جامعة وهران 1 أحمد بن بلة

كلية العلوم الإنسانية والعلوم الإسلامية

قسم التاريخ وعلم الآثار

الهجرة في المغرب الأوسط واقعها وآثارها من منتصف القرن السادس إلى أواخر القرن الثامن الهجري/ ق12- 14م

أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه في التاريخ الوسيط.

تخصص: تاريخ المغرب الإسلامي

إعداد الطالب:

بخدة طاهر

إشراف الأستاذ الدكتور:

بوباية عبد القادر

أعضاء لجنة المناقشة:

اللقب والاسم	الجامعة الأصلية	الصفة في اللجنة
أة. دة/ بلهواري فاطمة	جامعة وهران 1 أحمد بن بلة	رئيسا
أ. د/ بوباية عبد القادر	جامعة وهران 1 أحمد بن بلة	مشرفا ومقررا
أ. د / بن معمر محمد	جامعة وهران 1 أحمد بن بلة	عضوا مناقشا
أ. د/ بوداود عبيد	جامعة مصطفى اسطمبولي معسكر	عضوا مناقشا
أ. د/ شخوم سعدي	جامعة جيلالي اليابس سيدي بلعباس	عضوا مناقشا
أ. د/ علاوة عمارة	جامعة الأمير عبد القادر قسنطينة	عضوا مناقشا

السنة الجامعية: 1437- 1438هـ/ 2016- 2017م.


بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

قال تعالى: **(وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ)**

سورة الروم: الآية 20.

الحمد لله حمدًا يُوافي نِعمه ويُكافئ مزيده، ونصلي ونُسلِّم على من أرسله الله هاديا ومبشِّرا ونذَيرا وداعيا إلى الله بإذنه وسِراجًا منيَرا، أحمده حمدًا لا ينقطع على ما أصبغه عليَّ من نعمتي الصحة والعافية، ما مكّنني من إنجاز هذا العمل، فله الشكر والحمد الذي بهما تدوم النعم.

شكـــــر وتقـــــدير

أتقدم بالشكر الجزيل والعرفان الجميل إلى كل من ساعدني في إنجاز هذا البحث بداية بالأستاذ الدكتور عبد القادر بوباية الذي أشرف على هذا العمل وتابعه بدقة طوال مرحلة البحث من خلال تصويباته وملاحظاته الدقيقة والقيِّمة، فله منًّا كل التقدير والامتنان، والشكر موصول كذلك إلى زملائي الأساتذة الذين شجعوني على مواصلة طريق البحث وأخص بالذكر الأستاذين: كريديم بوعبد الله وزروقي العربي وإلى كل من ساندني في هذا المشوار.

إهـــــداء

أهدي هذا العمل إلى من أوصى الله ورسوله صلى الله عليه وسلم بحسن صحبتهما، والدتي الكريمة التي غرست فيَّ أمل النجاح وإلى والدي العزيز- رحمه الله- الذي كان حريصا أيضا على تعليمي ونجاحي، وإلى إخوتي وأخواتي وبخاصة فتيحة التي كانت عونًا لي وإلى الزوجة والأبناء عبد الحق، أحمد عبد الفتاح، محمد عبد الهادي، وإلى كل أساتذة قسم العلوم الإنسانية بجامعة مصطفى اسطمبولي – معسكر- وكذا أساتذة قسم التاريخ وعلم الآثار بجامعة وهران، وإلى زملائي الأساتذة بمتوسطة بومعزة محمد بوادي رهيو، وإلى زملائي دفعة الماجستير سنة **2008**م الأساتذة: داودي لعرج والعربي لخضر ومبارك بشير وبن دومة عابد وبورملة خديجة، وإلى رفيق الدرب بن عيسى عبد القادر وأخيه محمد، دون أن أنسى من ساعدني تقنيا في إخراج هذا العمل الأستاذ عباس وفتحي والعيد.

قائمة المختصرات

ت: توفي

ج: جزء

د. ط: دون طبعة

ر: رسالة

س: سِفر

ص: صفحة

صص: صفحة من إلى

ط: طبعة

ع: عدد

ق: قسم

م: ميلادي

مج: مجلد

هـ: هجري

ها: هامش

Ibidem :Ibid

Ouvrage précédemment cite :Op cit

موفم: المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية

تقديم:

يُعدُّ التاريخ الاجتماعي مجالا خصبا في الدراسات التاريخية وذلك لتنوُّع مواضيعه والتي يُمكن من خلالها التعرُّف على صورة وملامح مجتمع ما وفي فترة معيَّنة انطلاقا من الواقع الفكري والنفسي والسياسي ومظاهر الحياة اليومية وعلاقة أفراده فيما بينهم أو بينهم وبين السلطة القائمة والتي من خلالها نستطيع فهم ذلك المجتمع، وبالتالي تفسير أي ظاهرة تحدث فيه. وإذا كانت هذه المواضيع خصبة وشيِّقة فإنها من جهة ثانية صعبة وشائكة قد تصل أحيانا إلى حد السكوت عن بعض مواضيعها نظرا لتشعُّبها وارتباطها بجوانب متعدِّدة سياسية ودينية واجتماعية وعرقية، ولذلك يجب على الدارس أن يراعيها ويكون على درجة من العلم بها للوصول إلى نتيجة علمية صحيحة عند تفسير أو معالجة مثل هذه القضايا.

ومن القضايا والظواهر الاجتماعية الملازمة للمجتمع والتي لا تكاد تخلو منها فترة أو مكان، ظاهرة الهجرة، وإذا كنا كثيرا ما ننشُد الاستقرار كسبب لقوة الدولة وازدهارها فلا يبدو أنَّ تيار هذه الظاهرة سيتوقف في أي وقت من الأوقات أو مكان من الأمكنة. وبالعودة إلى بلاد المغرب في العصور القديمة سنجد أنَّ حركة الهجرة شكَّلت جزءًا من تاريخه ومن حياة شعبه، وذلك من خلال الهجرات الوافدة إليه أو من خلال تحرُّكات قبائله داخل أقاليم بلاد المغرب، وسواء كان السبب في ذلك فترات الاستعمار التي توالت عليه، أو طبيعة بيئته وحياته القائمة على الرعي والترحال.

تُعتبَر الهجرة من الظواهر الاجتماعية التي عاشها المغرب الأوسط على مر التاريخ و في فترات مختلفة، ولذلك فإنه من الأهمية بمكان معالجة مثل هذه الظواهر لأنها تُمثِّل جزءًا من تاريخه الطويل، ومن خلالها يُمكن رسم صورة عن المجتمع ومعرفة بعض المحطات الهامة في مسيرته، كما تُعدُّ أحد عوامل بُنيته وتركيبه نتيجة دخول عناصر بشرية وافدة من مناطق عِدَّة وأعراق مختلفة امتزجت وأعطت صورة المجتمع. إضافة إلى ذلك فإنَّ هذه الظاهرة ساهمت في الترابط الاجتماعي والثقافي بين المغرب الأوسط وبعض أقاليم العالم الإسلامي، وانطلاقا من ذلك جاء موضوع الدراسة الذي وسمناه بـ: **" الهجرة في المغرب الأوسط واقعها وآثارها من منتصف القرن السادس إلى أواخر القرن الثامن الهجري/ ق12-14م ".** وقد حصرتُها في هذه الفترة بالذات لعدة اعتبارات:

* الأحداث الهامة التي عرفها العالم الإسلامي في المشرق والمغرب والتي كان لها الأثر المباشر في حركة الهجرة كقيام الدولة الموحدية وعلاقتها بالقبائل، ثم دور الدول التي ورثتها في العدوة المغربية وسياستها في المنطقة وطبيعة العلاقات فيما بينها أو بينها وبين القبائل، أما في الأندلس فقد أدَّت حروب الاسترداد التي شنَّتها الممالك المسيحية ضد المسلمين عقِب انحصار ثم زوال الحكم الموحدي إلى نزوح جاليات كبيرة نحو بلاد العدوة

وعليه تُعدُّ هذه الفترة من أهم الفترات التي اشتدَّ فيها تيار الهجرة على غرار ما عرفته المنطقة في العهد العبيدي أو في فترة محمد بن أبي عامر بالأندلس خلال النصف الثاني من القرن الرابع الهجري/ أواخر القرن العاشر الميلادي.

* ازدهار حركة التأليف التاريخي في هذه الفترة ببلاد المغرب والأندلس، والتي عبَّرت من خلال مضامينها عن الأوضاع السياسية والاجتماعية والحياة العلمية، ساعدتنا على دراسة هذا الموضوع بما احتوته من معلومات وإشارات مباشرة أو ضمنية.

* ازدهار أدب الرحلة من خلال قيام العديد من الرحالة المغاربة والأندلسيين بأسفار زاروا من خلالها مدنا وأقاليم تضمَّنت وصفا لما فيها من عجائب وما احتوته من أماكن تاريخية ومشاهد مقدَّسة ومدارس وغيرها، وهو ما شجَّع الناس على الهجرة والاستقرار في تلك الأماكن، ولعلَّ أشهر رحلات هذه الفترة: رحلة ابن جبير في القرن السادس الهجري ورحلة أبو عبد الله السبتي في القرن السابع الهجري، ورحلتي التجاني وابن بطوطة في القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر ميلادي.

أما دوافع اختياري للهجرة كموضوع للدراسة فيعود إلى كونه من المواضيع الاجتماعية التي لا تزال بحاجة إلى بحث، إضافة إلى أسباب أخرى يمكن اختصارها فيما يلي:

1- قلة الدراسات في هذا الموضوع بالنسبة للمغرب الأوسط، في حين اهتمَّ باحثون في بلدان مغاربية بالتأريخ لهذه الظاهرة في بلدانهم سواء من خلال مؤلَّفات أو مقالات، فنجد مثلا كتاب: " **قبائل المغرب** " لمؤرخ المغرب الأقصى عبد الوهاب بن منصور الذي استعرض فيه نسب وتوزيع القبائل البربرية والعربية في بلاد المغرب، وكتاب " **دراسات في تاريخ المغرب** " لمحمد رزوق الذي تطرَّق فيه لمجموعة من الظواهر الاجتماعية ومنها الهجرة، هذا بالنسبة للمغرب الأقصى، أو دراسة محمد الطالبي بعنوان: " **الهجرة الأندلسية إلى إفريقية أيام الحفصيين** " الذي تناول فيها أسباب وظروف هجرة الأندلسيين وقصدهم إفريقية، في حين تكاد تنعدم هذه الدراسات في المغرب الأوسط.

2- إنَّ معظم الدارسين الذين ألَّفوا في تاريخ بلاد المغرب كانوا يركّزون على إفريقية والمغرب الأقصى ويتغافلون عن المغرب الأوسط سواء كان ذلك في التاريخ العام أو بالنسبة للتراجم، ففي هذا الأخير مثلا يتم إدراج علماء المغرب الأوسط إما ضمن علماء إفريقية أو علماء فاس، وهو ما نلحظه عند القاضي عياض في " **ترتيب المدارك** "، أو عند ابن فرحون في " **الديباج المُذهَب** " وحتى عند المتأخرين مثل محمد بن محمد مخلوف في كتابه " **شجرة النور الزكية في طبقات المالكية** "، وهو ما طرح إشكالية الهوية وقضايا سياسية، ومن هذا المنطلق كانت رغبتنا في دراسة هذا الموضوع بالمغرب الأوسط بصفة

مستقلة لتغطية النقص من جهة وإعادة الاعتبار للمغرب الأوسط ككيان سياسي واجتماعي وحضاري مستقل وليس تابعا لهذا الإقليم أو ذاك.

3- مَثّلت الهجرة أحد مظاهر العلاقات سواء على المستوى الداخلي بين قبائل المغرب الأوسط أو بين القبائل والسلطة القائمة، والتي أبرزت الوضع الداخلي اجتماعيا وسياسيا، أو على المستوى الخارجي بين المغرب الأوسط وبعض أقاليم العالم الإسلامي وهي بدورها ستفسِّر طبيعة العلاقات ومستواها.

4- محاولة كشف ومعرفة الواقع الفكري والثقافي والاجتماعي في العالم الإسلامي بصفة عامة والمغرب الأوسط بصفة خاصة، إذ البحث في مثل هذه المواضيع يجعلنا نغوص في أعماق المجتمع النفسية والوجدانية والاجتماعية والتي من شأنها أن تساعدنا في تفسير ذلك الواقع وتلك الجوانب.

4- إبراز أثر ودور ظاهرة الهجرة في المغرب الأوسط في الميادين الاجتماعية والاقتصادية والعلمية من خلال التواصل والتبادل الثقافي وانتقال الكثير من المظاهر الحضارية بين أقاليم العالم الإسلامي، وهو ما يعدُّ نوعا من التكامل.

5- مساهمة الهجرة في تشكيل مجتمع المغرب الأوسط في هذه الفترة بعد استقرار العديد من المجموعات البشرية الوافدة من مختلف العناصر واندماجها مع الأهالي والتي تُمثّل مرحلة من مراحل تشكيله.

6- كان المغرب الأوسط منطقة عبور واتّصال في نفس الوقت بين الغرب الإسلامي ومشرقه وبين الأندلس والممالك المسيحية في أوربا وبلاد السودان، وهو ما أدى إلى ازدهار التجارة البرية والبحرية، والتي مَثّلت إحدى طرق الانتقال البشري الذي سيُطعِّم المجتمع بعناصر جديدة.

7- محاولة الربط التاريخي والثقافي والاجتماعي بين شطري العالم الإسلامي مشرقا ومغربا، حيث لاحظنا أنَّ معظم الدراسات تهتم بالغرب الإسلامي فقط وهو ما أدى إلى انقطاع التواصل بينهما، قد يكون المبرِّر لذلك هو التخصُّص "تاريخ المغرب الإسلامي" لكن ذلك لا يمنع من تناول مواضيع مشتركة بحكم الروابط التاريخية والدينية، التي تمكّن من توثيق جسور الترابط بينهما في الوقت الذي تحاول فيه بعض الدراسات فك تلك الروابط.

أما بالنسبة للدراسات التي تناولت الموضوع في المغرب الأوسط بالذات فهي قليلة جدّا وغير شاملة، وهذا في حدود معلوماتي واطِّلاعي، فكانت إما على شكل عنصر واحد في

موضوع من المواضيع، أو مقال مسَّ جانبا فقط من جوانب الهجرة، أو جاءت معلومات عرضية في موضوع عام، أما بالنسبة لعدم شموليتها، فإنَّ كل المؤلفات والدراسات التي راجعتها اقتصرت على طرف واحد إما العرب وإما البربر أو الأندلسيين، أو كانت حول قبيلة واحدة وفي فترة متقدِّمة ولم تُعالج كموضوع مستقل ومتكامل، وسأعطي الآن نماذج لبعض الدِّراسات والمؤلَّفات التي أنجِزَت في هذا الموضوع:

- كتاب **" القبائل العربية في المغرب في عصري الموحدين وبني مرين "** لمصطفى أبو ضيف أحمد عمر، ومن بين ما تطرَّق إليه: دور العرب في دولة بني عبد الواد، وتوزيع القبائل العربية ببلاد المغرب. وعلى العكس من ذلك تناول بوزياني الدراجي في كتابه الموسوم بـ: **" القبائل الأمازيغية أدوارها، مواطنها، أعيانها "** القبائل البربرية فقط كما هو واضح من العنوان، وما جاء في هذين الكتابين اقتصر على ذكر القبائل العربية بالنسبة للأول، والقبائل البربرية بالنسبة للثاني كما أوردها ابن خلدون من دون تحليل أو تعليق غالبا. في حين ركَّز موسى لقبال في كتابه: **"دور كتامة في تأسيس الخلافة الفاطمية ببلاد المغرب "** على قبيلة واحدة تقريبا وهي قبيلة كتامة وفي فترة متقدِّمة وذلك من أواخر القرن الثالث إلى القرن الرابع الهجريين.

أما ما ألِّف حول هجرات الأندلسيين، فلدينا مثلا كتاب **" مظاهر التأثير الإيبيري والوجود الأندلسي بالجزائر "** لناصر الدين سعيدوني، والذي تناول فيه مرحلة ما بعد سقوط غرناطة سنة 897هـ-1492م، وقد أشار إلى هجرة الأندلسيين لكن بشكل عابر ومختصر.

وفيما يخص الرسائل الجامعية نجد مذكرة ماجستير بعنوان: **" هجرة الأندلسيين إلى المغرب الأوسط خلال القرن 07هـ/ ق13م ودورهم الثقافي "** للطالب عمارة سيدي محمد والتي نوقشت بقسم الحضارة الإسلامية، كلية العلوم الإنسانية والحضارة الإسلامية- سابقا- بتاريخ 21/ 04/ 2014م.

أما بالنسبة للمقالات فنذكر منها: **" الهجرة الهلالية وأثرها في تغيير البنية الاجتماعية لبلاد الزاب "** لعمارة علاوة من جامعة قسنطينة، وهو منشور بمجلة الآداب، العدد 10 سنة 2004م، والذي ركَّز فيه على بعض القبائل الهلالية في منطقة بسكرة. كما نجد بعض المقالات التي تناولت العلاقات بين الأندلس وبين المغرب الأوسط ولاسيما في الجانب الثقافي والتي مسَّت جانب الهجرة، نذكر منها: **" تطوُّر العلاقات بين تلمسان وغرناطة في العصر الوسيط "** لعبد الحميد حاجيات، وهو منشور بمجلة عصور الجديدة، العدد 2، سنة 2011م، جامعة وهران، تطرَّق فيه لعلاقات بني عبد الواد بالأندلس ودورها في هجرة بعض الأندلسيين إلى تلمسان ولاسيما العلماء. وفي نفس المجلة ونفس العدد نجد مقالا آخر

بعنوان: " **إسهام العلماء الأندلسيين في الحركة العلمية بتلمسان خلال القرن السابع الهجري (13م)** " لعبد القادر بوباية، الذي تطرَّق فيه لأسباب هجرة الأندلسيين وأثر ذلك في المغرب الأوسط وتلمسان بالذات.

هناك بعض المقالات تناولت مواضيع معيَّنة وتطرَّقت في جانب منها لظاهرة الهجرة وسأكتفي بمثال واحد وهذا المقال بعنوان: " **المجاورون في مكة وأثرهم في الحياة العلمية خلال الفترة 570- 660هـ/ 1174- 1261م** " لعبد العزيز بن راشد السنيدي، وهو بحث مُقدَّم إلى ندوة مكة المكرمة عاصمة الثقافة الإسلامية سنة 1426هـ- 2005م، تناوَلَ فيه ظاهرة المجاورة بمكة والمدينة، لكن معظم المجاورين الذين أوردهم كانوا إما من المشرق أو من الأندلس والمغرب الأقصى.

إنَّ الهدف من هذه الدِّراسة هو محاولة تقديم بحث شامل لساكنة المغرب الأوسط من قبائل بربرية وقبائل عربية وغيرهما من العناصر البشرية وتفسير ظاهرة الهجرة وتتبُّع مسارها لإعطاء صورة واضحة عن الوضعية السكانية التي سيستقر عليها المغرب الأوسط لاحقا، لتكون ولو مرجعا بسيطا لموضوع السكان في المنطقة.

كما تهدف هذه الدراسة إلى ربط الهجرة بكثير من المظاهر الاجتماعية والثقافية والمواضع الجغرافية ذات العلاقة بقبيلة أو شخص أو حادثة أو عادة معيَّنة لا تزال معروفة أو متداولَة حتى الآن والتي تُعدُّ مرجعية تاريخية لها، ولذلك فدراسة مثل هذه المواضيع يساعدنا في تفسير الكثير منها في الوقت الراهن.

أما بالنسبة لمحور ا لإشكالية التي أثرتُها في موضوع هذا البحث فصُغتُها على شكل فكرة عامة: " الهجرة والمكوَّن الاجتماعي والثقافي للمغرب الأوسط وأثر ذلك وخلفياته " ولتفسير ودراسة محور هذه الإشكالية يمكن طرح التساؤلات الآتية: ما العلاقة بين الهجرة وبين الأوضاع السياسية والمذهبية للغرب الإسلامي في هذه الفترة ؟ ما تأثير كل منهما في الآخَر ؟ وما موقع المغرب الأوسط من هذه الظاهرة ؟.

ولدراسة ومناقشة هذا الموضوع وضعت خطة تقوم على مدخل وثلاثة فصول، محاولا معالجته بطريقة مباشرة ومركَّزة بعيدا عن التعقيد وعن التفريعات والعناوين الكثيرة.

المدخل: وهو توطئة تُمكِّن القارئ من الاستعداد لفهم الموضوع والتجاوب معه، عرَّفت من خلاله بالهجرة كظاهرة اجتماعية، مُبرزًا تجلياتها ومظاهرها، ثم قدَّمتُ تحديدا للإطار الجغرافي الذي سندرس فيه الظاهرة لما قد يُطرح حوله من إشكال بالنظر إلى الوضع السياسي الذي كانت عليه المنطقة، نتج عنه تضاربا في تحديد أقاليم بلاد المغرب، وحسما لهذه النقطة اعتمدْتُ الدولة الحمادية كمعلم تاريخي لتحديد المغرب الأوسط بناءً على أقوال

الجغرافيين والمؤرخين، ثم تطرَّقتُ للتطوُّرات السياسية التي مرَّ بها المغرب الأوسط وتركيبته السكانية وعلاقة هذه العناصر ببعضها البعض أو علاقتها بالسلطة، ثم علاقة المغرب الأوسط بالأندلس وبالمغرب الأقصى وبإفريقية وكذا بالمشرق الإسلامي، وذلك لإعطاء صورة تقريبية عن المجال الذي سيكون منطلقا أو مستَقَرًّا للمهاجرين.

الفصل الأول: الهجرة الداخلية: وتتعلق بحركة القبائل داخل المغرب الأوسط سواء العربية منها أو البربرية مع ربط ذلك بقيام دولة الموحدين وسياستهم في المنطقة وما نتج عنها من أحداث كان لها الأثر المباشر في حركة الهجرة ومنها ثورة بني غانية، ثم سقوط هذه الدولة وما أعقبه من تطورات سياسية وهي قيام دولة بني عبد الواد التي سيكون لسياسة سلاطينها دورا في تغيير الخارطة القبلية.

شجَّعت الحياة العلمية النشيطة لاسيما خلال القرن الثامن الهجري/14م من تنقل العلماء والطلاَّب بين المدن والحواضر العلمية للتدريس أو الدراسة، ومن عوامل ودوافع هذه الهجرة كذلك الصراعات القبلية التي نتج عنها نزوح الضعيفة والمنهزمة منها إلى مناطق أخرى، ثم تتبعتُ مسار هجرتها وأماكن استقرارها مع التعريف بكل قبيلة منها اعتمادًا على بعض كتب الأنساب وذلك حتى تكون الفائدة مزدوجة.

الفصل الثاني: وهو بعنوان: **الهجرة الخارجية،** قسَّمتُ هذه الهجرة إلى قسمين، الهجرة الصادرة: أي من المغرب الأوسط نحو الخارج أي نحو المغرب الأقصى والأندلس، مبتدئًا بالقبائل البربرية في العهد الموحدي ثم في العهد الزياني، وبعدها هجرة القبائل العربية إلى نفس المناطق وفي الفترتين المذكورتين، ثم الهجرة نحو المشرق أين توسعت في هذه الفترة ظاهرة المجاورة بالأماكن المقدَّسة، أما القسم الثاني من الهجرة فهي الواردة: أي من الأندلس ومن إفريقية ومن المغرب الأقصى ومن بلاد السودان إلى المغرب الأوسط.

الفصل الثالث: آثار الهجرة ونتائجها: تُعتبَر النتائج من أهم ما يُمكن التوصل إليه في أي بحث، ولذلك حاولتُ التقصِّي واستنتاج ما أدت إليه الهجرة من نتائج اجتماعية واقتصادية وثقافية وسياسية ... إلخ، سواء بالنسبة للمغرب الأوسط محل الدراسة أو بالنسبة للغرب الإسلامي عموما وكذا في المشرق وبلاد السودان.

فمن نتائجها السياسية، وصول بعض القبائل إلى مستوى من الوعي مكّنها من إقامة دولة مثل بني عبد الواد وبني مرين، في حين تلاشى بعضها بسبب الحروب وانتشارها في الأقطار مثل كومية، أما نتائجها الاجتماعية، فهي تغيُّر الخارطة السكانية باستمرار حسب الظروف السياسية والأحوال الاجتماعية فيما ظلَّت بعض القبائل في حركة ذهاب وإياب تتأرجح بين المغربين مثل قبائل المعقل. أما ثقافيا فقد تواصلت عملية تعريب اللسان والأخذ بشعار العرب في كثير من مظاهر الحياة الاجتماعية والأخلاقية والأدبية بفضل انتشار

العرب في مختلف المناطق، وقد ركّزتُ كثيرا في هذا العنصر على نتائج الهجرة الأندلسية بحكم عدد المهاجرين وقوة تأثيرهم في كثير من المظاهر الحضارية والاجتماعية بحيث لا تزال بعض ملامحها وآثارها قائمة حتى الآن.

أما على المستوى الخارجي فقد تجلّت نتائجها في الجانب الفكري والنفسي بتفتق مشاعر المهاجرين فجادت قرائحهم شعرا ونثرا وساهموا في تنشيط الحركة العلمية والأدبية عن طريق التأليف، أما في الجانب العمراني ولاسيما في المشرق، فقد خلّف مهاجرو المغرب الأوسط بعض الأحياء السكنية التي حملت اسمهم.

إختتمتُ الموضوع ببعض الملاحظات والاستنتاجات التي بدت لي من خلال فصول البحث، وقد تكن بدورها محل نقاش وإثراء.

هذا البحث هو مقاربة تاريخية اجتماعية تتقاطع فيه السياسة وما تُمثّله من مصالح وصراعات بالجوانب الاجتماعية والنفسية والتاريخية، ونظرا لطبيعة الموضوع هذه اعتمدتُ منهجا يقوم على التحليل والتعليل والمقارنة والاستنتاج وذلك بربط أحداث الهجرة بأسبابها ودوافعها والظروف المحيطة بها، ثم تفسير ذلك تفسيرا اجتماعيا بأبعاده السياسية والفكرية، وليس سردا لمسار الهجرة فقط وما صاحبه من أحداث وإنْ كان ذلك مما لا بدَّ منه، مع تتبُّع الظاهرة وذلك من حيث الظروف المُهيِّئة لها إلى الأسباب المباشرة لحدوثها والعوامل المتحكّمة في توجيه مسارها وحجمها ومقارنة ذلك في المغرب الأوسط بمناطق أخرى، ثم الوصول إلى أثرها ونتائجها.

عرض ونقد مصادر ومراجع البحث: اعتمدتُ في هذا البحث على مجموعة معتبرة من المصادر والمراجع المشرقية والمغاربية، وكذا بعض الدراسات التي كانت لنا عونا وسندا في عملنا هذا، وسأقتصر على ما كان مهما منها فقط أو له علاقة مباشرة بالموضوع، أو انفرد بأخبار وأحداث ذات أهمية، وسأعرضها في شكل مجموعات حسب التصنيف الذي تنتمي إليه وحسب ترتيبها الزمني.

كتب التاريخ العام وتاريخ الدول:

- ذيل تاريخ دمشق: لابن القلانسي أبي يعلى حمزة بن أسد بن علي الدمشقي (ت555هـ-1161م) ويُؤرِّخ للحروب الصليبية بصفة خاصة، يبدأ من 440هـ- 1048م إلى 555هـ ورغم أنّه يمس فترة قصيرة جدا من تاريخ الدراسة إلاّ أنه وأورد معلومات دقيقة عن بلاد المغرب ومنها قيام الدولة الموحدية وكيف كانت أخبارها تصل إلى المشرق، والتي سأذكرها في نتائج الهجرة إلى المشرق.

- <u>الكامل في التاريخ</u>: لابن الأثير أبي الحسن علي بن محمد (ت630هـ- 1233م) ورغم أنه مشرقي فقد اهتم بتاريخ بلاد المغرب، وهو مصدر سهل البحث فيه لاعتماده على تاريخ السنين (الحوليات) ورغم قلة معلوماته في موضوع الدراسة، لكنه أورد نصوصا نادرة لا توجد إلا في كتابه ومنها بعض الأخبار التي نقلها المغاربة عن الدولة الموحدية.

- <u>النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية</u>: - أو سيرة صلاح الدين - لابن شداد بهاء الدين أبي المحاسن يوسف بن رافع (ت632هـ- 1234م) الذي خدم السلطان صلاح الدين ولازمه إلى أن توفي، وأورد بعض أخبار المشرق منها الحروب الصليبية التي كان للمغاربة دورا فيها.

- <u>المعجب في تلخيص أخبار المغرب</u>: لعبد الواحد أبي محمد بن علي المراكشي (ت647هـ- 1250م) ينتهي تاريخه عند سنة 621هـ- 1224م، وهو من المصادر المهمة في تاريخ بلاد المغرب ولاسيما الدولة الموحدية باعتباره معاصرا لها، أفادني في علاقة الموحدين بالعرب وجهادهم في الأندلس، وثورة بني غانية وانعكاساتها، كما تضمَّن بعض المعلومات الجغرافية كحدود أقسام بلاد المغرب.

- <u>أمثال العوام</u>: للزجالي أبي يحي عبيد الله بن أحمد القرطبي (ت694هـ- 1295م) ويُؤرخ للحياة الأدبية والاجتماعية في الأندلس من خلال إيراده لمجموعة كبيرة من الأمثال الدارجة التي كانت متداولة على ألسنة العامة، وهي تُعبِّر عن الواقع الاجتماعي والنفسي السائد في الأندلس آنذاك، ومنها علاقة الأندلسيين بالبربر والتي مَّثلت إحدى نتائج الهجرة.

- <u>البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب</u>: لابن عذاري أبي عبد الله محمد بن أحمد المراكشي (كان حيا سنة 712هـ- 1312م) وهو من أهم مصادر التاريخ الإسلامي وبخاصة الغرب الإسلامي لاسيما أنه عاصر بعضا من الفترة محل الدراسة، اعتمدت عليه في بعض أحداث الأندلس سواء فتنة القرن الخامس الهجري أو بالنسبة لتاريخ الموحدين والتي كانت لها علاقة بالموضوع، لكن معلوماته عن المغرب الأوسط بعد القرن الخامس قليلة جدا.

- <u>بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد</u>: ليحي بن خلدون (ت780هـ- 1378م) وهو مؤرخ البلاط الزياني، كانت استفادتي منه في حركة الهجرة عموما من خلال اهتمام سلاطين هذه الدولة بالعلم واستقبالهم لشخصيات علمية وأدبية في تلمسان سواء من داخل المغرب الأوسط أو من الأندلس وترجمة لهؤلاء الأعلام وذلك في الجزء الأول، وكذا في الجانب الاقتصادي من خلال نشاط الأندلسيين بتلمسان وهذا في الجزء الثاني، إلا أنَّ إطنابه في تحلية ومدح السلاطين أبعده عن التطرُّق لمواضيع مهمة أخرى.

- زهر البستان في دولة بني زيان: وهو السفر الثاني من زهر البستان لمؤلّف مجهول عاش في القرن الثامن الهجري/14م، ويبدو أنّه عمل في البلاط الزياني، وأسلوب كتابته يشبه إلى حد ما أسلوب يحي بن خلدون، يتناول أخبارًا مهمة عن دولة بني زيان من أوائل سنة 760هـ- 1359م إلى أواخر سنة 764هـ- 1363م وهي سنوات مهمة، أحيا فيها أبو حمو موسى الثاني دولة بني عبد الواد، وأنهى تواجد المرينيين بالمغرب الأوسط.

- كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر أو تاريخ ابن خلدون، لمؤلّفه أبي زيد عبد الرحمن بن خلدون (ت808هـ- 1405م) وهو تاريخ عام للبشرية منذ الخليقة حتى أواخر القرن الثامن الهجري، وقد كان هذا المصدر عمدتي باعتباره المؤرِّخ الوحيد تقريبا الذي ألمَّ بأنساب وتاريخ قبائل العرب والبربر، وذلك في التعريف بها وبالأماكن التي كانت تنزلها ومسار هجرتها واستقرارها إلا أنه لا يُؤرِّخ أحيانا لبعض الأحداث وهو ما يُصعِّب عملية وضعها في إطارها التاريخي.

- تاريخ بني زيان ملوك تلمسان: وهو مقتطف من نظم الدر والعقيان في بيان شرف بني زيان لمحمد بن عبد الله التنسي (ت899هـ- 1494م) ويشبه في عرضه إلى حدٍّ ما كتاب بغية الرواد وذلك من حيث الأحداث ومدح السلاطين، أما استفادتي منه فكانت فيما يتعلق بالمدارس واهتمام بني عبد الواد بالعلم وفي ترجمة بعض الأعلام، وعلاقة السلاطين بالقبائل العربية والبربرية، والصراع الزياني المريني ونتائجه.

- الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل: للحنبلي مجير الدين أبو اليمن عبد الرحمن بن محمد الصليحي (ت928هـ- 1522م) وكما هو واضح من العنوان وحسب ما صرَّح به مؤلِّفه بقوله: "فهذا مختصر أستخرتُ الله تعالى في جمعه ... أذكر ما يتعلَّق ببيت المقدس من ابتداء أمره وبنائه من لدن سيدنا آدم عليه السلام إلى عصرنا هذا وهو آخر عام تسعمائة من هجرة النبي المصطفى خير الأنام" فهو يُؤرِّخ للمسجد الأقصى الذي أصبح قبلة للمهاجرين ويكفي أنَّ الصوفي أبي مدين شعيب قد جاور وأوقف به أوقافا.

كتب الأنساب:

- جمهرة أنساب العرب: لابن حزم أبي محمد علي بن أحمد بن سعيد (ت456هـ- 1064م) وهو من أشهر الكتب التي اعتنت بأنساب العرب، وقد خصَّص في آخر الكتاب قسما لنسب البربر وبيوتاتهم بالأندلس، ورغم اختصاره فقد اعتمدتُ عليه في التعريف ببعض القبائل العربية والقبائل البربرية.

- مختصر جمهرة النسب: لابن الكلبي، اختصره المبارك بن يحي بن المبارك الغساني الحمصي (ت658هـ- 1260م) وقد اعتمدتُ عليه في نسب القبائل العربية مثل قبائل بني هلال وقبائل بني سليم، وفيه معلومات لا توجد في غيره، وقد اعتمد عليه ابن خلدون في أنساب بعض القبائل.

- نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب: لأبي العباس أحمد القلقشندي (ت821هـ- 1418م) وهو يعرِّف بأنساب القبائل العربية، وضعه على حروف المعجم وهو ما يسهِّل عملية البحث، ينقل أحيانا عن ابن خلدون، إضافة إلى القبائل العربية يتضمن التعريف ببعض القبائل البربرية، ورغم الاختصار إلا أنه يبقى مصدرًا مُعضِّدًا لكتب التاريخ والأنساب.

كتب التراجم والطبقات:

- انباه الرواة على أنباه النحاة: للقِفطي جمال الدين أبي الحسن علي بن يوسف (ت624هـ- 1227م) وهو معجم شامل لتراجم مشايخ علمي النحو واللغة إلا أنه تضمَّن تراجم لقراء وفقهاء ومحدِّثين، وقد ساعدني في ترجمة بعض القرَّاء والفقهاء والمحدِّثين الأندلسيين الوافدين إلى المغرب الأوسط.

- عنوان الدراية فيمن عُرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية: للغبريني أبي العباس أحمد بن أحمد (ت714هـ- 1314م) وتضمَّن تراجم لأعلام من المغرب الأوسط، والوافدين من الأندلس، إضافة إلى ذلك تضمَّن معلومات عن ظاهرة التصوُّف وعن الحركة العلمية عموما وقد استفدتُ منه في هذا الجانب لاسيما وأنَّه تزامنَ مع فترة الدراسة.

- الوفيات: للبرزالي أبي محمد القاسم بن محمد بن يوسف (ت739هـ- 1338م) أصله من بني برزال إحدى قبائل بربر المغرب الأوسط التي هاجرت إلى الأندلس ومنها هاجر جده إلى الشام، يُلقَّب في المشرق بمفيد الشام ومؤرخ الإسلام، وقد أخذ عنه الكثير من المشارقة مثل الذهبي (ت748هـ- 1347م) وابن حجر في الدرر الكامنة، وعبد القادر النعيمي الدمشقي (ت927هـ- 1521م)، ورغم أنَّ المصنِّف دوَّن الوفيات بين سنوات 665هـ- 1266م إلى سنة 738هـ- 1337م، فإنَّ الموجود منه قطعة صغيرة من عشر سنوات تمتد ما بين 709- 718هـ/ 1309- 1318م، تتضمَّن 746 ترجمة، منها 60 ترجمة للنساء، وممن ترجم لهم بعض علماء زواوة الذين استوطنوا الشام وبعض من جاور بمكة.

- الإحاطة في أخبار غرناطة: لابن الخطيب لسان الدين محمد بن عبد الله السلماني الغرناطي (ت776هـ- 1374م) وهو موسوعة في التراجم، استعنتُ به في التعريف ببعض الأعلام الواردة في البحث ولاسيما ممن هاجر من المغرب الأوسط إلى الأندلس.

- الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب: لابن فرحون أبي الحسن إبراهيم بن نور الدين (ت799هـ- 1397م) وهو يحتوي على 632 ترجمة من أعيان المالكية من المشرق والمغرب، اعتمدتُ عليه في ترجمة بعض من هؤلاء.

- الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة: لابن حجر العسقلاني أبي الفضل أحمد بن علي بن محمد (ت852هـ- 1448م) وهو في أربعة أسفار ترجم فيه مؤلفه لـ 5320 ترجمة للعلماء والمحدِّثين والفقهاء والمؤرخين والصلحاء والمتقين والشعراء والمصنِّفين والوزراء والسلاطين وكُتّاب الإنشاء وغيرهم من مشارقة ومغاربة، وهو سهل للبحث لأنه مرتَّب على حروف المعجم، وقد اعتمدتُ عليه فيمن هاجر واستقرَّ بالمشرق ومنهم بعض علماء زواوة.

- دُرَّة الحِجال في غُرَّة أسماء الرجال: لابن القاضي المكناسي أبي العباس أحمد بن محمد بن أبي العافية (ت1025هـ- 1616م) يحتوي على عدد هائل من التراجم، ورغم اختصاره للمتَرجَمين فهو مصدر لا يمكن إغفاله.

كتب النوازل:

- ديوان الأحكام أو- الإعلام بنوازل الأحكام وقِطْرٍ من سِيَر الحكام: لابن سهل أبي الأصبغ عيسى الأسدي الجياني (ت486هـ- 1093م) أورد بعض المسائل الفقهية وتراجم بعض الفقهاء.

- جامع مسائل الأحكام لـمَا نزل من القضايا بالمفتين والحكام- أو فتاوى البرزلي- للبرزلي أبي القاسم بن أحمد البلوي التونسي (ت841هـ- 1438م) ويُعد موسوعة فقهية كذلك لما تضمَّنه من قضايا ولاسيما في الجانب الاجتماعي.

- المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل إفريقية والأندلس والمغرب: للونشريسي أبي العباس أحمد بن يحي (ت914هـ- 1508م) وهو موسوعة فقهية شاملة يمكن اعتماده في أي قضية من القضايا المطروحة في المجتمع، وقد استفدتُ منه في نتائج الهجرة ولاسيما في الجانب الاجتماعي.

كتب المذاهب والفِرَق:

- الفَرق بين الفِرق: لعبد القاهر بن طاهر بن محمد البغدادي (ت429هـ/ 1037م) ويتناول أهم الفِرق الإسلامية التي ظهرت على الساحة السياسية والفكرية ولاسيما فرقتي الشيعة والخوارج، وقد استعنتُ به في التعريف ببعض ما ورد منها في البحث.

- المِلل والنِحل: للشهرستاني أبي الفتح محمد بن عبد الكريم (ت548هـ/ 1153م) ويتطرق بدوره إلى الفِرق الإسلامية الكبرى من شيعة وخوارج وأهم أقسام هذه الفِرق، وقد استعملته في التعريف بها ومنها الإباضية.

كتب الجغرافيا والرحلات:

- نزهة المشتاق في اختراق الآفاق: للشريف الإدريسي أبي عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله الحمودي (ت558هـ- 1163م) يتطرق لأقاليم المعمورة ومدنها، يمكن الاعتماد عليه في التعريف بالمدن والأماكن كما يتضمن أيضا معلومات عن الطرق التجارية والنشاطات الاقتصادية من صناعة وزراعة، وقد استفدتُ منه في هذا الجانب بالنسبة لمعظم المدن الواردة في البحث ولاسيما الجزء الأول منه والخاص ببلاد المغرب وبلاد السودان.

- رحلة ابن جبير أو تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار: لابن جبير أبي الحسين محمد بن أحمد (ت614هـ- 1217م) دامت رحلته الأولى الطويلة من أواخر سنة 578هـ- 1183م إلى مطلع سنة 585هـ- 1189م، زار خلالها مصر وبلاد الحجاز والشام والعراق،ولعلّه من أهم كتب ومصادر الرحلة، تطرَّق فيه لتواجد المغاربة في المشرق، ودورهم العلمي وعلاقاتهم بالأهالي، إضافة إلى احتوائه على معلومات تاريخية ولاسيما الحروب الصليبية.

- معجم البلدان: لياقوت الحموي شهاب الدين أبي عبد الله بن عبد الله (ت626هـ- 1228م) لا يكتفي صاحبه بتعريف المدن فقط، بل يورد معلومات تاريخية وحتى تراجم للأعلام الذين اشتهرت بهم المدينة وكذا التعريف ببعض القبائل، وقد أفادني في هذا الجانب، وهو سهل للبحث لاعتماده حروف المعجم.

- الروض المعطار في خبر الأقطار: للحِميَري أبي عبد الله محمد بن عبد المنعم الصنهاجي (القرن 08هـ/ ق14م) وهو موسوعة جغرافية مرتَّبة على حروف المعجم، إلاّ أنه لا يحترم أحيانًا هذا الترتيب في الحرف الواحد، ينقل كثيرا عن الإدريسي، وعلاوة على تعريفه بالمدن تضمَّن معلومات تاريخية وتراجم لأعلام، إضافة إلى أهم الطرق والمسالك، وهو ما مكنني من الاستفادة منه في هذا الجانب.

- وصف إفريقيا: للحسن الوزان الفاسي (ت957هـ- 1550م) ورغم تأخُّره نسبيا عن الفترة المدروسة، فقد أفادني في التعريف بالمدن والمواضع إضافة إلى بعض المعلومات النادرة ولاسيما بالنسبة لبلاد السودان وقد اعتمدتُ على الجزء الثاني الخاص بالمغرب الأوسط. هذا إضافة إلى مصادر أخرى في الفقه والحديث والتفسير.

المراجع

- قبائل المغرب: لعبد الوهاب بن منصور، يعرِّف صاحبه بقبائل بلاد المغرب البربرية ثم العربية، ورغم اعتماده كليا على ابن خلدون تقريبا، فإنه يتتبع مواطن هذه القبائل ويذكر مواقعها الحالية ولاسيما في المغربين الأقصى والأوسط.

- القبائل العربية في المغرب في عصري الموحدين وبني مرين: لمصطفى أبو ضيف أحمد عمر، والذي تناول هجرة القبائل العربية إلى بلاد المغرب خلال القرن الخامس الهجري وانتشارها في المنطقة، وقد ختم كتابه بمخططات توضيحية عن بطون هذه القبائل.

- تاريخ إفريقية في العهد الحفصي: لروبار برانشفيك، ورغم أنّه يُؤرِّخ للدولة الحفصية، فقد تطرَّق للحياة الاجتماعية والعلمية بمدينة بجاية ومنها التواجد الأندلسي، وهو ما أفادني في هذا الجانب، يتميز بأسلوب عميق في التحليل.

- في تاريخ المغرب والأندلس: لأحمد مختار العبادي، يتناول بصفة خاصة التاريخ الإداري والسياسي والعسكري للغرب الإسلامي من الفتح إلى القرن الثامن الهجري، تضمَّن علاقات كل من الموحدين وبني عبد الواد بالقبائل البربرية والقبائل العربية، تضمَّن بعض الأخبار المهمَّة ومنها دور المغاربة في الحروب الصليبية.

- فقهاء المالكية والتجربة السياسية الموحدية في الغرب الإسلامي: للخضر محمد بولطيف وهو دراسة قيِّمة للحياة الفكرية في العهد الموحدي (510- 668هـ/ 1116- 1269م) ولاسيما مراحل وتطوُّر علاقة الموحدين بالفقهاء المالكية ورد فعل هؤلاء، وكذا تطوُّر حركة التصوُّف في هذه الفترة وأثر كل ذلك على الهجرة.

- العلماء الجزائريون في البلدان العربية الإسلامية فيما بين القرنين 3- 14هـ/ 9- 20م: لعمار هلال، تطرَّق فيه للعلماء الذين رحلوا لطلب العلم سواء في الأندلس والمغرب الأقصى وإفريقية أو إلى المشرق، سواء الذين استقروا هناك أو عادوا إلى أوطانهم.

- تلمسان في العهد الزياني: لعبد العزيز فيلالي، تناول في البداية وفي الجزء الأول تاريخ الدولة الزيانية، ثم مدينة تلمسان من الناحية الاجتماعية والعلمية والعمرانية وهو ما أفادنا في هذا الجانب وبخاصة في العهد الزياني، إلا أنَّ كثيرا من الإحالات لا تتطابق مع المصادر المحال إليها أو لا توجد تماما.

- بلاد المغرب وعلاقتها بالمشرق الإسلامي: لجورج مارسي، ترجمه عن الفرنسية محمود عبد الصمد هيكل وراجعه مصطفى أبو ضيف أحمد، والكتاب عبارة عن دراسة في تاريخ العلاقات بين بلاد المغرب والمشرق الإسلامي من الفتح إلى نهاية العصر الوسيط، حلَّل فيه

مظاهر هذه العلاقات مع نظرة لا تخلو أحيانا من التعصَّب والآراء المغرضة، فهو يرى مثلا أن بلاد المغرب تحرَّرت من المشرق وارتبطت أكثر بالأندلس، وأنَّ تأثير هذه الأخيرة على بلاد المغرب أكثر من تأثير المشرق.

- تاريخ الفكر الأندلسي: لآنجل جنثالث بالنثيا، وعنوانه الأصلي بالإسبانية تاريخ الآداب العربية في إسبانيا، صدرت طبعته الأولى سنة 1927م ثم الثانية سنة 1945م بعد أن حذف منها صاحبها فقرات اختصارا، وقد نقل المؤرخ حسين مؤنس الكتاب إلى العربية بعد أن ترجمه (الترجمة هنا بمعنى الشرح والإضافة) وصدر باللغة العربية سنة 1955م تحت العنوان المذكور، ويعد هذا الكتاب موسوعة شاملة للحياة الفكرية في العصر الوسيط بالأندلس من فقه وأدب وفلسفة وتصوُّف وطب وتاريخ وغيرها، وقد أفادني في كل ما له علاقة بالموضوع في هذه الجوانب.

- الحضارة الإسلامية في المغرب والأندلس عصر المرابطين والموحدين: لحسن علي حسن، يتناول التاريخ السياسي والإداري، والحياة الاجتماعية والاقتصادية والعلمية للغرب الإسلامي خلال حكم المرابطين والموحدين، ورغم شموليته إلاّ أنه يُركّز في بلاد العدوة المغربية على المغرب الأقصى وكأنَّك تقرأ لتاريخ هذه المنطقة فقط.

- تاريخ الجزائر في القديم والحديث: لمحمد بن مبارك الميلي، وذلك في الجزء الثاني الخاص بالفترة الإسلامية، وقد استعنتُ به في التعريف ببعض القبائل البربرية والعربية.

أما بخصوص الصعوبات التي واجهتني أثناء هذا البحث، فمعظمها يتعلّق بالجانب المنهجي، ويمكن اختصار هذه الصعوبات في النقاط الآتية:

* صعوبة وضع بعض الأحداث في إطارها التاريخي، بحيث تورد المصادر أحيانا هذه المعلومات والأحداث بصيغة العموم دون تحديد لتاريخها وهو ما يجعل الباحث في تردُّد.

* عدم استعمال المصادر والمراجع لمصطلح الهجرة إلا في النادر، وتستعمل بدلها الرحلة أو الخروج أو غيرها، وقد يطرح ذلك إشكالا بالنسبة لضبط المصطلح، وهو ما جعلني أجتهد في اختيار وانتقاء الأحداث والمفاهيم التي تعبِّر عن ظاهرة الهجرة.

* المصادر لا تذكر الهجرة كظاهرة مستقلة، وإنما في سياق الأحداث ولاسيما أثناء الصراعات والحروب ودسائس البلاط.

* اقتصار المصادر في أغلب الأحيان على ذكر فئة معينة من المجتمع وهم العلماء الأعلام المشهورين وإغفال العامة.

* انعدام أو نقص تطرُّق المصادر والمراجع لظاهرة الهجرة في المغرب الأوسط، بحيث لا يكاد يعثر الباحث على ذلك إلاّ النزر القليل، بينما تسهب في ذلك بالنسبة للمغرب الأقصى وإفريقية، وهو ما أشرنا إليه في الدراسات التي تناولت الموضوع.

* بالنسبة للمصادر النوازلية لا تحدِّد جهة النازلة ومكانها، بل تذكرها بصيغة المجهول فتقول مثلا: سُئِل الفقيه فلان، ولا تذكر موطن السائل، وهو ما يجعل القضية ينتابها الغموض، كما أنَّ معظم الفتاوى سابقة للفترة المدروسة وإن كان ذلك لا يُؤِّثر على الموضوع لأنَّ حكم النازلة يبقى صالحا لأي حادثة مشابهة.

المدخـــل

* تمهيد.

* تعريف الهجرة وحكمها الشرعي.

* أشكال الهجرة.

* الإطار الجغرافي للدراسة.

* أشكال الهجرة.

* الوضع السياسي للمغرب الأوسط خلال القرن 6هـ/ 12م.

* التوطّن السكاني والقبلي.

* علاقات المغرب الأوسط الخارجية.

إنَّ الحياة لا تقوم دائما على الاستقرار والتوطُّن، فقد يجد الإنسان نفسه أحيانًا مجبرًا على الانتقال أو الهجرة من مكان إلى آخر تحت ظروف طبيعية واقتصادية أو سياسية واجتماعية، والحقيقة أنَّ هذا التنقل يُمثِّل في حد ذاته أحد مظاهر حياة إنسان العصر الوسيط لدى جميع المجتمعات تقريبا، الذي ميَّزته تحركات نتيجة تطورات سياسية واجتماعية شكّلت الهجرة إحدى مظاهرها، بلغت أحيانا انتقال وتحرُّك أمم بأجمعها من مواطنها الأصلية وانسياحها في الأرض، وهو ما ينطبق مثلا على بعض شعوب الشرق كالتتار الذين خرجوا في القرن السادس الهجري/ 12م وغزوا العالم الإسلامي، أو بعض شعوب شمال أوروبا الذين نزلوا إلى الجنوب والغرب.

أما بالنسبة لبلاد المغرب فقد عرفت قبائله بدورها ظاهرة الهجرة والتنقل منذ القديم والتي تكون قد فرضتها ظروف وعوامل طبيعية واجتماعية حتى أصبحت جزءًا من نمط حياتها، ولذلك أطلق بعض المؤرخين القدامى على هذه القبائل اسم النوماد[1] أي الرُحَّل، وأن كان هذا الحكم لا يُمكن تعميمه على جميع القبائل حيث استقرَّ بعضها في السهول الشمالية ومارَسَ الزراعة، ولذلك فسَّر البعض كلمة برانوس BARANOS اليونانية التي أطلِقت على هؤلاء بالمستقرين[2]، إلا أنَّ صفة الرُحَّل اختُصت بها فيما يبدو قبائل زناتة على الأقل التي يقول فيها ابن خلدون: "وهم لهذا العهد آخذون من شعائر العرب في سكنى الخيام واتخاذ الإبل وركوب الخيل والتغلُّب في الأرض وإيلاف الرحلتين وتخطُّف الناس من العمران والإباية عن الانقياد للنصفة"[3].

إنَّ نمط الحياة القبلي الذي اعتادته قبائل بلاد المغرب عموما والقائم على الحرية والتنقل وعدم الخضوع لسلطة مركزية جعلها لا تستقر في مكان واحد، وعليه استنتج قوتيي GAUTIER من مقولة ابن خلدون السابقة أنّه إذا أطلقنا تسمية الرُحَّل فإنَّها ستنطبق بالضبط على قبائل زناتة[4].

1- SALLUSTE : la guerre de JUGURTA, traduction de CHARLE DURSOIR, éditions GARNIER, 1865,tafat-essai,2012,XVIII, p30.

محمد البشير شنيتي: التغيرات الاقتصادية والاجتماعية في المغرب أثناء الاحتلال الروماني، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984م، ص163/ محمد الصغير غانم: المملكة النوميدية والحضارة البونية، دار الأمة للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، 1998م، ص53.

2- موسى لقبال: دور كتامة في الخلافة الفاطمية بالمغرب، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1979م، ص59.

3- ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، اعتنى به وراجعه درويش الجويدي، المكتبة العصرية، بيروت، 1430هـ- 2009م، مج2، ص2062/ بوزياني الدراجي: القبائل الأمازيغية أدوارها ومواطنها وأعيانها، دار الكتاب العربي، الجزائر، ط2، ص142.

4- E.F. GAUTIER : le passé de l'Afrique du nord, les siècles obscurs, petite bibliothèque PAYOT , paris, 1962, p208.

وقبل أن نتطرَّق إلى هذا الموضوع في المغرب الأوسط بشيء من الدراسة والتحليل يجدر بنا أولا أن نُعرِّف بظاهرة الهجرة.

تعريف الهجرة: الهجرة، من الهَجْر، ضد الوصل، فهَجْرُ الشيءِ بمعنى تَرْكه، وهَجَرَ الرَّجُل هَجرًا إذا تباعد ونأى، والاسم منه الهِجرَة بالكسر، والهُجرَة بالضم وهي الخروج من أرض إلى أخرى، وقد اختُلِف في مدة الهجرة، فقيل السَّنة فصاعدًا، وقيل بعد ستة أيام فصاعدًا، وقيل المغيب أ ًيّا كان[1]، أما اصطلاحا فهي انتقال فرد أو جماعة من منطقة إلى أخرى داخل بلده أو إلى خارجه إمَّا بصفة دائمة (هجرة استيطان) أو بصفة مؤقتة (هجرة عودة) وذلك بصورة إرادية أو قصرية.

ورد لفظ الهجرة في القرآن الكريم ثلاثين مرة في ست وعشرين آية من سبع عشرة سورة، وجاء لفظها بصيغة الفعل عشرين مرة، وبصيغة اسم الفاعل ثماني مرات، ومرة واحدة بصيغة اسم المفعول، ومرة واحدة بصيغة المفعول المطلق، أما السُّوَر التي وردت فيها فهي: البقرة: 218/ آل عمران: 195/ النساء: 34، 89، 97، 100/ الأنفال: 72، 74، 75/ التوبة: 20، 100، 117/ النحل: 41، 110/ مريم: 46/ الحج: 58/ النور: 22/ الفرقان: 30/ العنكبوت: 26/ الأحزاب: 6، 50/ الحشر: 8، 9/ الممتَحَنة: 10/ المزمل: 10/ المدَّثر: 5.

أما في الحديث الشريف، فعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، عن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: ((**المُسلِمُ مَنْ سَلِمَ المُسْلِمُونَ مِنْ لِسانِهِ وَيَدِهِ، والمُهَاجِرُ مَنْ هَجَرَ مَا نَهَى اللَّهُ عَنْهُ**))[2]، وفي حديث آخر عن أنس بن مالك رضي الله عنه: أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ((**لاَ تَبَاغَضُوا، ولاَ تَحَاسَدُوا، ولاَ تَدَابَرُوا، وكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانًا، ولاَ يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ أَنْ يَهْجُرَ أَخَاهُ فَوْقَ ثَلاَثَةِ أَيَّامٍ**))[3].

الحكم الشرعي للهجرة: يتعلق حكم الهجرة أساسا من الناحية الفقهية بإقامة شعائر الإسلام ثم المحافظة على النفس وهما من الكليات الخمس التي حرص الإسلام على حِفظها وهي:

1- ابن منظور: لسان العرب، تحقيق عامر أحمد حيدر، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2005م، مج3، ص414/ الفيروز أبادي: القاموس المحيط، تحقيق يحي مراد، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 1429هـ- 2008م، ص451.

2- البخاري: صحيح البخاري، ضبطه محمود محمد محمود حسن نصار، دار الكتب العلمية، بيروت، ط5، 1428هـ- 2007م، كتاب الإيمان، باب المُسلِمُ مَن سلِمَ المسلِمون مِن لسانه ويده، رقم الحديث 10، ص18.

3- نفسه، كتاب الأدب، باب ما يُنهى عن التحاسد والتدابر، رقم الحديث 6065، ص1115/ أنس بن مالك: الموطأ، رواية يحي بن يحي الليثي، تعليق الشيخين الألباني ومحمد فؤاد عبد الباقي، دار ابن الجوزي، القاهرة، ط1، 1432هـ- 2011م، كتاب حُسْنُ الخُلُق، باب ما جاء في المُهَاجَرَة، رقم الحديث 1635 و1636، ص516/ النووي: صحيح رياض الصالحين من حديث سيد المرسلين، هذبه وحققه وضبطه أبو أسامة سليم بن عيد بن محمد الهلالي، دار غراس، الكويت، دت، كتاب الأمور المنهي عنها، باب النهي عن التباغض والتقاطع والتدابر، رقم الحديث 1343، ص580.

الدين والعقل والنسل والنفس والمال، وقد نقل الونشريسي عن ابن العربي في العارضة[1] قوله: الهجرة من الخوف على الدين والنفس كهجرة النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه المكيين، فإنها كانت عليهم فريضة لا يُجزئ إيمان دونها، والهجرة إلى النبي صلى الله عليه وسلم في داره التي استقرَّ فيها، فقد بايع من قصده على الهجرة وبايع آخرين على الإسلام وهاتان الهجرتان اللتان انقطعتا بفتح مكة.

فأما الهجرة من أرض الكفر فهي فريضة إلى يوم القيامة، وكذلك الهجرة من أرض الحرام والباطل بظلم أو فتنة، فإن قيل: فإذا لم يوجد بلد إلا كذلك، قلنا: يختار المرء أقلها إثمًا، مثل أن يكون في بلد فيه كفر، وبلد فيه جور خيرٌ منه، أو بلد فيه عدل وحرام، فبلد فيه جور وحلال أولى للمقام، أو بلد فيه معاصي في حقوق الله فهو أولى من بلد فيه معاصي في مظالم العباد. قال ابن العربي: إنَّ الله حرَّم أولا على المسلمين أنْ يقيموا بين أظهر المشركين وافترض عليهم أنْ يلحقوا بالنبي صلى الله عليه وسلم، فلما فتح مكة سقطت الهجرة وبقي تحريم المقام بين أظهر المشركين[2]. وفي الحديث عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم فتح مكة: ((**لا هِجْرَةَ، ولَكِنْ جِهَادٌ ونِيَّةٌ، وإِذَا اسْتُنفِرتُم فانْفِرُوا**))[3].

نقل القاضي عياض عن أحد فقهاء القيروان في عهد بني عبيد، قال: المقام في موضع يُطلب من أهله تعطيل الشرائع لا يجوز[4]، وقد طُرحت هذه القضية في العصر الحديث حيث استفتى الأمير عبد القادر علماء المغرب الأقصى في حكم من ساكن العدو الكفور ورضي بالمقام معهم فيما لهم من البلاد والثغور فأجابه الإمام ابن عبد السلام التسولي (ت1258هـ-1842م) قائلا: " اعلم أنَّ الهجرة من أرض الفساد واجبة، ولا فساد أعظم في الدين من

1- كتاب عارضة الأَحْوَذيّ على كتاب الترمذي، قيل العارضة: القدرة على الكلام، والأحوذي: الخفيف في الشيء لحِذقه، وقال الأصمعي: الأَحْوَذِيّ، المُشَمِّر في الأمور القاهر لها، لا يشُذُّ عليه شيءٌ منها، وقاله أيضا ابن خلكان في الوفيات. ابن فرحون: الديباج المُذهَّب في معرفة أعيان علماء المذهب، دراسة وتحقيق مأمون بن محي الدين الجنان، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1417هـ- 1996م، ص377/ المقري: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين ابن الخطيب، شرحه وضبطه وعلق عليه وقدم له مريم قاسم طويل ويوسف علي طويل، المعرفة الدولية، الجزائر، 2011م، مج2، ص254/ محمد بن محمد مخلوف: شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، دار الفكر للطباعة والنشر، دت، ص136.

2- الونشريسي: المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل إفريقية والأندلس والمغرب، خرَّجه محمد حجي وآخرون، نشر وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المملكة المغربية، 1401هـ- 1981م، ج2، ص440.

3- البخاري: المصدر السابق، كتاب الجزية والموادعة، باب إثم الغادر للبَرِّ والفاجر، رقم الحديث 3189، ص586.

4- ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك، ضبطه وصححه محمد سالم هاشم، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1418هـ- 1998م، ج2، ص219/ السيوطي: تاريخ الخلفاء، ضبطه محمد خالد، دار الفكر، بيروت، ط1، 1431هـ- 2010م، ص13.

الكفر"[1]، ثم نقل كلام ابن العربي السابق، كما تَناقشَ في هذا الموضوع محمد بيرم الخامس التونسي في رحلته إلى الجزائر مع المفتي المالكي ابن الحفاف[2] (ت1307هـ- 1889م) فنصحه بالبقاء لتعليم الناس أمور دينهم[3]. وقال بالهاشمي بن بكارة من المتأخرين: "اعلم أنَّ حكم الهجرة من بلد تقام فيه شعائر الإسلام إلى بلد آخر أفضل منه هو الندب والاستحباب" ثم يضيف قائلا: " كانت الهجرة في أول الإسلام مندوبا إليها، ثم وجبت الهجرة لله على المسلمين إلى المدينة، فلما فُتِحت مكة ارتفع وجوب الهجرة وعاد الأمر فيها إلى الندب والاستحباب[4]. وهنا يمكن أن نشير إلى أنَّ حكم الهجرة يختلف من حيث الزمن والظروف والمكان المُهَاجر منه، فالهجرة في ظروف سياسية معينة كغزو العدو تختلف عن الهجرة في ظروف أخرى، وهل هذا الغزو لدار الإسلام غزو كلي أو جزئي، وهل هي خاصة أم عامة، وللماوردي إشارة لطيفة في هذا المقام، قال في فصل استقرار الخلافة: "والذي عليه جمهور الناس أنَّ معرفة الإمام تلزم الكافة على الجملة دون التفصيل ... ولو لزم كل واحد من الأمة أن يعرف الإمام بعينه واسمه للزَمَتْ الهجرة إليه ولَمَا جاز تخلُّف الأباعد ولأفضى ذلك إلى خلُوِّ الأوطان، ولصار من العرف خارجا وبالفساد عائدًا"[5].

إنَّ حركة الهجرة الداخلية والخارجية التي عرفتها بلاد المغرب عموما وبلاد المغرب الأوسط بصفة خاصة لا يمكن تجاهلها باعتبارها ظاهرة اجتماعية عاشتها القبائل والتي يجب دراستها، سواءٌ باعتبارها كنمط للحياة وما انطوت عليه من أبعاد وآثار، أو كانت نتيجة أسباب وظروف سياسية ومذهبية واجتماعية، وفي كلتا الحالتين تبقى هذه الظاهرة أحد أهم الأحداث التي عاشها سكان الغرب الإسلامي في العصر الوسيط، وقد اتخذت الهجرة أشكالا ومظاهر متعددة نذكر منها:

1- محمد باشا ابن الأمير عبد القادر: تحفة الزائر في مآثر الأمير عبد القادر وأخبار الجزائر، تحقيق محمد السيد عثمان، دار الكتب العلمية، بيروت، 1434هـ- 2013م، ج1، ص263 وما بعدها.

2- ابن الحفاف: علي بن عبد الرحمن بن محمد، مقرئ عارف بالحديث من فقهاء المالكية، وُلد بمدينة الجزائر وبها نشأ وتعلَّم، حجَّ فأخذ عن علماء الحجاز، التحق بمعسكر الأمير عبد القادر فولاه رئاسة ديوان الإنشاء بمليانة ثم وُلي الإفتاء بالبليدة ثم إفتاء مدينة الجزائر، وهو صاحب الفتوى التي حكم فيها بالكفر على علماء مدينة الجزائر الذين لم يهاجروا بعد الاحتلال الفرنسي ويلتحقوا بالجبال. عادل نويهض: معجم أعلام الجزائر، مؤسسة نويهض الثقافية، بيروت، ط2، 1980م، ص121.

3- محمد بيرم: صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار، تحقيق علي بن الطاهر الشنوفي وآخرون، المجمع التونسي للعلوم والآداب والفنون، بيت الحكمة، ط1، 1999م، مج4، ص1282/ الحفناوي: تعريف الخلف برجال السلف، دراسة وتحقيق خير الدين شترة، دار كردادة للنشر والتوزيع، الجزائر، ط1، 1433هـ- 2012م، ج2، ص260.

4- حاشية رياض النزهة على منظومة نسمات رياح الجنة في فضائل أهل البيت وأولياء الله وأذكار الكتاب والسنَّة، أورده ضمن مجموع النسب والحسب والفضائل والتاريخ والأدب في أربعة كتب، مطبعة ابن خلدون، تلمسان، 1381هـ- 1961م، ص135.

5- الأحكام السلطانية والولايات الدينية، تحقيق نبيل عبد الرحمن حياوي، دار الأرقم بن أبي الأرقم، بيروت، دت، ص75.

1- الإجلاء: ومنه الجلاء والجلاءَةُ، يُقال: جَلاَّ بالرَّجُل، أي صرعه، وجَلاَّ بثوبه إذا رماه[1] وعليه نفهم من المعنى اللغوي لهذه الكلمة استخدام القوة في رمي الشيء ودفْعه، ولذلك أطلِق لفظ أو مصطلح الجالية على مهاجري الأندلس الذين أبعِدُوا بالقوة وتحت التهديد من طرف النصارى فتركوا ديارهم وانجلوا عن وطنهم، وكثيرا ما يستعمل ابن خلدون لفظ الجالية والذي يكاد يقتصر عنده في إطلاقه على الأندلسيين، وعادة ما يتم هذا الشكل من الهجرة بصورة جماعية نتيجة سقوط مدينة أو حصن أو ناحية في أيدي العدو.

يكون الجلاء أحيانا بسبب ظلم السلطة أو إجراء منها لغاية سياسية، ومنه ما نُقل عن عبد المؤمن بن علي (524- 558هـ/ 1130- 1163م) في وصيته لابنه عند حركته إلى مدينة المهدية سنة 554هـ- 1159م قوله: " واحُل إفريقية من العرب واجْلِهم إلى بلاد المغرب"[2] أو نتيجة صراع قبلي وعنصري ولاسيما في ظل العصبية القبلية السائدة آنذاك والتي يُغذيها أحيانا السلاطين والملوك كسياسة للحفاظ على السلطة، ففي إحدى القواعد السياسية التي أقرها أبو حمو موسى الثاني للحكم في علاقاته بالقبائل قوله: " وانتقم لبعضهم من بعض وادخل بينهم الشنئان والبغض"[3].

2- التغريب: ومنه الغُربة والاغتراب والتغرُّب، أي البُعد عن الديار والوطن، ويكون بصورة فردية أو جماعية رغبة أو إكراها، ومنها هجرة قبائل بني هلال وبني سليم العربية خلال منتصف القرن الخامس الهجري/ 11م عندما خرجوا من مصر إلى بلاد المغرب بدافع من العبيديين الذين أغروهم بخصبها وطيب مراعيها، ولذلك يُطلق على هذه الهجرة في الكتب التاريخية والأدبية " تغريبة بني هلال" وقد يكون التغريب الذي كثيرًا ما تقوم به السلطة ضد فرد أو جماعة أو قبيلة لعقابها والتخلُّص منها أو دفعًا لشرِّها لِما قد تُحدُثه من ثورة، أو من أجل الاستفادة من خدماتها وهو ما قام به بنو عبيد مع كتامة أو الموحدون عندما نقلوا بعض القبائل العربية إلى المغرب الأقصى.

3- النفي: وهو مثل التغريب، وعادة ما يتم بصورة فردية بنفي شخص لدفع خطره أو عقابا له، وهو من الحدود الشرعية التي تصدر ضد المخالفين والبغاة مثل المحاربين الذين يشهرون السلاح في وجوه الناس فيقطعون طريقهم ويسطون بالمارة قتلا وسلبا، فيُطبَّق عليهم حد الحرابة وهو إما القتل أو الصَّلب أو قطع اليدين أو الرجلين أو النفي لقول تعالى: **((إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا**

1- الفيروز أبادي: المصدر السابق، ص14.

2- ابن خلدون: المصدر السابق، مج2، ص1943.

3- واسطة السلوك في سياسة الملوك، تحقيق محمود بوترعة، دار النعمان للطباعة والنشر، الجزائر، 2012م، ص152.

أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ))[1].

4- الرهن: وهو أن يأخذ السلطان أو من له السلطة كالوالي شخصًا أو عدة أشخاص من قبيلة ما للحيلولة دون ثورتهم أو عصيانهم إذ يُنقَل هؤلاء الرهائن إلى حيث السلطة أين يُمكن أن يستقروا هناك بصفة نهائية، وقد عُرف هذا النظام لدى بني عبيد عند حكمهم لبلاد المغرب بنظام الضيوف[2] حيث نقلوا قبائل بأكملها من مواطنها الأصلية بالمغرب الأوسط إلى إفريقية[3].

5- الأسْر: ويكون عادة أثناء الحروب والغارات المتبادلة بين المسلمين والنصارى، وإذا لم يتم افتداءهم من قِبل أهلهم أو من قِبل السلطان يُدمجون في الجيش أو يُتخذون كخدم وعمال فيصبحون جزءًا من المجتمع.

6- الرقيق: يختلف الرق عن الأسْر، إذ يُجلَب الرقيق من أسواق قائمة ومعروفة غالبا، أي أنَّ الأشخاص يُباعون ويُشترون كسلعة على غرار السلع الأخرى، وكان يُجلب بصفة خاصة من بلاد السودان (الرقيق الأسود) إلا أنه يُمكن أن يتحوَّل الأسرى إلى رقيق يباعون في الأسواق، وقد كانت الغارات المتبادلة بين المسلمين وبين المسيحيين على السواحل سببا في رواج هذه الظاهرة، وقد اشتهرت مدينة بجاية بهذا النشاط الذي يقول عنه ابن خلدون: " فيجمع النفر والطائفة من غزاة البحر، ويصنعون الأسطول ويتخيرون له الأبطال الرجال، ثم يركبونه إلى سواحل الفرنجة وجزائرهم على حين غفلة فيتخطفون منها ما قدروا عليه ... ويعودون بالغنائم والسبي والأسرى، حتى امتلأت سواحل الثغور الغربية من بجاية بأسراهم "[4]. ومن طرق دخول الرقيق إلى بلاد المغرب ما كان يتبادله الملوك والسلاطين من الهدايا التي كان من ضمنها إضافة إلى الخيول واللباس والجواهر، العبيد والجواري، وكان هناك نوعين من الرقيق: الرقيق الأسود الذي ازدهرت تجارته حتى

1- سورة المائدة، الآية 33.

2- سعد زغلول عبد الحميد: تاريخ المغرب العربي من الفتح إلى بداية عصر الاستقلال، منشأة المعارف، الإسكندرية، 2003م، ج3، ص111.

3- ابن عذاري: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق ومراجعة ج. س. كولان وليفي بروفنسال، دار الثقافة، بيروت، ط3، 1983م، ج1، ص187/ ابن خلدون: المصدر السابق، مج2، ص1077/ ابن الأثير: الكامل في التاريخ، اعتنى به محمد العرب، المكتبة العصرية، بيروت، 1430هـ- 2009م، مج2، ص1618.

4- ابن خلدون: المصدر نفسه، مج2، ص2043/ أما الغبريني فيقول عن ذلك: " وكان غزاة قِطعها يدخلون إلى دواخل الجزر الرومانية وغيرها ويسوقون السبي الكثير ". عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية، تحقيق محمد بن أبي شنب، دار البصائر، الجزائر، ط1، 2007م، ص21.

أصبح في الدرجة الثانية بعد الذهب، وكثيرا ما تذكره المصادر الجغرافية[1] في النشاط التجاري، وهناك الرقيق الأبيض المجلوب من الأندلس وإيطاليا وصقلية واليونان ويُعرف هؤلاء في المصادر الإسلامية باسم الخصيان والفتيان والعلوج والصقالبة والمجابيب[2].

الإطار الجغرافي للدراسة: كثيرًا ما يكون الإطار الزماني والمكاني أحد الإشكالات التي تواجه الدارس وفي الفترة الوسيطة بالذات، ولذلك ارتأيت في البداية إعطاء تحديد جغرافي تقريبي لمجال الدراسة وهو المغرب الأوسط بناءً على ما أورده الكثير من الجغرافيين والمؤرخين، ويرتبط مجال المغرب الأوسط بجاريه إفريقية والمغرب الأقصى، وعليه يُمكن القول أنَّ المغرب الأوسط كان يمتد من بونة على ساحل البحر شرقا مرورًا بقسنطينة وجبل أوراس وبلاد الزاب إلى واركلا ووادي ريغ شرقا، وقد اعتمدنا هذه الحدود لأنها كانت مجالات دولة بني حماد[3] باعتبارها أول دولة بربرية خالصة[4] تتأسس بالمغرب الأوسط منذ أواخر القرن الرابع الهجري إلى سقوط عاصمتها بجاية في يد الموحدين سنة 547هـ-1152م حيث توقّف هؤلاء عند مدينة قسنطينة قبل أن يواصلوا فتحهم لإفريقية لاحقا، وفيما يلي أهم الأقوال في حدود المغرب الأوسط:

1- الإدريسي: نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ط1، 1431هـ- 2010م، مج1، ص18، 26، 109/ الحميري: الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق إحسان عباس، مكتبة لبنان، بيروت، ط2، 1984م، ص427/ ابن حوقل: صورة الأرض، نشر شركة نوابغ الفكر، القاهرة، ط1، 1430هـ- 2009م، ص98/ أبو عبد الله الزهري: كتاب الجعرافية، اعتنى بتحقيقه محمد حاج صادق، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، دت، ص119/ مؤلف مجهول: الاستبصار في عجائب الأمصار، نشر وتعليق سعد زغلول عبد الحميد، دار النشر المغربية، الدار البيضاء، 1985م، ص216.

2- ابن حوقل: المصدر نفسه، ص98/ المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر، شرح وضبط عفيف نايف حاطوم، دار صادر، بيروت، ط1، 1426هـ- 2005م، ج1، ص219، 323- 324/ ابن بسام: الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تحقيق إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 2000م، مج3، ص15/ ابن خلدون: المصدر السابق، مج1، ص1141.

3- ابن خلدون: نفسه، مج2، ص1817- 1818، 1833، 1877/ ابن خلدون: المقدمة، دار الكتب العلمية، بيروت، ط9، 1427هـ- 2006م، ص48/ الشريف الإدريسي: المصدر نفسه، مج1، ص165، 222، 291/ ابن فضل الله العمري: مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، تحقيق حمزة أحمد عباس، المجمع الثقافي، أبو ظبي، ط1، 2002م، س4، ص138- 139، 143/ عبد الواحد المراكشي: المعجب في تلخيص أخبار المغرب، تحقيق محمد سعيد العريان، لجنة إحياء التراث الإسلامي، مصر، دت، ص273، 424، 437/ البيذق: أخبار المهدي بن تومرت، تحقيق وتقديم عبد الحميد حاجيات، عالم المعرفة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2011م، ص30/ الغبريني: المصدر السابق، ص51- 52/ الحميري: المصدر نفسه، ص135/ روبار برانشفيك: تاريخ إفريقية في العهد الحفصي من القرن 13م إلى القرن 15م، نقله إلى العربية حمادي الساحلي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1988م، ج1، ص29/ مبارك بن محمد الميلي: تاريخ الجزائر في القديم والحديث، تقديم وتصحيح محمد الميلي، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984م، ج2، ص235.

4- يطلق البعض على هذه الفترة " عصر الاستقلال البربري ". عبد الحليم عويس: دولة بني حماد صفحة رائعة من التاريخ الجزائري، دار الصحوة للنشر والتوزيع، القاهرة، ط2، 1411هـ- 1991م، ص109- 110، 196، 247.

يقول عبد الواحد المراكشي عن حد إفريقية: "وحدُّها مما يلي المغرب المدينة المعروفة بقسنطينة الهواء" ثم يضيف: "فقسنطينة آخر بلاد إفريقية مما يلي البحر منها وما يلي الصحراء، وما بعد قسنطينة فهو من المغرب غير إفريقية"[1]. وفي معرض حديث ابن خلدون في فصل انقسام الدولة الواحدة بدولتين، وعن قيام دولة بني حماد يقول: "واقتطع ممالك الغرب لنفسه ما بين جبل أوراس إلى تلمسان وملوية"[2]، وعند كلامه عن الإقليم الثالث من الأرض يقول: "وفي سمت هذه البلاد شرقا بلاد المغرب الأوسط وقاعدتها تلمسان، وفي سواحلها على البحر الرومي بلد هنين ووهران والجزائر ... ثم يتصل ببلاد الجزائر من شرقيها بلاد بجاية ثم قسنطينة ... وفي جنوب هذه البلاد بلد المسيلة ثم الزاب وقاعدتها بسكرة تحت جبل أوراس"، ثم يضيف عن الحد من جهة البحر قائلا:" وعلى ساحل البحر بلد بونة، ثم في سمت هذه البلاد شرقا بلد إفريقية"[3]، أما الإدريسي فيذكر في الإقليم الثالث مدن المغرب الأوسط قائلا: "وفيه من بلاد المغرب الأوسط تنس وبرشك وجزائر بني مزغنا ودلس وبجاية وجيجل ومليانة والقلعة والمسيلة والغدير ومقرة ونقاوس وطبنة وقسنطينة وتيجس وباغاي وتيفاش ودار مرين وبلزمة ودار ملول وميلة"[4]. أما العمري فيقول عن إفريقية: "وإفريقية اسم لإقليم وقاعدة الملك بها تونس وأضيف إليها مملكة بجاية ودلس، ودلس[5] آخر مدنها مما يلي المغرب الأوسط"[6]، ويتفق ابن سعيد المغربي مع عبد الواحد المراكشي حيث يعتبر بجاية من قواعد المغرب الأوسط ويقول أنَّ مدينة قسنطينة هي آخر سلطنة بجاية ومنها إلى بونة[7]. أمَّا أبو الفدا فيجعل المغرب الأوسط من وهران شرقي تلمسان إلى آخر حدود مملكة بجاية[8]، فيما يجعل صاحب الاستبصار حده من وادي مجمع وهو في نصف الطريق بين مدينة مليانة ومدينة وتلمسان[9]، ولعله وادي شلف.

1- المعجب في تلخيص أخبار المغرب، ص433، 442.

2- ابن خلدون: المقدمة، ص229.

3- نفسه، ص47- 48.

4- نزهة المشتاق، مج1، ص222، 252.

5- دلس: مدينة صغيرة عتيقة على ساحل البحر وهي على شرف متحصنة، لها سور حصين وآثار ومنتزهات، بينها وبين مرسى الدجاج أربعة وعشرون ميلا، ومنها إلى بجاية سبعون ميلا في البر. الحميري: المصدر السابق، ص132/ الإدريسي: المصدر نفسه، مج1، ص259/ الحسن الوزان: وصف إفريقيا، ترجمه عن الفرنسية محمد حجي ومحمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط2، 1983م، ج2، ص42.

6- المصدر السابق، س4، ص138- 139، 143- 144.

7- ابن سعيد المغربي: بسط الأرض في الطول والعرض، تحقيق خوان قرنيط خينيس، تطوان، 1958م، ص76/ أبو الفدا: تقويم البلدان، اعتنى بتصحيحه رينود والبارون دوسلان، دار صادر، طبعة باريس، 1840م، ص122.

8- أبو الفدا: المصدر نفسه، ص122.

9- مؤلف مجهول: الاستبصار، ص176.

أما من الناحية السياسية فإنَّ سلطة بني زيان في المغرب الأوسط كانت تمتد من دلس غربي بجاية على الساحل إلى مدينة بسكرة[1] على تخوم الصحراء وذلك في عهد السلطان أبي حمو موسى الثاني (760- 791هـ/ 1359- 1389م) بينما يُحدد التنسي مملكة أبي تاشفين الثاني (791- 795هـ/ 1389- 1393م) من نهر ملوية غربا إلى جبل الزان[2]، فيما يذكر الحسن الوزان حدود المملكة الزيانية شرقا بالوادي الكبير (الصومام) وصحراء نوميديا جنوبا[3]، ويذهب معاصره مارمول كربخال إلى أبعد من ذلك عندما يجعل الحد بين إقليمي بجاية وإفريقية مدينة القل لكنه يستطرد قائلا: "ولكنه عند خيرة الكتاب معدودًا في مملكة تلمسان ... والواقع أنَّ هذا الإقليم كان تابعا مدة من الزمن لمملكة تونس"[4].

أما من الجهة الغربية فالحدود تبدو أكثر وضوحا نوعًا، وقد تطرَّق إليها كثير من المؤرخين والجغرافيين ورغم ذلك فقدظلَّت النزاعات مستمرة بين سلاطين بني عبد الواد وبين بني مرين حيث كانت بعض المدن والمجالات سببا لنشوب حروب مستمرة أثّرت على استقرار السكان جعلت الطرفان يعقدان معاهدات من أجل ضبطها، وعليه فإنَّ حد المغرب الأوسط كان على هذا الشكل: من نهر ملوية[5] إلى بلاد تازا[6] بما فيها مدينة وجدة[7]

1- يحي بن خلدون: بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، تقديم وتحقيق وتعليق بوزياني الدراجي، دار الأمل، الجزائر، 2007م، ج2، ص323، 358.

2- تاريخ بني زيان ملوك تلمسان، تحقيق محمود بوعياد، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1985م، ص184، 286.

3- وصف إفريقيا، ج2، ص7.

4- إفريقيا، ترجمه محمد حجي وآخرون، مكتبة المعارف، الرباط، 1404هـ- 1984م، ج2، ص375.

5- نهر ملوية: يُعرف قديما بملوشة MULUCHA وهو نهر عظيم منبعه من جبال قبلة تازا ويخترق مفازات أنكاد وكرط ويصب في البحر الرومي عند مدينة غِساسة. ابن سعيد: المصدر السابق، ص74/ ابن خلدون: المصدر السابق، مج2، ص1833/ الحسن الوزان: المصدر السابق، ج2، ص250/ وهو نفس الحد الذي كانت عليه موريتانيا القيصرية في العهد الروماني. محمد البشير شنيتي: المرجع السابق، ص162/ محمد الهادي حارش: التاريخ المغاربي القديم منذ فجر التاريخ إلى الفتح الإسلامي، دار هومة، الجزائر، 2014م، ص174/ .SALLUSTE : op cit, p32, 149

6- الاستبصار، ص176، 179، 186/ الحميري: المصدر السابق، ص135/ ابن خلدون: نفسه، مج2، ص1833، 1844.

7- وجدة: مدينة على بعد ثلاث مراحل من تلمسان، وأربعين ميلا عن البحر جنوبا، محاذية غربا مفازة أنكاد، وهي كثيرة الأشجار والفواكه جيدة الهواء، أسسها زيري بن عطية المغراوي سنة 384هـ- 994م واتخذها عاصمة له لتكون وسطًا بين المغربين وقد ظلَّت هذه المدينة محل صراع بين الزيانيين وبني مرين فطالها التخريب عدة مرات من قِبَل هؤلاء، ثم أصبحت تابعة لسلاطين المغرب الأقصى ابتداءً من العهد التركي. ابن خلدون: المصدر نفسه، مج2، ص2086/ الحميري: المصدر نفسه، ص607/ مجهول: الاستبصار، ص177/ ابن الأحمر: تاريخ الدولة الزيانية بتلمسان، تحقيق هاني سلامة، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ط1، 2001م، ص66/ أبو عبيد البكري: المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، تحرير وتقديم وتعليق حماه الله ولد السالم، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1434هـ- 2013م، ص168/ الحسن الوزان: المصدر نفسه، ج2، ص13/ السلاوي الناصري: الإستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، تحقيق ولدي المؤلف جعفر الناصري ومحمد الناصري، دار الكتاب، الدار البيضاء، 1954م، ج1، ص113.

إلى وادي زيز[1] وسجلماسة[2]. فأما بالنسبة لنهر ملوية فقد ذكرنا فيه سابقا نصي ابن خلدون والتنسي، وذكر ذلك أيضا يحي بن خلدون[3]، وفي تحديد الحسن الوزان لمملكة فاس يقول: "تبتدئ من نهر أم الربيع غربا لتنتهي إلى نهر ملوية شرقا"[4]، فيما يجعل مارمول كربخال نهري زيز وملوية كحد فاصل بين المغربين الأقصى والأوسط[5]. وبالنسبة لمدينة وجدة فكانت من عمل بني عبد الواد بدليل تعيين العمال عليها، فقد تولاها موسى بن خالد بن محمد[6] في عهد أبي حمو موسى الثاني، وتعرُّضها للتخريب عدة مرات من قِبل المرينيين[7] عند زحفهم إلى مدينة تلمسان ومنها حملة سنة 714هـ- 1314م ومن المدن التي كانت تُخَمًا بين المغربين، مدينة تاوريرت والتي ظلت محل صراع حتى أنهما اقتسماها فيما بينهما[8] وعن مدينة فكيك ونهر زا يقول ابن خلدون: "وكان التخَم بين الفريقين من وادي صا إلى فكيك"[9]، وفيما يخص مدينة سجلماسة فقد خضعت لحكم بني عبد الواد نحو عشر سنوات وذلك بعدما تحالفت قبائل المنبات العربية إحدى بطون المعقل مع يغمراسن بن زيان سنة 663هـ- 1264م فاستولى عليها وعقد لابنه يحي على ولايتها، ولَمَّا توفي هذا الأخير تولاها ابن أخته حنينة، عبد الله بن محمد بن علي بن قاسم بن درع، فلم يزل واليا عليها إلى أن زحف إليه يعقوب بن عبد الحق المريني فاستولى عليها سنة 673هـ- 1274م[10]، وظلت هذه المدينة محل صراع بين عرب المعقل وبين المرينيين تارة وبين المرينيين أنفسهم من الولاة

1- وادي زيز: ينبع من جبال تقطنها صنهاجة ويجري نحو الجنوب فيدخل في بلاد سجلماسة مارًّا بين أراضيها. الحسن الوزان: المصدر السابق، ج2، ص255.

2- سجلماسة: إقليم يمتد على مسافة عشرين ميلا على طول وادي زيز، يحتوي على عدة قصور من الشمال إلى الجنوب ومدينته سجلماسة، تأسست هذه المدينة سنة 140هـ- 757م وكانت عاصمة إمارة بني مدرار الصفرية، وهي مدينة متحضِّرة، يتاجر أهلها مع بلاد السودان حيث كانت أحد المحطات التجارية التي تربط بلاد المغرب عموما ببلاد السودان. ابن حوقل: المصدر السابق، ص93/ البكري: المصدر السابق، ص226/ الإدريسي: المصدر السابق، مج1، ص225/ / ابن عذاري: المصدر السابق، ج1، ص156 وما بعدها/ الحميري: المصدر السابق، ص305/ ابن سعيد المغربي: المصدر السابق، ص58/ ابن بطوطة: رحلة ابن بطوطة، شرحه طلال حرب، دار الكتب العلمية، بيروت، ط5، 2011م، ص684/ أبو الفدا: المصدر السابق، ص122.

3- بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، ج2، ص214.

4- وصف إفريقيا، ج1، ص193.

5- إفريقيا، ج2، ص291.

6- يحي بن خلدون: المصدر نفسه، ج2، ص323.

7- ابن خلدون: المصدر السابق، مج2، ص2131.

8- نفسه، مج2، ص2215، 2241/ ابن أبي زرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، دار المنصور للطباعة، الرباط، 1972م، ص383/ الحسن الوزان: المصدر نفسه، ج1، ص349- 350.

9- ابن خلدون: المصدر نفسه، مج2، ص2117.

10- نفسه، مج2، ص2217- 2218، 2191/ يحي بن خلدون: المصدر نفسه، ج1، ص207.

وأعياص الحكم[1]، وفي سنة 763هـ- 1361م انعقدت معاهدة بين السلطان المريني أبي عمر محمد بن عبد الرحمن وبين أبي حمو موسى الثاني بان لا يتعدّى هذا الأخير إلى سجلماسة وأن لا يساند الثائرين عليه[2].

وخلاصة القول أنَّ حدود المغرب الأوسط تمتد من مدينة بونة على الساحل إلى واركلا في الصحراء مرورًا بقسنطينة وبلاد الزاب ووادي ريغ من جهة الشرق[3]، ومن نواحي مصب نهر ملوية إلى وجدة وأنكاد وتاوريرت وفكيك في الغرب. وفي الأخير نشير إلى أنَّ سيطرة الحفصيين على الجزء الشرقي من المغرب الأوسط لا يعني انفصاله عنه ولا يُلغي وجوده كإقليم، وإنما فرضته ظروف سياسية جعلت بعض المؤرخين والجغرافيين يعدُّونه من إفريقية، ولذلك عندما ندرس المغرب الأوسط في هذه الفترة لا ندرسه على أساس تبعيته السياسية وإنما على أساس جغرافيته كمجال مثلما أشرنا أعلاه.

إنَّ الغرض من هذا التحديد الجغرافي هو إعطاء صورة عن المجال الذي ستتم فيه الدراسة حتى نتمكن من ضبط نوع الهجرة واتجاهاتها.

الوضع السياسي للمغرب الأوسط خلال القرن 6هـ/ ق12م: عرف المغرب الأوسط تحولات سياسية وفكرية انعكست على بنية المجتمع واستقرار قبائله وأفراده، فقد تَقاسَم فيه النفوذَ ثلاث قوى سياسية هي: دولة المرابطين ودولة بني حماد وبعض الزعامات القبلية المحلية كبني ومانو[4] وبني يلومي[5]الزناتيئيِرِن.

أ- الدولة الحمادية: تأسست هذه الدولة مع مطلع القرن الخامس الهجري/ القرن 11م بعدما انفصلت عن الدولة الزيرية بإفريقية، ورغم ما شهدته هذه الدولة من اضطرابات وفوضى مع بداية دخول العرب إلى المغرب الأوسطإلاّ أنها عاشت فترة من الأمن ولاسيما في عهد العزيز بن المنصور (498- 515هـ/ 1104- 1121م) نتيجة حالة السلم التي أقامها مع قبيلة

1- ابن خلدون: المصدر السابق، مج2، ص2287 وما بعدها.

2- مجهول: زهر البستان في دولة بني زيان، تحقيق وتقديم عبد الحميد حاجيات، عالم المعرفة، الجزائر، 2011م، ص183.

3- ظلت هذه الحدود من جهة الشرق حتى الفتح الموحدي. عبد الواحد المراكشي: المصدر السابق، ص273/ ابن خلدون: المصدر السابق، مج2، ص1916/ ابن أبي دينار: المؤنس في أخبار إفريقية وتونس، تحقيق محمد شمام، المكتبة العتيقة، تونس، ط2، 1967م، ص111/ عبد الحليم عويس: المرجع السابق، ص197.

4- بني ومانو: من أوفر قبائل زناتة عددًا وأكثرهم شوكة، كانت مواطنهم أسافل شلف إلى جهة الشرق عن وادي مينا وسيرات. ابن خلدون: المصدر نفسه، مج2، ص2098/ مبارك بن محمد الميلي: المرجع السابق، ج1، ص109.

5- بني يلومي: إخوة بني مرين، من توابع الطبقة الأولى من زناتة، كانوا أوفر عددًا وتَوَا شوكة، ومواطنهم بالعدوة الغربية من وادي مينا بالحعبات والبطحاء وسيك وسيرات وجبل هوارة وبني راشد. ابن خلدون: المصدر نفسه، مج2، ص2098/ بوزياني الدراجي: المرجع السابق، ص176، 179/ مبارك بن محمد الميلي: المرجع نفسه، ج1، ص109.

بني ومانو بمصاهرة زعيمها ماخوخ[1] وذلك لتكون حاجزا بينه وبين المرابطين، وهكذا اطمأنَّ على الحدود الغربية لمملكته، وقام بنفس الإجراء مع بني عمومته في إفريقية حيث تزوَّج بدر الدجى[2] بنت يحي بن تميم بن المعز سنة 509هـ- 1115م، ولم يُكدِّر صفو دولته إلا تحركات العرب الذين كبسوا القلعة وعاثوا فيها فسادًا خلال زحفهم نحو بسائط المغرب الأوسط، وقد استطاع تسكين الأوضاع والحفاظ على السِّلم مع العرب الذين جنحوا له بعد هزيمتهم أمام حامية المدينة بفضل التعزيزات العسكرية التي أرسلها[3].

بعد وفاة العزيز[4] خلفه ابنه يحي (515- 547هـ/ 1121- 1152م) آخر ملوك بني حماد الذي حاول تدعيم حالة السلم التي أرسى قواعدها والده فاستمرَّ في تطبيق سياسة حسن الجوار مع المرابطين حيث لم تُشر المصادر إلى أي نزاع أو خلاف بين الطرفين واستقرَّ كل طرف منهما عند حدوده، وقد استغلَّ يحي فترة السلم هذه في محاولة لمد نفوذه شرقا على حساب الزيريين فغزا المهدية سنة 530هـ- 1135م وفرض عليها حصارًا بحريا وبرِّيًا بقيادة مطرف بن علي بن حمدون[5] لكنه انهزم وعاد خائبًا. والحقيقة أنَّ دولة بني حماد لم تعرف الاستقرار والأمن طيلة النصف الأول من القرن السادس الهجري تقريبا بالنظر إلى المستجدات السياسية والعسكرية المتمثِّلة في ظهور دعوة الموحدين وغارات ملوك صقلية والتحوُّلات الاجتماعية إضافة إلى الكوارث الطبيعية والأزمات الاقتصادية التي عرفتها

1- يقول ابن خلدون: " وصالح زناتة وأصهر إلى ماخوخ فأنكحه ابنته، وطال أمر ملكه وكانت أيامه هدنة وأمنًا، وكان العلماء يتناظرون في في مجلسه ". مج2، ص1879/ عبد الحليم عويس: المرجع السابق، ص176/ رابح بونار: المغرب العربي تاريخه وثقافته، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ص213.

2- ابن عذاري: المصدر السابق، ج1، ص306.

3- يقول ابن خلدون: " وكبس العرب في أيامه القلعة وهم غازون فاكتسحوا جميع ما وجدوه بظواهرها وعظُم عيثهم، وبلغ الخبر إلى العزيز فبعث ابنه يحي وقائده علي بن حمدون من بجاية في عسكر وتعبئة فوصل إلى القلعة وسكَن الأحوال وقد أمَّن العرب واستُعتِبوا فأعتبوا ". مج2، ص1879.

4- اختلِف في تاريخ وفاة العزيز بين سنة 515هـ- 1121م، وسنة 518هـ- 1124م. ابن خلدون: المصدر نفسه، مج2، ص1879/ ابن عذاري: المصدر نفسه، ج1، ص309- 310/ ابن القطان: نظم الجمان لترتيب ما سلف من أخبار الزمان، دراسة وتقديم وتحقيق محمود علي مكي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1990م، ص146/ رابح بونار: المرجع نفسه، ص213.

5- ابن خلدون: المصدر نفسه، مج2، ص1870/ يذكر ابن عذاري المراكشي قائد الجيش باسم علي بن حمود وأنَّ صاحب بجاية هو العزيز بن المنصور وذلك في موضعين وهو خطأ رغم أنه يذكر قريبا منه بوفاة العزيز سنة 518هـ- 1124م. المصدر نفسه، ج1، ص309- 312/ يُرجع ابن الأثير سبب هذه الحركة إلى حالة التقارب التي حدثت بين الحسن بن علي بن تميم بن المعز بن باديس صاحب المهدية وبين ميمون بن زياد الرياحي أمير العرب الذي ارتفعت مكانته عند السلطان، عندها حسده باقي العرب وسار أمراؤهم بأولادهم إلى يحي بن العزيز وجعلوهم رهائن عنده وطلبوا منه أن يرسل معهم عسكرًا ليملِّكوا له المهدية فأجابهم إلى ذلك، حاصر جيش يحي مدينة المهدية برّ ًا وبحرًا ورغم ذلك تمكن جيش المهدية من هزيمته. مج2، ص2348- 2349/ رابح بونار: المرجع نفسه، ص214.

المنطقة، كما يعود ذلك إلى بعض الملوك أنفسهم ومنهم يحي بن العزيز الذي لم يكن مثل أسلافه في الحزم والعزم ولا مهتمًا بالتغيرات الجديدة التي كانت تجري في بلاد المغرب فركن إلى الدَّعة والراحة والولوع بالصيد واللهو ولم يكن ينظر في شيء من أمور مملكته بل فوَّضها لقائده ميمون بن حمدون[1] وفي هذا الوقت كانت حركة محمد ابن تومرت قد أرست أول أسسها ببجاية[2] عندما التقى هذا الأخير بعبد المؤمن بن علي الذي سيصبح شريكا له في دعوته وخليفته من بعده عندما يعود سنة 547هـ- 1152م إلى هذه المدينة فاتحًا ومؤسسًا لدولة قوية.

إنَّ حالة الضعف[3] التي بلغتها دولة بني حماد في العقد الأخير من عمرها جعلتها عرضة للخطر المباشر من قِبل المسيحيين، فقد استغلَّ روجار[4] ملك صقلية ضعف بني زيري وظلَّ يشنُّ حملات عسكرية على المدن الساحلية مثل جيجل وشرشال وبَرْشَك[5] وتنس، وذلك نتيجة التحولات الاقتصادية والاجتماعية التي بدأت تشهدها الممالك المسيحية ومنها تراجع النظام الإقطاعي لصلح البورجوازية التي اتخذت من التجارة طريقا للسيطرة

1- ابن الأثير: المصدر السابق، مج2، ص2402/ ابن خلدون: المصدر السابق، مج2، ص1879/ النويري: تاريخ المغرب الإسلامي من كتاب نهاية الأرب في فنون الأدب، تحقيق وتعليق مصطفى أبو ضيف أحمد، دار النشر المغربية، الرباط، 1984م، ص415.

2- اختلفت بعض المصادر في تاريخ نزول ابن تومرت ببجاية بين سنتي 511هـ- 1117م، و512هـ- 1118م، فيما سكتت مصادر أخرى عن ذلك. ابن خلدون: المصدر نفسه، مج2، ص1879/ ابن القطان: المصدر السابق، ص76/ عبد الواحد المراكشي: المصدر السابق، ص246/ ابن أبي زرع: المصدر السابق، ص173/ البيذق: المصدر السابق، ص29/ النويري: المصدر نفسه، ص379/ الزركشي: تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية، تحقيق وتعليق محمد ماضور، المكتبة العتيقة، تونس، ط2، 1966م، ص5/ ابن سماك العاملي: الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، دراسة وتحقيق عبد القادر بوباية، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2010م، ص174.

3- يُقسِّم رابح بونار عمر دولة بني حماد إلى مرحلتين، مرحلة القوة تمتد من 406 إلى 460هـ ومرحلة التذبذب التي تمتد من 460هـ إلى السقوط ويرى أنَّ سبب ضعف الدولة الحمادية وسقوطها هو مشاقَّتها للدولة الزيرية وتركها وحدها في مدافعة النورمان ومحاربة الأعراب حتى سقطت صريعة أمامهما، ثم سارت العدوى إليها، ولو طال بها الأمد لاحتلَّ النورمان كثيرا من مدنها الساحلية. المرجع السابق، ص215.

4- تولى روجار الثاني الحكم بعد وفاة أخيه سيمون سنة 506هـ- 1112م تحت وصاية أمه، ثم تُوِّج بمُلك صقلية أواخر سنة 1130م/ مطلع سنة 525هـ. ممدوح حسين وشاكر مصطفى: الحروب الصليبية في شمال إفريقية وأثرها الحضاري، دار عمار، عمان، ط1، 1419هـ- 1998م، ص194- 195.

5- برشك: مدينة صغيرة على تل بينها وبين تنس على الساحل ستة وثلاثون ميلا، ومنها إلى شرشال عشرون ميلا، ويُقال أنَّ اسمها مشتق من بئر شاق، استولى عليها ملك صقلية بعد سنة 500هـ- 1106م. ابن حوقل: المصدر السابق، ص82/ الإدريسي: المصدر السابق، مج1، ص257/ الحميري: المصدر السابق، ص88/ الحسن الوزان: المصدر السابق، ج2، ص32- 33/ مارمول كربخال: المصدر السابق، ج2، ص355/ شارل أندري جوليان: تاريخ إفريقية الشمالية من الفتح الإسلامي إلى سنة 1830م، تعريب محمد مزالي والبشير بن سلامة، الدار التونسية للنشر، 1398هـ- 1978م، ج2، ص141.
MOHAND AKLI : dictionnaire toponymique et historique de l'Algérie, édition, Achab , ALGERIE, 2012, P254.

والنفوذ[1]. أمَّا غربًا فإنَّ تيار الموحدين الجارف كان في طريقه إلى المغرب الأوسط، فبعد أن استولى هؤلاء على مراكش سنة 541هـ- 1146م وقضوا على الثورات ودوَّخوا المغرب الأقصى[2] توجهوا نحو بجاية، فسقطت في أيديهم بسرعة مدينة جزائر بني مزغنى، حاول عندها يحي بن العزيز عبثًا الدفاع عن عاصمته فبعث أخاه سبع للقاء الموحدين لكنه انهزم وملك الموحدون مدينتي بجاية والقلعة[3]، عندها لجأ إلى بونة عند أخيه الحارث ومنها إلى قسنطينة عند أخيه الحسن، ولمَّا يئس من الأمر بايع الموحدين، وبذلك انقرض ملك بني حماد من المغرب الأوسط.

ب- دولة المرابطين: اقتسم المرابطون مع إخوانهم الحماديين[4] حكم المغرب الأوسط، فكان للمرابطين القسم الغربي منه، أي من تلمسان[5] إلى مدينة جزائر بني مزغنى، يقول ابن أبي زرع عن دولة علي بن يوسف بن تاشفين (500- 537هـ/ 1106- 1142م): "وملك جميع بلاد المغرب من مدينة بجاية إلى بلاد السوس الأقصى"[6] بينما احتفظت قبيلة تلكاتة بحكم القسم الشرقي، أي المناطق التقليدية لصنهاجة المغرب الأوسط الممتدة من المسيلة إلى بجاية على الساحل ومنها إلى لمدية ومليانة.

1- إبراهيم القادري بوتشيش: تاريخ المغرب الإسلامي، قراءات جديدة في بعض قضايا المجتمع والحضارة، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، ط1، 1994م، ص89.

2- البيذق: المصدر السابق، ص39 وما بعدها/ ابن عذاري: البيان المغرب، ق. الموحدين، تحقيق محمد إبراهيم الكتاني وآخرون، دار الثقافة، الدار البيضاء، ط1، 1985م، ص27 وما بعدها.

3- ابن خلدون: المصدر السابق، مج2، ص1880، 1916/ النويري: المصدر السابق، ص416- 417/ ابن سماك العاملي: المصدر السابق، ص226/ ابن الأثير: المصدر السابق، مج2، ص2402/ ابن أبي زرع: المصدر السابق، ص192- 193/ عبد الواحد المراكشي: المصدر السابق، ص272- 273.

4- ينتمي كل من المرابطين والحماديين إلى قبيلة صنهاجة العظيمة والتي تنقسم إلى قسمين: صنهاجة الشمال وكانت مواطنهم ما بين المغرب الأوسط وإفريقية وهم أهل مدر، ومن أشهر بطونهم: تلكاتة وبجاية ولمدية ومزغنى، وصنهاجة الصحراء وهم الملثّمون الموطنون بالقفر وراء الرمال الصحراوية ما بين بلاد البربر وبلاد السودان، ومن أشهر قبائلهم هناك: لمتونة وكدالة ومسوفة ولمطة. ابن خلدون: المصدر نفسه، مج2، ص1764، 1865، 1881/ مجهول: الاستبصار، ص200- 201/ ابن سماك العاملي: المصدر نفسه، ص60/ الإدريسي: المصدر السابق، مج1، ص223/ عبد الرحمن السعدي: تاريخ السودان، تحرير وتعليق وتقديم حماه الله ولد السالم، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1433هـ- 2012م، ص135 وما بعدها/ عبد الوهاب بن منصور: قبائل المغرب، المطلعة الملكية، الرباط، 1968م، ص329.

5- هناك اختلاف في تاريخ فتح تلمسان من قِبل المرابطين بين سنة 468هـ- 1075م وسنة 472هـ- 1079م. ابن خلدون: المصدر نفسه، مج2، ص1885/ ابن أبي زرع: المصدر نفسه، ص168/ ابن عذاري: المصدر نفسه، ج4، تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، ط3، 1983م، ص29، 55/ ابن سماك العاملي: المصدر نفسه، ص79، 84/ يحي بن خلدون: المصدر السابق، ج1، ص91.

6- المصدر نفسه، ص157. والحقيقة أنَّ المرابطين لم يحكموا بجاية وأنَّ أقصى ما وصلوا إليه هو مدينة أشير التي حاصروها ثم تراجعوا عنها. ابن خلدون: المصدر نفسه، مج2، ص1879.

ظلت دولة المرابطين قوية في بلاد المغرب والأندلس حتى الشطر الأول من فترة حكم علي بن يوسف بن تاشفين الذي يصفه ابن سماك قائلا: "اضطلع بالأمور أحسن اضطلاع وقام أحمد قيام ... وألبسه الله المهابة وجعل له في القلوب المحبة فاجتمعت عليه الأمة واتفقت الكلمة"[1] إلى أن ظهرت دعوة محمد بن تومرت فاضطربت عليه الأمور ولم يستقم له الحكم حتى مات، فكانت أحوال الموحدين تشتد وشأنهم يعظم، بينما أضحت أحوال المرابطين في تراجع منذرة بانقراض دولتهم، تاركة المجال لتقدم خصومهم الموحدين.

تُعتبر سنة 539هـ- 1144م بداية النهاية بالنسبة لدولة المرابطين وهي السنة التي فقدوا فيها تلمسان أحد أهم قواعدهم وثغر مُلكهم، وبوفاة تاشفين بن علي بوهران في نفس هذه السنة انتهى أمر هؤلاء من المغرب الأوسط[2]. وهكذا آلت الدولتان الصنهاجيتان إلى الزوال على يد قبائل مصمودة[3]، ويعتبر البعض هذا الحدث صراعا بين قبائل جبلية وبين قبائل بدوية صحراوية[4]، ونتيجة لذلك انفتح باب المغرب الأوسط أمام نفوذ الموحدين الذي شكّل إطارًا سياسيا ستتم فيه ظاهرة الهجرة بشكل واضح وهو ما سنتناوله في الفصول الموالية.

إنَّ حالة عدم الاستقرار السياسي التي عاشتها بلاد المغرب عموما والمغرب الأوسط بصفة خاصة منذ القرن الثاني الهجري/ الثامن الميلادي وانفصالها عن الخلافة في المشرق قد كان لها أثرًا واضحا على الوضع القبلي والسكاني، ذلك أنَّ توالي تأسيس الدول المستقلة على اختلاف مذاهبها وأفكارها وتوجهاتها وعلاقة السلطة الحاكمة في هذه الدول بالمجتمع وبالدول القائمة آنذاك خلق وضعًا اجتماعيا ومناخًا سياسيا متغيرا باستمرار انعكس بطريقة مباشرة على استقرار القبائل أو تحرُّكها وهجرتها، وقد كان هذا الوضع في بعض الأحيان موجَّهًا من قِبَل السلطة لتحقيق أهداف سياسية ومذهبية وقد أشرنا إلى ذلك سابقا في علاقة بني عبيد بكتامة والموحدين بكومية، وهكذا كانت ظاهرة الهجرة وتحرّكات القبائل والسكان في نشاط متصل.

1- ابن سماك العاملي: المصدر السابق، ص148- 149/ البيذق: المصدر السابق، ص87.

2- ابن سماك العاملي: المصدر نفسه، ص204- 205/ ابن عذاري: المصدر السابق، ج4، ص104/ ابن أبي زرع: المصدر السابق، ص166/ ابن خلدون: المصدر السابق، مج2، ص1887/ ابن الأثير: المصدر السابق، مج2، ص2995.

3- مصمودة: من ولد مصمود بن برنس، ومن أشهر قبائلهم: برغواطة وغمارة وهرغة وهنتاتة. ابن خلدون: المصدر نفسه، مج2، ص1899- 1909/ القلقشندي: نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب، تحقيق إبراهيم الأبياري، دار الكتاب المصري، القاهرة، ط3، 1411هـ- 1991م، ص422/ ابن عبد الحليم الإيلاني: مفاخر البربر، دراسة وتحقيق عبد القادر بوباية، دار أبي رقراق، الرباط، ط2، 2008م، ص171.

4- جورج مارسيي: بلاد المغرب وعلاقاتها بالمشرق الإسلامي في العصور الوسطى، ترجمه عن الفرنسية محمود عبد الصمد هيكل، راجعه واستخرج نصوصه مصطفى أبو ضيف أحمد، منشأة المعارف، الإسكندرية، ص266/ عبد الوهاب بن منصور: المرجع السابق، ص321.

شكّل المغرب الأوسط بموقعه كمنطقة عبور واتصال مجالا للتجاذبات والصراعات سواء بين الكيانات السياسية القائمة آنذاك أو بين القبائل، فكثيرًا ما شهدت أرضه نشاطات ودعوات مذهبية، كما كان مجالا لتصفية حسابات سياسية ومسرحا لمعارك عسكرية، ولو تتبعنا بعضًا من الأحداث التاريخية المصيرية المتعلقة بأشخاص وقبائل أو دول سنجد أنها تقرَّرت أو تمت انطلاقا من المغرب الأوسط، ومن هذه الأحداث قيام دولة بني عبيد ومقتل الثائر عليهم أبو يزيد مخلد بن كيداد[1]، والتقاء محمد بن تومرت بعبد المؤمن بن علي ببجاية وانهزام المرابطين أمام الموحدين بوهران وتلمسان. كل هذه الأحداث وغيرها كانت ظروفًا وأسبابًا لظاهرة الهجرة والتي سيكون المغرب الأوسط أحد أهم مجالاتها ومنطلقاتها.

التوطن السكاني والقبلي: إنَّ من أهم ما يمكن أن نتعرَّض له في دراسة التاريخ الاجتماعي هو توزيع السكان وتتبع حركتهم ونمط حياتهم من حيث العمران ونظام الحياة والعلاقات وعليه فإنَّ الخارطة السكانية للمغرب الأوسط قبيل منتصف القرن السادس الهجري/ ق12م كانت تتشكل من عنصرين رئيسين وهما: العنصر البربري بفرعيه البتري والبرنسي ثم العنصر العربي، مع بعض الجاليات من أهل الذمة (مسيحيون- يهود) التي استقرت بصفة خاصة في بعض المدن الساحلية ومارَسَ أفرادها التجارة أو انخرطوا في صفوف الجيش ويُضاف إليهم العنصر الأسود المجلوب من بلاد السودان، أما بالنسبة لتوطن هذه العناصر فيمكن أن نميِّز نوعين مُركّزين على العنصرين البربري والعربي.

1- السكان المستقرون (حياة الاستقرار): تركّز أغلب هؤلاء في منطقة التل حيث خصوبة التربة وملاءمة الظروف المناخية فسكنوا المدن والبوادي، ومارسوا الزراعة والتجارة وتربية الماشية بالدرجة الأولى، وهو ما يلاحَظ أو يتبين من خلال كتابات الجغرافيين، فلا يكاد يخلو وصفهم لأي مدينة أو منطقة من ذكر منتجاتها الزراعية من حبوب وخضر وغيرها وهو دليل على حياة الاستقرار، فعندما يتكلم هؤلاء كالإدريسي مثلا عن مدينة تلمسان

1- ابن كيداد: أبو يزيد مخلد، أصله من إقليم قسطيلية بإفريقية، أمه أمة تُسمى سبيكة اشتراها أبوه من بلاد السودان، ، نشأ وتعلَّم بتوزر فأخذ بمذهب الإباضية النكار، فلما هدده ابن فركان مقدَّم توزر انتقل إلى مدينة تاهرت أين تقدَّم لتعليم الصبيان، أخذ نفسه بالحسبة ، ولما توفي المهدي العبيدي ثار ضد بني عبيد ناحية أوراس سنة 333هـ- 944م واستولى على بعض الحصون، أهداه رجل من مرماجنة حمارا أشهب يركبه وبه لُقِّب بصاحب الحمار، كان له أربعة من الولد، يزيد وبه يكنى ويونس وأيوب والفضل. عن هذه الثورة يمكن العودة إلى ابن حماد: أخبار ملوك بني عبيد وسيرتهم، تحقيق وتعليق جلول أحمد البدوي، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984م، ص29/ ابن عذاري: المصدر السابق، ج1، ص193 وما بعدها/ ابن الأثير: المصدر السابق، مج2، ص1705/ ابن خلدون: المصدر السابق، مج1، ص1078 وما بعدها/ الداعي إدريس: تاريخ الخلفاء الفاطميين بالمغرب، تحقيق محمد اليعلاوي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط2، 2006م، ص264 وما بعدها/ محمد سهيل طقوش: تاريخ الفاطميين في شمالي إفريقية ومصر وبلاد الشام، دار النفائس، بيروت، ط2، 1428هـ- 2007م، ص120.

يقول: "وغلاتها ومزارعها كثيرة وفواكهها جمة وخيراتها شاملة ولحومها شحيمة سمينة"[1] أما عن مدينة جزائر بني مزغنى فيقول: "وأسواقها قائمة وصناعاتها نافقة ... وزراعاتهم الحنطة والشعير، وأكثر أموالهم المواشي من البقر والغنم"[2]، وهذا الوصف ينطبق تقريبا على كل المدن، ولا شك أنَّ الازدهار والتنوع الاقتصادي من فلاحة وتجارة وصناعة قد خلق نوعًا من الارتباط بين السكان ومحل إقامتهم في المدن والبوادي، ولذلك نجد سكان التل أقل حركة وهجرة إلا في الظروف الاستثنائية كالأزمات السياسية والحروب.

تمثّل السكان المستقرون بصفة خاصة في القبائل البرنسية كصنهاجة التي حافظت على مواطنها الأولى كبسيط متيجة ومدينة جزائر بني مزغنى ولمدية وما يليها إلى بلد حمزة والمسيلة[3]، أو بعض بطون كتامة مثل زواوة وسدويكش التي ظلت مستقرة بمواطنها الأصلية ما بين بجاية وقسنطينة، ويعود ذلك إضافة للظروف الطبيعية، ممارستهم للحكم وخضوعهم لسلطان الدول فاعتادوا التأقلم والتعايش مع الدول التي تقوم على أرضهم، ومن المستقرين كذلك بعض القبائل البترية مثل مغراوة في سهل شلف أو كومية في ساحل تلمسان لاسيما وأنَّ هذه القبائل كانت ذات شوكة ووفرة ما جعلها تعتد بقوتها وتلزم أوطانها.

تُعدُّ الظروف السياسية العامل الرئيس في تحرك القبائل وهجرتها، ومن ذلك أنَّ بعض بطون مغراوة غادرت مواطنها أثناء الزحف المرابطي حسب ما يُستنتج من قول ابن خلدون عند ذكره حركة يوسف ين تاشفين إلى تلمسان سنة 473هـ- 1080م إذ يقول: "فافتتح تلمسان واستلحم بني يعلى ومن كان بها من مغراوة ... ثم افتتح وهران وتنس وملك جبل وانشريس وشلف إلى الجزائر وانكفأ راجعًا وقد محا أثر مغراوة من المغرب الأوسط"[4].

الحقيقة أنَّ ظاهرة الجلاء هذه كثيرا ما كانت تتكرر أمام الحملات العسكرية التي تشنُّها السلطة ضد القبائل، أو الغزوات المسيحية ضد المدن الساحلية والتي أضحت فيما يبدو الحل المناسب والوحيد للقبائل ولاسيما إذا كانت غير قادرة على المواجهة في انتظار تغيُّر الأوضاع للعودة إلى الموطن، وهكذا ظلت القبائل في حركة مستمرة تبعا لهذه الظروف. ونشير هنا إلى أن بعض صنهاجة الصحراء يكونوا قد زحفوا مع المرابطين واستوطنوا المغرب الأوسط وبخاصة في المنطقة الغربية كتلمسان ونواحيها سواء كانوا من الموظفين أو من عائلات الجند (عشرون ألف جندي) وقد استدعى ذلك بناء مدينة لهؤلاء وهي مدينة

1- المصدر السابق، مج1، ص248/ الحميري: المصدر السابق، ص25/ مجهول: الاستبصار، ص176/ ابن الخطيب السلماني: معيار الاختيار في ذكر المعاهد والديار، تحقيق ودراسة كمال شبانة، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 1423هـ- 2002م، ص184.

2- الإدريسي: المصدر السابق، مج1، ص258/ الحميري: المصدر السابق، ص163/ مجهول: الاستبصار، ص132.

3- ابن خلدون: المصدر السابق، مج2، ص1834، 1865/ عبد الوهاب بن منصور: المرجع السابق، ص329.

4- ابن خلدون: المصدر نفسه، مج2، ص2091/ ابن أبي زرع: المصدر السابق، ص143.

تكرارت (تلمسان الحديثة) التي يقول عنها ابن خلدون: "وأنزل محمد بن تينعمر المسوفي في عسكر من المرابطين بتلمسان واختط مدينة تكرارت بمكان معسكره"[1]، ومن العوامل التي تكون وراء استقرار هؤلاء ما وجدوه من سهول خصبة ومياه وغضارة عيش، أدالت حياتهم القائمة على البداوة والظعن في الصحراء إلى حياة التمدن[2]، ومن الأخبار الطريفة التي تصوِّر حياة المرابطين في الصحراء أنَّ هؤلاء لمَّا وفدوا إلى مدينة مراكش على يوسف بن تاشفين رفقة ابن عمه أبي بكر بن عمر، تسابقوا لرؤية بنيانها[3] لِمَا لم يعتادوه من العمران في بلدهم.

2- السكان الرُحَّل (حياة الترحال): كان التنقل أحد أهم أنماط الحياة لكثير من القبائل سواء البربرية منها أو العربية، ويقوم هذا النمط من الحياة على ارتياد المسارح طلبا للكلأ والماء للمواشي عبر السباسب وبطون الأودية، ولم يُمارس هؤلاء السكان أي نشاط عدى الرعي الذي مَّثل بالنسبة لهم رأس مال ومصدر رزق، واستقرَّ بعضهم أحيانا في القرى عند ملتقى الطرق التجارية لممارسة هذا النشاط، لاسيما في المناطق المتاخمة للصحراء، ويُمكن أن نُميِّز في هذا النمط من الحياة مجموعتين:

أ- المجموعة الزناتية: وتُمثِّل أهم العناصر البربرية البدوية التي اعتمدت أسلوب الرعي وحياة الترحال[4]، وقد قسَّم ابن خلدون هؤلاء إلى قسمين: قسم يتنقل أفراده بين التل إلى أطراف الصحراء يقول عنهم: "ومن كان معاشه في السائمة مثل الغنم والبقر فهم ظعن في الأغلب ... ويسمَّوَن شاوية ومعناه القائمون على الشاه والبقر، ولا يبعدون في القفر لفقدان المسارح الطيبة"، أما القسم الثاني منهم فيصلون في رحلتهم إلى عمق الصحراء وفيهم يقول ابن خلدون دائمًا: " وأمَّا من كان معاشهم في الإبل فهم أكثر ظعنًا وأبعد في القفر مجالا"[5]. في حين يقسمهم البعض إلى ثلاثة أصناف: الرحالة الكبار أو البدو، ويتنقلون عبر طرق متغيرة بين سهوب مقدمة الصحراء والسهول المرتفعة، وأنصاف رحالة ويتميزون بمقرهم المحدد الذي يقضون فيه جزءًا من أيام السنة، ويتنقلون عبر طرق معروفة نحو الشمال، ثم الرحالة الصغار، ويجمعون بين العمل الزراعي والرعي، فهم يملكون مزارعًا

1- ابن خلدون: المصدر السابق، مج2، ص2091- 2092.

2- هناك بلدة تحمل اسم إحدى قبائل الملثمين وهي تاركا (تارقا) نواحي عين تموشنت، انضمَّ أفرادها إلى ابن غانية في ثورته ضد الموحدين عندما هاجم تلمسان وتاهرت مع مطلع القرن السابع الهجري/ ق13م. ابن خلدون: المصدر نفسه، مج2، ص1892/ حسين مؤنس: معالم تاريخ المغرب والأندلس، مكتبة الأسرة، الإسكندرية، 2004م، ص231/ عبد الوهاب بن منصور: المرجع السابق، ص330.

3- ابن سماك العاملي: المصدر السابق، ص74/ ابن عذاري المراكشي: المصدر السابق، ج4، ص24.

4- الإدريسي: المصدر السابق، مج1، ص257.

5- المقدمة، ص97.

في الجبال وأراضٍ رعوية في السهول حيث تُخَيِّم العائلات في فصل الشتاء ثم تعود مع بداية فصل الربيع إلى المنزل للقيام بالأعمال الزراعية[1].

لم تكن حياة الترحال هذه مرتبطة فقط بنمط عيش هؤلاء كما صوَّرها ابن خلدون والتي تحكمت فيها الظروف الطبيعية فقط، إنما هناك عوامل سياسية واجتماعية كان لها دورا في ذلك، فالصراعات السياسية والحروب والضغط الذي تعرَّضت له القبائل الزناتية بالأخص مثل مغراوة منذ عهد بني عبيد ثم بني حماد والمرابطين كلها كرَّست حياة الترحال والتنقل لدى هؤلاء.

إنَّ التجربة القاسية التي عاشتها قبائل زناتة في ظل حكم الدول السابقة للمغرب الأوسط واستماتتهم في الدفاع عن مجالاتهم وحتى عقيدتهم[2] ولدت لديهم شعورا وصلابة في التمسك بنظام حياتهم القائم على التنقل بحرية.

ب- المجموعة العربية: مثَّل العرب المجموعة الثانية من الرُحَّل سواءٌ كانوا من عرب الفتح الذين عاشوا حياة أكثر استقرارًا بسبب الظروف التي قدموا فيها والوضعية التي آلوا إليها، فقد كان أغلبهم من الجند الذين اكتسبوا إقطاعات فاستقروا ومارسوا التجارة أو الزراعة، ولكن هذا لا يمنع من ممارسة بعضهم للرعي والترحال، أو كانوا من العرب الذين دخلوا بلاد المغرب مع منتصف القرن الخامس الهجري/ ق11م وهم المقصودون هنا والذين لا يختلفون كثيرا عن الرُحَّل من البربر.

تركز هؤلاء العرب بأرياف قسنطينة والقلعة والمسيلة إلى بسكرة والصحراء كواركلا وسكنوا الخيام والقياطين، وكانوا يتنقلون بها بين التل والصحراء لارتياد المسارح وتتبع مواطن الكلأ والماء لماشيتهم وذلك لقرب عهدهم بالبداوة وما جُبلوا عليه من التنقل، واستقرَّ بعضهم في أرياف المدن ومارسوا التجارة وخفارة التجار، وقد أشار الإدريسي إلى ذلك مثلا في معرض حديثه عن حصن باديس ببلاد الزاب حيث يقول: "وهو في أسفل طرف جبل أوراس، وهو حصن عامر بأهله والعرب تملك أرضه وتمنع أهله من الخروج عنه إلا بخفارة رجل منهم"[3]، ورغم محاولة سلاطين وملوك الدول دمجهم في المجتمع والاستفادة منهم في الجندية والجباية، فإنَّ الترحال ظلَّ النمط الغالب على حياتهم، وبالرغم من قلة عدد

1- محمد بن عميرة: دور زناتة في الحركة المذهبية بالمغرب الإسلامي، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984م، ص21.

2- يقول ابن عذاري: " فلما دخلت صنهاجة في الدعوة العبيدية وتقلَّدتها وأبت من ذلك زناتة، صارت صنهاجة حربًا لزناتة ". ج1، ص26.

3- المصدر السابق، مج1، ص264.

العرب بالنسبة للبربر إلا أنهم شكلوا أنموذجا اجتماعيا انتقل إلى القبائل الزناتية حيث أخذوا شعارهم في سكنى الخيام واتخاذ الإبل وركوب الخيل[1].

علاقة البربر بالعرب: نشأ عن تواجد القبائل العربية في بلاد المغرب عمومًا وبالمغرب الأوسط بصفة خاصة صراع وتدافع بينهم وبين القبائل البربرية من أجل السبق لحيازة مجالات سهلية من هذا الطرف أو الدفاع عنها من الطرف الآخر[2]، وقد أورد البكري إحدى صوَّر هذا الصراع عن مدينة سطيف فيقول: "كانت في الأول لكتامة، غلبتهم عليها العرب وكانوا يُعشرونهم إذا دخلوها"[3]، أما ابن خلدون فيعطينا صورة أكثر دقة ووضوحًا عندما يقول: "وجاء العرب الهلاليون وغلبوا على الضواحي كل من كان بها من صنهاجة وزناتة وتحيَّز فلُّهم إلى الحصون والمعاقل وضُربت عليهم المغارم إلا من كان ببلاد القفر "[4].

اتّسمت حركة العرب عند دخولهم المغرب الأوسط بنوع من الخشونة والقسوة والإفساد[5]، ونتيجة لذلك تخلَّت الكثير من قبائل زناتة عن مواطنها لصالح العرب لما تضايقت من مجاورتهم فنزلت جنوبا إلى القفر والصحراء الوسطى والغربية. وإذا تميزت العلاقات العربية الزناتية بنوع من التوتر الذي أدى بهذه الأخيرة إلى الجلاء وترك مواطنها فإنّه يمكن تفسير ذلك بنفسية هؤلاء المجبولة على الحرية وعدم الخضوع لسلطان الدول فما بالك بسلطان القبائل، وهو ما يُعتبر إحدى صور مظاهر الحياة آنذاك.

أمَّا الأنموذج الثاني للحياة السائدة في المغرب الأوسط فتُمثِّله قبائل صنهاجة التي استقرَّت عموما في مواطنها وتعايشت إلى حد ما مع العرب لمَا لحقها من ضرر مفضِّلة مسالمتهم واقتسام المجالات معهم، أما بالنسبة لملوك بني حماد فقد استمالوا شيوخهم واستعملوهم في الجباية مقابل إقطاعات.

1- ابن خلدون: المصدر السابق، مج2، ص2062.

2- يوسف العابد: **" التنقل القبلي في بلاد المغرب خلال القرن 06هـ "**، مجلة الهجرة والرحلة، مخبر الأبحاث الاجتماعية والتاريخية، جامعة منتوري، قسنطينة، ع3، أفريل 2010م، صص31- 42، ص32.

3- المصدر السابق، ص163.

4- ابن خلدون: المصدر نفسه، مج2، ص1785، 2092.

5- نفسه، مج2، ص1788. يظهر أنَّ تصرُّف العرب هذا كان مع بداية دخولهم إفريقية والمغرب الأوسط وصراعهم ضد الزيريين والحماديين، وقد أشار إلى ذلك الإدريسي ولكن بأقل حدة وتهويل مما صوَّره ابن خلدون ومن نقل عنه، فقد ذكر مهادنة العرب للبربر والتعامل معهم فيقول: " ومدينة قسنطينة عامرة ولها أسواق وتجار وأهلها مياسير ذوو أموال وأحوال واسعة ومعاملات للعرب وتَشارُك في الحرث والادِّخار "، ثم يذكر مجموعة من الحصون ومهادنة أهلها للعرب. المصدر السابق، مج1، ص263، 265. يُفهم من هذه النصوص أنَّ علاقة العرب بالبربر لم تكن سيئة دائما، بل حدث تعايش وسلم بين الطرفين، إلا أنَّ علاقة التوتر والصراع فرضته ظروف سياسية ومصالح اقتصادية.

إنَّ سياسة المهادنة التي انتهجها الحماديون إزاء العرب أين أخذوا العبرة من إخوانهم الزيريين مكنتهم من الحفاظ على دولتهم رغم بعض النكبات التي أصيبوا بها[1]، ومن هذه السياسة استعمالهم كجند في القضاء على الثورات ومنح بعض زعمائهم مناصب إدارية ومن ذلك أنَّ الناصر بن المنصور (481- 498هـ/ 1088- 1105م) لما قضى على ثورة أبي يكنى بن محسن والي قسنطينة سنة 487هـ- 1094م وأخرجه منها ولى عليها صليصل بن الأحمر من رجالات الأثبج[2]، وبذلك أصبحت هذه القبيلة من أنصار الحماديين.

ومن القبائل العربية التي دخلت المغرب الأوسط مع أواخر القرن 05هـ/ ق11م نتيجة الصراعات، قبيلة عدي التي خرجت من إفريقية حوالي سنة 491هـ- 1098م أمام رياح والتحقت ببلاد بني حماد[3]، فهذه الأحداث وغيرها تُعطينا صورة واضحة عن الحِراك القبلي المفعم بالصراعات والتحالفات والحروب والتي كان المغرب الأوسط في كثير من الأحيان مسرحًا لها، وبالتالي هيأت الظروف لهجرة داخلية وخارجية.

لنعود إلى قبائل زناتة التي ارتبطت أكثر من غيرها بظاهرة التحرك والهجرة مثل قبائل بني واسين التي نزلت الصحراء ولم تتمكن من الصعود إلى التل لوجود قبيلتي بني ومانو وبني يلومي القويتين إلا مع قيام دولة الموحدين[4].

من خلال هذا العرض السريع للتوطن القبلي في المغرب الأوسط وما صاحبه من تحرُّك وهجرة، يُمكن القول أنَّ فترة ما قبل منتصف القرن السادس الهجري/ منتصف القرن الثاني عشر ميلادي شهدت حراكا كبيرًا للقبائل سواء البربرية المحلية أو العربية الوافدة التي أحدثت هزات اجتماعية وسياسية غيَّرت في كثير من الأحيان مجال توطن القبائل ومن ثَمَّ خارطة التوزيع السكاني، ولا يبدو أنَّ ذلك سيتوقف عند هذا الحد، بل ستشهد المنطقة بأكملها مزيدًا من التحركات والهجرة لاسيما في ظل الأحداث الحاسمة التي ستعرفها بلاد المغرب الإسلامي، ومن أهمها قيام الدولة الموحدية، ولكن لا يجب أن نربط ذلك دائما بدخول القبائل العربية فقط، بل ثمة أسباب ودوافع اقتصادية واجتماعية وتطورات سياسية كانت أحد محركات الهجرة.

1- من هذه النكبات معركة الأربس سنة 457هـ- 1064م التي انهزم فيها جيش الناصر بن علناس المكوَّن من صنهاجة وزناتةوعرب عدي والأثبج أمام قبائل زغبة ورياح وبني سليم، قُتِل فيها أخاه القاسم وكاتبه والكثير من جيشه. ابن خلدون: المصدر السابق، مج2، ص1877/ ابن عذاري: المصدر السابق، ج1، ص299/ ابن الأثير: المصدر السابق، مج2، ص2086/ عبد الوهاب بن منصور: المرجع السابق، ص395.

2- ابن خلدون: المصدر نفسه، مج2، ص1878/ رابح بونار: المرجع السابق، ص212.

3- ابن عذاري: المصدر السابق، ج1، ص302/ ابن الأثير: المصدر السابق، مج2، ص2118.

4- ابن خلدون: المصدر نفسه، مج2، ص2101.

وعلى ذكر القبائل العربية يُلاحظ أنَّ معظمها استقرَّ وجاب المناطق الشرقية للمغرب الأوسط ابتداءً من نواحي بونة إلى قسنطينة والقلعة وبلاد الزاب، ولم تنتشر غربًا إلا مع أواسط القرن السادس الهجري، ويعتبر الإدريسي من أفضل من يمكن الاعتماد عليهم في هذه الأحداث لمعاصرته لها، فعندما يتطرق لمدن ومسالك المغرب الأوسط من تلمسان إلى المسيلة مرورًا بتاهرت، أو في ذكره للطريق الساحلي من وهران إلى تنس ثم آشير لا يذكر أي قبيلة عربية وهو ما يعني أن هذه القبائل لم تتقدم نحو الغرب إلا مع النصف الثاني من القرن السادس الهجري أي بعد سقوط دولة بني حماد وظهور الموحدين ثم بنو زيان من بعدهم، منها قوله: "ومن الخضراء إلى مدينة مليانة مرحلة ... وعلى ثلاثة أيام منها وفي جنوبها الجبل المسمى بجبل وانشريس يسكنه قبائل من البربر منها مكناسة وحرسون وأوربة وبنو أبي خليل وكتامة ومطماطة ... "[1]، بينما يذكر وجودهم مثلا في الطريق بين بجاية والمسيلة، أو بين بونة إلى قسنطينة، ومنها قوله: " ومن القل إلى مدينة قسنطينة مرحلتان جنوبًا والطريق في أرض تغلبت العرب عليها" ثم يضيف: "وأمَّا حصن بشر فهو قلعة عامرة من أعمال بسكرة ... وله عمارات هي الآن في أيدي العرب "[2] وذلك إمَّا متغلبين عليها أو مشاركين فيها للبربر.

علاقات المغرب الأوسط الخارجية

1- بالأندلس: إنَّ علاقة بلاد المغرب عموما بالأندلس علاقة تاريخية تعود إلى أواخر القرن الأول الهجري/ مطلع القرن الثامن ميلادي عندما أصبحت بلاد المغرب منطلَقا لفتح الأندلس وشكَّلتا معًا الجزء المهم من الغرب الإسلامي، ثم تواصلت هذه العلاقة طيلة مراحل التاريخ رغم ما شابها من فتور أحيانًا نتيجة الاضطرابات والمشاكل الداخلية أو الحسابات السياسية، سواء في عهد الإمارة (138- 316هـ/ 755- 928م) ومنها فترة عبد الرحمن بن معاوية[3] (138- 172هـ/ 755- 788م) الذي عمل على إيجاد حلفاء له من بلاد

1- الإدريسي: المصدر السابق، مج1، صص252- 257.

2- نفسه، مج1، صص262- 269.

3- مجهول: أخبار مجموعة في فتح الأندلس وذكر أمرائها رحمهم الله والحروب الواقعة بها بينهم، تحقيق إبراهيم الأبياري، دار الكتاب المصري، ط2، 1410هـ- 1989م، صص54/ ابن الأبار: الحلة السيراء، وضع حواشيه وعلق عليه إبراهيم محمود، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2008م، ص28/ ابن عذاري: المصدر السابق، ج2، ص97/ ابن حزم: جمهرة أنساب العرب، تحقيق وتعليق محمد عبد السلام هارون، دار المعارف، القاهرة، ط6، دت، ص92/ ابن الخطيب السلماني: أعمال الأعلام في من بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام، تحقيق وتعليق ليفي بروفنسال، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 1426هـ- 2006م، ق2، ص7/ النويري: المصدر السابق، ص57/ المقري: نفح الطيب، مج1، ص322. مج4، ص24، 38، 223/ عبد العزيز فيلالي: العلاقات السياسية بين الدولة الأموية في الأندلس ودول المغرب، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1982م، ص60، 67.

المغرب ولاسيما من القبائل الزناتية ومنها إباضية[1] تاهرت رغم الاختلاف، فالمصالح والأهداف كانت تفرض تجاوز التعصُّب المذهبي وإن كانوا أكثر اعتدالا وأقرب إلى أهل السنة، ولذلك فإنَّ ذلك التقارب كان أمرًا ضروريا اقتضته المصلحة السياسية أولاً بالنسبة لكل طرف، فأمويي الأندلس كان هدفهم التصدي لأطماع خصومهم بني العباس في ملك بلادهم بواسطة حلفائهم وولاتهم بإفريقية[2]. أمَّا بالنسبة للرستميين فكانوا في مرحلة تأسيس الدولة ما جعلهم في أمس الحاجة للمساندة السياسية والاقتصادية لتدعيم نفوذهم وتوطيد أركان دولتهم ومواجهة أعدائهم الأغالبة من الشرق والأدارسة في الغرب وهو ما تؤكده علاقتهم بأمراء بني مدرار[3] في سجلماسة، وقد سار على تلك السياسة أفلح بن عبد الوهاب (208- 258هـ/ 823- 871م)[4] حفيد عبد الرحمن بن رستم، وعليه كان من الطبيعي أن يحدث

1- الشهرستاني: الملل والنحل، تحقيق محمد عبد القادر الفاضلي، المكتبة العصرية، بيروت، 1423هـ-2003م، ج1، ص107/ عبد القاهر البغدادي: الفرق بين الفِرق، اعتنى به وعلق عليه الشيخ إبراهيم رمضان، دار المعرفة، بيروت، ط4، 1429هـ- 2008م، ص103/ أبي زكريا يحي: سيَر الأئمة وأخبارهم، تحقيق وتعليق إسماعيل العربي، المكتبة الوطنية، الجزائر، 1399هـ- 1979م، ص25/ الدرجيني: طبقات المشايخ بالمغرب، تحقيق إبراهيم محمد طلاي، ط2، د ت، ج1، ص11، 18/ إبراهيم التهامي: جهود علماء المغرب في الدفاع عن عقيدة أهل السنة، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط1، 1426هـ- 2005م، ص77، 358 وما بعدها/ محمد علي دبوز: تاريخ المغرب الكبير، عالم المعرفة، الجزائر، ط1، 2013م، ج2، ص391 / عبد المنعم الحفني: موسوعة الفرق والجماعات والمذاهب الإسلامية، دار الرشاد، القاهرة، ط1، 1413هـ- 1993م، ص13.

2- حاول الخليفة أبو جعفر المنصور (136- 158هـ/ 754- 775م) ضم الأندلس إلى الخلافة العباسية أو إثارة القلاقل على الأقل فبعث العلاء بن مغيث اليحصبي من إفريقية، فجمع الأجناد ولبس السواد ثائرًا بغرب الأندلس سنة 146هـ- 763م فضيَّق على عبد الرحمن حتى كادت دولته أن تنصرم وخلافته أن تنخرم حسب تعبير ابن عذاري، عندها خرج إليه الأمير من قرطبة وقاتله بنواحي إشبيلية فهزمه وقُتلَ العلاء، عندها أمر عبد الرحمن بحمل رأسه إلى القيروان فأُلقيَ في السوق ومنها حُمِل إلى مكة ومعها لواء أسود فوصلت والمنصور بمكة ومعها كتاب كان المنصور قد كتبه إلى العلاء. ابن عذاري: المصدر السابق، ج2، ص51/ ابن الأثير: المصدر السابق، مج1، ص1132/ ابن خلدون: المصدر السابق، مج1، ص1137. يجعل هذه الثورة سنة 149هـ- 766م/ ابن الأثير: المصدر السابق، مج1، ص1132/ المقري: المصدر السابق، مج1، ص321. مج4، ص30/ ابن الخطيب السلماني: المصدر السابق، ق2، ص9/ النويري: المصدر السابق، ص62/ السيوطي: تاريخ الخلفاء، ص185/ محمد بك الخضري: الدولة العباسية، عالم الكتب، بيروت، ط1،2002م، ص79.

3- من مظاهر هذه العلاقة تزويج الإمام عبد الرحمن بن رستم ابنته أروى من مدرار بن اليسع فكان له منها ولده ميمون المعروف بأمه (ميمون بن أروى). ابن عذاري: المصدر السابق، ج1، ص157/ أحمد مختار العبادي: في تاريخ المغرب والأندلس، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، 2008م، ص47/ يعلل محمد علي دبوز هذه العلاقة بقوله: " إنَّ مصاهرة الإمام عبد الرحمن لدولة سجلماسة ولليسع إمامها دليل على حسن سلوكها، واعتدالها في صفريتها، فلو كانت تستحل دماء مخالفيها من المسلمين وتُعاملهم كالمشركين لتبرَّأ منهم الإمام عبد الرحمن وأبى مصاهرتهم " لكن هل هذا هو السبب الرئيس، أم هناك أهدافا أخرى. تاريخ المغرب الكبير، ج3، ص446.

4- يقول عنه سليمان الباروني: " وله مع ملوك الأندلس وغيرهم مواصلة وارتباط ومودة، يهادونه بالهدايا النفيسة ويهاديهم بمثلها". الأزهار الرياضية في أئمة وملوك الإباضية، دار بوسلامة للطباعة والنشر، تونس، ج2، ص186.

هذا التقارب الذي لم يقتصر في الحقيقة على الجانب السياسي فقط[1]، بل تعدَّاه إلى المجال الاقتصادي، فقد كان مرسى فرُّوج[2] وتنس[3] من المراسي الرئيسة في التواصل والتبادل التجاري بين الرستميين في المغرب الأوسط وبين الأمويين في الأندلس.

توطدت العلاقات بصفة ملحوظة في عهد الخلافة (316-422هـ/ 928-1030م) ولاسيما بعد قيام دولة بني عبيد الشيعية في إفريقية والمغرب الأوسط وسقوط الدولة الرستمية حيث أحسَّ الأمويون عندها بخطورة الوضع المتمثل في المد الشيعي والنشاط المذهبي لهؤلاء في ظل الانتصارات العسكرية التي باتوا يحققونها ضد القبائل الزناتية في المغربين الأوسط والأقصى، ومما زاد من تخوُّفهم، النشاط الاستخباراتي الذي أصبح يقوم به بعض أعوانهم من الجواسيس[4] وبخاصة في الأندلس.

1- من مظاهر هذا التقارب نزول أفراد من الأسرة الرستمية ممثَّلين في أبناء الإمام عبد الوهاب وهم: عبد الغني ودحيون وبهرام، على أمير الأندلس عبد الرحمن بن الحكم (206-238هـ/ 822-853م) سنة 207هـ-823م فأكرم نزلهم ثم عادوا إلى وطنهم، وممن نزل الأندلس كذلك محمد بن سعيد بن محمد بن عبد الرحمن بن رستم الذي استقرَّ بالأندلس فاستعمله عبد الرحمن على مدينة طليطلة فكان له دورًا في إخماد ثورة هاشم الضراب سنة 214هـ-829م، وفي المقابل كان هناك أندلسيون في البلاط الرستمي مثل عمران بن مروان ومسعود الأندلسي اللذان كانا عضوين في مجلس الشورى وقد ترشحا لخلافة عبد الرحمن بن رستم. أبو زكريا يحي: المصدر السابق، ص54/ الدرجيني: المصدر السابق، محمد ، ج1، ص45/ ابن عذاري: المصدر السابق، ج2، ص83/ ابن سعيد المغربي: المغرب في حلى المغرب، تحقيق وتعليق شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة، ط4، دت، ج1، ص48/ ابن الأثير: المصدر السابق، مج1، ص1307/ ابن خلدون: المصدر السابق، مج1، ص1142/ سليمان الباروني: المرجع نفسه، ج2، ص99/ عبد العزيز فيلالي: المرجع السابق، ص98.

2- مرسى فروج: ذُكر فرُّوج بالجيم، وفروخ بالخاء، وهو مرسى شتوي مأمون، له آبار ماء والسكنى منه على مقربة، بينه وبين وهران في البر أربعون ميلا، ومنه إلى مستغانم أربعة وعشرون ميلا، ويقابله من بر الأندلس مرسى آقلة وهو مرسى مدينة لورقة. البكري: المصدر السابق، ص170/ الإدريسي: المصدر السابق، مج1، ص271.

3- يقول ابن حوقل عن هذه المدينة: " وهي أكبر المدن التي يتعدَّى إليها الأندلسيون بمراكبهم ويقصدونها بمتاجرهم وينهضون منها إلى ما سواها ". المصدر السابق، ص82/ محمد علي دبوز: المرجع السابق، ج3، ص281/

4- أبو اليسر: إبراهيم بن محمد الشيباني المعروف بالكاتب وبالرياضي، وهو من أهل بغداد، كان عالما أديبا ومرسِّلاً بليغًا وهو الذي أدخل إلى إفريقية رسائل المحدِّثين وأشعارهم، سكن القيروان وكتب لأمير إفريقية إبراهيم بن أحمد بن الأغلب ثم لابنه أبي العباس، دخل الأندلس في عهد الأمير عبد الرحمن الأوسط وقدَّم له كتابا اخترقه على ألسنة أهل الشام مظهرًا فيه الدعوة والولاء لبني أمية، عاد إلى القيروان أين توفي بها سنة 298هـ-911م. ابن عذاري: المصدر نفسه، ج1، ص152، 162/ المقري: المصدر السابق، مج4، ص118/ عبد العزيز فيلالي: المرجع السابق، ص128-129/ أحمد مختار العبادي: المرجع السابق، ص65. ومن الجواسيس كذلك أبو القاسم بن حوقل الرحالة الذي دخل الأندلس سنة 337هـ-948م في خلافة أبي المطرف عبد الرحمن الناصر، فوصف الأندلس قائلا: "ومن أعجب أحوال هذه الجزيرة بقاؤها على من هي في يده مع صغر أحلام أهلها وضعة نفوسهم ونقص عقولهم وبعدهم عن البأس والشجاعة والفروسية والبسالة ولقاء الرجال ومراس الأنجاد الأبطال ". صورة الأرض، ص108. وقد ردَّ عليه علي بن سعيد بقوله: " وليت شعري إذ سلب أهل هذه الجزيرة العقول والآراء والهمم والشجاعة فمن الذين دبروها بآرائهم وعقولهم مع مراصدة أعدائها المجاورين لها من خمسمائة ونيِّف ؟ ومن الذين حموها ببسالتهم من الأمم المتصلة بهم في داخلها وخارجها ". المقري: المصدر نفسه، مج1، ص204.

أعتبر الخلفاء الأمويون في قرطبة النشاط المتزايد لبني عبيد في المجال العسكري والسياسي والمذهبي والجاسوسي عملا عدوانيا وتمهيدًا لغزو بلادهم[1]، ولذلك قاموا بعمل مضاد انطلاقًا من المغرب الأوسط قاعدتهم الأمامية، وذلك عن طريق مهاجري الأندلس أو عن طريق زعماء وشيوخ القبائل البربرية للدخول في مذهبهم وبثّ دعوتهم، وفي ذلك يقول ابن عبد الحليم الإيلاني: " وتخطاهم عبد الرحمن إلى من خلفهم من زعماء قبائل البربر يستألفهم ... إلى أن تميَّز أكثر بوادي زناتة في حزبه وارتسموا بطاعته ولاسيما عند امتياز أضدادهم صنهاجة في حزب أعدائه بني عبيد الله"[2].

استجابت قبائل زناتة للدعوة الأموية فانتشرت بالعدوة طاعة الخليفة عبد الرحمن الناصر وعلت على منابرها كلمته[3]، وقد كان هذا الأخير يقدِّر أهمية المغرب الأوسط ويُعوِّل على أهله في مواجهة أعدائه وهو ما جعله يُفكِّر في فتح بعض الثغور الساحلية[4] لقطع الطريق أمام بني عبيد في توسعهم نحو الغرب، لاسيما وأنَّ هذه الفترة كان فيها الصراع على أشدِّه بين الطرفين[5].

تغيَّرت العلاقات بين حكام الأندلس وبين أهل المغرب الأوسط من طابعها المذهبي ضد بني عبيد إلى علاقات سياسية وعسكرية ولكن لصالح الطرف الأول بدرجة أساسية، وذلك إمَّا لتدعيم سلطان الخلفاء في الداخل أو التصدي للخطر المسيحي، وبسبب ذلك أصبحت قبائل زناتة موردًا بشريا لتزويد حكام الأندلس بالمقاتلين وبخاصة في عهد الخليفة هشام بن الحكم (366- 399هـ/ 976- 1009م) وحاجبه محمد بن أبي عامر الذي اعتمد عليهم بشكل أساسي، وقد أشار إلى ذلك ابن الخطيب في قوله: " فاستظهر بفرسان الهيجاء وأبطال الكريهة وأعلام السُّمرة من فرسان الغرب وزناتة الواردين على بابه "[6]، وذلك لِمَا تَميَّزوا به من الشدَّة والشجاعة في الحروب، فاستقوى بهم على أعدائه، وقد قدَّر بأسهم وإخلاصهم

1- أحمد مختار العبادي: في تاريخ المغرب والأندلس، ص65.

2- مفاخر البربر، ص106/ ابن عذاري: المصدر السابق، ج2، ص212/ ابن خلدون: المصدر السابق، مج1، ص1148.

3- ابن الخطيب السلماني: المصدر السابق، ق2، ص29/ ابن خلدون: المصدر نفسه، مج1، ص1148.

4- أرسل الخليفة محمد الناصر سنة 320هـ- 932م أسطولا حربيا من مائة وعشرين مركبا، وقيل خمسة عشر إلى حليفه موسى بن أبي العافية المكناسي لفتح أرشقول التي لجأ إليها الحسن بن عيسى بن أبي العيش صاحب جراوة. البكري: المصدر السابق، ص166/ ابن عذاري: المصدر نفسه، ج1، ص201، 205/ عبد العزيز فيلالي: المرجع السابق، ص152/ أحمد مختار العبادي: المرجع نفسه، ص71- 72.

5- يقول ابن خلدون: " ولمَّا فشت دعوة الناصر في المغرب الأقصى، بعث عبيد الله المهدي قائده أن يصل أمير مكناسة وعامل تاهرت، فزحف في عساكر إلى المغرب سنة إحدى وعشرين، وكتب موسى بن أبي العافية إلى الناصر يستنجده ". مج1، ص1150- 1151/ النويري: المصدر السابق، ص115/ محمد سهيل طقوش: المرجع السابق، ص114.

6- المصدر السابق، ق2، ص66/ عبد الله بن بلكين: التبيان عن الحادثة الكائنة بدولة بني زيري في غرناطة، حرره علي عمر، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ط1، 1427هـ- 2006م، ص31.

فأغدق عليهم من النعم والإحسان ما جعلهم يسارعون إلى الأندلس وينثالون عليه[1] وهو ما فتح باب الهجرة لكثير من القبائل والأفراد نحو الأندلس مثل بني يفرن ومغراوة وغيرهم والذين كان لهم دورًا في أحداث الفتنة وما نتج عنها من إمارات بربرية[2] مع مطلع القرن الخامس الهجري/ القرن11م والذي سينعكس بدوره على العلاقات بين العدوتين.

لم يكن المغرب الأوسط منطلقًا دائما للهجرة، بل كثيرًا ما كان ملجأً ومُستقبِلاً للمهاجرين وبخاصة من الأندلس ومن الجزر التي كانت تحت حكم المسلمين واستولى عليها العدُو أو غيرها من المناطق، وسواءٌ كان ذلك في الظروف العادية أو أثناء الحروب والصراعات، ولذلك سيستقبل كثيرًا من المهاجرين بعد سقوط المدن الأندلسية في يد المسيحيين خلال القرن السابع الهجري/ القرن 13م وهو ما سنتطرق له لاحقًا.

إذا كان الكثير ممن اضطرتهم الظروف الأمنية والسياسية مغادرة أوطانهم، فإنَّ المغرب الأوسط قد مَّثل وجهة مفضَّلة لهؤلاء المهاجرين لما وجدوه من ظروف مناسبة للإقامة والاستقرار ولاسيما بالنسبة للشخصيات العلمية والسياسية، فمن جزيرة صقلية هاجر الشاعر ابن حمديس الذي غادر بلده إثر استيلاء الملك روجار عليها سنة 484هـ-1091م واستقرَّ ببجاية عند ملوكها فوصف قصورهم إلى أن توفي بها سنة 527هـ- 1133م[3]. والتي يقول عنها أبو الفدا: " فسار الفرنج إلى البلاد التي بأيدي المسلمين واستولوا على مواضع كثيرة ... وفارق الجزيرة حينئذ خلق كثير من أهلها من العلماء والصالحين"[4].

شهد العهد الحمادي وبصفة خاصة القرن الخامس الهجري في عهد الملك المنصور بن الناصر هجرة أندلسية نحو المغرب الأوسط نتيجة المستوى الحضاري الذي بلغته هذه

1- ابن عذاري: المصدر السابق، ج2، ص278- 279/ ابن حيان القرطبي: المقتبس في أخبار بلد الأندلس، شرحه واعتنى به صلاح الدين الهواري، المكتبة العصرية، بيروت، ط1، 1426هـ- 2006م، ص150-151/ عبد العزيز فيلالي: المرجع السابق، ص226.

2- عن قيام هذه الإمارات يُنظر ابن عذاري: المصدر نفسه، ج3، ص270، 311- 312/ ابن خلدون: المصدر السابق، مج1، ص1161. مج2، ص2076/ ابن الخطيب السلماني: المصدر السابق، ق2، صص236- 241/ ابن عبد الحليم الإيلاني: المصدر السابق، ص148.

3- ابن حمديس: أبو محمد عبد الجبار بن أبي بكر بن محمد الأزدي السرقوسي الصقلي، أكبر شعراء صقلية، بها وُلد وقضى شبابه، ولمَّا سقطت مدينة بلرم في يد النورمان غادر صقلية وعمر أربعة وعشرين سنة، ثم التحق بالأندلس عند ابن عباد ومنها إلى بجاية. ابن بسام: المصدر السابق، ق4، ج7، ص222/ المقري: المصدر السابق، مج6، ص46- 47. مج5، ص153/ رابح بونار: المرجع السابق، ص346.

4- المختصر في أخبار البشر، تحقيق محمد زينهم عزب ويحي سيد حسين، دار المعارف، القاهرة، ط1، دت، ج2، ص286/ الإدريسي: المصدر السابق، مج2، ص589/ الحميري: المصدر السابق، ص366/ ابن خلدون: المصدر السابق، مج1، ص1201/ ابن الأثير: المصدر السابق، مج2، ص2149- 2150/ النويري: المصدر السابق، صص480- 482.

الدولة وتشجيع ملوكها للعلماء في الاستقرار بحاضرتهم، فوفد منهم الكثير حيث شكّلوا هناك طبقة مثقّفة أثرَت الحياة العلمية وأعطت دفعًا قويا لها وهو ما ساهم في بروز جلة من الأعلام في مختلف الفنون والعلوم، وممن لجأ إلى بجاية كذلك بعض رجال الحكم الذين اضطرتهم الظروف السياسية لمغادرة الأندلس، ومن هؤلاء معز الدولة بن صمادح[1].

ومما سبق يُمكن القول أنَّ الأوضاع السياسية التي عرفتها منطقة الغرب الإسلامي عمومًا أواخر القرن الخامس الهجري والنصف الأول من القرن السادس الهجري مَثّلت إحدى الفترات الهامة في العلاقة بين عدوتي المغرب لما هيئته من أسباب وظروف لحركة هجرة متبادلة.

الأندلس في عهد المرابطين: لمَّا ضعف ملوك الطوائف واشتدَّ كلب النصارى على المسلمين تجرَّدَ لحربهم يوسف بن تاشفين (466- 500هـ/ 1073- 1106م) الذي فتح باب الجهاد فعبر الكثير من عدوة المغرب إلى الأندلس لهذا الغرض، وقد وصف عبد الواحد المراكشي ذلك قائلا: "فلم يزل أصحاب يوسف بن تاشفين يطوون تلك الممالك، مملكة مملكة إلى أن دانت لهم الجزيرة بأجمعها، فأظهروا في أول إمرتهم من النكاية في العدو والدفاع عن المسلمين وحماية الثغور ... ويوسف بن تاشفين في ذلك كله يمدهم في كل ساعة بالجيوش بعد الجيوش والخيل بعد الخيل"[2]. وفعلا إنَّ المرابطين كانوا أهل جهاد، فقد جعلوا من الأندلس رباطًا للمجاهدين من أهل المغرب عامة، وقد شهد لهم بهذه المزية والحسنة كل المؤرخين حتى المخالفين لهم، وينقل لنا ابن الخطيب اعتراف الأندلسيين بجهاد المرابطين للعدو فيقول: " وقلَّ أن رأوا إيالة أنفع أو أجرى في قتال العدو من لمتونة"[3]، وقد واصل المرابطون جهادهم في الأندلس خلال عهد علي بن يوسف (500- 537هـ/ 1106- 1142م) فافتتح الكثير

1- ابن صمادح: عبيد الله عز الدولة أبو مروان بن محمد بن معن، كان من جملة أمراء الأندلس وملوك الطوائف، أخذ له أبوه المعتصم البيعة في حياته، لكن المرابطين عاجلوه وخلعوه عند جوازهم إلى الأندلس، فنزل في كنف المنصور بن الناصر بن علناس الذي اقتطعه مدينة دلس فحكمها إلى أن مات. ابن الأبار: المصدر السابق، ص222/ عبد الله بن بلكين: المصدر السابق، ص202/ ابن سعيد المغربي: المصدر السابق، ج2، ص201/ أبو الفدا: المصدر السابق، ج2، ص284/ ابن بسام: المصدر السابق، مج1، ص557/ ابن خلدون: المصدر السابق، مج2، ص1879، 1886/ ابن الخطيب السلماني: المصدر السابق، ق2، ص190/ النويري: المصدر السابق، ص387/ المقري: نفح الطيب، مج4، ص329/ المقري: أزهار الرياض في أخبار عياض، تحقيق علي عمر، المعرفة الدولية للنشر والتوزيع، الجزائر، 2011م، مج3، ج5، ص105.

2- المعجب، ص226/ ابن خلدون: المصدر السابق، مج2، ص1885.

3- أعمال الأعلام، ق2، ص265/ النويري: المصدر السابق، ص389. وقد نقل ابن سماك عن ابن العربي في كتابه عارضة الأحوذي قوله: " المرابطون قاموا بدعوة الحق ونصرة الدين، وهم حماة المسلمين الذابون عنهم والمجاهدون دونهم، ولو لم يكن للمرابطين فضيلة ولا تقدم ولا وسيلة إلا واقعة الزلاقة التي أنسى ذكرها حرب الأوائل ... لكان ذلك من أعظم فخرهم وأربح متجرهم ". الحلل الموشية، ص213.

من المدن ودوَّخ بلاد المشركين[1]، فكان لهذه الانتصارات صدى في العالم الإسلامي، دفعت بالخليفة العباسي أبي العباس أحمد المستظهر بالله (487- 512هـ/ 1094- 1118م) أن يبعث له برسالة سنة 512هـ يجدِّد فيها رضاه عنه كما فعل مع والده من قبل[2]، ولا شك أنَّ هذه الأعمال الجهادية قد شارك فيها متطوعة ومجاهدون من المغرب الأوسط لاسيما وأنَّ المرابطين كانوا يعتمدون غالبا في جيشهم على العناصر البربرية[3].

إنَّ العلاقة بين الأندلس والمغرب الأوسط لم تفرضها ظروف الجهاد فقط أو يحكمها الولاء السياسي، بل كان للجانب الثقافي دورًا في تلك الروابط، فقد أصبحت القلعة وبجاية من المراكز العلمية التي ظلت تستقطب العلماء والطلاب والتجار الذين استقرَّ بعضهم في هذه الحواضر، ولا شك أنَّ وجود جاليات أندلسية قد ترك أثره الثقافي والاجتماعي، ومن أبرز تلك المظاهر التي انتقلت إلى المغرب الأوسط بفعل هجرة هؤلاء الأندلسيين، ظاهرة التصوُّف، حيث مَّثل المتصوِّفة الطارئين على بجاية وتلمسان أواخر القرن الخامس الهجري والنصف الأول من القرن السادس الهجري نواة التيار التصوُّفي في المنطقة، ومن هؤلاء أبو الحسن علي بن محمد (ت537هـ- 1142م) الذي قدم من بلده مدينة أشونة[4] OSSUNA ونزل مدينة جزائر بني مزغنى فأخذ عنه هناك بعض الأعلام[5].

علاقة المغرب الأوسط بإفريقية والمغرب الأقصى: الحقيقة أنَّ بلاد المغرب بأقسامها الثلاثة شكلت وحدة طبيعية وبشرية بحكم موقعها وطبيعتها الجغرافية وتركيبة سكانها، ورغم هذا التقسيم فإنَّ الترابط والتواصل الاجتماعي والثقافي بين قبائل وسكان هذه الأقسام ظل قائمًا

1- عن جهاد علي بن يوسف وفتوحه في الأندلس يمكن العودة إلى ابن سماك العاملي: المصدر السابق، ص50 وما بعدها/ ابن الخطيب السلماني: المصدر السابق، ق2، ص247/ ابن القطان: المصدر السابق، صص63- 66، 69، 76، 227- 228، 235، 251/ ابن عذاري: المصدر السابق، ج4، ص50، 52، 64، 70، 94/ النويري: المصدر السابق، ص391/ ابن الأثير: المصدر السابق، مج2، ص2262/ ابن خلدون: المصدر السابق، مج2، ص1886/ ابن أبي زرع: المصدر السابق، ص160/ عبد الواحد المراكشي: المصدر السابق، ص235.

2- ابن سماك العاملي: المصدر نفسه، ص152/ حسن علي حسن: الحضارة الإسلامية في المغرب والأندلس عصر المرابطين والموحدين، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط1، 1980م، ص54/ وثائق المرابطين والموحدين، تحقيق حسين مؤنس، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ط1، 1997م، ص40.

3- وثائق المرابطين والموحدين، ص39/ السلاوي الناصري: المرجع السابق، ج2، ص61.

4- أشونة: حصن بالأندلس من نواحي إستجة إلى الجنوب. ياقوت الحموي: معجم البلدان، تقديم محمد عبد الرحمن المرعشلي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط1، 1429هـ- 2008م، مج1، ص164/ الإدريسي: المصدر السابق، مج2، ص537، 572/ شكيب أرسلان: الحلل السندسية في الأخبار والآثار الأندلسية، المطبعة التجارية، فاس، ط1، 1355هـ- 1936م، ج1، ص133.

5- عبد الحميد حاجيات: **" تطور الفكر الإسلامي بالمغرب الأوسط على عهد الموحدين "**، مجلة عصور الجديدة، صص53- 70، مختبر البحث التاريخي، جامعة وهران، ع5، 1433هـ- 2012م، ص54.

ولم توقفه الحدود السياسية، فقد كانت الهجرة وحركة الدخول والخروج في هذه الأقاليم ظاهرة عادية تقريبًا، تجلَّت بصفة خاصة في تنقُّل العلماء والطلبة بين مدارس مدن فاس وتلمسان وبجاية والقيروان، وكثيرًا ما كان بعضهم يستقر بإحدى هذه المدن حتى ربَّما نُسِب إليها، فابن رشيق[1] اشتُهِر بالقيرواني لطول مكثه بالقيروان رغم أنَّه مسيلي الأصل.

أما بالنسبة للهجرة نحو الإقليمين المجاورين إفريقية والمغرب الأقصى فيبدو أنها كانت أقل حجمًا بالمقارنة مع الأندلس واقتصرت على فئة الطلبة والعلماء الذين ظلوا يتوجهون نحو القيروان وفاس لمواصلة الدراسة أو ممارسة وظيفة أو فرارًا من سلطان، ومن هؤلاء ابن الرمامة[2] الذي استقرَّ به المقام بفاس حيث تولى وظيفة القضاء.

علاقة المغرب الأوسط بالمشرق الإسلامي: للمغاربة علاقة وطيدة ببلاد المشرق عموما لأسباب دينية وتاريخية، فهي تحتوي على أهم المقدسات الإسلامية وفي مقدمتها بيت الله الحرام الذي تُشدُّ إليه الرِّحال لأداء الركن الخامس من أركان الإسلام وهو الحج لقوله تعالى: **((... وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حَجُّ الْبَيْتِ مَنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً ...))**[3] أو كان ذلك لطلب العلم أو المجاورة بمكة والمدينة، ومن الأماكن المقدَّسة كذلك التي لها مكانة خاصة لدى المغاربة بيت المقدس، أما من الناحية التاريخية فبه مدينتي دمشق وبغداد أهم عاصمتين لأكبر خلافتين إسلاميتين، ولذلك كانت وجهة أهل المغرب في كثير من الأحيان نحو هذه

1- ابن رشيق: أبو الحسن (ت463هـ- 1071م) أخذ عن علماء بلده المسيلة ثم رحل إلى القيروان سنة 406هـ- 1015م، فلقي كبار العلماء والأدباء كعبد الكريم النهشلي ومحمد بن جعفر القزاز وغيرهما فلازمهم وأخذ عنهم حتى أصبح شاعرًا وكاتبا مجيدًا، خدم في بلاط المعز بن باديس بالمهدية، ولمَّا كانت الحملة الهلالية انتقل إلى صقلية وأقام بمدينة مازرة إلى أن توفي بها، من مؤلفاته: العمدة في صناعة الشعر وأنموذج الزمان في شعراء القيروان، وتاريخ القيروان. القفطي: انباه الرواة على أنباه النحاة، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي، القاهرة، ط1، 1406هـ- 1986م، ج1، ص333/ السيوطي: بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر، القاهرة، ط2، 1399هـ- 1979م، ج1، ص504/ رابح بونار: المرجع السابق، ص288/ عادل نويهض: المرجع السابق، ص150/ حسن حسني عبد الوهاب: خلاصة تاريخ تونس، الدار التونسية للنشر، 1983م، ص115/ عمار هلال: العلماء الجزائريون في البلدان العربية والإسلامية، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ط2، 2005م، ص106/ محمد بن محمد مخلوف: المرجع السابق، ص110.

2- ابن الرمامة: أبي عبد الله محمد بن علي بن جعفر بن أحمد بن محمد القيسي (ت567هـ- 1171م) فقيه وقاضٍ، ولِد بقلعة بني حماد، تتلمذ بها على ابن النحوي وعلى أبي إسحاق إبراهيم بن حماد وبالجزائر عن خاله أبي الحسن علي بن طاهر بن محشوة، رحل إلى الأندلس تاجرًا وطالبا للعلم فأخذ هناك عن أبي محمد بن عتاب وأبي الوليد بن رشد وعن أبي بحر الأسدي فحمل عنهم، انتقل إلى فاس ووُلِي قضاءها سنة 536هـ- 1143م. ابن الزبير: صلة الصلة، تحقيق عبد السلام الهراس وسعيد أعراب، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المملكة المغربية، 1413هـ- 1993م، ق3، ص21- 22/ عادل نويهض: المرجع السابق، ص152/ رابح بونار: المرجع السابق، ص272/ يحي بوعزيز: أعلام الفكر والثقافة في الجزائر المحروسة، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1995م، ج1، ص32/ عمار هلال: المرجع نفسه، ص106.

3- سورة آل عمران، الآية 97.

المناطق لأغراض تعبدية أو علمية كمواصلة الدراسة في مدارسه، أو من أجل التجارة والسياحة، وقد كانت رحلات المغاربة أحيانًا تنتهي بالاستقرار هناك، ومن أمثلة ذلك أبو القاسم الهذلي[1] الذي جاب بعض مدن العراق وفارس إلى أن توفي هناك.

إذا كان القرنان الأول والثاني الهجريين/ السابع والثامن الميلاديين قد عرفا هجرة من المشرق إلى المغرب بسبب الفتح أو الهجرة لأسباب سياسية ومذهبية كفرار الخوارج والعلويين والأمويين خوفًا من القتل والسجن، أو رغبة في تأسيس دول ببلاد المغرب بعيدًا عن أنظار السلطة، أو بالنسبة لهجرة القبائل العربية من مصر خلال القرن الخامس الهجري، فإنَّ هجرة المغاربة نحو المشرق تأخَّرت فيما يبدو إلى القرن الثالث الهجري على أكثر تقدير، إلا أنَّ تيار الهجرة ارتفع ابتداءً من القرن الرابع الهجري/ القرن 10م نتيجة التطورات السياسية والتواصل الاجتماعي والثقافي بين شطري العالم الإسلامي.

علاقة المغرب الأوسط ببلاد السودان: عندما نذكر بلاد السودان فإنَّ أوَّل ما يتبادر إلى الأذهان هو النشاط التجاري الذي ظلَّ أساس العلاقات بين بلاد المغرب في الشمال وبلاد السودان جنوب الصحراء، ولعلَّ السِّلع الرائجة آنذاك هي الذهب والعبيد، وإذا كان الذهب مادة نفيسة وعملة نقدية يتعامل بها، فإنَّ تجارة العبيد إضافة إلى كونها سلعة يُمكن اعتبارها من الناحية الاجتماعية نوعًا من الهجرة، وعن طريقها دخل هذا العنصر البشري في البنية الاجتماعية لبلاد المغرب ومنها انتقل إلى الأندلس[2] عن طريق المرابطين ثم الموحدين.

يبدو أنَّ جلب الرقيق الأسود واستخدامه في بلاد المغرب عموما يعود إلى أواخر القرن الثاني الهجري/ مطلع القرن التاسع الميلادي عندما شرع إبراهيم بن الأغلب (184- 196هـ/ 800- 812م) في شراء العبيد حتى بلغ عددهم لديه عشرة آلاف، وذلك ليكونوا أداةً طيِّعة في يده، فاستخدمهم في الفتح وفي مواجهة الثورات الداخلية، وقد أشار الرقيق القيرواني إلى

1- أبو القاسم الهذلي: يوسف بن علي بن جبارة بن محمد البسكري (ت465هـ- 1072م) فقيه ومتكلم ونحوي، برع في علم القراءات، أخذ العلم عن مشيخة بلده ثم ارتحل إلى المشرق وزار اصبهان وبغداد، استدعاه نظام الملك سنة 458هـ- 1066م للإقراء بمدينة نياسبور فأقرأ بها إلى أن توفي، له كتاب الكامل في القراءات. السيوطي: بغية الوعاة، ج2، ص359/ اليافعي اليمني: مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يُعتبَر من حوادث الزمان، وضع حواشيه خليل منصور، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1417هـ- 1997م، ج3، ص72/ ياقوت الحموي: المصدر السابق، مج1، ص334/ الذهبي: العبر في خبر من غبر، حققه وضبطه أبو هاجر محمد السعيد بن بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية، بيروت، دت، ج2، ص320/ عادل نويهض: المرجع نفسه، ص43/ رابح بونار: المرجع السابق، ص268.

2- استخدم كل من المربطين والموحدين العنصر السوداني في الجيش ولاسيما للجهاد في الأندلس، ومما يدل على تواجده هناك الأمثال المضروبة في حقهم ومنها قولهم: " إذَا رَيْتْ الزَّنجْ ابشَرْ بالبوَّاقْ ". الزجالي القرطبي: أمثال العَوَام في الأندلس، مستخرجة من كتاب ري الأوام ومرعى السوام في نكت الخواص والعوام، تحقيق وشرح محمد بن شريفة، نشر وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية والتعليم الأصلي، دت، ق2، ص6.

ذلك بقوله: " وأخذ في شراء العبيد، وأظهر أنه يريد أن يتخذ من كل صناعة صنعة تغنيه عن استعمال الرعية في كل شيء من أمورهم، ثم اشترى عبيدًا لحمل سلاحه وأظهَر للجند أنه أراد بذلك إكرامهم عن حمل سلاحه"[1]، ثم أصبح اتخاذ الحرس من السودان أمرًا شائعا سواء لدى الخلفاء والسلاطين لاسيما في ظل حاجة هؤلاء لهذه الفئة نتيجة الصراعات والحروب، أو لدى المجتمع نتيجة تطور الحياة الاجتماعية.

أمَّا بالنسبة لدخول هذا العنصر وتواجده بالمغرب الأوسط فكان عبر عاملين: العامل الأول والأساسي هو التجارة التي ازدهرت مع بلاد السودان منذ العهد الرستمي[2] واستمرت إلى هذه الفترة سواء عن طريق تلمسان توات سجلماسة أو عن طريق واركلا، ومن مدن السودان التي اشتهرت كأسواق لتجارة العبيد مدينة أودغشت[3]، التي كانت محطة ربط واتصال بين بلاد المغرب وبلاد جنوب الصحراء، وقد وصف البكري ظاهرة الرق في هذه المدينة بقوله: "وكانت لهم أموال عظيمة ورقيق كثير، كان للرجُل منهم ألف خادم وأكثر "[4]، ولا شك أنَّ هذا العدد الكبير منهم لم يكن كله للخدمة وإنما بغرض التجارة. ويضيف البكري في وصف عبيد وإماء مدينة أودغشت وهو ما قد يكون سببًا في رواج تجارتها فيقول: "وبها سودانيات طباخات محسنات تُباع الواحدة منهن بمائة مثقال وأكثر "[5].

ومن العوامل التي تكون قد ساهمت في شيوع ظاهرة الرق ورواجها ببلاد السودان انتشار عادات اجتماعية لدى سكان بعض المدن السودانية مثل مدينتي قلنبو وترنقة وتتمثل في بيع السارق حيث كان صاحب الغرض المسروق يُخيَّر بين بيع السارق أو قتله[6].

ومما أدى إلى ازدهار التجارة بين المغرب الأوسط وبلاد السودان تحوُّل الطريق العابر للصحراء نحو مصر إلى الشمال عبر أراضي المغرب الأوسط كمنطقة توات، وذلك نتيجة

1- تاريخ إفريقية والمغرب، تقديم وتحقيق محمد زينهم محمد عزب، دار الفرجاني للنشر والتوزيع، ط1، 1414هـ- 1994م، ص134/ حسن حسني عبد الوهاب: المرجع السابق، ص78.

2- صفي الدين محي الدين: **" العلاقات التجارية بين الدولة الرستمية والسودان الغربي (160- 296هـ/ 777- 909م) "**، مجلة الدراسات التاريخية والاجتماعية، جامعة نواكشوط، ع7، 2016م، صص47- 59، ص51 وما بعدها. محمد علي دبوز: المرجع السابق، ج3، ص281.

3- أودغشت: مدينة رملية كبيرة آهلة، وهي أشبه بلاد الله بمكة لأنها بين جبلين ذات شعاب، ومن سجلماسة إلى أودغشت شهران أو إحدى وخمسين مرحلة على سمت المغرب، ومنها إلى غانة بضعة عشر يومًا، وبمدينة أودغشت أسواق جليلة. ابن حوقل: المصدر السابق، ص94/ البكري: المصدر السابق، ص237/ مؤلف مجهول: الاستبصار، ص215/ ياقوت الحموي: المصدر السابق، مج1، ص221.

4- البكري: المصدر نفسه، ص238، 252.

5- نفسه، ص238/ الحميري: المصدر السابق، ص63/ حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام، مكتبة النهضة المصرية، 2010م، ج3، ص432.

6- البكري: المصدر نفسه، ص258- 259/ مؤلف مجهول: الاستبصار، ص217- 218.

العواصف المهلكة وصعوبة المسالك واندثارها وانعدام الأمن[1]، بسبب اللصوصية وقطع الطريق أو بسبب الحروب والصراعات.

أمَّا العامل الثاني لدخول العبيد السود فيعود إلى دور المرابطين خلال حكمهم للمغرب الأوسط، فقد كانت بلادهم متاخمة لبلاد السودان وهو ما مكّنهم من جلبهم منها سواءٌ عن طريق التجارة أو عن طريق سبيهم في الجهاد والفتح وبخاصة في السنوات الأولى لظهور حركتهم، حيث قام عبد الله بن ياسين ثم يحي بن عمر وأخيه أبي بكر بحركة جهاد واسعة في بلاد السودان[2]، ولمَّا خلص الأمر ليوسف بن تاشفين اشترى جملة من العبيد السود بلغ عددهم زهاء ألفين اتخذهم جندًا له[3]، ومن ذلك الوقت ازدهرت تجارة العبيد وانتشر تواجدهم ليس في الجيش فقط، بل شاع استخدامهم من قِبل المجتمع كعمال وخدم في الحقول والبيوت، أو كأمهات أولاد.

إنَّ الغرض من هذا المدخل هو التعريف بالوضع السياسي والاجتماعي العام لبلاد المغرب قبيل الفترة المراد دراستها، وموقع المغرب الأوسط بالنسبة لهذه الأوضاع من خلال علاقاته ودوره في الأحداث التي ستشهدها المنطقة باعتبارها محرِّكات وأسباب للهجرة، لاسيما وأنَّ المغرب الأوسط كان يمثّل منطقة عبور واتصال في الغرب الإسلامي وهو ما جعله يشهد حركة هجرة داخلية وخارجية.

1- ابن حوقل: المصدر السابق، ص67.

2- البكري: المصدر السابق، ص245، 251/ الاستبصار، ص217/ ابن أبي زرع: المصدر السابق، ص127، 135، 139/ النويري: المصدر السابق، ص382/ ابن سماك العاملي: المصدر السابق ، ص66/ عز الدين أحمد موسى: النشاط الاقتصادي في المغرب الإسلامي خلال القرن السادس الهجري، دار الشروق، القاهرة، ط1، 1403هـ- 1983م، ص118.

3- ابن سماك العاملي: المصدر نفسه، ص73/ ابن عذاري: المصدر السابق، ج4، ص23.

الفصل الأول: الهجرة الداخلية

1- ظروف الهجرة ودوافعها.

- قيام الدولة الموحدة ودورها في الهجرة.

- علاقة الموحدين بالقبائل العربية.

- علاقة الموحدين بالقبائل البربرية.

- ثورة ابن غانية ودورها في الهجرة.

- نهاية الدولة الموحدية ونتائجه.

2- الحملات الصليبية ودورها في الهجرة.

3- الدوافع الثقافية

-هجرة القبائل البربرية

- هجرة القبائل العربية

إنَّ الهجرة كظاهرة اجتماعية مرتبطة دائما بظروف وعوامل سياسية ومذهبية واقتصادية وثقافية ونفسية ومصالح تتراكم وتتفاعل فتصبح أسبابًا ودوافع للهجرة، والمتتبع لهذه الظاهرة في عموم بلاد الغرب الإسلامي تقريبا، ولاسيّما بعد منتصف القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، سيجد حراكا بشريا متتاليا، لا يكاد ينتهي في جهة أو منطقة حتى تظهر مؤشرات جديدة تُنبئ عن حراك آخر قد تهيّأ، سواء تعلق الأمر بالقبائل البربرية أو العربية.

وإذا كنا سنخص بالدراسة في هذا الفصل، الهجرة التي تمت داخل مجال المغرب الأوسط، الذي تم تحديده في المدخل، وذلك من حيث الظروف التي جرت فيها، والدوافع والأسباب الباعثة عليها، وتحديد القبائل أو الشخصيات التي قامت بها ثم المناطق التي رحلت منها إلى مواطن استقرارها الجديدة، فإنَّ هذه الظروف والدوافع قد تكون كذلك أسبابا للهجرة الخارجية نظرا لترابط الأحداث وشمولية انعكاساتها وآثارها.

1- ظروف الهجرة ودوافعها: عرف الغرب الإسلامي في الفترة الممتدة من أواسط القرن السادس إلى نهاية القرن الثامن الهجري/ منتصف القرن الثاني عشر إلى أواخر القرن الرابع عشر الميلادي أحداثا تاريخية هامة، مثّلت ذروة التفاعل والنشاط السياسي والعسكري والمذهبي والحراك الاجتماعي في العصر الوسيط، كان لها الأثر المباشر في تحرك وهجرة الجماعات والأفراد سواءً بالنسبة للقبائل البربرية أو القبائل العربية، فهذه الأخيرة لم تأخذ قرارها النهائي، وظلت كقوة اجتماعية وعسكرية استعملتها الدول القائمة أحيانا، وأصبحت في أحيان أخرى منافسة لها، وهو ما جعلها محرِّكا للهجرة نتيجة الصراع والتدافع فيما بينها، أو بينها وبين السلطة القائمة. أما سياسيًا فقد ظهر الموحدون كقوة جديدة حاولت إعادة تجربة الوحدة التي كان قد بدأها قبلهم العبيديون ثم المرابطون، وعليه فقد مثّلت أحد الأطر التي تمت فيها ظاهرة الهجرة.

بلغت الدولة الموحدية أوسع رقعة وأعظم سلطان في عهد الخليفة عبد المؤمن (524-558هـ/ 1129- 1162م) حيث امتدت من طرابلس الغرب إلى السوس الأقصى بالنسبة لعدوة المغرب، ومن مدينة تطيلة[1] قاصية بلاد شرق الأندلس إلى مدينة شنترين في الغرب[2] ولاشك أن هذا الامتداد الكبير قد شكّل مجالا معتبرًا لتحرك وهجرة السكان والقبائل، سواء كان ذلك ما بين أقاليم بلاد المغرب، أو بين بلاد المغرب وعدوة الأندلس، إلا أنَّ ما بلغته

1- تُطِيلة: مدينة عظيمة أزلية، طيبة الماء والهواء، حسنة البناء على نهر أبرة فوق مدينة سرقسطة بعشرين فرسخا، عليها قرى كثيرة، كانت آخر عمل الموحدين. مؤلف مجهول: تاريخ الأندلس، دراسة وتحقيق عبد القادر بوباية، دار الكتب العلمية، بيروت، ط2، 1430هـ- 2009م، ص133- 134/ الحميري: المصدر السابق، ص133/ ياقوت الحموي: المصدر السابق، مج1، ص445/ الزهري: المصدر السابق، ص72/ الإدريسي: المصدر السابق، مج2، ص733.

2- يقول عبد الواحد المراكشي: " وهذه مملكة لم أعلمها انتظمت لأحد قبله (عبد المؤمن) منذ اختلّت دولة بني أمية ". المصدر السابق، ص380/ ابن أبي زرع: المصدر السابق، ص206/ ابن أبي دينار: المصدر السابق، ص113/ السلاوي: المرجع السابق، ج2، ص179.

هذه الدولة من اتساع وعظمة لم يدم أكثر من ستة عقود، إذ آلت إلى الضعف والتفكك بعد موقعة حصن العِقاب[1] الفاصلة، التي كانت بداية النهاية لهذه الدولة، فانفصلت عنها إفريقية الممثّلة في الدولة الحفصية، ثم المغرب الأوسط بزعامة يغمراسن بن زيان مؤسس دولة بني عبد الواد، قبل أن يجهز عليهم بنو مرين نهائيا سنة 668هـ/ 1269م ويؤسسوا بدورهم دولة لهم.

أما بالنسبة للأندلس فقد تغلّب بعض الثوار على جهاتها، مستغلين حالة الانهيار السياسي والعسكري للموحدين هناك حيث ثار محمد بن يوسف بن هود بشرق الأندلس وملك مرسية واشبيلية وقرطبة[2] سنة 625هـ/ 1228مودعا للعباسيين، فيما بُويع لأبي عبد الله محمد بن يوسف بن الأحمر سنة 630هـ/1232م بجيان وغرناطة[3]، قبل أن تؤول معظم مدن الأندلس إلى النصارى.

قيام الدولة الموحدية ودوره في الهجرة: لقد كانت حركة محمد ابن تومرت هي الثانية من نوعها في الغرب الإسلامي بعد حركة الشيعة، والتي قامت على أساس ديني من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لكنها سرعان ما تطوَّرت إلى حركة سياسية أثمرت قيام الدولة الموحدية التي أحدثت انقلابا فكريا وسياسيا، حيث أدت إلى تغيير الخارطة السياسية

1- العِقاب: بكسر العين، موضع بين جيان وقلعة رباح، يُعرف بحصن العقاب، كانت به الوقيعة المرَّة على الجيش الإسلامي من طرف جيوش الممالك المسيحية بقيادة ألفونسو الثامن وأول وهن دخل على الموحدين، فلم تقُم لهم بعد قائمة، وذلك يوم الاثنين الثامن من صفر سنة 609هـ/ 1212م، والتي تُعرف في التواريخ النصرانية بـ Navas de tolosa وحسب محمد عبد عنان فإنَّ المعركة وقعت شمالي هذا المكان بنحو عشرة كيلومترات في الهضاب والبسائط. وتعود أسباب الهزيمة إلى سوء تصرُّف الوزير أبو سعيد بن جامع مع جيش الأندلس، حيث أشار عليه بمطاولة حصار حصن شلبطرة الذي دام ثمانية أشهر حتى اشتد برد الشتاء وقلَّت الأقوات، وفي هذه الأثناء خالف الأذفنش الناصر إلى قلعة رباح وكان بها يومئذ أبو الحجاج يوسف بن قادس من قواد الأندلس، فحاصره وضيَّق عليه، عندها كاتب ابن قادس الناصر عدة مرات يُعلمه بحاله ويستمدَّه على عدوِّه، فكان الوزير ابن جامع يخفي هذه الكتب عن الناصر لئلا يرحل عن الحصن، فلما طال الحصار على ابن قادس وفني ما عنده من الأقوات ويئس من الإمداد صالح الأذفنش على تسليم الحصن حقنا لدماء المسلمين، وسار إلى الناصر ليعلمه بالأمر، عندها أمر بقتله رفقة صهره، فحقدت جيوش الأندلس على ابن جامع وفسدت نياتهم على الناصر، ثم زحف النصارى إليه، فلما انتشب القتال بين الفريقين فرَّت قواد الأندلس بجيوشها لما كانوا قد حقدوه على ابن جامع في قتل ابن قادس أولا وتهديدهم وطرده لهم ثانيا، فجرُّوا الهزيمة على المسلمين، في حين يُرجع صاحب المعجب أسباب الهزيمة إلى تأخر عطاء الجند. لمزيد من التفاصيل عن هذه المعركة يُنظر ابن أبي زرع: المصدر السابق، صص236- 240/ ابن سماك العاملي: المصدر السابق، ص244/ ابن خلدون: المصدر السابق، مج2، ص1926/ عبد الواحد المراكشي: المصدر السابق، ص401 / النويري: المصدر السابق، ص446/ ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ق2، ص270/ الحميري: المصدر السابق، ص416/ محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس عصر الموحدين، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مكتبة الأسرة، ج5، ص296 وما بعدها/ ابن أبي دينار: المصدر السابق، ص118/ السلاوي: المرجع السابق، ج2، صص196- 199.

2- لسان الدين بن الخطيب: أعمال الأعلام، ق2، ص277/ الإحاطة في أخبار غرناطة، حقق نصه ووضع مقدمته وحواشيه محمد عبد الله عنان، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط1، 1394هـ- 1974م، ج2، ص128- 132/ ابن عذاري: البيان المغرب، ق. الموحدين، ص278/ ابن خلدون: المصدر السابق، مج1، ص1170/ مؤلف مجهول: تاريخ الأندلس، تحقيق عبد القادر بوباية، ص264 وما بعدها.

3- ابن عذاري: نفسه، ق. الموحدين، ص296، 357/ ابن خلدون: نفسه، مج1، ص1171/ ابن الخطيب: المصدر نفسه، ق2، ص270 وما بعدها/ ابن سعيد المغربي: المغرب في حلى المغرب، ج2، ص52، 109.

والبشرية للمنطقة بسبب أفكار وعقيدة صاحبها[1] حيث أدت إلى صراع مذهبي بين عقيدة الموحدين، والمذهب المالكي الذي كان قد انتشر في بلاد المغرب منذ القرن الثاني الهجري على أيدي أصحاب الإمام مالك وتلامذته، ثم تلامذتهم من بعدهم. ولا نريد في هذا الإطار مناقشة الجانب العقَدي لابن تومرت وأبعاده وإنما سنركز على الجانب السياسي الذي اّتخذ من الدين صبغة له بكل ما له من انعكاسات وردود أفعال، والسؤال الذي قد يُطرح هنا هو كيف أّثر قيام هذه الدولة في الهجرة؟. قد تكون بداية الإجابة عن ذلك من الرسالة التي بعث بها عبد المؤمن بن علي إلى أهل قسنطينة في 24 جمادى الأولى 547هـ/1152م، يدعوهم فيها إلى التوحيد قائلا: "واعلموا أنَّ الواجب عليكم وعلى جميع عمرة البسيطة، إتيان هذا الأمر العزيز في محل قيامه، والهجرة إليه وقت ظهور دلائله، وارتفاع أعلامه، وهجرة الأوطان والقطان لطلب الرضوان به واغتنامه"[2]، وبقدر ما تضمَّنت هذه الرسالة من دعوة دينية، فقد انطوت على أبعاد سياسية، ستظهر من خلال توسُّعات الموحدين في كل من بلاد المغرب والأندلس وعلاقات هؤلاء بالقبائل العربية والبربرية وأثر ذلك، ويمكن أن نحدِّد هذه العلاقات من خلال المستويات التالية:

الموحدون وفقهاء المالكية: مثَّل الفقهاء الواجهة السياسية لمعظم الدول الإسلامية في المشرق والمغرب خلال العصور الوسطى، فكثيرا ما كان السلاطين والخلفاء يشكّلون بلاطهم من الفقهاء، لإضفاء الشرعية على حكمهم أو اتخاذهم كبطانة لمساعدتهم في الحكم واستشارتهم في القضايا والأحكام، ولذلك وجد الفقهاء أنفسهم أحيانًا طرفا في الصراعات

1- الحقيقة أنَّ العقيدة التومرتية كانت مزيجا وانتقاءً من تيارات وأفكار عقدية وفقهية لمذاهب إسلامية مختلفة، بل متناقضة أحيانا، فكان ابن تومرت يرى القول بعصمة الإمام على رأي الإمامية من الشيعة، ويدعو إلى علم الاعتقاد على طريق الأشعرية إلا في إثبات الصفات فإنه وافق المعتزلة، ففهم التوحيد فهم المعتزلة، رغم أنّ بعض الدارسين يُشكّك في معتزليته من خلال رواية المراكشي، فإنَّ بن تومرت لم يذكر الصِّفات نفيا أو إثباًتا، وإنّما ذكر الأسماء الحسنى، كما أخذ بالمذهب الظاهري الحزمي، وهو في كل هذا ذو نزعة خارجية، لأنه ثار ضد المرابطين الذين كانوا يمثلون الخلافة العباسية في بلاد المغرب، وإن اعتبر البعض كذلك أنَّ وصفه بالخروج، هي مزاعم فقهاء المرابطين ومن أخذ عنهم، على اعتبار أنَّ الخوارج لم يشترطوا النسب القرشي في الخلافة، وعليه يمكن تلخيص عقيدة ابن تومرت بأنَّها ليست أشعرية بحتة كما ذكر المراكشي وابن خلدون ولا خارجية كما فهمها علماء المرابطين، كما أنَّها ليست معتزلية تقوم على الأدلة العقلية وحدها ولا سلفية تنأى عن الرأي والتأويل ولا غزالية . لمزيد من التفاصيل عن عقيدة ابن تومرت يُنظر عبد الواحد المراكشي: المصدر السابق، ص251، 254-255/ ابن خلدون: المصدر السابق، مج2، ص1910/ ابن القطان: المصدر السابق، ص67/ إبن الخطيب السلماني: رقم الحلل في نظم الدول، مطبعة تونس، 1316هـ، ص57/ الذهبي: العبر في خبر من غبر، ج2، ص422-433/ محمد بن تومرت: أعزُّ ما يُطلب، تقديم وتحقيق عمار طالبي، موفم للنشر، الجزائر، 2011م، ص221، 229/ السلاوي: المرجع السابق، ج2، ص73/ حسن علي حسن: الحضارة الإسلامية في المغرب والأندلس- عصر المرابطين والموحدين- ، ص453-454/ أحمد مختار العبادي: المرجع السابق، ص107،108،109،110/ حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام، ج4، ص442/ عز الدين عمر موسى: الموحدون في الغرب الإسلامي تنظيماتهم ونظمهم، دار الغرب الإسلامي، ط1، 1411هـ-1991م، ص80-81/ مصطفى مغزاوي: **" التطور العقيدي في المغرب الإسلامي من الفتح إلى نهاية القرن العاشر الهجري"**، مجلة عصور الجديدة، مختبر تاريخ الجزائر، جامعة وهران، ع7/8، سنة 2012م-2013م، صص131-146.

2- مجموعة رسائل موحدية من إنشاء كتاب الدولة المؤمنية، حرَّره وعلق عليه إ.ليفي بروفنسال، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ط1، 1431هـ- 2010م، ص30.

السياسية، التي اتضحت تجلياتها في القرن السادس الهجري، خلال انتقال الحكم من المرابطين إلى الموحدين.

ما من شك أنَّ المذهب السُّنِّي المالكي قد عرف أهم فترات ازدهاره في العهد المرابطي حيث كان المذهب الرسمي للدولة، والذي حظي فيه الفقهاء بالرعاية المادية والأدبية، فكانوا المتصرفين في شؤون الحكم[1]، ويظهر أن الخلفاء الموحدون ولاسيما الأوائل منهم قد أدركوا هذه العلاقة الوثيقة بين الدولة والفقهاء، فكانوا أول المستهدفين من قِبَل السلطة الجديدة، التي اتهمتهم بالجهل والجمود والتجسيم والكفر[2]، فيما وصف فقهاء المالكية ابن تومرت وأتباعه بالخوارج وبمثيري الفتن[3].

إنَّ الاتهام المتبادل بين فقهاء المالكية والخلفاء الموحدين تبدو ملامحه وأبعاده سياسية أكثر منها مذهبية[4]، تتعلق بشرعية الخلافة ونفوذ هذه الفئة في الحكم، فالفقهاء كانوا يرون أنَّ الخلافة العباسية شرعية يجب طاعتهم فيها وعدم منازعتهم، وهو ما كان يُؤمن به المرابطون معتبرين أنفسهم ممِّثلين لها في المنطقة، فلم يَتسمَّوْا بالخلفاءوإنما دعوا بأ ُمراء المسلمين، ولذلك عندما عُرض هذا اللقب على يوسف بن تاشفين، قال: "حاشا لله أن أتسمَّى

1- كان الأمراء المرابطين لا يقطعون أمرًا دون العودة إلى الفقهاء عبد الواحد المراكشي: المصدر السابق، ص235/ ابن عذاري: المصدر السابق، ج4، ص46/ ابن أبي زرع: المصدر السابق، ص137/ ابن سماك العاملي: المصدر السابق، ص145/ لسان الدين ابن الخطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة، مج4، ص349/ ابن الأثير: المصدر السابق، مج2، ص2231.

2- محمد بن تومرت: أعز ما يطلب، ص242- 248/ ابن القطان: المصدر السابق، ص97-132/ الزركشي: المصدر السابق، ص6/ البيذق: المصدر السابق، ص54/ ابن غازي: الروض الهتون في أخبار مكناسة الزيتون، دراسة وتحقيق عطا أبو رية وسلطان بن مليح الأسمري، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ط1، 1428هـ-2007م، ص61/ ابن خلدون: المصدر السابق، مج2، ص1910-1911/ عبد الواحد المراكشي: المصدر السابق، ص260/ حسين مؤنس: وثائق المرابطين والموحدين، ص97/ ابن أبي زرع: المصدر السابق، ص173، ص181/ ابن عذاري: البيان المغرب، ج4، ص68.

3- أحمد عزاوي:رسائل موحدية- مجموعة جديدة- تحقيق ودراسة أحمد عزاوي، نشر كلية الآداب والعلوم الإنسانية، القنيطرة، ط1، 1995م، ج1، ص47/ البيذق: المصدر نفسه، ص89/ ابن غازي: المصدر نفسه، ص61/ ابن الأثير: المصدر السابق، مج2، ص2291/ عبد الواحد المراكشي: المصدر نفسه، ص260/ الونشريسي: المصدر السابق، ج12، ص185- 186/ لسان الدين بن الخطيب: أعمال الأعلام، تحقيق وتعليق أحمد مختار العبادي ومحمد إبراهيم الكتاني، دار الكتاب، الدار البيضاء، 1964م، ق3، ص267.

4- من أسباب هذا الصراع الاختلاف بين اتجاه تأصيلي ذو نزعة عقلية متأثِّرة بحركة التجديد التي ظهرت في المشرق ويمثِّله الموحدون، واتجاه محافظ ذو نزعة فروعية مقلِّدة يمثله المرابطون. عن هذا الموضوع وموقف الفقهاء من الموحدين، يُنظر ابن أبي زرع: المصدر السابق، ص191/ ابن القطان: المصدر السابق، ص67/ ابن خلدون: المصدر السابق، مج2، ص1910، 1912، 1914- 1915/ لخضر محمد بولطيف: فقهاء المالكية والتجربة السياسية الموحدية في الغرب الإسلامي، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، فرجينيا، و.م.أ، ط1، 1429هـ - 2009م، ص133، 182/ محمد المغراوي: **"تطور علاقة السلطة الموحدية بفقهاء المذهب المالكي إلى عهد يعقوب المنصور"**، مجلة آفاق الثقافة والتراث، مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث، دبي، الإمارات العربية، ع31، السنة الثامنة، 1421هـ- 2000م، صص24-33، ص25/ عز الدين عمر موسى: دراسات في تاريخ المغرب الإسلامي، دار الشروق، بيروت، ط1، 1403ه- 1983م، ص105.

بهذا الاسم، إنّما يتسمى به الخلفاء وأنا رَجُل الخليفة العباسي والقائم بدعوته في بلاد المغرب "[1]، وفي المقابل رأوا تصرُّف الموحدين خروجا عن طاعة أولي الأمر وعن الخلافة الشرعية، وقد أجمع المسلمون على تحريم القيام عليهم وعلى وجوب طاعتهم[2]، ولذلك لـمَّا طلب عبد المؤمن بن علي من الأمير المرابطي علي بن يوسف الدخول في أمره ومبايعته، ردَّ عليه محذِّرا من مفارقة الجماعة وإثارة الفتنة[3]، وهو نفس الموقف الذي عبَّر عنه قاضي تلمسان ابن صاحب الصلاة[4] لـمَّا أُحضر المهدي بين يديه في بداية دعوته، فوبَّخه على منتَحَلِه وخلافه لأهل قطره[5]، ولنفس السبب انتقض أهل مدينة سبتة سنة 543هـ-1148م برأي القاضي عياض[6]، وقد علَّق السلاوي على ذلك قائلا: "واعلم أنَّ ما صدر من القاضي عياض في جانب الموحدين، دليل على أنه كان يرى أنْ لاحقَّ لهم في الأمر والإمامة، لأنَّ بيعة تاشفين لازالت في أعناقهم وهو لا يزال حيًّا "[7]، ولـمَّا توفي بايعوا لابن

1- ابن عذاري: المصدر نفسه، ج4، ص27- 28/ ابن سماك العاملي: المصدر السابق، ص79- 80.

2- عن هذا الموضوع يُنظر صحيح البخاري، المصدر السابق، كتاب الفتن، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم ((مَنْ حَمَلَ عَلَيْنَا السِّلاَحَ فَلَيسَ مِنَّا))، رقم الحديث 7070، ص1283/ الشوكاني: نيل الأوطار من أسرار منتقى الأخبار، دار ابن حزم، ط1، 1421هـ- 2000م، باب الصبر على جور الأئمة وترك قتالهم، رقم الحديث 3231، ص1517/ النووي: صحيح رياض الصالحين، باب في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، رقم الحديث 183، ص111/ الماوردي: الأحكام السلطانية والولايات الدينية، ص75/ البرزلي: فتاوى البرزلي، تقديم وتحقيق محمد الحبيب الهيلة، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 2000م، ج6، ص164/ الونشريسي: المصدر السابق، ج5، ص34/ التبريزي: النصيحة للراعي والرعية من الأحاديث النبوية والآثار المروية، حققه وعلق عليه أبو الزهراء عبيد الله الأثري، دار الصحابة للتراث، طنطا، ط1، 1411هـ-1991م، باب ذكر الطاعة لمن ولاه الله الأمر والحث على الوفاء ببيعته، ص71، 76/ ابن تيمية: الاستقامة، دار ابن حزم، بيروت، ط1، 1424هـ- 2004م، ص24 وما بعدها/ ابن أبي زَمَنَين: رياض الجنة بتخريج أصول السنة، تحقيق وتعليق عبد الله بن محمد، مكتبة الغرباء الأثرية، المدينة المنورة، ط1، 1415هـ، صص276- 280/ محمد عمارة وآخرون: موسوعة الحضارة العربية الإسلامية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر والتوزيع، دار الفارس، عمان، ط1، مج2، ص422، 478

3- عبد الواحد المراكشي: المصدر السابق، ص260.

4- ابن صاحب الصلاة: أبو عمرو عثمان، من أهل العلم والدين والرياسة، تولَّى قضاء مدينة تلمسان، قتله عبد المؤمن بن علي بوصية من المهدي إذ قال له: " اقتله فإنَّ صفير الصاد من قوله لي، اشتغل بخويصة نفسك في أُذني حتى الآن "، وذلك عند فتح مدينة تلمسان سنة 539هـ- 1144م، حسب يحي بن خلدون، بينما سكت أخوه عبد الرحمن واكتفى بخبر قتل عبد المؤمن لأهل تاكرارت، ويظهر أن قتله لم يكن لسبب شخصي فقط، وإنما لما قد يشكلُه من خطر على الدعوة الموحدية، وقبره خارج باب العقبة. يحي بن خلدون: المصدر السابق، ج1، ص116، 171/ عبد الرحمن بن خلدون: المصدر السابق، مج2، ص1913.

5- ابن خلدون: نفسه، مج2، ص1910/ السلاوي: المرجع السابق، ج2، ص74- 75/ البيذق: المصدر السابق، ص39

6- القاضي عياض: أبو الفضل عياض بن موسى اليحصبي، أندلسي النّجار سبتي الدار، إمام في الحديث والتفسير، فقيه أصولي ولغوي، وُلي قضاء غرناطة وسبتة، له عدة مصنفات في الفقه والتفسير والحديث والتراجم، توفي سنة 543هـ. ابن فرحون: المصدر السابق، ص270- 271، 273/ المقري: أزهار الرياض، مج2، ج3، ص5 وما بعدها/ النباهي: تاريخ قضاة الأندلس، المسمى المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا، تحقيق لجنة إحياء التراث العربي، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط5، 1403هـ- 1983م، ص101/ ابن الخطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة، ج4، ص222/ الذهبي: العبر، ج2، ص467/ تذكرة الحفاظ، تصحيح عبد الرحمن بن يحي المعلمي، دار الكتب العلمية، دت، ج4، ص1304/ القفطي: المصدر السابق، ج2، ص363/ ابن قنفذ: شرف الطالب في أسنى المطالب، تحقيق محمد بن يوسف القاضي، شركة نوابغ الفكر، القاهرة، ط1، 1430هـ- 2009م، ص192- 193.

7- السلاوي: المرجع السابق، ج2، ص103.

غانية المرابطي الذي لا يزال في نظرهم ممثل دولة الملثمين، وهو ما استغلّه أثناء ثورته حيث خطب للخليفة العباسي الناصر لدين الله (575- 622هـ/ 1180- 1225م) ببغداد[1].

هناك قضية سياسية أخرى تطرَّق إليها الفقهاء وكانت محل خلاف بين المرابطين والموحدين، أثارت جدلا بينهما وهي قضية النسب العربي القرشي الذي حاول كلٌّ من ابن تومرت وخليفته عبد المؤمن اصطناعه لإضفاء الشرعية على الحكم باعتبار القرشية شرطا من شروط الخلافة[2]، فقد أنكر الفقهاء النسب العربي للخلفاء الموحدين واعتبروهم أدعياء فيه، وهو ما يتعارض مع مبدأ الخلافة في قريش والذي يعني إسقاط الشرعية عنهم أو القدح في خلافتهم على الأقل، وفي المقابل أثبتوا لهم النسب البربري[3]. ومن المواقف التي سجَّلَتها مصادر التاريخ وكتب التراجم للفقهاء في هذا الشأن وأدت إلى امتحانهم بالنفي والتغريب أو الاعتقال والسجن أو حتى الاغتيال، ابن العربي[4] الذي تعرَّض لسخط الخليفة عبد المؤمن لأنه لم يقرِّر لقاء المهدي عند الإمام الغزالي، وجوابه عما قاله هذا الأخير عن ابن تومرت:

1- ابن خلدون: المصدر السابق، مج2، ص1914، 1925/ ابن عذاري: ق. الموحدين، ص32/ الذهبي: العبر، ج3، ص81/ السيوطي: تاريخ الخلفاء، ص320/ النويري: المصدر السابق، ص435/ ابن أبي زرع: المصدر السابق، ص191.

2- هناك خلاف بين الفقهاء والفِرق الإسلامية في شرط القرشية، فيرى الأشعرية وبعض المعتزلة والظاهرية وجمهور المرجئة أنها شرط من شروط الخلافة، فيما ترى بقية الفِرق غير ذلك. عن هذه القضية يُنظر، الماوردي: المصدر السابق، ص64/ ابن خلدون: المقدمة، ص153/ ابن حزم : الفِصل في المِلل والأهواء والنِحل، وضع حواشيه أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط3، 2007م- 1428هـ، مج3، ص6- 7/ السيوطي: المصدر نفسه، ص15/ الونشريسي: كتاب الولايات ومناصب الحكومة الإسلامية والخطط الشرعية، نشر وتعليق محمد الأمين بلغيث، نشر لافوميك، ص22/ موسوعة الحضارة العربية الإسلامية، مج2، ص231- 234/ حسن إبراهيم حسن: المرجع السابق، ج1، ص351- 352.

3- تضاربت الأقوال في نسب ابن تومرت وخليفته عبد المؤمن، وإن كانت معظم المصادر التي ترجمت لهما ولاسيما الموالية للدولة الموحدية، تؤكد نسبهما العربي بل العلوي، في حين تُثبت أخرى النسب البربري، وأنهما دعيان في النسب العربي فضلا عن النسب الشريف وذلك من أجل تبرير الخلافة، ولذلك كان عبد المؤمن إذا قيل له الكومي يقول: لست منهم وإنَّما نحن لقيس عيلان ولكومية علينا حق الولادة بينهم والمنشأ فيهم، وهُمْ الأخوال. عن هذه القضية يُنظر ابن خلدون: المصدر السابق، مج2، ص1909/ ابن الأثير: المصدر السابق، مج2، ص2291/ ابن القطان: المصدر السابق، ص87- 88، 111/ ابن أبي زرع: المصدر السابق، ص172، 183/ عبد الواحد المراكشي: المصدر السابق، ص265/ لسان الدين بن الخطيب: أعمال الأعلام، ق3، ص266، 271/ رقم الحلل، ص56- 58/ ابن سماك: المصدر السابق، ص170-171/ صالح بن عبد الحليم الإيلاني: المصدر السابق، ص211- 212/ الزركشي: المصدر السابق، ص3/ النويري: المصدر السابق، ص395/ السلاوي: المرجع السابق، ج2، ص71/ محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس-عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس- ص159 - 160. أحمد مختار العبادي: المرجع السابق، ص110- 111. عز الدين عمر موسى: الموحدون في الغرب الإسلامي، ص122- 123.

4- ابن العربي: أبو بكر محمد بن عبد الله بن محمد المعافري الاشبيلي، سمع بالأندلس وبجاية والمهدية، دخل الشام والعراق رفقة والده سنة 485هـ- 1092م وسمع بهما، حجَّ سنة 489هـ- 1096م، أخذ بمصر عن جملة من العلماء، دخل الأندلس سنة 493هـ- 1099م، له مصنفات عديدة في الفقه والعقيدة منها: عارضة الأَحْوَذِي في شرح الترمذي، أنوار الفجر، شرح موطأ مالك، توفي سنة 543هـ- 1148م. النباهي: المصدر السابق، ص105- 107/ ابن بشكوال: الصلة، تحقيق وتعليق بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، تونس، ط1، 2010م، مج2، ص227- 228/ ابن فرحون: المصدر السابق، ص376/ المقري: أزهار الرياض، ج3، ص58/ نفح الطيب، مج3، ص245/ الفتح بن خاقان: تاريخ الوزراء والكتاب والشعراء، تقديم وتحقيق وتعليق مديحة الشرقاوي، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ط2، 1428هـ- 2007م، ص154 / الذهبي: تذكرة الحفاظ، ج4، ص1294/ اليافعي اليمني: المصدر السابق، ج3، ص214/ الذهبي: العبر ، ج2، ص468.

" إنّ هذا البربري لابد سيظهر"[1]، وربما كان لهذا السخط أثره في وفاة ابن العربي حيث تذكر بعض المصادر أنه مات مسموما[2]، لاسيما وأنه عاد من المشرق برسالة[3] من الغزالي تؤيِّد الأمير المرابطي يوسف بن تاشفين وتشِيد بمواقفه السياسية وتمسكه بالدعوة العباسية.

يبدو أنَّ النعت أو النسب البربري في مقابل النسب العربي أو القرشي[4] كان هاجسا يؤرِّق الموحدين لأنه يطعن في شرعية خلافتهم التي طالما جَّد لها عبد المؤمن الطلبة وأشرف على تكوينهم بنفسه ليكونوا لسان الدعوة والمذهب.

تَوَاصَل ضغط بني عبد المؤمن ضد الفقهاء في شكل صراع غير معلن، كشف عن التناقضات والاضطرابات الداخلية والشكوك التي كان يشعر بها الخلفاء الموحدون في قرارة أنفسهم، وهو ما نلمسه مثلا في القرار الخطير الذي اتخذه إدريس المأمون (626-629هـ/ 1228- 1231م) عندما تنكر لتعاليم ابن تومرت وألغى الرسوم المهدوية[5] في رسالة بعث بها إلى الأقطار يقول فيها: "... ولتعلموا أننا نبذنا الباطل، وأظهرنا الحق، وأن لا مهدي إلا عيسى ابن مريم... فتلك بدعة قد أزلناها "[6]. ومن الفقهاء الذين تعرَّضوا للنفي على يد عبد المؤمن، أبو القاسم الرندي[7]، لأنه قال في حقه: "كيف تصح له الخلافة وليس بقرشي"[8] ؟ ومن الذين نالتهم المحنة أيام يعقوب المنصور (580-595هـ- 1184- 1198م)

1- ابن أبي زرع: المصدر السابق، ص172، 190/ ابن أبي دينار: المصدر السابق، ص110/ السلاوي: المرجع السابق، ج2، ص105.

2- ابن غازي: المصدر السابق، ص73/ ابن فرحون: المصدر السابق، ص376/ عبد الواحد المراكشي: وثائق المرابطين والموحدين، 1997م، ص156.

3- نص الرسالة أورده محمد عبد الله عنان ضمن وثائق مرابطية وموحدية في كتابه دولة الإسلام في الأندلس عصر الموحدين، ج5، ص530/ الطاهر المعموري: الغزالي وعلماء المغرب، الدار التونسية للنشر، 1990م، ص8- 9/ عبد الواحد المراكشي: المصدر نفسه، ص30/ السلاوي: المرجع نفسه، ج2، ص52.

4- يقول المقري في هذه القضية: كل من عُرفَ بالأصالة في المغرب الأقصى، ولم يُعلم لآبائه قدوم من المشرق حيث جراثيم العرب، ولا قدوم من الأندلس حيث أبناء العرب، وانتسب مع ذلك إلى قبيلة من العرب، فلا بد له من الاستظهار على ذلك، وإلاّ كان ما أتى به مظنة لأحد أمرين: إمَّا لكون سلفه من الموالي فانتسبوا إلى ساداتهم، إذ يجوز لمن كان مولى عربي أن ينتسب إلى قبيلة سيده، وإما للكذب. أزهار الرياض، مج1، ج2، ص368- 369.

5- رسائل موحدية- مجموعة جديدة- ج1، ص384- 386/ ابن عذاري: البيان المغرب، ق. الموحدين، ص286/ ابن أبي زرع: المصدر السابق، ص251/ ابن الخطيب: رقم الحلل في نظم الدول، ص61/ يرى لخضر محمد بولطيف أنَّ التراجع عن الإديولوجية التومرتية جاء نتيجة تصاعد الاتجاه السني المالكي وضغوط الثوار بالأندلس وإفريقية المبايعين للخلافة العباسية. المرجع السابق، ص380.

6- ابن سماك العاملي: المصدر السابق، ص248- 249.

7- أبو القاسم الرندي: القاضي أبو القاسم أخيل بن إدريس الرندي، كتب في أول أمره للملثمين، ثم استكتبه أبو جعفر حمدين بن محمد بن حمدين في إمارته، فلما دخل ابن غانية قرطبة وأخرج ابن حمدين، لحق أخيل ببلده رندة، ولما استولى ابن الغمر على رندة انتقل إلى مالقة ومنها إلى مراكش فأوطنها، وبها اتصل بالوزير جعفر بن عطية فكان في طبقته إلى أن وُلي قضاء قرطبة ثم اشبيلية، توفي سنة 560هـ- 1164م أو 561هـ- 1165م. ابن الأبار: المصدر السابق، ص296/ ابن سعيد المغربي: المصدر السابق، ج1، ص335/ ابن الأبار: التكملة لكتاب الصلة، طبع وتعليق ألفريد بل وابن أبي شنب، المطبعة الشرقية للأخوين فونتانا، الجزائر، 1338هـ-1919م، ق1، ص252-253.

8- المقري: نفح الطيب، مج5، ص338.

الفيلسوف ابن رشد الحفيد[1] حيث تعرَّض للنفي وإحراق كتبه، وإن كانت الأسباب الظاهرة لذلك فلسفية عقدية إلا أنَّ الخفي منها قضية شخصية وسياسية تتعلق بالنسب وبالتالي الخلافة، ذلك أنَّ ابن رشد قال في كتاب الحيوان: "رأيت الزرافة عند ملك البربر"[2]، وإلا فكيف يطلب منه البحث والنظر في مسألة ثم يعاقبه على ذلك ؟. ومن المواقف التي جسدت الجدل حول فكرة العروبة والقرشية وعلاقتها بالحكم، المناظرة التي جرت بين أبي الوليد الشقندي[3] وابن المعلم الطنجي في مجلس الأمير أبي يحي بن أبي زكريا صاحب سبتة في التفضيل بين البَرَّيْن الأندلس والمغرب، حيث قال الشقندي بعد كلام: لولا التوقير للمجلس لقلت ما تعلم، فقال الأمير أبو يحي: أتريد أن تقول كون أهل بَرَّنا عربا وأهل برَّكم بربر؟... ثم قال الشقندي: إنْ كان الآن كرسي جميع بلاد المغرب عندكم بخلافة بني عبد المؤمن، فقد كان عندنا بخلافة القرشيين[4]. ولهذا السبب ربما ثار بعض أمراء العرب[5] على الموحدين.

إنَّ خلفية وأبعاد النسب العربي وعلاقتها بالحكم، لم تقتصر في الحقيقة على الموحدين فحسب، بل مست حتى المرابطين المحسوبين على الخلافة العباسية، ويمكن أن نستشف ذلك

1- ابن رشد: أبو الوليد محمد ابن أحمد بن أبي الوليد بن رشد الحفيد القرطبي، درس الفقه وعلم الأصول وعلم الكلام والفلسفة والطب والمنطق، له عدة مؤلفات تنوف عن الستين في مختلف العلوم منها، بداية المجتهد ونهاية المقتصد، الكليات في الطب، مختصر المستصفى في الأصول، توفي بمراكش سنة 595هـ- 1198م. ابن فرحون: المصدر السابق، ص378/ الذهبي: المصدر السابق، ج3، ص111/ النباهي: المصدر السابق، ص111/ محمد بن محمد مخلوف: المرجع السابق، ص146.

2- عبد الواحد المراكشي: المعجب، ص384/ ابن سعيد المغربي: المغرب في حلى المغرب، ج1، ص105/ الغبريني: المصدر السابق، ص96/ ابن أبي دينار: المصدر السابق، ص110/ تذكر بعض المصادر والمراجع عدة تفسيرات لمحنة ابن رشدمع المنصور الموحد منها أنَّ ابن رشد كان متى حضر مجلس المنصور وتكلَّم معه أو بحث عنده في شيء من العلم يخاطب المنصور: تسمع يا أخي. وقيل أنَّ المنصور كان على علم بمؤلفات ابن رشد وإنما كان نفوره منه لسبب شخصي محض أو وقع نتيجة سعايات الحاسدين من أهل الحاشية. وقيل اختصاص ابن رشد بيحي أخي المنصور والي قرطبة. ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء، نشره أوجست مُلَر، معهد تاريخ العلوم العربية والإسلامية، فرانكفورت، 1416هـ- 1995م، ج2، ص77/ فرح أنطون: ابن رشد وفلسفته، تقديم أدونيس العكرة، دار الطليعة، بيروت، ط1، 1981م، ص44- 47/ موسوعة الحضارة العربية، مج1، ص110.

3- الشقندي: أبو الوليد إسماعيل بن محمد الشُّقَنْدي، كان شاهدا عدلا، تولى قضاء بياسة وأبَّدة، تفنَّن في العلوم القديمة والحديثة، حسبه في الأدب الرسالة التي كتبها في فضل الأندلس، توفي باشبيلية سنة 627هـ- 1229م/ ابن سعيد المغربي: المصدر نفسه، ج1، ص218/ المقري: المصدر السابق، مج4، ص163.

4- ورد تفضيل بلاد الأندلس عموما وعلى عدوة بلاد المغرب بصفة خاصة في كتابات كثير من المؤرخين، سواء من حيث طبيعتها الجغرافية وما تزخر به من خيرات أو بعلومها وآدابها، أو بمن فتحها واستوطنها من أشراف العرب، من ذلك قول ابن بسام: " ... وبالجملة فأكثر أهل بلاد هذا الأفق أشراف عرب المشرق افتتحوها، وسادات أجناد الشام والعراق نزلوها، فبقي النسل فيها بكل إقليم، على عرق كريم "، وقول الحجاري في المسهب، نقله المقري: " الأندلس عراق المغرب، عزة أنساب ورقَّة آداب"، وهذا التفضيل يكون قد أورث بعض الضغينة والصراعات التي بقيت كامنة في النفوس. المقري: نفح الطيب، مج4، ص163-165، مج1، ص178، 235-236/ ابن بسام: المصدر السابق، ق1، ج1، ص37/ ابن سعيد المغربي: المصدر السابق، ج1، ص218-219.

5- من هذه الثورات، ثورة علي بن المعتز من بني الرند أمراء قفصة سنة 572هـ- 1176م. النويري: المصدر السابق، ص432/ ابن خلدون: المصدر السابق، مج2، ص1920/ ابن أبي زرع: المصدر السابق، ص213/ عبد الواحد المراكشي: المصدر نفسه، ص325/ الزركشي: المصدر السابق، ص14/ ابن أبي دينار: المصدر السابق، ص114/ رسائل موحدية، ج1، ر30، ص144.

من خلال مناظرة الشقندي السابقة، عندما يفتخر بملوك الأندلس، فيقول عن يوسف بن تاشفين: " لولا توسُّط ابن عباد لشعراء الأندلس في مدحه ما أجْرَوا له ذكرا، ولا رفعوا لمُلكه قدراً "[1]، وإن كانت هذه النظرة لا تخلو من ضغينة ضد الأمير المرابطي لأنه أزال عروش ملوك الطوائف[2]، أو لكونه بربريا وهو الموقف الذي يكون قد دافع عنه الرشيد بن المعتمد ابن عباد لما عزم والده على الاستنجاد بيوسف ابن تاشفين، فقال له: " لا تستعجل بإدخال من يسلبنا الملك "[3]، وقد أشار السلاوي إلى هذه القضية قائلا: " واعلم أنه قد يوجد هنا لبعض المؤرخين حطٌّ من رتبة أمير المسلمين وغضٌّ عليه، إما في كونه كان بربريا من أهل الصحراء بعيدا عن مناحي الملك، وإما في كونه تحامل على ملوك الأندلس "[4]، وهو ما يُفسِّر تخلي معظم ملوك الطوائف عنه في حصار لييط، وقالوا إنَّ طاعته غير واجبة لأنه ليس إماما شرعيا من قريش[5]. لكن يجب أن نشير هنا إلى أنَّ المرابطين مَثَّلوا الخلافة العباسية، في حين ادعى الموحدون الخلافة، وقد كانت لهذه النظرة آثارًا سياسية سلبية حيث مكّنت الصليبيين من التكالب على المسلمين من خلال هذا الصراع.

الحقيقة أنَّ الفقهاء المالكية من خلال معاداتهم للموحدين وبخاصة في المراحل الأولى على الأقل، لم يكن بوسعهم مواجهتهم عسكريا بالرغم من مساندة بعضهم لثورة ابن غانية، ولذلك اتجهوا إلى مقاطعة سلطتهم والاختفاء أو الهجرة، لاسيما وأنَّ الموحدين قد تتبعوا كل من ظهر منه قول أو فعل ضدهم، فاشتدت وطأتهم على أهل العلم[6]، فاعتُقِل البعض وغُرِّب البعض الأخر وبخاصة في عهدي عبد المؤمن وحفيده يعقوب المنصور الذي نكّل بفقهاء المالكية[7]، وقد كان الأندلسيون بصفة خاصة أكثرهم عرضة للنَّكال والمضايقة، ومن بين

1- المقري: المصدر السابق، مج4، ص167.

2- عن موقف ابن تاشفين من ملوك الطوائف يُنظر عبد الله بن بلكين: المصدر السابق، ص200 وما بعدها/ ابن الخطيب السلماني: أعمال الأعلام، ق2، ص247/ ابن خلدون: المصدر السابق، مج2، ص1886/ النويري: المصدر السابق، ص387.

3- ابن الخطيب: المصدر نفسه، ق2، ص245. يعدُّ هذا الموقف أحد المواقف الصريحة التي تُعبِّر عن العداوة التي كانت تربط الأندلسيين بأهل بلاد المغرب عموما من البربر وإن كان طابعها سياسيا.

4- السلاوي: المرجع السابق، ج2، ص51.

5- محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس، ص42.

6- الغبريني: المصدر السابق، ص21-22.

7- وفي ذلك يقول صاحب المعجب: " وفي أيامه انقطع علم الفروع وخافه الفقهاء، وأمر بحرق كتب المذهب كمدوَّنة سحنون وكتاب ابن يونس ونوادر ابن أبي زيد ومختصره وكتاب التهذيب للبرادعي وواضحة ابن حبيب ... وتقدَّم إلى الناس في ترك الاشتغال بعلم الرأي والخوض في شيء منه "، ص354- 355. وكانت حجته في ذلك أنَّ فقهاء المالكية آثروا كتب الفروع المؤلفة في المذهب عن الأصول أي الكتاب والسنة، فسادَ التقليد وتعددت الآراء في المسألة الواحدة، وأُهمل النظر في الأصول النصية لاستنباط الأحكام. عبد المجيد النجار: تجربة الإصلاح في حركة المهدي ابن تومرت، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، فرجينيا، و.م.أ، ط2، 1415هـ-1995م، ص51/ لخضر محمد بولطيف: المرجع السابق، ص322/ محمد بن الحسن الحجوي الثعالبي: الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي، مطبعة دار المعارف، الرباط، 1336هـ- 1918م، ج4، ص8.

ضحايا السياسة الموحدية تلك نذكر، ابن زرقون[1] والعبدري[2] والتادلي[3] الذي توفي مغرَّبا عن وطنه بمكناسة.

أمَّا بالنسبة للمغرب الأوسط، فإنَّ معلوماتنا عن علاقة الموحدين بفقهاء المالكية تبدو شحيحة وغامضة، إلا أنه من غير الـمُستبعد أن يكون هؤلاء الفقهاء قد تعرَّضوا لنفس الموقف، لاسيما وأنَّ المغرب الأوسط مَّثل أحد قلاع المذهب المالكي، ولذلك فقداستُ دعيَ يحي الزواوي[4] من طرف يوسف بن عبد المؤمن إلى مراكش لأنه ردّ على ابن حزم في كتابه "حجة الأيام وقدوة الأنام"، ولم يخرج من هذه الورطة إلا بعد أن بعث بأحد أقاربه ليجادل عنه، وهو ما يدل على مراقبة الموحدين لنشاط الفقهاء وبخاصة بعد قيام ثورة بني غانية التي يبدو أنَّ الموحدين كانوا يتخوفون من مساندتهم لها، فكان من نتائجها اعتقال عمارة بن يحي[5] في حملة الموحدين لاسترجاع بجاية من ابن غانية، وتعرّض بدوره حسن المسيلي[6] لمضايقات ومتابعة من قِبَل واليهم على بجاية. ويظهر أنَّ خلفاء بني عبد المؤمن كانوا منزعجين بعض الشيء من الفقهاء والعلماء المالكية لمواقفهم السياسية أو لتوجههم

1- ابن زرقون: أبو الحسن محمد بن عبد الله بن محمد بن سعيد بن أحمد بن سعيد الإشبيلي، شيخ المالكية الفقيه الحافظ المبرز، كان متعصِّبا لمذهب مالك قائما عليه، أوذي من قِبَل بني عبد المؤمن، ولمَّا أبطلوا القياسألَّف كتاب المعلَّى في الرد على المحلَّى لابن حزم، توفي سنة 621هـ- 1224م. ابن فرحون: المصدر السابق، ص380/ اليافعي اليمني: المصدر السابق، ج4، ص39/ الذهبي: العبر في خبر من غبر، ج3، ص184/ عز الدين عمر موسى : الموحدون في الغرب الإسلامي تنظيماتهم ونظمهم، ص196/ محمد مخلوف: المرجع السابق، ص178.

2- العبدري: أبو الحسن علي بن صالح بن أبي الليث يُعرف بابن عز الناس، كان فقيها حافظا عالما بالأصول والفروع، وهو من كبار فقهاء شرق الأندلس ورأس مفتيها ومشاوريها، أخذ عن أبي بكر بن العربي وأبي القاسم بن ورد صاحب الجوابات، وعن أبي الوليد بن رشد.قُتل مظلوما سعاية عند السلطان سنة 566هـ- 1170م. ابن فرحون: المصدر نفسه، ص305/ التنبكتي: نيل الابتهاج بتطريز الديباج، تحقيق علي عمر، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ط1، 1423هـ- 2004م، مج1، ص351/ كفاية المحتاج لمعرفة من ليس في الديباج، تحقيق علي عمر، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ط1، 1425هـ- 2004م، ج1، ص254/ محمد المغراوي: المقال السابق، ص28.

3- التادلي: القاضي محمد ين عيسى التادلي الفاسي، الفقيه الإمام العالم، يُقال أنّه كتب المدوَّنة من حفظه بعد أن أمر الموحدون بحرقها، سُجِن ثم أُطلق سراحه توفي سنة 597هـ.- 1200م التنبكتي: نيل الابتهاج، مج1، ص228. محمد مخلوف: المرجع نفسه، ص164/ محمد المغراوي: المقال نفسه، ص29/ لخضر محمد بولطيف: المرجع نفسه، ص295.

4- يحي الزواوي: أبو زكريا يحي بن علي المشتهر بالزواوي، الشيخ الفقيه الصالح الورع، قرأ أولا بقلعة بني حماد على الشيخ ابن الخراط وغيره ثم ارتحل إلى المشرق ولقي الفقهاء والمشايخ والمتصوفة، استوطن بجاية بعد رجوعه من هذه الرحلة وجلس بها لبث العلم حيث أخذ عنه أعلام، توفي سنة 611هـ- 1214م. الغبريني: المصدر السابق، ص61 وما بعدها/ ابن الزيات التادلي: التشوُّف إلى رجال التصوُّف، تحقيق علي عمر، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ط1، 1427هـ- 2007م، ص357/ محمد مخلوف: نفسه، ص184/ الحفناوي: المرجع السابق، مج2، ص576/ عادل نويهض: المرجع السابق، ص168.

5- عمارة بن يحي: أبو الطاهر عمارة بن يحي بن عمارة الشريف الحسني، كان متقدما في علم العربية والأدب، له تأليف في علم الفرائض. الغبريني: المصدر السابق، ص20 وما بعدها.

6- حسن المسيلي: أبو علي حسن بن علي بن محمد، العالم العابد المحقق المجتهد الإمام، كان يُسمى أبا حامد الصغير، له مصنفات حسنة منها، التذكرة في علم أصول الدين، والنبراس في الرد على منكِر القياس، وُلي قضاء بجاية ثم تأخَّر عنه واشتغل بالعلم والتدريس، توفي نحو 580هـ- 1185م. الغبريني: المصدر السابق، ص13- 18/ التنبكتي: نيل الابتهاج، مج1، ص167/ كفاية المحتاج، ج1، ص118/ عادل نويهض: المرجع السابق، ص299- 300.

المذهبي، ومن هؤلاء الفقيه أبو عبد الله الأصولي[1] الذي كان مُزعجًا للموحدين بسبب شدَّته وصلابته في الدين وعلاقة الأخوة والصفاء التي كانت تربطه بابن رشد، وسعيه في نجاته من محنته سنة 593هـ- 1196م، لدى الخليفة يعقوب المنصور ولذلك عُزل من القضاء عدة مرات عقابا له على ذلك.

رغم عداء الفقهاء المالكية للمذهب الحزمي الظاهري[2]، الذي كان المذهب الرسمي للدولة الموحدية، فإنَّ الخلفاء الموحدين عملوا على استمالة هذه الفئة والتقرب منها ولاسيما علماء الحديث[3]، هذا العلم الذي لقي عناية أكبر من طرف يعقوب المنصور الذي يقول عنه المراكشي: "ونال عنده طلبة العلم- أعني علم الحديث- ما لم ينالوا في أيام أبيه وجده"، ثم يُضيف قائلا: " وأمر جماعة ممن كان عنده من العلماء المحدِّثين بجمع أحاديث من المصنفات العشرة "[4].

استطاع الموحدون إذن من استقطاب واحتواء جملة من علماء الحديث الذين نالوا مكانة بفضل استجابتهم للمشروع الموحدي، إذ أصبح نفوذهم معتبرا في السلطة نتيجة توليهم مناصب القضاء والشورى، نذكر منهم: ابن القطان[5] الذي ساهم في إثراء التوجه الجديد للموحدين[6]، وممن حظي كذلك بمكانة على عهدي المنصور (580- 595هـ/ 1184- 1198م)

1- أبو عبد الله الأصولي: محمد بن إبراهيم الفهري المشتهر بالأصولي، من أهل بجاية برع في علم الكلام والجدل وأصول الفقه ولذلك سُمي بالأصولي، رحل إلى المشرق ولقي الجلة من أهل العلم، تولى قضاء عدة مدن بالأندلس، ثم مراكش وبجاية، جادل الخليفة المنصور لما هَمَّ بابن رشد، وقال له: " منعتم الشهادة على الخط في الدرهم والدينار وتُجيزونها في قتل المسلم "، وقد يكون ذلك سببا لحقد الموحدين عليه. توفي ذبيحا سنة 612هـ- 1215م. الغبريني: المصدر السابق، ص95- 97/ التنبكتي: نيل الابتهاج، مج2، ص26/ الحفناوي : المرجع السابق، ج2، ص325- 327/ عادل نويهض: المرجع نفسه، ص18.

2- يقول ابن العربي عن صاحب هذا المذهب: " كان أول بدعة لقيتُ في رحلتي إلى المشرق القول بالباطن، فلما عدتُ وجدتُ القول بالظاهر قد ملأ المغرب بسخيف كان من بادية اشبيلية يُعرف بابن حزم، نشأ وتعلَّق بمذهب الشافعي، ثم انتسب إلى داود، ثم خلع الكل واستقلَّ بنفسه". ابن العربي: العواصم من القواصم، تحقيق عمار الطالبي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981م، ج2، ص336/ عز الدين عمر موسى: الموحدون في الغرب الإسلامي تنظيماتهم ونظمهم، ص193.

3- عبد الواحد المراكشي: المصدر السابق، ص355/ لخضر محمد بولطيف: المرجع السابق، ص316-317/ عز الدين عمر موسى: المرجع نفسه، ص196-197.

4- عبد الواحد المراكشي: المصدر نفسه، ص355- 356. أما كتب الحديث فهي: الصحيحين والترمذي والموطأ وسنن أبي داود وسنن النسائي وسنن البزار ومسند ابن أبي شيبة وسنن الدارقطني وسنن البيهقي. عز الدين عمر موسى: الموحدون في الغرب الإسلامي تنظيماتهم ونظمهم، ص192.

5- ابن القطان: أبو الحسن علي بن محمد بن عبد الملك الكتامي الفاسي، قرطبي الأصل، الفقيه الراوية العارف بصناعة الحديث وأسماء رجاله، أخذ عن أبي عبد الله بن الفخار وابن البقال وغيرهما، شرح أحكام عبد الحق الاشبيلي، رأس طلبة العلم بمراكش، نال دنيا عريضة في خدمة السلطان، توفي سنة 628هـ- 1230م وهو على قضاء سجلماسة/ الذهبي: تذكرة الحفاظ، ج4، ص1407/ التنبكتي: نيل الابتهاج، مج1، ص356. كفاية المحتاج، ج1، ص258/ محمد مخلوف: المرجع السابق، ص179.

6- لخضر محمد بولطيف: المرجع نفسه، ص317.

وابنه الناصر (595-610هـ/1198-1213م)، أبو الخطاب بن واجب[1] والأخوان ابني حوط الله، عبد الله[2] وداود[3]، وهنا يُمكن أن يُطرَح تساؤل عن بواعث وأبعاد هذا التقارب المفاجئ بين السلطة وهؤلاء، فكيف حدث ذلك وقد كان الفقهاء محل تشنيع وتهكُّم من قِبَل الموحدين. يظهر أنَّ هذا التحوُّل في الموقف الموحدي ينطوي على أبعاد سياسية وهي القضاء على الحليف الأساسي للمرابطين وهم الفقهاء وذلك في المرحلة الأولى على الأقل، حتى إذا صار لهم الأمر عادوا إلى الاستعانة بهم وهو ما يتضح في انخراط بعضهم في السلك الموحدي، ثم إنَّ فكرة التوحيد في حد ذاتها وإنْ كان ظاهرها دينيا فغايتها سياسية، فكل من يُؤمن بهذه الدولة وينضوي تحت لوائها قد يتغاضى عن اتجاهه المذهبي وإلا فكيف تُفسِّر تخليهم عن أهم أسس الفكر التومرتي كما أشرنا سابقا، وقد يعود ذلك إلى تغلغل المالكية وحضورهم القوي في أوساط المجتمع إذ كانوا يُشكّلون الأغلبية الساحقة التي لا يمكن تجاوزها، أو يكون الهدف من ذلك تشتيت صفوفهم وفي نفس الوقت كسب ولاء فريق منهم وبخاصة ممن لم يقف إلى جانب أعدائهم. أمَّا بالنسبة للطرف الثاني وهم الفقهاء المالكية فربما تقربوا من السلطة الموحدية تقية[4]، أو خضعوا للأمر الواقع في ظل ما بلغته الدولة من قوة سياسية وعسكرية إلى عهد محمد الناصر.

الموحدون والصوفية: لم يكن فقهاء المالكية وحدهم من نغَّص على الموحدين حكمهم لبلاد المغرب عموما، فظهور التيار الصوفي في الغرب الإسلامي منذ منتصف القرن الخامس الهجري وانتعاشه في القرن السادس، أصبح يُشكّل خطرا حينما ولج بعض أقطابه الحياة السياسية أواخر دولة المرابطين، ولمعالجة هذه النقطة يُمكن أنْ نطرح التساؤلات الآتية: ما علاقة المتصوِّفة بالحكام والسلطة، وما أسباب تخوُّف الموحدين منهم ؟ فهل كانت للحركة

1- ابن واجب: القاضي أبو الخطاب أحمد بن أبي الحسين محمد بن عمر، الإمام العالم، له عناية بالرواية ولقاء الشيوخ، أجاز له ابن بشكوال وغيره وسمع منه كثير من الناس وانتفعوا به، ولي قضاء بلنسية وشاطبة، توفي بمراكش سنة 614هـ-1217م. الذهبي: تذكرة الحفاظ، ج4، ص1397/ العبر في خبر من غبر، ج3، ص162/ محمد مخلوف: المرجع نفسه، ص174/ لخضر محمد بولطيف: المرجع السابق، ص317.

2- ابن حوط الله (عبد الله): أبو محمد عبد الله بن سليمان بن داود بن عبد الرحمن بن سليمان بن عمر، الفقيه الأصولي الحافظ، أخذ عن جلة من العلماء كابن الفخار وابن مضاء وابن زرقون، كما أخذ عنه جماعة، كان يُدرِّس كتاب سيبويه، ومستصفى أبي حامد، ويميل إلى الاجتهاد في نظره، ويُغلِّب طريقة الظاهرية، ولي قضاء إشبيلية وقرطبة ومرسية وسبتة وسلا، ألَّف كتابا في تسمية شيوخ البخاري ومسلم وأبي داود والنسائي والترمذي ولم يكمله، توفي سنة 612هـ-1215م. الذهبي: تذكرة الحفاظ، ج4، ص1397/ العبر، ج3، ص156/ لسان الدين بن الخطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة، ج3، ص416-417/ ابن فرحون: المصدر السابق، ص231/ السيوطي: بغية الوعاة، ج2، ص44/ اليافعي اليمني: مرآة الجنان، ج4، ص20/ الذهبي: العبر في خبر من غبر، ج3، ص156/ محمد مخلوف: المرجع السابق، ص173-174/ لخضر محمد بولطيف: المرجع نفسه، ص317.

3- ابن حوط الله (داود): أبو سليمان داود، الفقيه العلامة الراوية، أخذ عن أكثر من مائة شيخ، كان رفقة أخيه أرفع أهل الأندلس رواية في وقتهما، تولى قضاء سبتة وألمرية والجزيرة الخضراء وبلنسية ومالقة، توفي سنة 621هـ-1224م. ابن الخطيب: المصدر نفسه، مج1، ص503-506/ الذهبي: تذكرة الحفاظ، ج4، ص1398. العبر في خبر من غبر/ محمد مخلوف: المرجع نفسه، ص174/ ابن قنفذ: شرف الطالب، ص211.

4- عز الدين عمر موسى: المرجع السابق، ص198.

الصوفية أبعادا سياسية تتعلق بشرعية الخلافة مثلا أو طمعا في السلطة ؟ لاسيما وأنَّ بعضهم قد تزعَّم ثورة ضد الموحدين مثل ابن قسِّي[1] في الأندلس.

أما بالنسبة لعدوة المغرب، فقد شهدت بدورها نشاطا مكثفا للمتصوِّفة، اتّخذ أحيانا طابعا سياسيا مثل الثورة التي تزعَّمها محمد بن عبد الله بن هود، الذي ثار برباط ماسة[2] سنة 541هـ- 1146م، وقد تمكّن الشيخ أبو حفص من قتله والقضاء على ثورته، وكتب أبو جعفر بن عطية بالنصر إلى الخليفة عبد المؤمن بن علي. بعدها بسنوات وفي عام 548هـ-1153م ثارت قبائل هرغة وأهل جبل تينملل فقتلهم الخليفة وهجَّر بني أمغار إلى فاس وأسكنهم فيها تحت الحراسة[3]، وفعلا فقد كان تخوُّف بنو عبد المؤمن كبيرًا من هؤلاء ولاسيما إذا ما انضموا إلى طالبي السلطة، وهو ما حدث أيام يعقوب المنصور عندما حاول عمُّه أبو الربيع سليمان بن عبد المؤمن الخروج عليه بدعوة قبائل صنهاجة وأشياخها[4] مستغلاّ ثورة ابن غانية بإفريقية.

اتّبع بعض الصوفية أسلوبا غير مباشر وأقل حدَّة وهو انتقاد عمال وولاة الموحدين كنوع من التضامن الاجتماعي للتخفيف من وطأتهم على العامة، الذين وجدوا فيهم السَّند ضد السلطة، فكانوا يُعلنون ذلك على المنابر وفي المجالس ولا يخشون أحدا، ولذلك صاروا

1- ابن قسي: أبو القاسم أحمد بن الحسين، رومي الأصل من أحواز شلب، اشتغل في بداية أمره مشرفا بالأعمال المخزنية، ثم اعتنق طرائق الصوفية ودرس على أقطابها كابن العريف وغيره، فتبحَّر فيها حتى غدا من شيوخها وألَّف فيها طائفة من الكتب منها خلع النعلين (قد يكون رمزية وتعريضا بالمرابطين والموحدين) وكان له شيء من أفكار غلاة الباطنية فادَّعى الولاية وتسمى بالمهدي وكثُرت مخاريقه، ابتنى رابطة له بشلب يجتمع فيها بأصحابه وسرعان ما ذاع أمرهم بميرتلة ولبلة من أعمال غرب الأندلس، تزعَّم ثورة المريدين وهي أول ثورة في أعقاب الدولة اللمتونية بغرب الأندلس، هادن الموحدين ودخل في طاعتهم ثم نكث عليهم مستغلا ثورة الماسي، فحالف ابن الرنق صاحب قلمرية عندها قتله أصحابه سنة 546هـ-1151م. ويبدو أنّه كان ذا أطماع سياسية وهي حكم الأندلس أو ولايتها على الأقل. ابن الأبار: المصدر السابق، ص276/ ابن خلدون: المصدر السابق، مج2، ص1915-1916/ ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ق2، ص248-252/ عبد الواحد المراكشي: المصدر السابق، ص380-381/ ابن عذاري: المصدر السابق، ق. الموحدين، ص34- 35/ محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس، ص308.

2- ماسة أو ماست نهر عظيم ببلاد السوس، يصبُّ في البحر المحيط، عليه قرى متصلة وعمارات وإليه تُنسب مدينة ماسة وهي ثلاث مدن، كانت رباطا ومأوى للصالحين، الحميري: المصدر السابق، ص522/ الاستبصار، ص211-212/ ابن حوقل: المصدر السابق، ص67/ الإدريسي: المصدر السابق، مج1، ص240/ الحسن الوزان: المرجع السابق، ج1، ص113. عن هذه الثورة يُنظر، ابن خلدون: المصدر السابق، مج2، ص1914/ ابن سماك العاملي: المصدر السابق، ص221/ ابن أبي زرع: المصدر السابق، ص190/ ابن عذاري: البيان المغرب، ق. الموحدين، ص30/ عبد الواحد المراكشي: المصدر السابق، ص380-381/ أحمد عزاوي: رسائل موحدية- مجموعة جديدة- ج1، ص57-58/ ج2، ص69.

3- البيذق: المصدر السابق، ص138.

4- استغلَّ أبو الربيع والي تادلا غياب المنصور بإفريقية (582- 584هـ/ 1186- 1188م) لحرب علي بن غانية الميورقي، فثار ببلده مخاطبا القبائل المجاورة للنهوض معه، وفي نفس الفترة ثار والي مرسية أبو حفص الرشيد بالأندلس فاستدعاهما المنصور بعد عودته من إفريقية وقتلهما سنة 584هـ- 1188م. عبد الواحد المراكشي: المصدر نفسه، ص353/ ابن أبي زرع: المصدر نفسه، ص218/ ابن خلدون: المصدر نفسه، مج2، ص1922/ ابن عذاري: المصدر نفسه، ق. الموحدين، ص197.

عرضة للمضايقة أو الاعتقال والسجن، ومن هؤلاء إسماعيل الرجراجي[1] والشيخ أبي يعزى يلنور[2] والشيخ تَيِّلجي الدغوغي[3].

ومن رجال الصوفية الذين تخوفت منهم السلطة الموحدية وكان له صيت في المغرب الأوسط، أبو مدين شعيب[4] الذي وشى به بعض علماء الظاهر عند يعقوب المنصور، وقال له: "إنا نخاف منه على دولتكم، فإنَّ له شبها بالإمام المهدي وأتباعه كثيرون في كل بلد"، فوقع في قلبه وأهمَّه شأنه فبعث إليه في القدوم عليه، ويظهر أنَّ أبا مدين كان بدوره متخوِّفًا من الموحدين وهو ما يظهر في أحد المواقف، وهي منعه الطلاب من التقييد عليه عند شرحه لكتاب "المقصد الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى" رغم حرصه الشديد على بث العلم.

ومما يؤكد ذلك الصراع الخفي القائم بين السلطة الموحدية والصوفية أنّ ابن الزيات التادلي (ت627هـ- 1229م) مؤلف كتاب التشوُّف والمعاصر للدولة الموحدية، عندما يترجم لرجال التصوُّف لا يذكر بني عبد المؤمن، لا بألقابهم الخلافية ولا حتى بأسمائهم الشخصية وإنما ينسبهم إلى قبيلتهم، فيقول عنهم المصامدة أو يقول السلطان، وأحيانا يستعمل صيغة المجهول، فعندما يُترجِم مثلا لأبي إسحاق إبراهيم بن عبد الصمد الصنهاجي (ت596هـ- 1200م) يقول: "من عدوة وادي أزمور، قدِم حضرة مراكش بعد أن أمر بإشخاصه إليها"[5] ويقول عن أبي الحسن بن حِرزهِم (ت559هـ- 1164م): "وأخبرنا محمد بن علي بن عبد الله الأنصاري عن عبد الله بن عثمان عن أبي الحسن أنه قدم مراكش فاستدعاه بعض أمراء صنهاجة للقراءة عليه"[6].

يظهر أنَّ قلق خلفاء بني عبد المؤمن من رجال الصوفية هو إقبال الطبقة العامة عليهم وخوفهم من تشكيل قوة معارضة لهم لاسيما وأنَّ بعضهم قد كثُر طلبته ومريديه ليبلغ

1- الرجراجي: أبو إبراهيم إسماعيل بن وجماتن، من أهل أدّار من بلد رجراجة، كان من أكابر العلماء، لا يخشى السلطان وعماله فكان كثيرًا ما ينتقدهم وهو ما عرَّضه للسجن مرارا. التادلي: المصدر السابق، ص286، 291-292/ عبد الحليم الإيلاني: المصدر السابق، ص178.

2- أبي يعزى: من أقطاب الصوفية، أخذ عن أبي شعيب السارية وابن حرزهم، أثنى عليه أبو مدين كثيرا فقال: "رأيتُ أخبار الصالحين من زمان أويس القرني إلى زماننا هذا فما رأيتُ أعجب من أخبار أبي يعزى" وهو أحد شيوخه. توفي سنة 572هـ- 1176م بعدما بلغ نحو 130 سنة. التادلي: المصدر نفسه، ص173/ ابن قنفذ: أنس الفقير وعز الحقير، اعتنى بنشره وتصحيحه محمد الفاسي وأدولف فور، منشورات المركز الجامعي للبحث العلمي، الرباط، 1984م، ص21 وما بعدها/ محمد مخلوف: المرجع السابق، ص163/ عبد الله بن عبد القادر التليدي: المطرب بمشاهير أولياء المغرب، دار البشائر الإسلامية، بيروت، ط3، 1433هـ- 2012م، ص54-63.

3- تَيِّلجي الدغوغي: أبو محمد بن موسى من كبار المشايخ بدكالة، كان واعظا برباط شاكر، يُروى أنه قال: طُلبتُ في أيام عتاب (؟) طلبا شديدا، ولو وُجدْتُ لقُتِلت، مات سنة 605هـ- 1208م، وقد عمَّر 120 سنة. التادلي: المصدر نفسه، ص334.

4- تُنظر ترجمته، التادلي: المصدر السابق، ص259/ الغبريني: المصدر السابق، ص7/ المقري: المصدر السابق، ج9، ص361/ ابن الزبير: صلة الصلة، ق4، ص223/ابن قنفذ: أُنس الفقير وعز الحقير، ص11، 102-104/ التنبكتي: نيل الابتهاج، ج1، ص207/ ابن مريم: المصدر السابق، ص223 وما بعدها/ محمد مخلوف: المرجع السابق، ص164/ عبد الله بن عبد القادر التليدي: المرجع السابق، ص64.

5 - التادلي: المصدر نفسه، ص252.

6- نفسه، ص137/ لخضر محمد بولطيف: المرجع السابق، ص327.

المئات، وإذا كان لهذا القلق ما يبرره بالنسبة لهؤلاء في بداية أمر الدولة، فإنَّ الملفت هو تزايد هذا التخوُّف في مرحلة أَوَجِّ قوة الدولة، في عهدي يوسف بن عبد المؤمن وابنه يعقوب المنصور.

الموحدون وعمالهم: كثيرا ما كان بعض الأفراد ولاسيما من العمال والموظفين عُرضة للنفي والتغريب من السلطان بسبب سوء تصرُّف أو محاولة استقلال أو الانحياز إلى طرف منافس أو معادٍ، وممن تعرَّض لهذه العقوبة، أسرة بني جامع[1]، فقد استوزر يوسف بن عبد المؤمن أبا العلاء إدريس بن إبراهيم بن جامع، وولى أخاه عبد الله على سبتة، ثم غضب عليهم فنفى إدريس وأولاده إلى مدينة ماردة بغرب الأندلس سنة 577هـ- 1181م بعد أن استصفى أمواله، أما عبد الله فظلَّ في عمله وقد أصبح ابنه أبا سعيد عثمان وزيرا للناصر سنة 605هـ- 1208م، إلى أن وقع نزاع ومنافسة بينه وبين الوزير ابن يوجان بن يحي الهنتاتي، الذي سعى لبيعة أبي محمد عبد الله العادل، فيما وقف أبو سعيد إلى جانب عبد الواحد المخلوع، فلما انتصر العادل على عمه عبد الواحد سنة 621هـ- 1224م نُفيَ أبو سعيد عثمان إلى جبال الأطلس[2]، وتتواصل نكبات التهجير والتغريب للعمال بالمغرب الأقصى[3] وإفريقية[4] والمغرب الأوسط[5].

علاقة الموحدين بالقبائل:

1- علاقتهم بالقبائل العربية: تعود أولى اتصالات الموحدين بالعرب إلى بداية الدعوة التومرتية، ثم تطورت في عهد عبد المؤمن بن علي حين أذاع نسبه العربي في محاولة منه للتقرب منهم واستمالتهم إلى صفه لاسيما وأنهم كانوا قوة لا يُستهان بها، فتمركزهم في إفريقية والمغرب الأوسط بعيدا عن مركز الخلافة جعله يُفكر في هذا الأمر، فكانت قضية النسب العربي أحد الأركان أو الوسائل التي عوَّل عليها عبد المؤمن في تثبيت سلطانه بالمنطقة، مستفيدا من تجارب سياسية سابقة اعتمدت النسب الشريف أو الدين في إضفاء الشرعية على سلطتها وهو ما جعله يسعى لربط علاقات متينة مع العرب سواء كمجموعة

1- بنو جامع: أصل هذه الأسرة من مدينة طليطلة، كان منهم إبراهيم بن جامع، نشأ بروطة بساحل شريش (وهي غير روطة الثغر الأعلى) ثم انتقل إلى العدوة حيث تعرَّف بابن تومرت فكان من أصحابه، ووُلد له أولادًا نالوا في الدولة حظوة وجَاهًا متَّسعا، منهم أبو العلاء إدريس وعبد الله. عبد الواحد المراكشي: المصدر السابق، ص389- 390.

2- ابن الأبار: الحلة السيراء، تحقيق حسين مؤنس، دار المعارف، القاهرة، ط2، 1985م، ج2، ص239-241/ ابن خلدون: المصدر السابق، مج2، ص1918/ ابن سعيد: المغرب في حلى المغرب، ج1، ص110/ الحميري: المصدر السابق، ص174-175/ ابن عذاري: المصدر السابق، ق. الموحدين، ص139،166/ عبد الواحد المراكشي: المصدر نفسه، ص316.

3- سطوة الخليفة أبي يعقوب بعمال مدينة فاس وأنظارها. ابن عذاري: المصدر نفسه، ق. الموحدين، ص158.

4- من الذين تعرَّضوا للسخط، أبو محمد عبد الواحد بن عبد الله المعروف بوامجُّور، والي بمدينة تونس سنة 583هـ- 1187م، ويظهر أنَّ لذلك علاقة بثورة بني غانية، مات بنواحي بجاية في طريقه إلى المغرب مسخوطا عليه. ابن الأبار: المصدر نفسه، ج2، ص276.

5- وممن تعرَّض للنفي، شيخ كومية أبا زكريا بن حيون الذي نُفي إلى بطليوس بالأندلس. ابن عذاري: المصدر نفسه، ق. الموحدين، ص158.

أي قبائل أو أفراد وهم زعماء وشيوخ هذه القبائل وعليه فإنَّ الموحدين جمعوا بين الدعوة والإصلاح الديني والنسب العربي، وإن لم تكن هذه العلاقة تسير كما تمناه الموحدون دائما.

بعد عودة المهدي من رحلته المشرقية وخروجه من بجاية، اجتاز في طريقه إلى المغرب الأقصى بالثعالبة عرب متيجة أين نزل عند جبارة بن محمد[1] من بني سباع، فكانوا من السابقين لاحتضانه ونصرته، ولذلك كانت متيجة أول ما فتحه الموحدون بعد وهران وتلمسان[2]، وقد اعتزَّ الثعالبة بهذه العلاقة وهو ما جعلهم يستقرون بوطن متيجة.

لما ملك عبد المؤمن المغربين الأقصى والأوسط، سعى إلى استمالة العرب وكسبهم إلى صفّه، متقرِّبا إليهم بأوشاج العروبة، ومن ذلك أبياتا منسوبة إليه يقول في إحداها:

بَنِي العـَمِّ مِنْ عُلْيا هِلال بنُ عامِرِ وما جَمَعَتْ مِـنْ باسِلٍ وَابْن باسِـل[3]

ومنه قول القاضي ابن عمران يستدعي عرب إفريقية على لسان عبد المؤمن:

أَسُلَيْمُ دَعْـوَةُ ذي إخاءٍ مُرْشِــدِ هَـادٍ إلـى الحَقِّ المبـين الـمُسْعِدِ[4]

لم تكن علاقة الموحدين بالعرب طيبة في البداية، إذ أحسَّ هؤلاء بخطر توسعهم بعد فتح بجاية مباشرة سنة 547هـ/ 1152م، فاحتشدت قبائل الأثبج ورياح وعدي وزغب وغيرهم بقيادة محرز بن زياد وجبارة بن كامل وحسن بن ثعلب فتناسوا أحقادهم وتحالفوا على حرب الموحدين، ورغم حشود العرب الكبيرة فقد تمكّن الجيش الموحدي في نحو ثلاثين ألف من جر العرب إلى سهل سطيف[5] فانهزم هؤلاء وسُبيَت نساؤهم وأبناؤهم وسِيرَ بهم إلى مراكش، لكن عبد المؤمن أكرم نزلهم حيث أسكنهم المنازل الفسيحة وأجرى عليهم النفقات الواسعة، ثم ردَّهم إلى ذويهم بعد أنْ أحسن إليهم ووصلهم بالأموال الجزيلة فاسترق قلوبهم[6]، ورغم اضطراب العرب في ولائهم وتمردهم على السلطة الموحدية باستمرار

1- البيذق: المصدر السابق، ص37/ السلاوي: المرجع السابق، ج2، ص90/ مصطفى أبو ضيف أحمد عمر: القبائل العربية في المغرب في عصري الموحدين وبني مرين، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1982م، ص71/ أبي راس الناصري: عجائب الأسفار ولطائف الأخبار، تحقيق محمد غالم، منشورات مركز البحث في الأنثروبولوجية الاجتماعية والثقافية، وهران، 2005م، ج2، ص62- 63.

2- البيذق: المصدر السابق، ص86/ ابن عذاري: المصدر السابق، ق. الموحدين، ص17- 18/ ابن خلدون: المصدر السابق، مج2، ص1916/ ابن أبي زرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس، ص193.

3- عبد الواحد المراكشي: المصدر نفسه، ص295.

4- ابن عذاري: المصدر نفسه، ق. الموحدين، ص62.

5- ابن خلدون: المصدر السابق، مج1، ص1788، مج2، ص1616/ ابن الأثير: المصدر السابق، مج2، ص2412/ أحمد عزاوي: رسائل موحدية، ج1، ر9، ص80/ ليفي بروفنسال: مجموعة رسائل موحدية، ص38 وما بعدها/ النويري: المصدر السابق، ص417- 418/ محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس، ص284- 285. لمَّا علم روجار الثاني ملك صقلية باستعدادات العرب عرض عليهم أن يرسل إليهم خمسة آلاف فارس يُقاتلون معهم، فشكروه وقالوا: " ما بنا حاجة إلى نجدته ولا نستعين بغير المسلمين".

6- البيذق: المصدر نفسه، ص109/ النويري: المصدر نفسه، ص418.

والتي أرغمت الجيش على استعمال القوة لردهم إلى الطاعة، كان عبد المؤمن يميل دائما إلى العفو عنهم والإحسان إليهم. ومن ذلك أنهم لما خالفوا عليه بعدما وعدوه بالمسير معه للجهاد في الأندلس إثر فتح المهدية سنة 555هـ/ 1161م، قاتلهم ثانية نواحي قسنطينة سنة 556هـ/ 1162م وأخذ نساءهم تحت الحفظ والبر والصيانة، فلما أقبلت إليه وفود العرب من رياح وزغبة وعُدَي وغيرهم، أجمل لهم الصنيع وردَّ إليهم الحريم، فلم يبق منهم إلا من صار له كالعبد الطائع، وهو يخفض لهم الجناح ويبذل فيهم الإحسان[1]، كما اتبع معهم أسلوب الإغراء المادي والأدبي بإقطاع رؤسائهم وجعلهم في مجلس شوراه.

إنَّ الظروف التي كانت تمرَّ بها الدولة الناشئة وهي في طور التأسيس، حتَّمت على الخليفة السير في هذا الاتجاه، واعتبار العرب رعايا الدولة والذين يجب إدماجهم في المجتمع الجديد لتحقيق أهداف سياسية وعسكرية واقتصادية، والتي يمكن أن نلخصها في النقاط الآتية:

* الحصول على طاقة بشرية والمتمثلة في الجند[2]، الذين كان الخلفاء في أمَسِّ الحاجة إليهم ولاسيما أمام كثرة المنتزين والمناوئين وبخاصة في المغرب الأقصى الذي عرف قيام اثنتان وثلاثين ثورة، فيما بلغ عدد الثورات بالأندلس اثنتي عشر حسب البيذق[3]، عدى من ثار بإفريقية والمغرب الأوسط.

* استعمالهم كسند ضد منافسيه في السلطة، لاسيما وأنه كان من قبيلة زناتية واحدة أمام تحالف قبلي مصمودي[4]، فبضم العرب كحليف خلق نوعا من التوازن في التركيبة القبلية للدولة هذا من جهة، ومن جهة أخرى فقد استعان بهم عبد المؤمن في توريث الحكم لأبنائه عندما وضع على العرب بمراكش سنة 551هـ- 1156م من يقول لهم: "أطلُبُوا من عبد المؤمن أن يجعل لكم ولي عهد من ولده بعده ففعلوا ذلك"[5]، وهكذا أصبحت الخلافة وراثية في آل عبد المؤمن بن علي.

* توزيع القبائل العربية على أقاليم بلاد المغرب والأندلس من أجل تشتيتهم في الأقطار وإضعاف قوَّتهم بإفناء أبطالهم وأهل النجدة منهم في الحروب وتفكيك عصبيتهم وقطع

1- البيذق: المصدر السابق، ص116/ النويري: المصدر السابق، ص427/ ابن الأثير: المصدر السابق، مج2، ص2438/ ابن خلدون: المصدر السابق، مج2، ص1917.

2- عبد الواحد المراكشي: المصدر السابق، ص293- 294.

3- نفسه، ص123- 128.

4- تتمثل القبائل المصمودية في: هرغة وهنتاتة وتينملل وكنفيسة أو جنفيسة وهزرجة وجدميوة ووريكة. ابن خلدون: المصدر السابق، مج2، ص1937/ النويري: المصدر السابق، ص398- 399/ عبد الواحد المراكشي: المصدر السابق، ص423/ البيذق: المصدر السابق، ص55، 61 وما بعدها/ ابن القطان: المصدر السابق، ص82 وما بعدها/ ابن أبي زرع: الأنيس المطرب، ص178/ الزركشي: المصدر السابق، ص6/ حسن علي حسن: الحضارة الإسلامية في المغرب والأندلس، ص295.

5- النويري: المصدر السابق، ص419/ ابن الأثير: المصدر السابق، مج2، ص2422/ ابن عذاري: البيان المغرب، ق. الموحدين، ص49.

الاتصال بينهم حتى لا يثوروا ضده، وهو ما تفطَّن له العرب فرفضوا المسير معه إلى الأندلس وقالوا: " إنَّ غرضه هو إخراجنا من بلادنا "[1].

* الاستفادة منهم ماديا سواء كجباة للضرائب، أو كعمال في الفلاحة والتجارة، وما يدفعونه نتيجة ذلك من عشور وخراج[2]، لاسيما وأنَّ الدولة بلغت من الاتساع ما أصبحت تحتاج معه إلى أموال ضخمة، والتي لا يتأتّى لها ذلك إلا بتنظيم مصادر دخلها.

* تجنيدهم للجهاد في الأندلس ضد تكالب النصارى الذين تمكنوا سنة 552هـ- 1157م من إلحاق هزيمة بالجيش الموحدي في وقعة زغبولة على مقربة من اشبيلية[3] جعلت عبد المؤمن ينظر في استجلاب العرب لحماية الجزيرة.

ولـمَّا رأى الخليفة عبد المؤمن تكالب النصارى على المسلمين بالأندلس، جمع العرب وذلك بعد فتح المهدية وقال لهم: "قد وجب علينا نصرة الإسلام، فإنَّ المشركين قد استفحل أمرهم بالأندلس واستولوا على كثير من البلاد التي كانت بأيدي المسلمين، وما يقاتلهم أحد مثلكم، فبكم فُتِحت البلاد أول الإسلام وبكم يُدفع عنها العدو الآن"[4].

واصل أبناء عبد المؤمن سياسة والدهم في الاستعانة بالعرب، الذين أصبحوا في أشد الحاجة إليهم لاسيما وأنَّ الدولة قد دخلت مرحلة القوة والتي لا يمكن معها تحمُّل الهزيمة أمام الأعداء أو الثوار، وفعلا فقد ظهر دور العرب في ثورة ابن مردنيش[5] بشرق الأندلس إثر وفاة عبد المؤمن، لكن ابنه يوسف (558- 580هـ/ 1163- 1184م) تمكّن من إخماد ثورته، ثم توجَّه شرقا إلى مدينة وبذة من أحواز طليطلة، فحاصر بها الفرنج عدة سنوات من 568هـ- 1172م إلى سنة 571هـ- 1175م، خاض خلالها عدة وقائع وغزوات، ظهر فيها

1- النويري: المصدر السابق، ص425/ ابن الأثير: مج2، ص2438.

2- في سنة 554هـ- 1149م. قام عبد المؤمن بتكسير بلاد إفريقية والمغرب بالفراسخ والأميال طولا وعرضا، فأسقط من التكسير الثلث ... وما بقي قسَّط عليه الخراج وألزم كل قبيلة قسطها من الزرع والورْق. ابن أبي زرع: المصدر السابق، ص198- 199/ عز الدين أحمد موسى: النشاط الاقتصادي في الغرب الإسلامي خلال القرن السادس الهجري، ص173.

3- ابن عذاري: المصدر نفسه، ق. الموحدين، ص61.

4- ابن صاحب الصلاة: المن بالإمامة، تحقيق عبد الهادي التازي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط3، 1987م، ص90/ ابن الأثير: المصدر نفسه، مج2، ص2438/ البيذق: المصدر نفسه، ص118/ عبد الواحد المراكشي: المصدر نفسه، ص293.

5- ابن مردنيش: محمد بن سعد، كان والده أميرا على أفراغة وما والاها من ثغور شرق الأندلس، ولما ضعف أمر المرابطين ملك محمد هذا مدينة مرسية عام 542هـ- 1147م، ثم نازل الموحدين وتغلَّب على جيان وأُبَّذة وأطاعت له بياسة، وحاصر قرطبة واشبيلية سنة 554هـ- 1159م، ثم نازل غرناطة بمعاضدة صهره ابن هَمُشْكُ والروم عام 557هـ- 1162م حيث تمكن من إلحاق الهزيمة بالجيش الموحدي في معركة مرج الرقاد، ثم كانت عليه الهزيمة في موقعة الجلاب سنة 560هـ- 1164م فضعُف حاله وفسد ما بينه وبين صهره فتخلى عنه ومال إلى الموحدين إلى أن توفي سنة 567هـ- 1171م. ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ق2، ص259/ ابن عذاري: المصدر السابق، ق. الموحدين، ص89/ ابن الأثير: المصدر السابق، مج2، ص2481، 2487/ عبد الواحد المراكشي: المصدر السابق، ص321/ ابن أبي زرع: المصدر السابق، ص210/ النويري: المصدر السابق، ص431/ ابن خلدون: المصدر السابق، مج2، ص1918/ أحمد عزاوي: رسائل موحدية، ج1، ر21، ص89، 117/ لسان الدين بن الخطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة، ج2، ص121- 127.

من شجاعة العرب ما لا يوصف حتى كان الفارس منهم يبرز بين الصفين ويطلب مبارزة الفارس المشهور من الفرنج فلا يبرز إليه أحد[1].

إنَّ العرب كقوة بشرية وما تميزوا به من خصوصية القبلية والبداوة، خلقت نظاما اجتماعيا غير ثابت في غالب الأحيان سواء من حيث توطُّنها أو من حيث وضعها السياسي وعلاقتها، وهو ما جعلها في حالة تحرك دائم، تبعا لمصالحها وحالة الطرف الأخر الذي عايشته من الدول والقبائل قوة أو ضعفا.

2- علاقتهم بالقبائل البربرية: إنَّ السياسة التي اتبعها الموحدون إزَّاء القبائل العربية منها والبربرية، اتسمت بالشدة والعنف من قتل وتخريب وبخاصة فترة حكم عبد المؤمن بن علي الذي كان يريد القضاء على المرابطين وأتباعهم بأية طريقة، ففي حصار وهران سنة 539هـ- 1144م، قطع الماء عن السكان حتى مات أكثرهم عطشا وحمل السيف على من بقي منهم ضحى يوم عيد الفطر، فتفرقوا في البلاد وتبددوا في الأقطار[2]، ونفس الأسلوب اتبعه مع سكان مدينة القلعة التي قُتِل من أهلها ثمانية عشر ألفا وأُضرِمَت النار في مساكنهم[3]. أما القبائل الزناتية كبني يلومي وبني عبد الواد وبني ورسيفان وتوجين، فقد أثخن فيهم الجيش الموحدي قتلا وسبيا وأسرا حتى دخلوا في دعوتهم[4].

والحقيقة أنَّ تلك السياسة المنتهجة لم تكن بذلك الشكل الموصوف دائما، فقد اتبع بعض الخلفاء ومن بينهم عبد المؤمن نفسه سياسة الرفق واللِيْن أحيانًا مع تلك القبائل، وقد أشار إلى ذلك ابن سماك بقوله: " وكان الخليفة عبد المؤمن بارًّا بمن انضوى إليه، عارفا بأقدار الناس، مكرما لأعيانهم وأهل البيوتات منهم"[5]، ويظهر أنَّ ذلك كان بعد أن استتبَّ له الأمر فاتَّخذَ من الترغيب أسلوبا لتحقيق أغراض سياسية.

إنَّ طبيعة علاقة الموحدين بالقبائل وبأهل بلاد المغرب مَثَّلت أحد مضامين مشروعهم السياسي، اختلفت انعكاساتها وردود أفعالها بين الموالاة والنفور، والتي حددت بدورها واقع هذه القبائل ومجالات تَوطّنِها ومستقبلها السياسي، وهو ما نلمسه في ثنائية الهجرة والاستقرار، ففي الوقت الذي تَقرَّبَ فيه بنو عبد الواد مثلا من الموحدين وخدموهم بإخلاص ما جعلهم يستقرون ويؤسسون دولة لهم، فضَّل بنو مرين اللجوء إلى القفر[6].

1- النويري: المصدر السابق، ص432/ ابن أبي زرع: المصدر السابق، ص211- 212/ ابن عذاري: المصدر السابق، ق. الموحدين، ص114- 115.

2- ابن سماك العاملي: المصدر السابق، ص204- 205/ ابن عذاري: المصدر نفسه، ق. الموحدين، ص22/ ج4، ص104/ ابن خلدون: المصدر السابق، مج2، ص1912.

3- ابن خلدون: المصدر نفسه، مج2، ص1916/ السلاوي: المرجع السابق، ج2، ص108.

4- ابن خلدون: المصدر نفسه، مج2، ص1912- 1913.

5- ابن سماك العاملي: المصدر نفسه، ص227.

6- يحي بن خلدون: المصدر السابق، ج1، ص198/ عبد الرحمن ابن خلدون: المصدر السابق، مج2، ص2176.

ثورة بني غانيَّة وأثرها: لم تكن الدولة الموحدية تحظى بالإجماع من قِبَل كل الزعامات القبلية وأمراء النواحي في الغرب الإسلامي، سواء في المغرب أو الأندلس وهو ما نلمسه في الثورات التي كانت تقوم ضدهم من حين لآخر بِغضِّ النظر عن أهدافها السياسية والمذهبية وهو ما أدخلها في صراعات، كان من نتائجها تغيير الخارطة السكانية للمنطقة.

تعدُّ ثورة بني غانية وهم من بقايا المرابطين أحد أهم الأحداث التي طفت على الساحة السياسية والعسكرية في الغرب الإسلامي، وذلك بالنظر إلى مدتها الزمنية التي دامت قرابة نصف قرن من الزمن (580- 631هـ/ 1184- 1233م) وعلاقتها المباشرة بهجرة السكان بسبب الغارات والغزوات التي كان يشنها هؤلاء ضد مدن إفريقية والمغرب الأوسط، وما اتسمت به من إفساد وتخريب، أدت إلى تشريد السكان وتشتيتهم، وإذا كانت إفريقية مركز نشاط هؤلاء فإنَّ المغرب الأوسط أصبح بدوره مسرحا لعملياتهم العسكرية، ومن المدن التي طالتها أعمالهم:

مدينة بجاية: كانت أول مدينة استهدفها الثوار نظرا لأهميتها كميناء ساحلي وعاصمة الموحدين في المغرب الأوسط، ففي شعبان عام 580هـ/ 1184م نزلها علي بن إسحاق الميورقي في أسطول من ثلاثين سفينة بها نحو مائتي فارس وأربعة آلاف راجل بمداخلة من بعض أعيانها[1] وكبريات أسرها كأسرتي بني حمدون وبني القائد، فملكها سبعة أشهر،ثم استردها الموحدون في صفر من عام581هـ- 1185م، قاموا خلالها بقتل ومطاردة كل من حامت حوله الشكوك بموالاة بني غانية[2]، ونتيجة لذلك ساد أوساط أهالي المدينة الذعر والخوف فخرجوا عنها، وقد وصف ابن عذاري حال بجاية إثر هذا الصراع قائلا: " ولـمَّا وقعت الفتنة ببجاية وأنظارها وخفَّ قطينها وعُمَّارها وانتُهبت زروعها وغلاتها وقلَّت خيراتها وعُدمَت مرافقها وأقواتها، وألَمَّ بالرعية الحيف وتقسَّمهم الجلاء والسيف، اعتصم من نجا منهم بقنن الجبال والأوعار "[3].

مدينة تيهرت: تعرَّضت بدورها لفتنة بني غانية الذين تكررَت غاراتهم عليها، ولعلَّ من أهمها غزوة يحي بن غانية سنة 605هـ- 1208م التي استباح فيها المدينة فكان آخر العهد

1- ابن عذاري: المصدر السابق، ق. الموحدين، ص176/ ليفي بروفنسال: مجموعة رسائل موحدية، ص165/ محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس، ج5، ص149.

2- من الذين تعرَّضوا للاعتقال الفقيه أبو الطاهر عمارة بن يحي، وقد تمت الإشارة إلى ذلك سابقا، تُنظر ترجمته عند الغبريني: المصدر السابق، ص20/ الحفناوي: المرجع السابق، ج2، ص286

3- ابن عذاري: المصدر نفسه، ق. الموحدين، ص180-181. عن ثورة بني غانية واستيلائهم على بجاية يُنظَر كذلك الغبريني: المصدر السابق، ص21/ الزركشي: المصدر السابق، ص15/ مجهول: الاستبصار، ص131/ النويري: المصدر السابق، ص435/ ابن الأثير: المصدر السابق، مج2، ص2542/ ابن خلدون: المصدر السابق، مج2، ص1887 وما بعدها، ص1921، 2113/ عبد الواحد المراكشي: المصدر السابق، ص342- 343/ أحمد عزاوي: رسائل موحدية، ج1، ص249-250/ ابن عذاري: المصدر نفسه، ق. الموحدين، ص175/ عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس، ص148- 149، 153-154/ عز الدين عمر أحمد موسى: دراسات في تاريخ المغرب الإسلامي، ص100- 101/ السلاوي: المرجع السابق، ج2، ص142- 143/ أبو راس الناصري: المرجع السابق، ج2، ص52- 53.

بعمرانها[1]. لم تتوقف غارات بني غانية على تيهرت فقد استغل يحي فترة الضعف والفوضى التي كان يمرُّ بها الموحدون أواخر دولتهم، فتكرر غزوه لها، ويظهر أنَّ الخراب الذي طالها كان أكثر من سابقتها وهو ما جعل كثيرا من سكانها يهجرونها، وقد وصف ابن خلدون ذلك بقوله: " وكان خراب هاتين المدينتين (أرشكول وتيهرت) فيما خُرِّب من أمصار المغرب الأوسط في فتنة ابن غانية وبأجلاب هؤلاء الأحياء من زناتة وطلوعهم على أهلها بسوم الخسف والعيث والنهب وتخطُّف الناس من السابلة وتخريب العمران ... فلم تُبصر بها نار ولا لفحت بها لنافخ ضرمة ولا صرخت لها آخر الدهر دِيَكة"[2].

لم يقتصر غزو بنو غانية للمدن الساحلية والداخلية فقط، بل امتدَّ إلى مدن صحراء وادي ريغ مثل واركلا و سدراتة[3]، ويظهر أنَّ ذلك كان انتقاما من سكان هذه المنطقة الذين أخذوا بالدعوة الموحدية[4]، لاسيما وأنها بعيدة عن حماية الموحدين، وهي إحدى الخطط العسكرية التي اتبعوها في قتالهم، حيث يتم اللجوء إلى الصحراء لتنظيم الصفوف وجر القوات المعادية إلى أعماق الصحراء لإنهاكها، ثم شن الغارات على المدن الداخلية والساحلية، ففي سنة 626هـ- 1229م أجلب يحي ابن غانية على مدينة سدراتة فخرَّبها وهجَّر سكانها بعدما كانت قصورا وقرى كثيرة، فاجتثَّ شجرها وغوَّر مياهها وهدم بناءها[5].

لقد كان لتلك الفتن والحروب التي شهدها المغرب الأوسط أثر واضح في توطُّن القبائل، فكثيرا ما أصبحت تغيِّر مواطن استقرارها تبعا للأوضاع العسكرية والأمنية والتطوُّرات السياسية ولاسيما بالنسبة لبعض المناطق والمدن ذات الأهمية الإستراتيجية

1- ابن خلدون: المصدر السابق، مج2، ص1945، 1892/ ابن عذاري: المصدر السابق، ص252/ الحميري: المصدر السابق، ص127.

2- ابن خلدون: المصدر السابق، مج2، ص1847، 2210/ محمد عبد الله عنان: المرجع السابق، ج5، ص273- 274/ محمد علي دبوز: المرجع السابق، ج3، ص620/ أبي راس الناصري: المرجع السابق، ج1، ص101-102، ج2، ص53

3- سدراتة: نسبة إلى قبيلة سدراتة (إسدراتن بالأمازيغية) بن نيطط بن لوا الأصغر بن لوا الأكبر (لواتة) بن مادغيس الأبتر. أسس هذه المدينة إباضية تاهرت بعد سقوط إمارتهم، فعُمِّرت بمن هاجر إليها من الإباضية وغيرهم وذلك خلال القرن الرابع الهجري، تقع في الجنوب الغربي لواركلا بنحو سبعة أميال. ابن خلدون: المصدر نفسه، مج2، ص1843/ ابن حزم: المصدر السابق، ص497/ القلقشندي: المصدر السابق، ص283/ عبد الوهاب بن منصور: المرجع السابق، ص394-395/ عبد القادر موهوبي السائحي: ومضات تاريخية واجتماعية لمدن وادي ريغ وميزاب وورقلة، دار البصائر، الجزائر، 2011م، ص155، 117/ محمد علي دبوز: المرجع نفسه، ج3، ص79، 546/ MOHAND- AKLI HADDADOU : op cit, p456.

4- بلغت الدعوة الموحدية إلى هذه المنطقة من طرف شخص يُدعى العيتروسي، وقد أخذ بها أهلها بإشارة من الفقيه أبي يعقوب يوسف بن إبراهيم السدراتي. الدرجيني: المصدر السابق، ج2، ص315-316/ حميد زيدور: " التاريخ والمؤرخون في وارجلان الإباضية على عهد الموحدين "، مجلة عصور الجديدة، جامعة وهران، ع3-4، صص100-117، سنة 2011 -2012م، ص102.

5- تعرَّضت هذه المدينة للتخريب عدة مرات، كان إحداها على يد الناصر بن علناس الحمادي سنة 467هـ- 1074م ثم على يد ابن غانية. الدرجيني: المصدر نفسه، ج2، ص278- 279، 315- 316/ ابن خلدون: المصدر نفسه، مج2، ص2093/ عبد القادر موهوبي السائحي: المرجع نفسه، ص117، 156/ محمد علي دبوز: المرجع نفسه، ج3، ص546.

كقسنطينة وبجاية وتاهرت وتلمسان التي ظلت مراكز صراع معظم فترات تاريخ المنطقة سواء بين الدول القائمة أو بينها وبين القبائل.

نهاية الدولة الموحدية ونتائجه: مَثّلت هزيمة الموحدين في موقعة العقاب سنة 609هـ/1212م بداية النهاية لدولتهم، فإضافة إلى فقدان معظم الجيش، سادت الفوضى السياسية بسبب ضعف الخلفاء والصراع بين أفراد الأسرة الحاكمة، وتَكالب العدو على أكثر بلاد الأندلس نتيجة تفكك وحدته وعودة عصر الطوائف (عصر الطوائف الثالث)، فيما أجهزت القبائل الزناتية على ما تبقّى من سلطان الموحدين بالمغربين، فبعدما انفصلت إفريقية سنة 626هـ/1229م بقيادة أبي زكريا يحي من أحفاد الشيخ أبي حفص يحي بن عمر الهنتاتي القائم بدعوة المهدي، لم يتأخر بنو عبد الواد في إعلان استقلالهم 633هـ- 1236م عن الموحدين بالمغرب الأوسط الذين بدأت شمسهم تغرب عنه، وظهور الخطر الحفصي شرقا إذ استولى أبو زكريا سنة 628هـ/ 1231م على قسنطينة وبجاية ثم الجزائر[1].

لم يتوقف طمع أمراء بني حفص في ضم المغرب الأوسط عند هذا الحد، فقد شجعهم الغياب العسكري والسياسي للسلطة الموحدية في تلمسان ولاسيما بعد إعلان استقلالهم نهائيا سنة 634هـ/ 1237م إلى التوسع غربا حيث نهض الأمير أبو زكريا سنة 636هـ/ 1239م إلى بلاد مغراوة[2] بنواحي نهر شلف فأطاعه بنو منديل، وأوقع بجيرانهم بني توجين وواصل زحفه إلى مدينة البطحاء[3]، ومنها تَحرَّك نحو تلمسان التي كانت محل أطماع المرينيين.

1- إبن خلدون: المصدر السابق، مج2، ص1948/ إبن قنفذ: الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية، تقديم وتحقيق محمد الشاذلي النيفر وعبد المجيد التركي، الدار التونسية للنشر، 1968م، ص107/ الزركشي: المصدر السابق، ص25.

2- مغراوة: إحدى قبائل البربر البتر وهم أبناء مغراو بن يصليتن بن مسرا بن زاكيا بن ورسيك بن الديرت بن زانا، إخوة بني يفرن، من أوسع بطون زناتة وأهل البأس والغلبة منهم، كانت مواطنهم ما بين شلف ومستغانم إلى تلمسان وجبل مديونة وما إليه، وامتدَّ نفوذهم حتى الزاب وجبل بني راشد (العمور) والحضنة. ابن خلدون: المصدر نفسه، مج2، ص2077- 2095/ ابن حزم: المصدر السابق، ص496/ ابن سعيد المغربي: كتاب الجغرافيا، تحقيق وتعليق إسماعيل العربي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ط2، 1982م، ص141/ البكري: المصدر السابق، ص137/ الإدريسي: المصدر السابق، ج1، ص256- 257/ الحميري: المصدر السابق، ص114/ الحسن الوزان: المرجع السابق، ج2، ص44- 45/ أبو راس الناصر: المرجع السابق، ج1، ص89. ج2، ص18/ مبارك بن محمد الميلي: المرجع السابق، ج1، ص109/ محمد بن يوسف الزياني: دليل الحيران وأنيس السهران في أخبار مدينة وهران، تحقيق وتقديم الشيخ المهدي البوعبدلي، عالم المعرفة، الجزائر، ط1، 2013م، ص75. E.F GAUTIER : op cit p370

3- البطحاء: أصله المسيل الواسع، وقيل كل موضع متسع، وهي مدينة بينها وبين تلمسان ثلاثة أيام أو أربعة، ويُعتقد أنها المطمر قرب غليزان حاليا، كانت هذه المدينة موجودة منذ مطلع القرن السادس الهجري على الأقل، حيث نزلها ابن تومرت سنة 513هـ- 1119م في طريق عودته من المشرق إلى المغرب الأقصى، أعاد بناءها خليفته عبد المؤمن سنة 555هـ- 1160م عند إيابه من إفريقية. اشتهرت هذه المدينة خلال القرن السابع الهجري وما بعده أي في العهد الزياني، فقد ذكرها ابن خلدون في عدة مواضع منها سفارتيه لأبي عنان المريني، ولأبي حمو موسى الثاني، كما ذكرها أخوه يحي في أحداث سنة خمس وستين وسبعمائة (765هـ- 1363م). ياقوت الحموي: المصدر السابق، ج2، ص352/ البيذق: المصدر السابق، ص38/ ابن أبي زرع: المصدر السابق، ص199- 200/ عبد الواحد المراكشي: المصدر السابق، ص302/ ابن خلدون: المصدر نفسه، مج2، ص2351، 2373، 2392/ يحي بن خلدون: المصدر السابق، ج1، ص236/ ج2، ص301/ الحسن الوزان: المصدر السابق، ج2، ص27- 28/ المهدي البوعبدلي: تاريخ المدن، ص190، ص192.

هذه التحولات السياسية المتسارعة والمفعمة بالصراعات العسكرية أحيانا وبالتجاذب والتحالف أحيانا أخرى، كان لها الأثر المباشر على التوطن القبلي، فكل من الدول الثلاث التي أعقبت الموحدين كانت تعمل على وراثة عرشهم المتداعي، نتج عن ذلك حالة من عدم الاستقرار والتحرُّك الدائم للسكان والقبائل.

الصراعات القبلية: إنَّ تاريخ المغرب الإسلامي عموما هو تاريخ القبيلة، فمختلف الأحداث كانت تتم داخل هذه الأخيرة أو بواسطتها، ويمكن ملاحظة ذلك على وجه الخصوص في الجانب العسكري، فمعظم الجيوش في كل الدول التي قامت في المنطقة كانت من أبناء القبائل البدوية أكثر من أبناء المدن والحواضر التي عادة ما تذوب فيها القبلية، وهو ما يظهر مثلا في التعبئة العامة للجيش التي تتم قبل خوض المعارك حيث ُتقدِّم كل قبيلة مجموعة من المقاتلين للسلطة، سواء لدى الموحدين الذين كرَّسوا هذا التوجه، الذي يُعد استمرارا لسياستهم القائمة على القبيلة منذ تأسيس خلافتهم، وهو ما جعل البعض يعتبر أنَّ قيام الدولة الموحدية يُعد في حد ذاته صراعا سياسيا بين قبيلتي مصمودة ولمتونة[1]، أو لدى الزيانيين وسنرى كيف كان ملوكهم يتعاملون مع القبائل ولاسيما العربية منها وهو ما أشرنا إليه سابقا مع الموحدين.

إنَّ النظام القبلي الذي تميَّز به مجتمع المغرب الأوسط القائم على العصبية، ونمط الحياة البدوي الرعوي المفعم بالتنقل والحركة نتج عنه احتكاك ومنافسة على المجال كالمراعي ومصادر المياه، يتحوَّل هذا الصراع في كثير من الأحيان إلى اقتتال والذي عادة ما ينتهي بهجرة القبائل المنهزمة لمواطنها باحثة عن مجال آخر للتوطن، يعطينا ابن خلدون أنموذجا عن أحد هذه الصراعات قائلا: " وكانت بينهم (بنو بادين) وبين بني مرين فتن متصلة باتصال أيامهم في تلك المواطن سبيل القبائل الجيران في مواطنهم"[2]. وعليه يظهر أنَّ هذه الصراعات كانت دائمة ومستمرة نتيجة الأحقاد التي ُتورِّثها والرغبة في الثأر وبالتالي استمرت معها ظاهرة التحرك والهجرة.

الحقيقة أن الصراع القبلي لم يكن دائما ذاتيا وراجعا إلى الأسباب المذكورة، بل يكون أحيانا مفتعلا بإيعاز أو تحريض من السلطة لتحقيق أغراض سياسية وأمنية كإبعاد قبيلة أو كسر شوكتها، ولاسيما في حالة ضعف الدولة وفقدان سيطرتها على القبائل وهو ما نستشفه مثلا من علاقة ملوك بني عبد الواد بالقبائل العربيةعندما تغلَّبت على بعض الأوطان.

إذا كان هذا وضع القبائل البدوية المتوطنة في السهول الداخلية والصحراء في علاقاتها والتي تحكمها غالبا البيئة وما يتصل بها (المراعي، المياه، الطرق) فإنَّ قبائل التل التي تبدو أكثر استقرارا ونضجا سياسيا لم تفقد في الواقع هذه الخاصية وهي العصبية

1- حسن علي حسن: المرجع السابق، ص44/ حسين مؤنس: المرجع السابق، ص210/ محمد بن مبارك الميلي: المرجع السابق، ج2، ص292.

2- ابن خلدون: المصدر السابق، مج2، ص2103.

القبلية، ولكن لهدف آخر وهو التطلّع إلى السلطان والملك والذي لا يمكن تحقيقه غالبا إلا بالحرب والمغالبة وقوة العصبية.

يُطلق عبد الرحمن ابن خلدون على نزعة السلطة هذه لدى بعض القبائل البربرية مصطلح المطاولة إلى الملك[1]، ومن الأمثلة التي أوردها في هذا الإطار، قبائل بني واسين كبني عبد الواد وبني توجين الذين نازعوا جيرانهم بني يلومي وبني ومانو حتى غلبوهم على مواطنهم[2] ، ونفس الرغبة نلمسها لدى بني خزر المغراويين الذين يقول فيهم ابن خلدون دائما: "وكانت في هذه الطبقة الثانية بقية أخرى مما ترك آل خزر من قبائل مغراوة الأولى ... فجاذبوا هؤلاء القبائل حبل المُلك وناغوهم في أطوار الرئاسة ... فتطاولوا إلى مقاسمتهم في الملك ومساهمتهم في الأمر"[3].

ومما زاد في حدة هذه الصراعات إضافة إلى الرغبة في الـمُلك، تذبذب وتباين ولاءات القبائل للدول التي حكمت المنطقة، والذي شكّل ثنائية في المجال تراوحت بين التوسع والانكماش أو القوة والضعف ومن ثَم الهجرة أو الاستقرار، فوقوف بنو عبد الواد في صف الموحدين كما أسلفنا - قبل أن يستقلوا عنهم - أدخلهم في مواجهات ضد بني مرين وبني توجين، ثم مساندة هذه الأخيرة للمرينيين جرَّ عليهم الحرب من قِبَل بني عبد الواد[4] وحلفائهم سويد، ونفس الأمر ينطبق تقريبا على قبائل مغراوة التي حالفت الحفصيين تارة والمرينيين تارة أخرى[5] وهذه الظاهرة يمكن أنْ نلمسها بوضوح خلال القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي بالنسبة لكل من قبيلتي كتامة وصنهاجة البرنسيتين اللتين والتا حكام بني عبيد وهو ما مكّنهما من الاستقرار في مواطنها التقليدية بسهول وجبال التل، بينما ظلت زناتة في تحرك دائم بسبب عدائها لهم، وهذه التجربة سيستفيد منها لاحقا بنو عبد الواد عندما يتحالفون مع عبد المؤمن، ولذلك فقد أحدثت هذه الحروب والصراعات اختلالا سكانيا، سواء على مستوى مواطن الاستقرار أو بالنسبة لحالة القبيلة من القوة والضعف.

الجريمة والهجرة: لقد حرص الإسلام على بناء مجتمع سليم وآمن من خلال دعوته للحفاظ على أسس ومقوِّمات الحياة وفي مقدمتها النفس البشرية التي حرَّم الله التعدِّي عليها إلا

1- عن دور العصبية القبلية في الرياسة، يُنظر مقدمة ابن خلدون، باب العمران البدوي، الفصل الحادي عشر، ص104، الفصل الثاني عشر، ص105، الفصل السابع عشر، ص110، باب الدول العامة والملك والخلافة، الفصل الأول، ص122. يُقسِّم ابن خلدون القبائل من حيث علاقتها بالـمُلك إلى قسمين: قبائل من أهل الملك مثل صنهاجة ومغراوة وبني عبد الواد التي أسست دولا كدولة بني حماد، وإمارة بني منديل، والدولة الزيانية، وقبائل من غير أهل الملك مثل بني راشد الذين بقوا على بداوتهم في الصحراء، كما يُفرِّق بين الملك الحضري والملك البدوي، ففي خبر بني توجين وزعيمها عبد القوي بن العباس، يشير إلى ذلك بقوله: " فصار له ملك بدوي لم يفارق فيه سكنى الخيام ولا إبعاد النجعة ". ابن خلدون: المصدر السابق، مج2، ص2100، 2103، 2105، 2169.

2- نفسه، مج2، ص2099.

3- نفسه، مج2، ص2103.

4- نفسه، مج2، ص2109.

5- نفسه، مج2، ص2124، 2238/ التنسي: المصدر السابق، ص118.

بالحق[1] والدين والنسل والمال والعقل أو ما يُعرف بالكليات الخمس، ولذلك كان القتل العمد والفساد في الأرض والحِرابة[2] من أخطر الجرائم وأشدُّها إخلالا بالأمن والاستقرار، والتي شدَّد الشارع الحكيم في العقوبة عليها بالقتل والنفي لقوله تعالى: **((إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنفَوْا مِنَ الأَرْضِ ...))**[3]. فحكم من اُخِذَ من المحاربين قبل توبته أقيم عليه الحد إما بالقتل أو الصلب أو قطع اليد والرِّجْل من خلاف أو النفي[4].

كثيرا ما كانت تحدث خلافات داخل القبيلة أو العشيرة الواحدة نتيجة أسباب اجتماعية واقتصادية كنزاع حول أرض أو قضايا شرف، فتنتهي بجريمة قتل، يضطر عندها الجاني إلى الفرار وهجرة قبيلته خوفا من القصاص أو الثأر، فيلجأ إلى قبيلة أخرى يستجير ويحتمي بها، وقد أشار إلى ذلك ابن خلدون في مقدمته عندما تطرَّق إلى قضية اختلاط الأنساب كيف يقع قائلا: "اعْلَمْ أنّه من البَيِّن أنَّ بعضا من أهل الأنساب يَسقُطُ إلى أهل نَسَب

1- قال تعالى: **((... مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا ...))**. سورة المائدة، الآية 32. وقال صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع: **« إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى قَدْ حَرَّمَ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ وَأَعْرَاضَكُمْ إِلاَّ بِحَقِّهَا »**. صحيح البخاري، كتاب الحدود، باب ظَهرُ المُؤمن حِمًى إِلاَّ في حَدٍّ أو حَقٍّ، رقم الحديث 6785، ص1231- 1232. وقوله أيضا: **« أَوَّلُ مَا يُقْضَى بَيْنَ النَّاسِ فِي الدِّمَاءِ »**. كتاب الدِّيَاتِ، رقم الحديث6864، ص1245.

2- الحرابة: كل فعل يُقصد به أخذ المال أو إصابة الفرج الحرام بالقوة، والمحارب هو القاطع للطريق، المخيف للسبيل، الشاهر السلاح لطلب المال، فإنْ أعطي وإلا قاتل عليه، كان في الحضر أو خارج المصر، قال ابن القاسم وأشهب: قد يكون محاربا وإنْ خرج بغير سبيل وفَعل فِعل المحاربين من التلصص، وقال أبو حنيفة وأصحابه: لا تكون المحاربة إلا في الطرقات، فأما الأمصار فلا، لأنه يلحقه الغوث إذا استغاث، بخلاف الطريق لبعده ممن يغيثه ويعينه. اليعمري المالكي: تبصرة الحكام في أصول الأقضية ومناهج الأحكام، خرَّج أحاديثه وعلَّق عليه وكتب حواشيه الشيخ جمال مرعشلي، عالم الكتب، الرياض، 1423هـ- 2003م، ج2، ص203- 204/ ابن كثير: تفسير ابن كثير، تصحيح لجنة من المختصين، دار الثقافة، الجزائر، ط1، 1410هـ- 1990م، ج2، ص348 وما بعدها/ الدردير: أقرب المسالك لمذهب الإمام مالك، نشر وتوزيع مكتبة رحاب، الجزائر، دت، ص189/ محمد بشير الشقفة: الفقه المالكي في ثوبه الجديد، دار القلم، دمشق، ط1، 1428هـ- 2007م، ج6، ص474/ أبو بكر جابر الجزائري: منهاج المسلم، دار الكتب السلفية، القاهرة، ط2، 1412هـ- 1992م، ص485/ عفيف عبد الفتاح طبارة: الخطايا في نظر الإسلام، مكتبة الشركة الجزائرية، الجزائر، دت، ص181- 182.

3- سورة المائدة، الآية 33. اختلف الفقهاء في حكم هذه الآية على ثلاثة مذاهب: أحدهما أنَّ الإمام ومن استنابه على قتالهم من الولاة بالخيار بين أن يقتل ولا يصلب، وبين أن يقتل ويصلب، وبين أن يقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف، وبين أن ينفيهم من الأرض. والمذهب الثاني: أنَّ من كان منهم ذا رأي وتدبير قتله ولم يَعفُ عنه، ومن كان ذا بطش وقوة قطع يده ورجله من خلاف، ومن لم يكن منهم ذا رأي ولا بطش عزَّره وحبسه، وهذا قول مالك، فجعلها مرتَّبة باختلاف صفاتهم. والمذهب الثالث: أنها مرتَّبة باختلاف أفعالهم لا باختلاف صفاتهم فمن قتل وأخذ المال: قُتِل وصُلب، ومن قتل ولم يأخذ المال: قُتل ولم يصلب، ومن أخذ المال ولم يقتل: قُطعت يده ورجله من خلاف، ومن كَثَّر وهَيَّبَ ولم يقتل ولم يأخذ المال عُزِّر، كما اختلفوا في النفي فقيل إبعادهم من بلاد الإسلام إلى بلاد الشرك وهو قول مالك، وقيل إخراجهم من مدينة إلى أخرى. الماوردي: المصدر السابق، الفصل الثالث في قتال من امتنع من المحاربين وقطاع الطريق، ص128/ عبد الفتاح طبارة: المرجع نفسه، ص180.

4- الونشريسي: المعيار، ج1، ص132- 133/ ج6، ص153- 156/ ابن تيمية: السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية، ضبط وتعليق وتخريج محمد خالد العطار، دار الفكر، بيروت، 1422هـ- 2002م، ص79/ الدردير: المرجع نفسه، ص190/ محمد بن الحسن الحجوي الثعالبي: الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي، مطبعة إدارة المعارف، الرباط، 1336هـ- 1918م، ج1، ص100.

آخَرَ بقرابة إليهم أو حِلفٍ أو ولاء أو لفرار من قومه بجناية أصابها "[1]. وقد دعَّم ذلك بمثال في تاريخه أنَّ بني سلامة أصحاب قلعة تاوغزوت يزعمون أنهم عرب من بني سليم بن منصور، وأنهم دُخلاء في نسب توجين لأنَّ جدهم سلطان بن عيسى جاء نازعا عن قومه لدم أصابه فيهم، فخلطه شيخ بني يدللتن من بني توجين بنسبه[2]، وقد اتخذ البعض من هذه الأحداث أحيانا مطية لادِّعاء الشرف[3].

2- الحملات الصليبية ودورها في الهجرة: لم تكن الحروب الصليبية ذات طابع ديني عسكري مَحض، بل اتخذت منها وسيلة لتحقيق أهداف اقتصادية في فترة شكّلت فيها التجارة أحد مظاهر النهضة التي شهدتها أوروبا ولاسيما الجمهوريات الإيطالية[4] مثل بيش[5] (بيشة أو بيزا) وجنوة[6] والبندقية التي سيطرت على هذا النشاط في البحر الرومي وبخاصة بعد سقوط صقلية في أيديهم سنة 484هـ- 1091م حيث أصبحت سواحل بلاد المغرب عموما وشرق المغرب الأوسط بصفة خاصة أهدافا لمسيحيي إيطاليا وممالك إسبانيا، حيث كانوا يشنون حملات متتالية، مستغلين فترات الضعف والاضطرابات السياسية للمسلمين أثناء مرحلة الانتقال من المرابطين إلى الموحدين.

وفي هذا الإطار نشطت غزوات الملك روجار الصقلي على الموانئ الشرقية للمملكة الحمادية من القل شرقا إلى برشك وتنس غربا، وقد ذكر الإدريسي المعاصر للدولة الحمادية، أنَّ هذه المدن كانت تتعرَّض بشكل دوري تقريبا لهجمات عسكرية ومنها مدينة جيجل، فقد تمكّن في حملته سنة 537هـ- 1143م من احتلال المدينة بعد أن سفك دماء أهلها وسبى حريمها وأحرقها بالنار[7]، ثم يصف واقع حياة سكان هذه المدينة فيقول: "ولما ظفر بها أسطول الملك روجار ارتفع أهلها عن المدينة إلى جبل على بعد ميل منها، وبنوا هناك

1- ابن خلدون: المقدمة، ص104.

2- ابن خلدون: المصدر السابق، مج2، ص2173- 2174.

3- عن هذا الموضوع يُنظر، كمال دحومان الحسني: أشراف الجزائر ودورهم الحضاري في المجتمع الجزائري، دار الخلدونية، الجزائر، ط1، 1430هـ- 2009م، ص46 وما بعدها.

4- جوزيف نسيم يوسف: تاريخ العصور الوسطى الأوروبية وحضارتها، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 2015م، ص227/ إبراهيم القادري بوتشيش: المرجع السابق، ص89/ أحمد مختار العبادي: المرجع السابق، ص326/ حسين ممدوح: المرجع السابق، ص138، 499/ عبد الفتاح عاشور: أضواء جديدة على الحروب الصليبية، الدار المصرية للتأليف والترجمة، توزيع دار القلم، القاهرة، 1964م، ص11- 12.

5- بيش: من قواعد بلاد الروم مشهورة الذكر كبيرة القطر عامرة الأسواق والديار، ولأهلها مراكب وخيل واستعداد لركوب البحر وقصد البلاد. الإدريسي: المصدر السابق، مج2، ص750/ الزهري: المصدر السابق، ص78.

6- جنوة: مدينة قديمة أزلية البناء، حسنة الجهات والأفناء وأهلها تجار مياسير، يسافرون برًّا وبحرا ويقتحمون سهلا ووعرا، ولهم أسطول مخيف ومعرفة بالحيل الحربية والآلات السلطانية. الإدريسي: المصدر نفسه، مج2، ص749/ الزهري: المصدر السابق، ص77- 78/ الحميري: المصدر السابق، ص173.

7- ابن الأثير: المصدر السابق، مج2، ص2373/ الحميري: المصدر نفسه، ص102/ ابن أبي دينار: المصدر السابق، ص79/ حسين ممدوح: المرجع السابق، ص210.

مدينة حصينة، فإذا كان زمن الصيف ووقت سفر الأسطول نقلوا أمتعتهم وجملة بضائعهم إلى الحصن"[1]، ومن المدن التي تعرَّضت بدورها للغزو وأسر أهلها مدينة القل التي عاش سكانها نفس الظروف من التشتت والهجرة[2]، ولم يختلف مصير مدينة مرسى الدجاج التي يصفها الإدريسي دائما بأنَّ بشرها قليل نتيجة فرار أهلها خوفا من قصد الأساطيل إليها[3].

لم تتوقف حملات روجار العسكرية عند هذا الحد لاسيما بعد أن احتل المهدية سنة 543هـ- 1148م والتي انقرض بها ملك بني زيري الصنهاجيين في عهد الحسن بن علي[4] فأصبحت قاعدة لعملياتهم وهو ما شجعه على المضي غربا فاحتل مدينة بونة سنة 548هـ- 1152م، وقد ذكر ابن الأثير أنَّ فيلب المهدوي قائد الأسطول سبى أهلها وأخذ بعضهم إلى المهدية، وأغضى عن جماعة من العلماء والصالحين فخرجوا بأهلهم وأموالهم إلى القرى[5].

أما في العهد الحفصي، فقد استغل النصارى الاضطرابات السياسية[6] التي عاشتها السلطنة ومنها ثورة الدعي[7] فاحتلوا بعض المدن الساحلية في شرق المغرب الأوسط التي اضطر سكانها إلى هجرة ديارهم.

1- الإدريسي: المصدر السابق، ج1، ص257، 268، 274، 291/ العبدري: رحلة العبدري، تحقيق علي إبراهيم كردي، دار سعد الدين، دمشق، ط2، 1426هـ- 2005م، ص104/ ابن أبي دينار: المصدر السابق، ص91/ الحميري: المصدر السابق، ص184.

2- الإدريسي: المصدر نفسه، ج1، ص274.

3- نفسه، ج1، ص259/ الحميري: المصدر السابق، ص184.

4- الحميري: نفسه، ص282/ ابن الأثير: المصدر السابق، مج2، ص2388/ النويري: المصدر السابق، ص370/ ابن عذاري: المصدر السابق، ج1، ص313.

5- ابن الأثير: المصدر نفسه، مج2، ص2413/ ابن عذاري: المصدر نفسه، ج1، ص313/ ممدوح حسين: المرجع السابق، ص210.

6- ثورة ابن وزير: اسمه أبو بكر موسى بن عيسى، وُلي على قسنطينة منذ عهد المستنصر بالله واستمرَّ على ذلك طيلة عهد يحي الواثق (675- 678هـ/ 1277- 1279م)، ثم أقرَّه أبو إسحاق إبراهيم على ولايته، كان ابن وزير طموحا للحكم وهو ما جعله ينتقض على الحفصيين أواخر سنة 679هـ- 1281م مستعينا في ذلك ببطرس- بيدرو الثالث - ملك أراغونة وأطمعه في مُلك السواحل، ولما نزل أسطوله بمدينة القل وجد حليفه قد قُتل والمدينة خالية من سكانها. ابن خلدون: المصدر السابق، مج2، ص1976/ ابن قنفذ: الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية، ص139/ ممدوح حسين: المرجع السابق، ص472- 473.

7- الدعي: هو أبو عمارة أحمد بن مرزوق، أصله من المسيلة، طرأ على بجاية ونشأ بها محترفا الخياطة، اغترب عن بلده حيث لحق بصحراء سجلماسة واختلط بعرب المعقل وانتمى إلى أهل البيت، ثم ذهب يتقلب في الأرض حتى وصل جهات طرابلس ونزل على قبيلة دباب العربية وصَحِبَ منهم الفتى نصير مولى الواثق بن المستنصر، فلما رآه شبَّهه بالفضل بن الواثق، بايعه العرب سنة 681هـ- 1282م، فامتلك عدة مدن وحصون ووصل إلى الحاضرة تونس، عندها فرَّ أمامه الأمير أبو إسحاق إبراهيم (678- 681هـ/ 1279- 1281م) وانخلع لابنه أبي فارس ببجاية الذي التقى بالدعي في مرماجنة لكنه انهزم وقُتل في ربيع الأول سنة 682هـ- 1283م، ونجا عمه أبو حفص فبايعه العرب، وتمكّن من القبض على الدعي وقتله سنة 683هـ- 1284م. ابن خلدون: المصدر نفسه، مج02، ص1977- 1980/ ابن قنفذ: المصدر نفسه، ص141- 145/ ابن الشماع: الأدلة البيِّنة النورانية في مفاخر الدولة الحفصية، تحقيق وتقديم الطاهر بن محمد المعموري، الدار العربية للكتاب، مكتبة الإسكندرية، 1984م، ص77- 79/ الزركشي: المصدر السابق، ص45/ حسن حسني عبد الوهاب: المرجع السابق، ص132.

اقتصرنا في هذه النقطة على الغارات العسكرية التي كان يشنها مسيحيو أوروبا ضد المدن الساحلية والتي تعدُّ امتدادا للحروب الصليبية في المشرق، ذلك أنَّ هؤلاء نقلوا الحرب إلى غرب العالم الإسلامي، ورغم أنَّ آثارها كانت أقلُّ حدة إلا أنها أدت إلى هجرة داخلية، أما الحملات التي تعرض لها مسلمو الأندلس، فهي الأشدُّ عنفا ونتائجها أكثر خطورة ولعلَّ أسوأها ضياع كثير من مناطق الأندلس ناهيك عن الجرائم والتعذيب وفتنة الدين التي لحقت المسلمين هناك، وهو ما سنتطرق إليه في موضوع سقوط المدن الأندلسية وأثرها في هجرة سكانها إلى مدن عدوة بلاد المغرب.

3- الدوافع الثقافية: رغم ارتباط الجانب الثقافي بفئة معينة وهي الطلبة والعلماء، الذين كانوا يجوبون الأقطار والمدن للتعلم أو التعليم، وإذا عدَّ البعض هذا رحلة - رحلة علمية - فليس خطأ ًأن نعدَّ هذا كذلك نوعا من الهجرة، ذلك أنَّ هؤلاء- الطلبة والعلماء - كانوا أحيانا لا يعودون إلى أوطانهم أو مدنهم، بل يستقرون في الأماكن التي تعلَّموا أو عَلَّموا بها لاسيما إذا وجدوا الظروف مناسبة لذلك.

المدارس ودورها في الهجرة: ظهرت المدارس في العالم الإسلامي كمؤسسات تربوية وعلمية بصفة نظامية أوَّلا بالمشرق في منتصف القرن الخامس/ القرن11م، حيث أنشأ نظام الـمُلك (ت485هـ- 1092م) وزير السلطان السلجوقي ألب أرسلان (457- 465هـ/ 1065- 1072م) ثم ابنه ملك شاه (465- 485هـ/ 1072- 1092م) المدرسة النظامية ببغداد[1] سنة 459هـ- 1066م والتي درَّس بها الشيخ أبي إسحاق الشيرازي (ت476هـ- 1083م) صاحب التنبيه، ثم تَوَسَّع إنشاء المدارس في بلاد الشام[2]، حيث ظهر العديد منها مثل المدرسة الأتابكية سنة 640هـ- 1242م، والمدرسة الأصفهانية. أما في مصر، فقد أنشأ صلاح الدين الأيوبي بعض المدارس في القاهرة، وفي القدس بفلسطين[3].

أما في بلاد المغرب فقد ظهرت أولا في المغرب الأقصى مع الموحدين في عهد يعقوب المنصور الذي أنشأ المدارس واستقدم العلماء وأنفق عليهم[4]. لم تقتصر المدارس في العهد الموحدي على الجانب العلمي، بل كانت هناك مدارس عسكرية التي تُخرِّج رجال

1- ابن الأثير: المصدر السابق، مج2، ص2096/ الذهبي: العبر، ج2، ص309- 310/ دول الإسلام، تحقيق وتعليق حسن إسماعيل مروة، دار صادر، بيروت، ط1، 1999م، ج1، ص394- 395/ أبو الفدا: المختصر في أخبار البشر، ج2، ص287/ ابن خلدون: المصدر السابق، مج1، ص1005.

2- عن هذه المدارس يُنظر، عبد القادر بن محمد النعيمي الدمشقي: الدارس في تاريخ المدارس، تحقيق جعفر الحسني، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ط2، 1427هـ- 2006م، ج1، ص129 وما بعدها، ج2، ص3 وما بعدها.

3- ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، تهذيب رجب محمود إبراهيم بخيت، مكتبة جزيرة الورد، القاهرة، ط1، 1430هـ- 2009م، ص238/ ابن زولاق: تاريخ مصر وفضائلها، تحقيق علي عمر، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ط1، 1422هـ- 2002م، ص111.

4- ابن أبي زرع: المصدر السابق، ص217/ حسن علي حسن: المرجع السابق، ص338- 339/ محمد المنوني: حضارة الموحدين، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، ط1، 1989م، ص17/ حسن علي حسن: المرجع السابق، ص401/ عز الدين عمر موسى: الموحدون في الغرب الإسلامي، ص53/ السلاوي: المرجع السابق، ج2، ص174، 177.

السياسة وقادة الجيش والأسطول[1] ويظهر أنَّ هذا النوع من المدارس هي أول ما أُنشئ في الغرب الإسلامي ولاسيما في عهد عبد المؤمن بن علي، ثم تلتها إفريقية خلال القرن السابع الهجري أين أنشأ أبو زكريا يحي الأول حوالي سنة 633هـ- 1235م مدرسة الشماعين قرب الجامع الأعظم قريبا من سوق العطارين، ثم المدرسة التوفيقية التي بَنتها الأميرة عطف زوجة أبي زكريا يحي في عهد إمارة ابنها أبو عبد الله محمد المستنصر، مع الجامع المسمى بجامع التوفيق[2].

تَواصل إنشاء المدارس بالمغرب الأقصى في العهد المريني بتأسيس العديد منها مثل مدرسة الحلفائيين أو الصفارين قبلة جامع القرويين وهي أول ما بني من مدارس بني مرين وذلك سنة 679هـ- 1280م على يد يعقوب بن عبد الحق وأسكن بها الطلبة والمقرئين وأجرى عليهم المرتَّبات[3]، ومدرسة فاس التي بناها أبو سعيد عثمان سنة 721هـ- 1321م، ومدرسة الصهريج التي بناها أبو الحسن قرب عدوة الأندلسيين عندما كان خليفة لوالده، وقد أخذت اسمها من الصهريج المستطيل الموجود بفنائها، ومدرسة العطارين التي بنيت سنة 723هـ- 1323م وهي من أجمل مدارس بني مرين، ومدرسة الطالعة بسلا بناها أبو الحسن سنة 733هـ- 1333م قريبا من المسجد الأعظم وكذا المدرسة المصباحية بفاس نسبة إلى أول أساتذتها مصباح بن عبد الله اليصلوتي، أما في عهد أبي عنان فقد تمَّ بناء المدرسة البوعنانية بفاس بين سنوات 751- 757هـ/1350- 1356م وهي آخر مدارس بني مرين[4].

أمَّا في المغرب الأوسط فقد تأخَّر ظهور المدارس بالمقارنة مع إفريقية والمغرب الأقصى وذلك إلى أوائل القرن الثامن الهجري لأنَّ دولة بني عبد الواد كانت في بدايتها بدوية[5]، ولذلك قامت بالدور العلمي بدل المدارس المساجد وحتى الحوانيت، فقد ذكر الغبريني أنَّ أبا علي المسيلي وعبد الحق الإشبيلي ومحمد بن عمر القرشي كانوا يجلسون

1- أحمد مختار العبادي: المرجع السابق، ص343/ حسن علي حسن: المرجع السابق، ص401.

2- ابن الشماع: المصدر السابق، ص56، ص63/ الزركشي: المصدر السابق، ص70/ ابن أبي دينار: المصدر السابق، ص127- 128.

3- ابن أبي زرع: الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية، دار المنصور للطباعة، الرباط، 1392هـ- 1972م، ص162- 163/ إبراهيم حركات: المغرب عبر التاريخ من بداية المرينيين إلى نهاية السعديين، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، ط1، 1398هـ- 1978م، مج2، ص156.

4- عن هذه المدارس يُنظَر ابن مرزوق: المسند الصحيح الحسن في مآثر ومحاسن مولانا أبي الحسن، دراسة وتحقيق ماريا خيسوس بيغيرا، تقديم محمود بوعياد، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1401هـ-1981م، ص122/ الجزنائي: تاريخ مدينة فاس، دراسة وتحقيق وتعليق مديحة الشرقاوي، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ط1، 1422هـ-2001م، ص87/ الحسن الوزان: المصدر السابق، ج1، ص225/ إبراهيم حركات: المرجع السابق، صص156-158.

5- يمكن اعتبار القرن السابع الهجري فترة تثبيت أسس الدولة والانتقال بها من طور البداوة إلى طور التحضُّر الذي بدأ يبرز مع أبي حمو موسى الأول ثم ابنه أبو تاشفين الذي قال عنه عريف بن يحي أمير سويد: هو معلّم السياسة الملوكية لزناتة، وإنما كانوا رؤساء بادية. ابن خلدون: المصدر السابق، مج2، ص2128/ يحي بن خلدون: المصدر السابق، ج1، ص215.

في حانوت بطرف حارة المقدسي للحديث فسمي بمدينة العلم[1]، ويظهر أنَّ هذه الأماكن كانت بمثابة مجالس علمية تُعقد فيها حلقات الدرس والمذاكرة.

الحواضر وعلاقتها بالهجرة: لم يكن الازدهار الذي بلغته بعض حواضر المغرب الأوسط كعواصم سياسية أو مدن تجارية في عهود الدول التي تأسست أو حكمت المنطقة مقتصرا على ذلك الدور فقط رغم ما أصابها من نكبات، بل صاحب ذلك إشعاعا ثقافيا وعلميا انطلاقا من المساجد التي مّثلت أساس هذه الحركة، وبإنشاء المدارس توسَّع النشاط العلمي وهو ما شجَّع على جلب الطلبة والعلماء من الداخل والخارج، لأنَّ المدن توفِّر لهؤلاء أسباب طلب العلم والاستزادة منه، كما تؤمِّن لهم بعد تَخرُّجهم وظائف يسترزقون منها كالقضاء والكتابة والتدريس والإمامة وغيرها. وقد عقد ابن خلدون في المقدمة فصلا ربط فيه بين العلوم والعمران (التمدن)، واستنتجَ أنَّ العلوم إنما تكثر حيث يكثر العمران وتعظم الحضارة، فالبدو وأهل القرى لابد لهم في طلب العلم من الرحلة إلى الأمصار المستبحرة[2].

إضافة إلى ما وفَّرته المدن من ظروف للاستقرار، كان للخلفاء والأمراء والسلاطين دورا في استقطاب الطلبة والعلماء والفقهاء والكُتَّاب، وذلك حبا للعلم وأهله أو زيادة في أبَّهة المُلك أو الاستعانة بهم في تسيير شؤون الدولة والمجتمع[3] فيما يتعلق بالجباية وتنظيم الأسواق وكتابة العقود والمراسلات وتطبيق الأحكام الشرعية والسلطانية، أو لتحقيق أهداف سياسية كإضفاء الشرعية على حكمهم وكسب ولاء العامة، ولذلك شكلت هذه الفئة طبقة متميزة في السلّم الاجتماعي، وهو ما جعل بعض طلاب الدنيا يتنافسون في طلب العلم للوصول إلى هذه المرتبة. وعلى أي حال وأيا كان السبب أو الهدف فإن الجانب الثقافي يُعدُّ أحد الدوافع المهمة للهجرة، وفي هذا الإطار سنعتمد مدينتين استقطبتا هذه الفئة من المجتمع كنماذج على ذلك وهي:

مدينة بجاية: أصبحت مدينة بجاية من أهم حواضر المغرب الأوسط منذ أن أسسها الملك الحمادي الناصر بن علناس (454- 481هـ/ 1062- 1089م) وجعلها عاصمة لدولته بعد خراب القلعة، مركزا علميا وقطبا اقتصاديا، وفي ذلك يقول البكري: " ومدينة بجاية في وقتنا هذا مدينة المغرب الأوسط وعين بلاد بني حماد ... ومدينة بجاية قطب لكثير من البلاد "[4] وذلك بعد خراب القيروان حيث انتقل إليها كثير من العلماء، فازدهرت بها الحياة

1- الغبريني: المصدر السابق، ص16.

2- ابن خلدون: المقدمة، فصل في أنَّ العلوم إنما تكثر حيث يكثر العمران وتعظم الحضارة، ص344- 345.

3- يُؤكد أهمية هذه الفئة وصية أبو حمو موسى الثاني (732- 791هـ/ 1321- 1389م) لابنه قائلا: " فيكون الشرفاء عندك أرفع الناس في الرتب لأنهم أشرفهم في الحسب وأعلاهم في النسب ثم الفقهاء لأنهم مصابيح الدين وبهم اقتداء المسلمين، بهم تقام الشرائع ". ولذلك جعلهم في الرتبة الثانية بعد الأشراف في طبقات المجتمع. أبو حمو موسى الثاني: واسطة السلوك، ص152.

4- الإدريسي: المصدر السابق، مج1، ص260/ الحميري: المصدر السابق، ص80- 81/ مجهول: الاستبصار، ص128/ المهدي البوعبدلي: تاريخ المدن، جمع وإعداد عبد الرحمن دويب، عالم المعرفة، الجزائر، ط1، 2013م، ص505.

الثقافية في عهد العزيز بن المنصور (498- 515هـ/ 1105- 1125م) الذي وصفه ابن خلدون قائلا: "وطال أمر ملكه، وكانت أيامه هدنة وأمنا، وكان العلماء يتناظرون في مجلسه"[1]، ولم يقتصر قاصدوها من المدن المجاورة، بل وفَدَ عليها علماء بعض مدن الأندلس. أمَّا العبدري فيصف أهمية هذه المدينة والواقع العلمي بها أواخر القرن السابع الهجري قائلا: " وهذا البلد بقية قواعد الإسلام ومحل جلة من العلماء الأعلام"[2].

استمرت المدينة في مواصلة نشاطها العلمي والتعليمي رغم ما طرأ عليها من أحداث سياسية وعسكرية وحتى فكرية بعد الفتح الموحدي، بسبب المذهب العقدي والسياسي الذي جاء به ابن تومرت، ثم ما شهدته من فتن وثورات وصراعات، ولعلَّ أخطرها ثورة بني غانيَّة، ثم الصراع الزياني الحفصي وغيرها من شاكلة هذه الأحداث[3]، فلم تمنع هذه الأحداث توافد العلماء والطلبة عليها، ومما يلاحظ في هذا الشأن أنَّ كل من كان يقصد المشرق سواء للحج أو لطلب العلم إلا ويمر ببجاية فيترك بها علما أو يستفد من علمائها.

ورغم المنافسة العلمية التي كانت تجدها بجاية من قِبَل الحواضر المجاورة في المغرب الأقصى كفاس ومراكش أو في إفريقية كالقيروان وتونس، فقد ظلت حاضرة ثقافية ليس في بلاد المغرب فقط، بل في العالم الإسلامي ككل، ولعل من مظاهر ذلك التنافس أنَّ العديد من الأعلام كانوا يقصدون بجاية لكن سرعان ما يُستدعَونَ من قِبَل سلاطين بني حفص، ومن هؤلاء الأديب أبو المطرَّف بن عميرة[4] القادم من الأندلس على بجاية سنة 645هـ- 1247م، طلبه الأمير أبو زكريا للقضاء فرحل إلى إفريقية[5]، ونفس الأمر ينطبق على أبي القاسم أحمد بن الشيخ سعيد الذي وفد على بجاية من دانية، فذكره أبو عبد الله بن ياسين الهنتاتي والي المدينة لأبي حفص عمر المستنصر، فاستدعاه وجعله كاتبا له[6]، أما ابن أندراس فقد نزل بدَوْره بمدينة بجاية سنة 660هـ- 1262م قادما من بلده مرسية، وكان

1- ابن خلدون: المصدر السابق، مج2، ص1879.

2- رحلة العبدري، ص83.

3- من الأحداث التي عرفتها بجاية، ثورة الدعي وقد أشرنا إليها أعلاه، ثم الصراع بين أبي حفص عمر وابن عمه أبو زكريا بن أبي إسحاق والذي أدى إلى انقسام المملكة الحفصية سنة 683هـ- 1284م إلى شرقية عاصمتها تونس وغربية عامتها بجاية. ابن خلدون: المصدر السابق، مج2، ص1980- 1981، 2047، 2119، 2219/ ابن قنفذ: الفارسية، ص148.

4- أبو المطرف بن عميرة: هو أحمد بن عبد الله بن محمد بن الحسين المخزومي البلنسي، الفقيه المجيد أعلم العلماء وتاج الأدباء، وُلي قضاء عدة بالأندلس والمغرب الأقصى وإفريقية، استوطن بجاية مدة طويلة أقرأ بها ودرس، له رسائل مشتملة على نظم ونثر كتب بها إلى الملوك والرؤساء، وله تأليف في كائنة ميورقة ـ سقطت في يد النصارى سنة 627هـ/ 1230م ـ توفي بتونس سنة 658هـ- 1260م. الغبريني: المصدر السابق، ص140/ ابن سعيد المغربي: المغرب في حلى المغرب، ج2، ص363- 364/ ابن فرحون: المصدر السابق، ص114- 115/ المقري: نفح الطيب، مج1، ص302 وما بعدها، مج6، ص347- 351/ ابن الأبار: تحفة القادم، تحقيق وتعليق إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1406هـ- 1986م، ص209- 215/ جلال الدين عبد الرحمن السيوطي: بغية الوعاة، ج1، ص319/ الحميري: المصدر السابق، ص96- 98/ محمد مخلوف: المرجع السابق، ص195.

5- ابن قنفذ: الفارسية، ص122- 123.

6- نفسه، ص147.

مشتغلا بالطب، فلما سمع به السلطان محمد المستنصر بالله الحفصي (647- 675هـ/ 1249- 1276م) استدعاه إلى تونس، فكان من جملة أطبائه[1].

من خلال هذه النماذج من الأمثلة، يظهر أنَّ هناك سباقا أو صراعا خفيا كان قائما بين حواضر دول بلاد المغرب الثلاث من أجْل جلب خيرة العلماء، وإن عُدَّ هذا من حسنات ودواعي التنافس العلمي الـمُفضي إلى تنشيط الحياة الثقافية، فإنه ساهم من جهة أخرى في رسم مسار حركة الهجرة، حيث استقر هؤلاء أين توفرت لهم الظروف الملائمة من الأمن والحضور العلمي والاحترام المادي والأدبي.

لم تثن الظروف التي ذكرناها، من استقبال بجاية للجم من العلماء والطلبة من داخل المغرب الأوسط والذين كان مستواهم يضاهي بل يفوق أحيانا علماء المشرق والأندلس، من ذلك أنَّ أبا علي المسيلي[2] أحد فقهاء بجاية، ألَّف كتاب " التفكر فيما يشتمل عليه السور والآيات من المبادئ والغايات " سلك فيه مسلك أبي حامد في كتاب الإحياء وبه سمي أبا حامد الصغير وقد ذكر من ترجم له مثل الغبريني أنَّ كلامه في هذا الكتاب أحسن من كلام أبي حامد وأسلم، حيث سلك فيه المسيلي مسالك المهتدين، وترك مهالك الضالين المعتدين فسلم فيه من غلو الغالين وتحريف المبطلين وتأويل الجاهلين[3]، وهو ما يدل على تبحُّره و مكانته العلمية.

ومن الذين وردوا إلى بجاية من داخل المغرب الأوسط نذكر، أبو عبد الله محمد القلعي[4]، والواعظ الوهراني[5] وغيرهما كثير، حتى أصبحت المدينة تعجُّ بالفقهاء والعلماء من مختلف الأقطار، وهذا أبو علي المسيلي السالف الذكر على جلالة قدره وسعة علمه كان يقول: أدركت ببجاية تسعين مفتيا (وفي رواية سبعين) ما منهم من يعرف الحسن بن علي المسيلي من يكون[6].

1- الغبريني: المصدر السابق، ص39/ محمد محفوظ: تراجم المؤلفين التونسيين، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط2، 1994م، ج1، ص56.

2- أبو علي المسيلي: حسن بن علي بن محمد، الشيخ الفقيه القاضي المجتهد، جمع بين العلم والعمل والورع، توفي ببجاية بعد 580هـ- 1184م. الغبريني: نفسه، ص13- 18/ التنبكتي: نيل الابتهاج، مج1، ص167- 169/ الحفناوي: المرجع السابق، ج1، ص555- 557/ عادل نويهض: المرجع السابق، ص299/ يحي بوعزيز: أعلام الفكر والثقافة في الجزائر، ص33.

3- الغبريني: المصدر السابق، ص14/ التنبكتي: نيل الابتهاج، مج1، ص168.

4- أبو عبد الله القلعي: محمد بن الحسن بن علي بن ميمون التميمي القلعي الفقيه الأستاذ النحوي من قلعة بني حماد، نشأ بالجزائر وقرأ بها، انتقل إلى بجاية مستوطنا وبها أخذ عن أبي الحسن الحرالي وأبي بكر بن محرز وأبي المطرف بن عميرة وغيرهم، كان بارعا في علم العربية لفنونها الثلاثة النحو واللغة والأدب، كان له درس يحضره الكثير من التلاميذ والطلبة، ألَّف الموضح في علم النحو وغيرها، توفي سنة 673هـ- 1274م. الغبريني: المصدر نفسه، ص33- 36/ محمد مخلوف: المرجع السابق، ص200/ الحفناوي: المرجع السابق، ج2، ص357- 361.

5- الواعظ الوهراني: هو الشيخ الفقيه العابد أبو تمَّام الواعظ من أهل وهران، سكن بجاية، كان له مجلس يروق الحاضرين وأتباع من الجمهور. الغبريني: نفسه، ص92/ الحفناوي: نفسه، ج2، ص30.

6- الغبريني: نفسه، ص15/ التنبكتي: المصدر نفسه، مج1، ص168.

ومن أسباب بروز هذه المدينة في الحقل الثقافي اختصاصها بالفقه المالكي الذي جعل منها مدرسة حقيقية، يلتقي فيها العلماء وتُجرى بها المناظرات، وقد اشتهرت بالعديد من أعلامها البجائيين من أمثال ناصر الدين المشذالي[1]، أول من أدخل مختصر ابن الحاجب الفقهي إلى بجاية ورغَّب الناس فيه وعنه أخذه ثلة من الفقهاء، ومنها انتشر في سائر بلاد المغرب، وقد أشاد به ابن خلدون فقال: "ثم ارتحل من زواوة في آخر المائة السابعة أبو علي ناصر الدين المشذالي إلى المشرق وأدرك تلامذة أبي عمرو بن الحاجب[2] وأخذ عنهم ولقن تعليمهم وحذق في العقليات والنقليات ورجع إلى المغرب بعلم كثير وتعليم مفيد"[3]، وهو ما مكنه من إصلاح طريقة التعليم باعتماده على الحوار والمناقشة والمناظرة بدل الإملاء وحفظ المتون.

مدينة تلمسان: إنَّ البعد التاريخي والسياسي لهذه المدينة باعتبارها قاعدة المغرب الأوسط ودار مملكة زناتة[4]، جعل منها حاضرة علمية ابتداءً من حُكم المرابطين بعد أنْ أسسوا بها تلمسان الحديثة- تاكرارت - ولاسيما في عهد يوسف بن تاشفين وابنه علي اللذان قلدا الفقهاء والعلماء وأكرماهم[5]، وقد وصفها البكري في القرن الخامس الهجري بأنها دارًا للعلماء والمحدِّثين[6] لكثرة ما أنجبته من العلماء، أو من استوطنها منهم[7]، ولذلك ستصبح هذه المدينة لاحقا ذات مكانة علمية، استقطبت الكثير من الأعلام.

1- المشذالي: أبو علي ناصر الدين منصور بن منصور بن أحمد بن عبد الحق الإمام الفذ العالم المتفنن المجتهد، انفرد بمعرفة مذهب مالك وهو من أهل الشورى والفتوى في العلوم والنوازل، رحل مع أبيه إلى المشرق فأخذ عن أفاضلها منهم العز بن عبد السلام، ثم عاد إلى بجاية، سنة 731هـ- 1330م. الغبريني: نفسه، ص105- 106/ ابن حجر العسقلاني: الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، تصحيح سالم الكرنكوى، دار إحياء التراث العربي، بيروت، دت، س4، ص361- 362/ ابن خلدون: المقدمة، ص357/ التنبكتي: نيل الابتهاج، ج2، ص306- 308/ الونشريسي: وفيات الونشريسي، تحقيق محمد بن يوسف القاضي، شركة نوابغ الفكر، القاهرة، ط1، 1430هـ- 2009م، ص25/ ابن قنفذ: شرف الطالب في أسنى المطالب، ص232/ ابن القاضي: درة الحجال في غُرة أسماء الرجال، حققه وعلق عليه مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1423هـ- 2002م، ص295/ الحفناوي: المرجع نفسه، ج2، ص563/ الحجوي الثعالبي: المرجع السابق، ج4، ص66/ محمد مخلوف: المرجع نفسه، ص217- 218، ص167.

2- ابن الحاجب: هو أبو عمرو جمال الدين عثمان بن عمر بن أبي بكر يونس، كان والده حاجب الأمير عز الدين موسك الصلاحي، كان ركنا من أركان الدين، له تصانيف في غاية الإجادة والتدقيق، منها مختصره الفرعي، اختصره من ستين ديوانا وفيه ست وستين ألف مسألة، توفي سنة 646هـ- 1248م/ ابن فرحون: المصدر السابق، ص289/ الذهبي: تذكرة الحفاظ، ج4، ص145. العبر في خبر من غبر، ج3، ص254/ أبو الفدا: المختصر، ج3، ص215/عبد القادر النعيمي: المصدر السابق، ج2، ص3- 4/ محمد مخلوف: المرجع نفسه، ص167/ الحجوي الثعالبي: المرجع نفسه، ج4، ص75.

3- ابن خلدون: المقدمة، ص342.

4- البكري: المصدر السابق، ص164/ ابن خلدون: المصدر السابق، مج2، ص2111/ الزهري: المصدر السابق، ص113/ مجهول: الاستبصار، ص176/ يحي بن خلدون: المصدر السابق، ج1، ص85 / الإدريسي: المصدر السابق، ج1، ص250.

5- ابن سماك: المصدر السابق، ص148- 149/ عبد الواحد المراكشي: المصدر السابق، ص235/ ابن أبي زرع: المصدر السابق، ص157/ النويري: المصدر السابق، ص391/ ابن الأثير: المصدر السابق، مج2، ص2231/ الحجوي الثعالبي: المرجع السابق، ج4، ص4.

6- البكري: المصدر السابق، ص164/ مجهول: الاستبصار، ص177/ يحي بن خلدون: المصدر نفسه، ج1، ص91.

7- ترجم يحي بن خلدون لتسعة ومائة منهم، البغية، ج1، صص100- 132.

أدت سيطرة الموحدين على حكم الغرب الإسلامي وحاجتهم إلى كتاب وقضاة وخطباء ومدرِّسين، وغيرهم مما يتعلق بشؤون الإدارة والحرب والحياة العامة إلى إثراء الحياة الفكرية والأدبية أواخر القرن السادس وخلال القرن السابع الهجريين لاسيما وأنهم كانوا يدَّعون الاجتهاد فازدهرت حركة التأليف وظهرت العديد من المؤلَّفات في شتى فنون العلم، ومنها التاريخ الذي أصبح أحد أساليب الدعاية للدولة ومذهبها، إضافة إلى الفلسفة وعلم الكلام اللذان ازدهرا في هذه الفترة لاسيما وأن الدعوة الموحدية كانت قائمة على المناظرة والتحرر الفكري ومحاربة الجمود العقلي[1]، ونتيجة لذلك انطلقت الفلسفة من عقالها[2]، وهذا الخليفة يوسف بن عبد المؤمن تدعوه همة نفسه إلى دراسة الفلسفة وجمع كُتبِها ومصاحبة الفلاسفة وعقد مجالس المناظرة[3]، ومن أعلامها في هذه الفترة ابن رشد الحفيد (ت 595هـ- 1198م) وابن طفيل[4].

الحقيقة أنَّ مدينة تلمسان لم تبلغ مكانتها العلمية الحقيقية إلا في عهد حكم بني عبد الواد، ورغم الوضع السياسي والأمني والمحن التي عاشتها هذه المدينة جراء الحروب والثورات التي حطَّمت بعض معالمها وعطَّلت النشاط الفكري بها مثل ما عرفته أثناء الفتح الموحدي أو الصراع بينها وبين جيرانها إذ اجتمعت على حربها أحيانا جيوش الدولتين المرينية والحفصية، أو حروبها ضد القبائل المناوئة وبخاصة مغراوة وبني توجين، فقد أصبحت بحق قطبا ثقافيا وحاضرة علمية، فكانت ثالثة الحواضر الكبرى ببلاد المغرب بعد تونس وفاس، ومدرسة فقهية تخرَّج منها علماء ملأ صيتهم أصقاع العالم الإسلامي.

اهتمَّ سلاطين بني عبد الواد بالعلوم والثقافة، فشيدوا المدارس والمساجد والزوايا، منافسة لجيرانهم بني مرين وبني حفص، ولذلك كان يغمراسن بن زيان (633- 681هـ/ 1236- 1286م) يُشجع العلماء على القدوم إلى عاصمته، فيحتفي بهم ويبجلهم ويحضُر مجالس دروسهم[5]، ويُنفق على الطلبة، وقد عمل خلفاؤه على شاكلته من الاهتمام بالعلم وأهله، فأنشأ السلطان أبو حمو موسى الأول (707- 718هـ/ 1308- 1318م) مدرسة ابني

1- يعلق الحجوي على ذلك بقوله: " إنهم سَمُّوه اجتهادًا وإنَّما هو إبدال الرأي بمذهب الظاهرية الذي هو جمود لم يستحسنه الجمهور، ومثل هذا وقع لابن حزم، عاب على الناس تقليد مالك وقلَّد داود الظاهري ". المرجع السابق، ج4، ص12

2- السلاوي: المرجع السابق، ج2، ص140/ محمد عبد الله عنان: الحضارة الإسلامية في المغرب والأندلس، ص487، ص507/ عز الدين عمر موسى: الموحدون في الغرب الإسلامي، تنظيماتهم ونظمهم، ص54.

3- عبد الواحد المراكشي: المصدر السابق، ص310- 311، ص314- 315.

4- ابن طفيل: أبو بكر محمد بن عبد الملك القيسي، من أهل مدينة برشانة من أعمال ألمريّة، قرأ بالأندلس على الفيلسوف ابن باجة (ت533هـ- 1138م) وغيره ،كان عالما صدرا فيلسوفا عالما بالمقالات والآراء كلفا بالحكمة، له تصانيف في أنواع الفلسفة من الطبيعيات والإلهيات منها رسالة حي بن يقظان، كان حريصا على الجمع بين الحكمة والشريعة، كان يوسف بن عبد المؤمن يجالسه ويستفيد منه، ولما مات يوسف أُتهم بأنه سَمَّه فجرت عليه محنة بسبب ذلك، توفي بمراكش سنة 581هـ- 1185م. ابن الأبار: تحفة القادم، ص96/ ابن الخطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة، ج2، ص478/ ابن سعيد المغربي: المغرب في حلى المغرب، ج2، ص85/ عبد الواحد المراكشي: المصدر نفسه، ص311- 314.

5- يحي بن خلدون: المصدر السابق، ج1، ص204/ التنسي: المصدر السابق، ص126.

الإمام[1] سنة 710هـ- 1310م، ثم شيَّد ابنه أبو تاشفين عبد الرحمن (718- 737هـ/ 1318- 1337م) المدرسة التاشفينية جنوب الجامع الأعظم تكريمًا للفقيه أبي موسى عمران المشذالي، وقد ظلت هذه المدرسة قائمة حتى سنة 1876م أين قامت سلطات الاحتلال ببناء دار البلدية وساحة عمومية في مكانها، وبذلك تكون هذه المدرسة قد أدَّت دورًا علميا زُهاء خمسة قرون ونصف[2]. أما المدرسة اليعقوبية فقد أسسها أبو حمو موسى الثاني (760- 791هـ/ 1359- 1390م) سنة 765هـ- 1364م تخليدا لوالده أبي يعقوب[3].

أمَّا المدارس التي أنشأها المرينيون بتلمسان أثناء فترات الاستيلاء على المدينة فتتمَّثل في مدرسة أبي مدين التي أسَّسها السلطان أبو الحسن بقرية العباد سنة 747هـ- 1346م، فيما أسَّس خلفُه أبو عنان مدرسة سيدي الحلوي[4] سنة 754هـ- 1353م.

وقد وصف العلامة ابن خلدون ما بلغته تلمسان من رقي حضاري في العهد الزياني بقوله: " ورحل إليها الناس من القاصية ونفقت بها أسواق العلوم والصنائع، فنشأ بها العلماء واشتهر فيها الأعلام، وضاهت أمصار الدول الإسلامية والقواعد الخلافية"[5] .

إنَّ الأسباب والدوافع المذكورة سابقا لا تعدُّ المحرك الوحيد للهجرة وإنما اقتصرنا عليها لعلاقتها المباشرة بالظاهرة، إذ ثمة ظروف ودوافع اقتصادية واجتماعية وبيئية ونفسية متضافرة، مَثَّلت بدورها أسبابا للهجرة مثل التجارة ومدى توفر الأمن، فقلعة بني

1- ابني الإمام: هما أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله (ت743هـ- 1342م) تُنظر ترجمته عند ابن فرحون: المصدر السابق، ص250/ ابن خلدون: المصدر السابق، مج2، ص2129 / الونشريسي: وفيات الونشريسي، ص36/ ابن مريم: البستان في ذكر العلماء والأولياء بتلمسان، تحقيق عبد القادر بوباية، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1435هـ- 2014م، ص247 / التنبكتي: نيل الابتهاج، مج1، ص266 / كفاية المحتاج، ج1، ص191/ ابن القاضي: المصدر السابق، ص329/ المقري: أزهار الرياض في أخبار عياض، ج5، ص9/ عادل نويهض: المرجع السابق، ص22/ وأخوه أبو موسى عيسى (ت749هـ- 1348م) تُنظر ترجمته عند ابن مريم: المصدر نفسه، ص247/ الونشريسي: المصدر نفسه، ص44/ التنبكتي: نيل الابتهاج، مج1، ص325/ كفاية المحتاج، ج1، ص232/ ابن القاضي: المصدر السابق، ص375/ المقري: المصدر نفسه، ج5، ص9/ عادل نويهض: المرجع نفسه، ص23. عن هذه المدرسة يُنظر التنسي: المصدر السابق، ص139/ ابن خلدون: المصدر السابق، مج2، ص2129/ عبد العزيز فيلالي: تلمسان في العهد الزياني، موفم للنشر، الجزائر، 2002م، ج1، ص142/ الحاج محمد بن رمضان شاوش: باقة السوسان في التعريف بحاضرة تلمسان عاصمة دولة بني زيان، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2011م، ج2، ص64.

WILLIAM MARCAIS et GEORGE MARCAIS: les monuments arabes de Tlemcen, ouvrage publie sous les auspices du gouvernement général de l'Algérie, PARIS ancienne, librairie des écoles FRANCAISE D'ATENES et de ROME du collège de France, 1904, P20.

2- W. MARCAIS et G. MARCAIS : op cit, p21. / عبد العزيز فيلالي: المرجع السابق، ص142/ باقة السوسان، 64.

3- يحي بن خلدون: المصدر نفسه، ج2، ص283. مجهول: زهر البستان في دولة بني زيان، تحقيق وتقديم عبد الحميد حاجيات، عالم المعرفة، الجزائر، 2011م، س2، ص225/ عبد العزيز فيلالي: المرجع نفسه، ج1، ص144/ الحاج محمد بن رمضان شاوش: المرجع نفسه، ج2، ص66.

4- عبد العزيز فيلالي: المرجع نفسه، ص143- 144/ الحاج محمد بن رمضان شاوش: المرجع نفسه، ص64- 66.

5- ابن خلدون: المصدر نفسه، مج2، ص2113.

حماد التي كانت من أهم حواضر المغرب الأوسط في العهد الزيري وفترة من العهد الحمادي، أصبحت مدينة مهجورة نتيجة خرابها بعد أن طرقها العرب وتحويل العاصمة ففقدت مكانتها ولذلك هجرها معظم علمائها إلى بجاية وتلمسان أو إلى الأندلس.

نحاول الآن تتبع مسار الهجرة لرسم خارطة ولو تقريبية عن هذه الظاهرة داخل المغرب الأوسط، ذلك أنَّ بعض القبائل كانت أحيانا تغيِّر مواقعها باستمرار ولاسيما أثناء الحروب والصراعات، وما يزيد في صعوبة ضبط هذه الخارطة هو تولُّد بطون أخرى ونموها لتصل إلى مستوى القبيلة، أو بسبب التشتت واندراج بعضها في قبائل أخرى دون تحديد ذلك من طرف المصادر، فكثيرا ما يستعمل ابن خلدون للتعبير عن ذلك يقول: " وأما قبائل لماية فانقرضوا وهلكوا بهلاك مصرهم وبقيت منهم أوزاعا في القبائل "[1]

وبناءً على ما سبق، يُمكن أن نميِّز نوعين من الهجرة: هجرة جماعية تتمثل في القبائل كلها أو بعضها أو مجموعة من أفرادها، وهجرة فردية يقوم بها شخص أو عدة أشخاص.

هجرة القبائل البربرية: بدأنا بهذه القبائل لأصالتها في المنطقة وكثرة عدد سكانها[2] مقارنة بالعرب، إذ هم طارئون على بلادهم ونقصد بهم العرب الداخلون إلى بلاد المغرب خلال منتصف القرن الخامس الهجري، وسنقتصر في هذا المقام على من هاجرت منها دون المستقرة في مواطنها لأنه الغرض المقصود من البحث، وقد ركَّزنا في ذلك على القبائل الزناتية لاختصاص المغرب الأوسط بها[3]، وباعتبارها كذلك أكثر القبائل تحرُّكا، ولاسيما بنو مرين وبنو عبد الواد وتوجين ومغراوة التي كانت رؤوس الطبقة الثانية من زناتة[4]، ولِما كان بين هذه القبائل كلها من منافسة وحروب على المجال.

صعود قبائل بني واسين[5] إلى التل: كانت مواطن هذه القبائل بجبل أوراس، وفي الصحراء قبلة المغرب الأوسط من الزاب ووادي ريغ إلى سجلماسة وملوية وبجبل راشد وهو جبل العمور، ولم يكونوا يتجاوزون في حركتهم وتنقلهم تلول المغربين لسيطرة قبائل زناتة

1- ابن خلدون: المصدر السابق، مج2، ص1847.

2- نفسه، مج2، ص1826، 2062، / ابن حوقل: المصدر السابق، ص107/ مبارك الميلي: المرجع السابق، ج1، ص97.

3- سُمِّي المغرب الأوسط بوطن زناتة، وفي ذلك يقول ابن خلدون: " وأما المغرب الأوسط فهو في الأغلب ديار زناتة ". مج2، ص1864، 2068، 2072/ البكري: المصدر السابق، ص164/ الإدريسي: المصدر السابق، مج1، ص257/ عبد الوهاب بن منصور: المرجع السابق، ص311.

4- ابن خلدون: المصدر نفسه، مج2، ص2103/ البكري: المصدر نفسه، ص164.

5- بنو واسين: وهم بنو يصليتن بن مسرا بن زاكيا بن ورسيك بن جانا بن مادغيس الأبتر، أحد بطون زناتة وإخوة مغراوة وبني يفرن، وتعود شعوب واسين إلى فرعين هما، بنو ورتاجن ومنهم بنو مرين، وبنو بادين بن محمد، وهم أربعة بطون: عبد الواد وتوجين ومصاب وأزردال ويُضاف إليهم بنو راشد أخو بادين، وهم من توابع الطبقة الأولى من زناتة. ابن خلدون: المصدر نفسه، مج2، ص2100- 2101- 2103، 2109، 2176/ يحي بن خلدون: المصدر السابق، ج1، ص186/ ابن حزم: المصدر السابق، ص496/ E. MERCIER: histoire de l'Afrique septentrionale (BERBERIE), depuis les temps les plus recules jusqu'à la conquête FRANCAISE 1830, ERNEST LEVOUX éditeur, paris, 1868, p191 .

الأولى مثل بني يلومي وبني ومانو وبنو يفرن ومغراوة[1] التي كانت لها القوة والغلبة في العهدين الحمادي والمرابطي، ورغم ذلك فقد كان هؤلاء يستنجدون ببني واسين في حروبهم وهو يُمثِّل بداية صعودهم إلى التل.

لمَّا ظهر الموحدون على الساحة السياسية والعسكرية، وملكوا المغربين الأقصى والأوسط، حاربوهم أولا دفاعا عن مواطنهم ثم دخلوا في طاعتهم[2]، وهو ما يمثِّل الخطوة الأولى في صعود هذه القبائل نحو التل، ويبدو أنَّ ذلك كان نتيجة تحالفهم مع الموحدين الذين باتوا بحاجة إلى دعم من القبائل المحلية، لاسيما وأنهم كانوا يواجهون تحديات في الأندلس والمغرب الأقصى وإفريقية، وبسبب ضغط القبائل العربية مثل زغبة التي نزعت بدورها عن السلطة الجديدة وأقامت في القفار، وقد استغلت قبائل بني واسين الانتصارات العسكرية التي حققها الموحدون ضد قبائل زناتة والمرابطين وتحالفوا مع القوة الجديدة وهو ما مكنهم من استيطان التلول والضواحي[3] بعدما أقطعوهم إياها لجبايتها ومكافأة لهم على مشايعتهم.

1- قبائل بني عبد الواد: كانوا أقوى وأعز بطون بني واسين[4]، وقد استغلَّ الموحدون ذلك فعقدوا معهم حلفا، ولمَّا فتحوا البلاد الشرقية، ولوهم هضبة الشطوط وتلولها[5]، ويظهر أنَّ صعودهم إلى التل كان تدريجيا ابتداءً من منتصف القرن السادس الهجري الذي مَثَّل مرحلة ضعف وتلاشي قبائل بني ومانو وبني يلومي وكذا صنهاجة، فحازوا مواطنهم كما ذكرنا إقطاعا من الدولة[6] هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإنَّ الموحدين كانوا بحاجة إلى حليف وقوة بشرية ثابتة يمكن الاعتماد عليها والاستعانة بها، ولذلك عندما خرَّب عبد المؤمن تلمسان بعد أن قتل أهلها من المرابطين راجع رأيه فيها وشجَّع الناس على عمرانها[7] وهو ما فتح الباب أمام صعود بني عبد الواد حيث استمرَّ تَدفقهم إلى مطلع القرن السابع

1- ابن خلدون: المصدر السابق، مج2، صص2101-2103، 2167/ يحي بن خلدون: المصدر السابق، ج1، ص198/ أبو راس الناصري: المرجع السابق، ج2، ص65.

2- ابن خلدون: المصدر نفسه، مج2، ص2176.

3- ابن خلدون: المصدر نفسه، مج2، ص2102، 2109/ يحي بن خلدون: المصدر نفسه، ج1، ص198.

4- تتمثل بطون بني عبد الواد في: بنو ياتكتن وبنو وللو ومصوجة وبنو تومرت وبنو ورسطف وبنو زردال. وقد كان أوَّل اتصال بين الموحدين وهذا القبيل عندما كلَّف عبد المؤمن كبيرهم أبا محمد عبد الحق بن معاذ (منغفاذ) باسترجاع غنائمه من المال والذخيرة والكراع التي استولى عليها من أيدي المرابطين بعد فتح وهران واعترضها بنو مرين بزعامة المخضب بن عسكر فنهض إليه أبو محمد ولحقه بفحص مسون أين استنقذها منه وقَتَل المخضب وذلك سنة 540هـ-1145م. يحي بن خلدون: المصدر نفسه، ج1، 186/ عبد الرحمن بن خلدون: المصدر نفسه، مج2، ص2109- 2110، 2176/ التنسي: المصدر السابق، ص109/ إبراهيم حركات: المغرب عبر التاريخ، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، ط1، 1398هـ- 1978م، مج2، ص11.

5- ابن خلدون: نفسه، مج2، ص2176/ ابن أبي زرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس، ص272. الذخيرة السنية، ص21، 25/ عز الدين أحمد موسى: النشاط الاقتصادي في الغرب الإسلامي خلال القرن 6هـ، ص73.

6- ابن خلدون: المصدر السابق، مج2، ص2103، 2110.

7- نفسه، مج2، ص2112.

الهجري[1]، أين أقطعهم الموحدون التلول لحماية المغرب الأوسط من غارات ابن غانيَّة[2] الذي خرَّب عدة مدن كانت آهلة مثل تيهرت وأرشقول ووهران، ونتيجة لذلك شجع الموحدون سكنى تلمسان لما كانت إحدى قواعدهم، الأمر الذي وجد فيه بنو عبد الواد الفرصة للاستيطان في المدينة وأحوازها، فاستقروا هناك لما وجدوا من خصب الأرض وغضارة العيش، وقد وصف ابن خلدون تعمير تلمسان بقوله: " ولم يزل عمران تلمسان يتزايد وخطتها تتسع ... إلى أن نزلها آل زيان واتخذوها دارًا لـمُلكِهم وكرسيا لسلطانهم "[3] ثم انتشروا في أريافها وساحلها من البطحاء إلى ملوية.

لقد كان لهذا القبيل السبق في طرق التل لما كانوا أقرب إليه في الموطن، وترددهم عليه للميرة والظعن بماشيتهم أيام بداوتهم وبخاصة في مواسم الجفاف بالصحراء، ولَمَّا اتصل بنو عبد الواد بالموحدين وساندوهم كما أشرنا سابقا توطَّدت العلاقات بينها، والتي كان من نتائجها دعوة شيخ بني عبد الواد جابر بن يوسف بن محمد، سنة 627هـ- 1229م للخليفة إدريس المأمون (626- 630هـ/ 1228- 1232م)، فكتب له هذا الأخير العهد على تلمسان وسائر بلاد زناتة[4] وهو ما يمكن اعتباره الخطوة الأولى والبداية الحقيقية لتأسيس دولة بني عبد الواد.

يُمكن القول أنَّ بني عبد الواد بلغوا درجة من النضج السياسي والقوة العسكرية بفضل احتكاكهم وخدمتهم الطويلة للموحدين وهو ما مكّنهم من تنظيم أنفسهم وتجاوُز الخلافات القبلية بفضل قوة ومهارة يغمراسن بن زيان مؤسِّس دولتهم التي دامت قرابة ثلاثمائة وعشرين سنة.

1- ذكر يحي بن خلدون أنَّ بني عبد الواد جنحوا إلى التل في العشرة الثانية من المائة السابعة، وفي بعض النسخ المخطوطة، في المائة السادسة. المصدر السابق، ج1، ص198. والظاهر أنَّ هذه القبائل كانت تصل في ظعنها إلى التل ثم تعود إلى مواطنها بالصحراء منذ القرن السادس قبل أنْ تستقر نهائيا في التل خلال القرن السابع، وهو ما يُستنتج من الأحداث، فخلال الحروب التي خاضها جيش عبد المؤمن في المغرب الأوسط ضد المرابطين وحلفائهم من زناتة بين سنوات 534- 541هـ/ 1139- 1146م، كان بنو عبد الواد وتوجين ضمن هذا الجيش يُقاتِلون إلى جانب الموحدين، مثل معركة منداس، وعليه يكون استقرار بنو بادين عموما وفي مقدمتهم بنو عبد الواد في التل، عندما عجزوا عن مقارعة الموحدين، فانقادوا إلى الطاعة، عندها أقطعهم هؤلاء ضواحي المغرب الأوسط، وإلا كيف تستطيع هذه القبيلة في عِقد من الزمن تنظيم نفسها وتأسيس دولة إذا لم تكن قد احتكت بالحكم لسنوات ومارست الحروب التي تمكنها من نسيان حياة البداوة، ومن ثَم ممارسة الحكم. وخلاصة القول أنَّ استقرار بني عبد الواد في التل كان على أقل تقدير أواخر القرن السادس الهجري والذي يكون قد دام عدة عقود قبل استقرارهم نهائيا، حيث كانوا طوال هذه المدة في حركة مستمرة بين التل والصحراء وهو ما يُفهم من كلام ابن خلدون عندما يقول: " وكان هؤلاء الأحياء من زناتة ... قد غلبوا على ضواحي تلمسان والمغرب الأوسط ... فإذا خرجوا إلى مشاتيهم بالصحراء خلفوا أتباعهم بالتلول ". المصدر نفسه، مج2، ص1912- 1913، 2103، 2112/ التنسي: المصدر السابق، ص112.

2- ابن خلدون: المصدر نفسه، مج2، ص2103، 2110/ أحمد مختار العبادي: المرجع السابق، ص197.

3- ابن خلدون: المصدر السابق، مج2، ص2113/ يحي بوعزيز: **" المراحل والأدوار التاريخية لدولة بني عبد الواد الزيانية "**، مجلة الأصالة، السنة الرابعة، ع26، 1395هـ- 1975م، صص3- 29، ص7/ أحمد مختار العبادي: المرجع نفسه، ص197.

4- ابن خلدون: المصدر السابق، مج2، ص2111/ يحي بن خلدون: المصدر السابق، ج1، ص199- 200.

إنَّ السرعة والظروف التي تم فيها قيام دولة بني عبد الواد خلال العشرية الثالثة للقرن السابع الهجري وإن ارتبط ذلك ببداية أفول دولة الموحدين، فإنَّ تلك الظروف وبناءً على المعطى السابق، كانت تنمُّ بدورها عن مخاض سياسي بدأ يحدث بالموازاة مع تحرك قبلي مفعم بالنشاط، نتج عنه تغيُّر في الخارطة السياسية لبلاد المغرب بظهور دولتي بني حفص وبني عبد الواد في انتظار دولة بني مرين لاحقًا.

دخل بنو عبد الواد في سباق محموم ضد بني عمومتهم المرينيين خشية تفردهم بملك المغربين بعد ضعف الموحدين إثر معركة العقاب، وهي الفترة التي بدأ فيها تقدُّم قبائل بني مرين نحو المغرب الأقصى فكانوا يرون أنفسهم أولى بوراثة عرشهم، وهو ما أشار إليه ابن خلدون في قوله: "وكانت الحرب يومئذ بينهم (الموحدين) وبين بني مرين سجالا ... إلى سنة ثلاث وعشرين وستمائة ... عند اضطراب الدولة المؤمنية ... فهنالك تطاول هذا القبيل الأعز إلى ملك الوطن والاستحواذ عليه"[1]، ومن هنا يتبيَّن لنا دور العوامل السياسية في هجرة القبائل واستقرارها.

2- قبائل بني توجين[2]: كانت مواطنهم بالصحراء قبلة المغرب الأوسط، وقد ظهروا كقوة سياسية وعسكرية مع منتصف القرن الخامس الهجري[3]، ثم تقدَّموا تدريجيا نحو التل رفقة إخوانهم بني عبد الواد لمَّا كانوا جميعا حلفاء للموحدين، فملكوا المجالات الممتدَّة ما بين الصحراء والتل، من لمدية وسهل السرسو وجبل وانشريس ومرات والجعبات إلى سعيدة وجبل راشد غربا، وصارت التخم بينهم وبين عبد الواد سيك والبطحاء، ثم غلبهم العرب الهلاليون على بعض مواطنهم الغربية ما عدا جبل وانشريس، وامتدَّ نفوذهم في النصف الثاني من القرن السابع الهجري إلى أرض الزاب[4]، ونظرا للصراعات التقليدية التي كانت موجودة بين القبائل الجيران أو أبناء العمومة، فإنَّ بني توجين ظلوا منابذين لبني عبد الواد

1- يحي بن خلدون: المصدر السابق، ج1، ص198.

2- بنو توجين: من أعظم أحياء بني بادين، وهم إخوة بني عبد الواد، امتدت مجالاتهم ما بين مواطن بني راشد غربا إلى بلاد صنهاجة نواحي المدية شرقا، وما في قبلة ذلك من بلاد السرسو حول نهر شلف. وقد ذكر أبو راس الناصري حسب ما نقله عن بعض شيوخه أنَّ توجين إثنان، توجين بالواو بعد التاء وهو شريف، وتجين بدون واو وهو زناتي، ومن أشهر بطونهم: بنو يدللتن وبنو نمزي وبنو مادون وبنو وسيل وبنو قاضي وبنو مامت ، ويجمع هؤلاء الستة بنو مدن، ثم بنو تيغرين وبنو برناتن وبنو منكوش، ويجمع هؤلاء الثلاثة بنو رسوغين، ويدخل معهم بنو زنداك إحدى بطون مغراوة. كانت رئاسة بني توجين جميعا لعطية بن مناد بن العباس بن دافلتن المنكوشي الملقب بعطية الحيو (ت607هـ- 1210م) ثم قام بأمرهم من بعده ابنه عبد القوي، فانفرد برئاستهم وتوارثها عقبه من بعده. ابن خلدون: المصدر السابق، مج2، ص2168، 2171/ الإدريسي: المصدر السابق، ج1، ص257/ عبد الوهاب بن منصور: المرجع السابق، ص424/ أبو راس الناصري: المرجع السابق، ج2، ص66- 67/ الميلي: المرجع السابق، ج2، ص214/ E. MERCIER: op cit, tome2, p189

3- ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ق3، ص167- 168.

4- أقطع المستنصر بالله الحفصي بلد مقرة وأوماش من وطن الزاب لبني توجين نظير مشاركتهم في تحرير حاضرة تونس لما نزلها النصارى سنة 668هـ- 1270م، حيث أمدوهم بسبعة آلاف فارس بقيادة محمد بن عبد القوي، فكانت رحلتهم الشتوية تصل إلى الدوسن والمسيلة. ابن خلدون: المصدر نفسه، ص2168-2171/ أبو راس الناصري: المرجع نفسه، ص65/ حسن حسني عبد الوهاب: المرجع السابق، ص129.

أكثر أزمانهم[1] وهو ما انعكس سلبا على هذه القبيلة التي لم تتمكن من إقامة دولة أو على الأقل التعاون مع إخوانهم بني عبد الواد للوقوف ضد أطماع جيرانهم.

إنَّ استيطان قبائل بني توجين لمجال يربط بين الصحراء والتل، جعلهم يجمعون بين النشاط الزراعي المستقر في السهول العليا وحول مصادر المياه مثل وادي نهر واصل[2] ووادي مينا، ونشاط الرعي المتنقل أطراف الصحراء، أي أنهم زاوجوا بين حياة البداوة وحياة الحَضَر التي وصفها ابن خلدون في عهد زعيمهم عبد القوي بن العباس (ت647هـ-1249م) قائلا: " فصار له ملك بدوي، لم يفارق فيه سكنى الخيام"[3].

دخل بنو توجين في منافسة وصراع ضد جيرانهم مغراوة، فغلبوهم على جبل وانشريس وذلك لقوة عصبيتهم وكثرة قبائلهم، فأوطنه منهم بنو تيغرين وبنو منكوش قوم عبد القوي بن العباس، ولـمَّا استولى محمد بن عبد القوي (ت684هـ- 1285م) على لمدية[4] وضواحيها أنزل بها أولاد عزيز بن يعقوب المعروفين بالحشم من بني تيغرين، وجعلها لهم موطنا وولاية، فتولاها منهم حسن بن يعقوب، ثم بنوه من بعده يوسف وعلي[5].

بعد أن قَتل محمد بن عبد القوي يوسف بن حسن من بني يعقوب، فرَّ ابنه صالح وبنوه إلى جبال لمدية من بلاد صنهاجة، فأقاموا بها مدة ثم التحقوا بالحفصيين، أين أقطعوا لهم بضواحي قسنطينة[6]، وكانوا يُعوِّلون عليهم في حروبهم، فاستقروا هناك في إيالتهم بعد أن تحصلوا على الوظائف والأراضي، وقد اشتهر منهم في ذلك الوطن عمر بن صالح وابناه صالح ويحي وحفيده يحي بن صالح[7].

أما بنو مَدَن فقد تأخروا في الصعود إلى منطقة التل عن إخوانهم بنو منكوش وبنو تيغرين، فنزل منهم بنو قاضي وبنو مادون بأرض منداس (بين تاهرت وغليزان) حاليا فأوطنوها، ثم جاء على أثرهم بنو يدللتن فأوطنوا الجعبات وتاوغزوت[8]، وكانت رئاستهم لنصر بن سلطان بن عيسى، ثم آلَ الأمر إلى حفيده سلامة بن علي الذي اختطَّ القلعة

1- ابن خلدون: المصدر السابق، مج2، ص2109/ التنسي: المصدر السابق، ص129، 136.

2- وادي واصل: هو أحد روافد نهر شلف، جنوب شرق تيارت، يتصل به عند بلدة الشهبونية جنوب غرب قصر البخاري.

3- ابن خلدون: المصدر نفسه، مج2، ص2169/ عبد الله حشلاف: سلسلة الأصول في شجرة أبناء الرسول، المطبعة التونسية، تونس، 1347هـ- 1929م، ص148-149/ أبو راس الناصري: المرجع السابق، ج2، ص66.

4- لمدية: لامُها أصلية كلمتونة ولمطة، وهي إحدى بطون قبيلة صنهاجة الكبيرة، وإليهم نُسبت المدينة التي كانت في العهد الروماني تُسمى لامبديا، جدَّد بناءها بلكين بن زيري في القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي، وقد حذف الفرنسيون لامها ظنا منهم أنها زائدة. ابن خلدون: المصدر السابق، مج2، ص1877/ الحسن الوزان: المضدر السابق، ج2، ص41/ عبد الوهاب بن منصور: المرجع السابق، ص332.

5- ابن خلدون: المصدر نفسه، مج2، ص2171- 2172.

6- نفسه، مج2، ص2169- 2171.

7- نفسه، مج2، ص2171.

8- تقع قلعة تاوغزوت على بُعْد ستة كيلومترات جنوب غرب مدينة فرندة حاليا.

المنسوبة إليه - قلعة بني سلامة - التي استقر فيها ابن خلدون أربع سنوات (776- 780هـ/ 1374-1378م) وكتب فيها مقدمة تاريخه[1]، ومما سبق نلاحظ أنَّ قبائل بني توجين لم تصعد دفعة واحدة إلى التل وإنما تمَّ على فترات متعاقبة، سمح لقبائل أخرى بالتموقع وحيازة مجالات وهو ما سيكون له أثر في علاقات هذه القبائل مع مغراوة وبني عبد الواد، أو بينهم وبين القبائل العربية.

لقد كان لتذبذب العلاقات بين بني سلامة وبين بني عبد الواد، والتي تراوحت بين الموالاة والعداء، أثرٌ على استقرارهم، حيث ردد عليهم ملوك بني زيان الغزو خوفا من معاضدتهم لإخوانهم بني محمد بن عبد القوي أمراء جبل وانشريس المنيع، منها غزوة عثمان بن يغمراسن أواخر سنة 686هـ-1287م، أعطوه على إثرها يد الطاعة واشترط عليهم مفارقتهم، ثم طمع في وطنهم جيرانهم أولاد عريف بن يحي من سويد عرب زغبة، فمانعهم دونه سليمان بن سعد بن سلامة، ولما استفحل أمر العرب أقطعهم أبو حمو موسى الثاني القلعة ومنداس، ونتيجة لذلك أصبحت بطون توجين خَوَلاً لسويد وعبيدا لجبايتهم إلا جبل وانشريس الذي ظل تحت حكم بني تيغرين، عندها لم يجد أولاد سلامة بُدًّا من طاعة بني عبد الواد، حيث نظمهم أبو حمو موسى في جنده وأثبتهم في ديوانه وأقطعهم القصبات من نواحي تلمسان[2] ليستعين بهم على أعدائه.

أما بنو يرناتن من بني رسوغين فقد ظلوا مقيمين بمواطنهم الأولى ما بين ماحنون وورينة قبلة وانشريس ويصلون في حركتهم إلى جانبي نهر واصل أعالي شلف حيث خلى لهم المجال بعد صعود معظم قبائل بني توجين إلى التل، وكانت رئاستهم في بني نصر بن علي بن تميم بن يوسف بن بونوال، ونظرا لقوة هذه القبيلة فقد تقرَّبَ إليها عبد القوي بن العباس ثم ابنه محمد ليشد من أزرهما بهم، فزوَّج عبد القوي ابنته لرئيسهم مهيب بن نصر، ثم اتصلَ أبناؤه بأبي حمو موسى الأول (707- 718هـ/ 1308- 1318م) فاستوزر منهم معروف بن أبي الفتوح بن عنتر بن علي بن نصر، وولى أخاه عيسى على بني راشد وأنزله بلد سعيدة فكانت له بها إمارة[3]، ثم غلب العرب على وطن بني يرناتن وملكوا عليهم جبل يعود وماحنون، وبقيت صبابتهم بجبل ورينة وأميرهم من ولد نصر بن علي بن نصر بن مهيب، في حين لم يكن لبني قاضي وبني مادون شأن كبير في وطنهم منداس لقلة عصبيتهم، فغلبهم عرب سويد من بطون زغبة على مواطنهم بعد منتصف القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر ميلادي[4].

1- ابن خلدون: المصدر السابق، مج2، ص2173-2174، ص2393/ المهدي البوعبدلي: تاريخ المدن، ص259.

2- ابن خلدون: المصدر نفسه، مج2، ص2174-2175.

3- نفسه، مج2، ص2175/ يحي بن خلدون: المصدر السابق، ج1، ص213/ مبارك الميلي: المرجع السابق، ج2، ص214/ البوعبدلي:المرجع نفسه، ص263.

4- ابن خلدون: المصدر نفسه، مج2، ص2175- 2176.

3- بني راشد[1]**:** لما ضعف أمر بنو يلومي وبنو ومانو آخر دولة المرابطين واستولى بنو عبد الواد على مجالاتهم إقطاعا، زحف على إثرهم بنو راشد من مواطنهم بالصحراء إلى التل، وأصبحوا شيعة لهم، ويُحتمل أنْ يكون ذلك بدعوة منهم لدعم عصبيتهم ضد أعدائهم بني توجين وبني مرين، فاستولوا على بسائط مديونة وبني ورنيد بعد أن شنوا عليهم الغارات، فحازوا مواطنهم وألجئوهم إلى الأوعار، فاستوطن بنو ورنيد الجبل المطل على تلمسان المنسوب إليهم (جبل ورنيد) فيما استوطنت مديونة جبل تاسالة[2] قبلة وهران، وملك بنو راشد بسائطهم القبلية[3].

تقدَّم بنو راشد شرق تلمسان حيث استوطنوا جبل بني يفرن[4] الذي اختطَّ فيه يعلى بن محمد مدينة أفكان[5]، فصار لهم حصنا، ثم انبسطوا في سهول معسكر[6] وجبالها وبقلعة

1- بنو راشد: من ولد راشد بن محمد إخوة بني بادين بن محمد من بني واسين، كانت مواطنهم بالصحراء بجبل راشد المنسوب إليهم وهي جبال العمور حاليا بين آفلو إلى البيَّض. ابن خلدون: المصدر نفسه، مج2، ص2101- 2103، 2107، 2176/ أبو راس الناصري: المرجع السابق، ج2، ص65. وهناك بنو راشد الأشراف نسبة إلى راشد بن يحي بن علي بن حمود بن ميمون بن علي بن عبد الله بن عمر بن إدريس بن إدريس بن عبد الله الكامل بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب الذين استوطنوا سهل غريس، وعليهم نزل بنو راشد البربر. عبد الله حشلاف: المرجع السابق، ص110-111/ التوجيني: عقد الجمان النفيس في ذكر الأعيان من أشراف غريس، نشر دار الخليل القاسمي، بوسعادة- الجزائر- 2005م، ص16/ الطيب بن المختار الغريسي: القول الأعم في بيان أنساب قبائل الحشم، نشر الحاج بلهاشمي بن بكارة، المطبعة الخلدونية، تلمسان، 1381هـ-1961م، ص328.

2- تاسَّالا: أو تاسَّالة، جبل وقرية شمال شرق مدينة سيدي بلعباس حاليا على بعد 30 كلم، وبنفس المسافة جنوب مدينة وهران.

3- ابن خلدون: المصدر نفسه، مج2، ص2167.

4- بنو يفرن: وهم بنو يصليتن بن مسرا بن زاكيا بن ورسيك بن الديديت بن جانا أي زناتة، وهم إخوة مغراوة وبني واسين وبني يرنيان، ومن أشهر قبائلهم بنو واركو ومرنجيصة، كان جمهورهم بالمغرب الأوسط ما بين تلمسان إلى جبل راشد وواركلا والزاب وجبل أوراس وبسائط إفريقية، ومعنى يفرن في لغة البربر الفار، وهم الذين اختطوا مدينة تلمسان قبل الفتح حيث كانوا أكبر قبائل زناتة وأشدُّها شوكة ومنهم أبو قرة الخارجي. ابن خلدون: المصدر السابق، مج2، ص2068-2072، 2164-2168/ ابن حزم: المصدر السابق، ص498/ أبو راس الناصري: المرجع السابق، ج2، ص69/ رابح بونار: المرجع السابق، ص221.

5- أفكان: كانت سوقا قديمة من أسواق زناتة فمدَّنها يعلى بن محمد بن صالح اليفرني سنة 338هـ-949م، وهي في سفح جبل أوشيلاس وهو بجوفيها، لها أرحية وحمامات وقصور، عليها سور من تراب في غاية الارتفاع والعرض، وواديها سيرا (المعروف بشارب الريح) يشقها نصفين، ومنها إلى تاهرت إلى الشرق ثلاث مراحل. خُرِّبت هذه المدينة على يد جوهر الصقلي قائد المعز العبيدي في حملته على المغرب سنة 347هـ-958م. ابن خلدون: المصدر نفسه، مج1، ص1082/ مج02، ص2073/ ابن الأثير: المصدر السابق، مج2، ص1748/ ابن أبي زرع: المصدر السابق، ص89- 90/ ابن عبد الحليم الإيلاني: المصدر السابق، ص106-107/ الإدريسي: المصدر السابق، ج1، ص250-251/ البكري: المصدر السابق، ص167/ ابن حوقل: المصدر السابق، ص92/ الحميري: المصدر السابق، ص51، ص440/ ياقوت الحموي: المصدر السابق، مج1، ص187/ E. CARETTE: origine et migrations des principales tribus de l'Algérie, imprimerie impériale, paris, 1853, p134.

6- معسكر: قاعدة الوطن الراشدي، أُختلِف في تاريخ بنائها، فُذكر أنها بُنيت في القرن الثاني الهجري من طرف راشد بن المرشد القرشي وبها نزل عليه إدريس بن عبد الله الكامل وأخوه سليمان، ومنها انتقل إدريس وراشد إلى المغرب الأقصى، وذكرها الإدريسي في أواسط القرن السادس، وقيل بناها يغمراسن بن زيان في القرن السابع وجعلها قاعدة عسكرية واتخذ من بني راشد جيشا له. الإدريسي: المصدر السابق، مج1، ص251/ بلهاشمي بن بكار: حاشية رياض النزهة، ص33-34.

هوارة التي أخذت نسبتهم قلعة بني راشد[1]. كانت رئاستهم لما دخلوا التلول في بيت ابن عمران (ت690هـ-1291م) فتولاها منهم إبراهيم بن عمران ثم أخوه ونزمار ثم ابنه مقاتل بن ونزمار ثم افترقت بين بني إبراهيم وبني ونزمار[2].

تقلّب بنو راشد في ولائهم بين بني عبد الواد تارة، وبني مرين تارة أخرى إلى أن ضعفت عصبيتهم وتلاشى أمرهم وأصبحوا خولا وجباية للسلطان لاسيما بعد أن قتل أبو حمو موسى الثاني شيخهم زيان بن أبي يحي بن موسى بن عبد الرحمن بن ونزمار بن إبراهيم[3] سنة 768هـ-1367م.

4- بني مرين[4]: كانت مواطنهم في الصحراء من زاب إفريقية وجبل راشد إلى ملوية وفكيك وسجلماسة[5]، ومع أواسط القرن السادس الهجري صعدوا نحو التل، وأصبحوا يجوبون سهول جهات وهران العليا، تكتلوا مع زناتة في حرب الموحدين وعندما انهزموا أبوا الخضوع لهم ولاذوا بعيدا بتخوم الصحراء، فأصبحت ديارهم بين قبلة زاب إفريقية وسجلماسة وتفردوا بها بعد صعود بني بادين إلى التل، إلا أنهم تركزوا أكثر في الناحية الغربية قبلة المغرب الأقصى، في حين حافظت بقايا من قبائلهم على مواطنها الأولى ببلاد الزاب وأوراس[6].

1- قلعة بني راشد: كانت تُعرف في بداية تاريخها بقلعة هوارة نسبة إلى قبيلة هوارة البربرية، أسسها بنو إسحاق من هذا القبيل بين القرنين الرابع والخامس الهجريين، ولما اكتسح بنو راشد سهول غريس أوائل القرن الثامن سكنوا القلعة، فسُميت بهم، وقد سكن معهم كما أشرنا سابقا بنو راشد الأشراف، تُطلق القلعة على الحصن والقرى المجاورة وهي مصراتة والدبة وتليوانت والسمار والتراق. ابن خلدون: المصدر السابق، مج2، ص1859، 2167/ البكري: المصدر السابق، ص155/ التوجيني: المصدر السابق، ص16/ أبو راس الناصري: المرجع السابق، ج1، ص94، 111/ ج2، ص65/ المهدي البوعبدلي: تاريخ المدن، ص595. وقد أصبحت هذه المدينة من أهم المراكز العلمية أواخر العهد الزياني وخلال العهد التركي.

2 - ابن خلدون: المصدر نفسه، مج2، ص2167، 2237، 2243.

3- نفسه، مج2، ص2167-2168/ يسمي يحي بن خلدون هذه السنة 768هـ- 1366م سنة ثورة الفتن بقطر تلمسان، لكنه لا يشير إلى مقتل الشيخ وإنما يذكر قيادته لكورة بني راشد وفي السنة التي قبلها أي 767هـ- 1365م. بغية الرواد، ج2، ص323، ص361 وما بعدها.

4- بنو مرين: فخذ من زناتة من ولد مرين بن ورتاجن بن ماخوخ بن وجديج بن فاتن بن يدر بن يجفت بن يصليتن بن عبد الله بن ورتيب بن المعز بن إبراهيم بن سجيح بن واسين بن يصليتن بن مسرا بن زاكيا بن جانا بن يحي بن تمزيت بن ضريس. وفي واسين يلتقي بنو مرين ببني عبد الواد. ابن خلدون: المصدر السابق، مج2، ص2101-2012، 2176/ ابن أبي زرع الفاسي: الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية، ص14/ الأنيس المطرب بروض القرطاس، ص278- 281/ القلقشندي: نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب، ص419. وقد أجمعت معظم المصادر والمراجع على نسبهم البربري الزناتي رغم ادعاء بعضهم النسب العربي، وهي ظاهرة كانت سائدة ومعروفة في العصر الوسيط إلى العصر الحديث. إبراهيم حركات: المرجع السابق، ص10.

5- ابن خلدون: المصدر نفسه، مج1، ص1788/ مج2، ص2103/ ابن سماك العاملي: المصدر السابق، ص284/ ابن أبي زرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس، ص281/ الإدريسي: المصدر السابق، ج1، ص256.

6- ابن خلدون: المصدر نفسه، مج2، ص2103، ص2112، ص2176/ ابن أبي زرع: الذخيرة السنية، ص21، ص25/ الأنيس المطرب، ص272/ ابن أبي دينار: المصدر السابق، ص137/ ابن مرزوق: المسند الصحيح الحسن في مآثر ومحاسن مولانا أبي الحسن، ص110.

بني ورنيد[1]: كانت مواطنهم في البسيط قبلة تلمسان إلى قصر سعيد، فلما زاحمهم بنو راشد حين دخولهم من بلادهم بالصحراء إلى التل وغلبوهم على تلك البسائط، انزاحوا إلى الجبل المعروف بهم المطل على تلمسان[2] وهو جبل ورنيد.

بني يلومي وبني ومانو: كانت هاتان القبيلتان من أوفر بطون زناتة وأشدهم شوكة في العهدين الحمادي والمرابطي، ومواطنهم جميعا بالمغرب الأوسط، فكان بنو ومانو إلى جهة الشرق عن وادي مينا وسيرات وما إليها من أسافل شلف، فيما استوطن بنو يلومي بالعدوة الغربية منه بالجعبات والبطحاء وسيك وجبل هوارة[3]، ولمَّا ضعف هذان الحيان مع بداية عهد الدولة الموحدية جاذبهم في مواطنهم بنو توجين بزعامة عطية الخير فغلبوهم عليها[4] عندها تفرَّق من بقي منهم، فلجأ بنو يالدس إلى الصحراء قبلة المغرب الأوسط حيث استقروا ببلاد توات وتمنطيت وتيكورارين رفقة قبائل زناتة مثل مصاب وبني مرين وصنهاجة- بقايا المرابطين - فشيدوا بها القصور واتخذوا الجنات، فاستبحرت في العمران وغصَّت بالساكن[5]، ويظهر أنَّ هذه القبائل قد تعايشت فيما بينها بهذا الموطن بعيدا عن سلطان الدول وذل المغارم، فاشتغلت بالتجارة هناك لاسيما وأنها كانت تربط المغرب الأوسط ببلاد السودان الغربي سواء عن طريق الصحراء أو عن طريق ساحل تلمسان[6].

بني منديل[7]: كانت مجالاتهم بأرض المغرب الأوسط من شلف إلى تلمسان وجبل مديونة، ويمتد بالمغربين وإفريقية تلاّ وصحراءً، ورغم أنَّ معظمهم مكثوا في مواطنهم الأولى مثل بني ورسيفان وورتزمان وإيليت[8]، إلا أنَّ الظروف السياسية التي ستعرفها المنطقة لاحقا، سيكون لها أثرا على توزيع هذه القبائل.

1- بنو ورنيد: وهم بنو وانتين بن وارديزن بن الغانا الملقب دمر بن ورسيك بن الديديت بن زانا ومن شعوبهم بنو ورتاتين وبنو غرزول وبنو تفورت إخوة بنو برزال. ابن حزم: المصدر السابق، ص498/ ابن خلدون: المصدر السابق، مج2، ص2096/ مبارك الميلي: المرجع السابق، ج2، ص212.

2- ابن خلدون: المصدر نفسه، مج2، ص2096، 2167/ مبارك الميلي: المرجع نفسه، ج1، ص109- 110/ ج2، ص212.

3- ابن خلدون: المصدر نفسه، مج2، ص2098، 2167.

4- نفسه، ص2099.

5- ابن خلدون: المصدر السابق، مج2، ص2099- 2100/ المهدي البوعبدلي: تاريخ المدن، ص376.

6- كانت معظم القوافل والسلع التجارية الآتية من الشمال سواء من أوروبا أو من المغرب الأوسط والمتجهة نحو الصحراء تمرُّ حتما عبر تلمسان إلى توات ومنها إلى بلاد السودان. البكري: المصدر السابق، ص164/ الإدريسي: المصدر السابق، مج1، ص18/ الحميري: المصدر السابق، ص135/ ابن بطوطة: المصدر السابق، ص706/ يحي بوعزيز: **" طرق القوافل التجارية بالصحراء الكبرى كما وجدها الأوروبيون في القرن التاسع عشر "**، مجلة الثقافة، ع59، السنة العاشرة، 1400هـ- 1980م، صص13-30، ص16. محمد باي بالعالم: الرحلة العلية إلى منطقة توات، المعرفة الدولية للنشر والتوزيع، الجزائر، 2015م، ج1، ص58.

7- بني منديل: كانوا أوسع بطون زناتة، ونسبهم إلى مغراو بن يصلتين بن مسرا بن زاكيا بن ورسيك بن الديديت بن جانا، وهم إخوة بني يفرن وبني يرنيان، وهم من توابع الطبقة الأولى من زناتة، ونسبهم في منديل (ت623هـ- 1226م) بن عبد الرحمن بن عبد الصمد بن خزرون ابن حزم: المصدر السابق، ص498/ ابن خلدون: المصدر السابق، مج2، ص2077، 2104- 2109، 2145، 2155، 2217، 2303/ أبي راس الناصري: المرجع السابق، ج1، ص91 وما بعدها.

8- ابن خلدون: المصدر نفسه، مج2، ص2103.

يُعد بنو منديل أعظم قبائل مغراوة المستقرة بسهل شلف، وقد برزوا كقوة سياسية ابتداءً من القرن السادس، فخاضوا ضد بني عبد الواد حروبا متتالية بسبب ولائهم للحفصيين، وهو ما اضطرهم في كثير من الأحيان إلى الهجرة نحو الشرق، فلما تغلّب أبو حمو موسى الأول على بلدهم سنة 707هـ-1307م التحقوا ببجاية عند واليها ابن الخلوف تحت قيادة زعيمهم راشد بن محمد بن ثابت بن منديل، فنظّمهم السلطان أبو البقاء خالد بن يحي في جنده، لكنهم سرعان ما نزعوا عنه إلى أخيه أبي بكر والي قسنطينة، ومنصور بن فضل أمير الزاب المنتزيان بغرب المملكة، فاستقروا في جملتهم، وعلى راشد وقومه كانت تدور رحى حروبهما[1]، لكن بمقتله سنة 710هـ- 1310م، لحق قومه مغراوة بالثغور القاصية وبقي بعض فلهم ببجاية[2].

استغلَّ علي بن راشد المغراوي نكبة السلطان المريني أبي الحسن (731-749هـ/1331-1348م) بالقيروان[3] فوثب على بلاد شلف وتغلَّبَ على أمصارها، مليانة وتنس وبرشك وشرشال، وظاهَرَ بني عبد الواد إلى أن حدثت بينهما منافرة فنهض إليه أبو ثابت الزعيم بن عبد الرحمن بن يغمراسن (749-755هـ/1348-1352م) سنة 752هـ- 1351م فحاصره بجبال مدينة تنس، عندها ذبح علي نفسه بيده في هذه السنة فتشتَّتَ قومه بأطراف الأرض وصاروا أوزاعا في القبائل[4]، وقد استغلَّ أبو ثابت هذا الانتصار وضعف بني منديل فعفى عما تبقى منهم وضمَّهم إلى جيشه[5].

حاول بنو منديل بزعامة حمزة بن علي بن راشد إحياء مُلكِهم من جديد، فاعتصموا بمعقلهم بني بوسعيد، لكن الجيش المريني حاصرهم به بقيادة الوزير أبو بكر بن غازي أثناء حركة السلطان عبد العزيز (768-774هـ/1366-1372م) إلى المغرب الأوسط سنة 772هـ-1370م، ففرَّ حمزة وقومه إلى بلاد حُصَيْن، لكن لم يلبث أنقُبض عليه وقُتِل بتيمزوغت نواحي مليانة، عندها لجأ فلُّهم إلى أطراف الصحراء حيث توجد طائفة منهم بجبل كسال قرب البيَّض يُعرفون بغواط كسال[6].

1- ابن خلدون: المصدر السابق، مج2، ص1989، 1991، 2107، 2238/ مجهول: زهر البستان، ص112، ص208/ يحي بن خلدون: المصدر السابق، ج1، ص236.

2- ابن خلدون: المصدر نفسه، مج2، ص2107.

3- وقعت بين سنتي 748-749هـ عندما حاول أبو الحسن ضم إفريقية، فتألّب ضده أولاد أبي الليل عرب الكعوب وأولاد القوس عرب علاق وغيرهم، ونصَّبوا أحمد بن عبد السلام بن عثمان بن إدريس بن أبي دبوس سلطانا وابن تافراكين حاجبا له، وعزموا على حرب السلطان، وقد انضم إليهم بنو عبد الواد ومغراوة وبنو توجين الذين كانوا ضمن جيشه، فلقيهم بالثنية بين تونس والقيروان فتولوا منهزمين، ولما دخل القيروان صدقوه القتال فحاصروه بها واستولوا على ذخيرته، ونجا السلطان إلى ساحل سوسة ومنها إلى تونس. ابن خلدون: المصدر نفسه، مج2، ص2256 وما بعدها، ص1938/ التنسي: المصدر السابق، ص149- 150.

4- ابن خلدون: المصدر نفسه، مج2، ص2108، 2144-2145.

5- يحي بن خلدون: المصدر السابق، ج1، ص245/ التنسي: المصدر نفسه، ص152- 153.

6- ابن خلدون: المصدر نفسه، مج2، ص2108، 2293، 2297/ مبارك بن محمد الميلي: المرجع السابق، ج2، ص213.

نقل مغراوة وبني توجين إلى تلمسان: إنَّ الصراعات والحروب التي كانت تقوم بين القبائل أو بينها وبين والدول للأسباب التي ذكرناها سابقا، تجلت بصورة واضحة لدى أربعة قبائل كلها زناتية وهي بنو عبد الواد وبنو مرين وبنو توجين ومغراوة التي مَّثلت قوى أساسية بعد الموحدين، وقد فسَّر ابن خلدون ذلك تفسيرا سياسيا هو المنافسة على المُلك، أو الاستقلال والأَنَفة من الخضوع لسلطة الآخر على الأقل، وهو ما يبيِّن أنَّ هذه النزعة لم تكن مقتصرة على العرب فقط، وهنا يُمكن أن نميِّز اتجاهين مختلفين في سياسة أو موقف كل من الحفصيين والمرينيين من قبائل المغرب الأوسط عموما وهذه القبائل بالذات أي مغراوة وبنو توجين، ففي الوقت الذي كان بنو حفص يتقربون منهما للاستفادة من خدماتهم العسكرية كما مرَّ سابقا، أو لجعلهم حاجزا بينهم وبين بني عبد الواد دون النظر إلى عواقب أي تطور سياسي يمكن أن ينعكس على أمنهم، بل الأخطر من ذلك أنَّ أمراء بني حفص لم يتوانوا في مساعدتهم على ذلك في عدة مرات، منها في عهد أبي زكريا بن أبي حفص الذي يقول عنه ابن خلدون: " وكان المولى الأمير أبو زكريا يستظهر بهذين الحيين ... وألبَس جميعهم شارة الملك فزاحموا يغمراسن بعدها بالمناكب"[1].

أما سياسة المرينيين في المنطقة فكانت واضحة وهي التوسع وجعل هذه القبائل كرعايا لهم، والدليل على هذه السياسة كثرة الحملات العسكرية التي ظل الجيش المريني يشنها كلما أُتيحت فرصة أو قام سبب لذلك، سواء ضد بني عبد الواد أو أي قبيلة تريد الاستقلال، وقد رأينا كيف قُتِل حمزة بن علي بن راشد.

لقد أدى تدخُّل أمراء بني حفص وسلاطين بني مرين في المغرب الأوسط وموالاة قبائله إلى هذا الطرف أو ذاك إلى حقد بني عبد الواد على هذين الحيين اللذين كانت تحذوهما رغبة في إقامة ملك على غرار إخوانهم بني عبد الواد، فشنُّوا ضدهم الحملات المتتالية، ففي سنة 710هـ- 1310م خرج أبو حمو موسى الأول بعساكره فدوَّخ بلاد بني توجين ومغراوة وأخذ من سائر بطونهم مثل بني تيغرين وأولاد عزيز وبني يدللتن رهنا على الطاعة والجباية[2]، وفي سنة 717هـ-1317م نهض ثانية إلى الشرق فملك المدية واستعمل عليها يوسف بن حسن بن عزيز التوجيني لمدافعة ابن عمه محمد بن يوسف بن يغمراسن المنتزي عليه[3]، أخذ على إثرها الرهن من عدة قبائل زناتية وعربية وعاد بهم إلى تلمسان حيث اتَّخذ لهم قصبة خاصة بهم في شكل مدينة واسعة الخِطَّة والديار فأنزلهم بها حتى أصبحت تُضاهي بعض الأمصار العظيمة[4].

1- ابن خلدون: المصدر السابق، مج2، ص2119.، ص2105.

2- نفسه، مج2، ص2129/ التنسي: المصدر السابق، ص136/ يحي بن خلدون: المصدر السابق، ج1، ص213.

3- ابن خلدون: المصدر نفسه، مج2، ص2132/ التنسي: المصدر نفسه، ص138/ يحي بن خلدون: المصدر نفسه، ج1، ص214. لما زحف أبو تاشفين إلى جبل وانشريس سنة 719هـ- 1319م حاصر محمد بن يوسف في حصن توكال وتقبَّضَ عليه بمداخلة عمر بن عثمان بن عطية من بني تيغرين، ثم أخذه أسيرا إلى تلمسان حيث قُتلَ قعصًا بالرماح.

4- ابن خلدون: المصدر نفسه، مج2، ص2132.

ذكر كارات CARETTE أنَّ مقاطعة وهران استقبلت عددا كبيرا من المغراويين[1] في عهد دولة بني زيان، فهل يكون هؤلاء ممن نقلهم سلاطين هذه الدولة لهذا الغرض؟ أم أنّهم هاجروا من تلقاء أنفسهم لأي سبب من الأسباب؟ ومن غير المستبعد أن يكون هؤلاء قد هاجروا نتيجة الحملات العسكرية المتكررة لبني عبد الواد على مواطنهم.

حرص بنو عبد الواد على استتباب الأمن في مملكتهم، ولذلك كان أخذ أبناء القبائل رهنا إجراءً وقائيا لمنع قيام الثورات ضدهم، وقد تَجَاوَز أبو حمو موسى في أخذ الرهن حتى من السُّوقَة[2] وعامة الناس فضلا عن أبناء الزعماء والأعيان، وكتشجيع منه على استقرارهم، أَذِنَ لهم في ابتناء المنازل واتخاذ النساء، ووفّر لهم سبل العيش ومرافق الحياة فاختَطَّ لهم المساجد والأسواق ودُور الحرف، فأصبحت هذه البنية على رأي ابن خلدون أغرب ما حُكِي في العصور[3].

إنَّ سياسة الرهن التي انتهجها بعض سلاطين بني عبد الواد كأسلوب أمني، تُعدَّ أحد ضروب الهجرة - هجرة قصرية - والتي كانت معروفة في الفترة الوسيطة، فقد اتبعها العبيديون عند حكمهم لإفريقية والمغرب الأوسط، إذ نقلوا معهم إلى مصر عددا كبيرا من أفراد قبيلة كتامة، كما قاموا بتهجير سكان جبل أوراس وقبيلة بني كملان الهوَّارية إلى إفريقية[4]، ونفس الإجراء أقدم عليه خليفتهم على إفريقية بلكين بن زيري عندما نقل زناتة تلمسان إلى آشير[5].

هجرة قبائل ضريسة[6]:

-1- مطغرة: كان جمهورهم بالمغرب الأقصى، ومنهم بالمغرب الأوسط قبائل بنواحي تلمسان اتصلوا بكومية ودخلوا في حلفهم، ورئاستهم أيام الموحدين لولد خليفة، وكان لهم

1- E. CARETTE : op cit, p162.

2- السُّوقَة: بالضم: الرَّعيَّة، للواحد والجمع، والمذكر والمؤنث، وسموا سوقة لأنَّ الملوك يسوقونهم فينساقون لهم. الفيروز أبادي: المصدر السابق، ص845.

3- ابن خلدون: المصدر السابق، مج2، ص2132- 2133.

4- نفسه، مج1، ص1077-1078/ ابن الأثير: المصدر السابق، مج2، ص1618/ ابن عذاري: المصدر السابق، ج1، ص187/ الداعي إدريس عماد الدين: المصدر السابق، ص216.

5- ابن الأثير: المصدر نفسه، مج2، ص1787/ النويري: المصدر السابق، ص312.

E.F.GAUTIER :OP CIT , P 385.

6- ضريسة: إحدى أجذام البتر التي نسلت منها شعوبهم الأربعة، أداسة ونفوسة ولواتة وضريسة. تعود قبائل ضريسة إلى ولدي ضري بن زحيك بن مادغيس الأبتر وهما تمصيت أو تمزيت ويحي، فقبائل فاتن بن تمصيت: كومية ولماية ومطماطة ومغيلة ومديونة ومطغرة أومدغرة وصدينة. أما أبناء يحي فهم شعب زناتة كلهم وما تفرَّع عنهم مثل بني يفرن ومغراوة وبني واسين وبني دمر، وسمكان ومنه زواغة، وورصطف ومنه مكناسة وأوكنة وورتناج وما تفرَّ عنهم. ابن خلدون: المصدر نفسه، مج2، ص1827، 1845/ ابن حزم: المصدر السابق، ص496/ ابن عذاري: المصدر نفسه، ج1، ص65-66/ عبد الوهاب بن منصور: المرجع السابق، ص309-310.

حصن تاونت[1]، ملكه من بعده أبناؤه، ويظهر أنَّ بعضهم قد نزلوا قبلة تلمسان لما انقرضت دولة بني عبد المؤمن فسكنوا قصور توات[2] وتمنطيت واشتغلوا بغراسة النخل على طريقة العرب، ولهم في الشرق منها مدينة قليعة[3] وتُعرف بالمنيعة، فيما يكون بعضهم قد اتجه شرقا قرب الساحل حيث استوطنوا فحص سيرات[4] قرب مستغانم، عندها تنازع موطنهم بنو مرين وبنو عبد الواد.

2- مطماطة[5]: كانوا ذوي قوة وشوكة، ومواطن جمهورهم بتلول منداس وجبل كزول من نواحي تيهرت ثم غلبهم على مواطنهم بنو توجين عند صعودهم إلى التل، فالتحقوا بجبل وانشريس وصاروا في عداد القبائل الغارمة، ومنهم بطون بنواحي فاس وقابس[6].

3- مديونة: وهم إخوة مطماطة ومطغرة، كانت مواطن جمهورهم بنواحي تلمسان ما بين جبل راشد إلى الجبل المعروف بهم قبلة مدينة وجدة، ولما تغلَّب بنو راشد وبنو توجين على ضواحي المغرب الأوسط، وقد ضعفت هذه القبيلة بسبب قلة عدد أفرادها، داخلوهم على مواطنهم وتملَّكوها، فتفرقت مديونة حيث صار بعضهم إلى جبل وجدة، فيما توجَّه قسم منهم نحو الشمال أين استقروا بجبل تاسالة، ولم يبق لهم هنالك إلا صبابة يحترفون بالفلح ومنهم أوزاع في القبائل[7].

1- تاونت: حصن منيع على جبل منيف من ساحل مدينة ترنانا، يحيط به البحر من ثلاث جهات، له مرتقى وعر من ناحية الشرق لا يطمع فيه أحد، وفي جبل الحصن معدن الإثمد، ينزله قبيل يُعرفون ببني منصور. البكري: المصدر السابق، ص167-168/ مجهول: الاستبصار، ص135.

2- توات: تتكون بلاد توات من ثلاثة أقاليم: تديكلت (إينغر) وتاسبيت وتيكورارين (تيميمون) سميت بهذا الاسم سنة 518هـ، وقيل إنَّ اسمها اشْتُقَّ من الأتوات أي المغارم التي كانت تُدفع للملوك، وقيل نسبة إلى أحد بطون قبائل الملثمين، وقيل من مرض الرجلين، وقيل إنها سميت بذلك لأنها تواتي للعبادة والاستقرار. محمود كعت: تاريخ الفتاش في ذكر الملوك وأخبار الجيوش وأكابر الناس، تحرير وتقديم حماه الله ولد السالم، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1433هـ-2012م، ص82/ عبد الرحمن السعدي: تاريخ السودان، ص61/ ابن بطوطة: المصدر السابق، ص706/ الحسن الوزان: المصدر السابق، ج2، ص151/ محمد باي بالعالم: الرحلة العلية، ج1، ص59.

3- قليعة: تصغير قلعة، وهي قرية حصينة على حجر صلد في سفح جبل منقطع عنه، بها آبار كثيرة طيبة الماء وقليل من النخيل، وهي على اثني عشرة مرحلة عن واركلا. عبد الله بن محمد العياشي: الرحلة العياشية، حققها وقدَّم لها سعيد الفاضلي وسليمان القرشي، دار السويدي للنشر، أبو ظبي، ط1، 2006م، مج1، ص111، 173/ ابن خلدون: المصدر السابق، مج2، ص1845/ عبد الوهاب بن منصور: المرجع السابق، ص310/ الميلي: المرجع السابق، ج2، ص222.

4- سيرات: نهر وفحص أسفل قلعة هوارة، طوله نحو أربعين ميلا الحميري: المصدر السابق، ص470/ ذكر البكري أنَّ فحص سيرات أصبح غامرا غير عامر لا أهل فيه لأنَّ الخوف أجلى أهله. قد يكون ذلك بسبب الفتح المرابطي أو لأسباب أخرى. المصدر نفسه، ص155/ الاستبصار، ص179.

5- مطماطة: نسبة إلى أبيهم مطماط واسمه مصكاب، من ولد فاتن بن تمصيت بن ضريس بن مادغيس، وهم إخوة مطغرة ولماية وكومية. ابن خلدون: مج2، ص1848/ البكري: المصدر نفسه، ص152/ ابن عذاري: المصدر السابق، ج1، ص25/ الحموي: المصدر السابق، مج1، ص427/ الداعي إدريس: المصدر نفسه، ص219/ عبد الوهاب بن منصور: المرجع السابق، ص، 310. محمد علي دبوز: ج3، ص254، 519.

6- ابن خلدون: نفسه، ص1848/ البكري: نفسه، ص152/ الإدريسي: مج1، ص253/ الحميري: المصدر السابق، ص126.

7- ابن خلدون: المصدر السابق، مج2، ص1849/ عبد الوهاب بن منصور: المرجع السابق، ص310.

هجرة قبائل هوارة[1]: كانت مواطن بعض قبائلهم شرق المغرب الأوسط ما بين تبسا[2] ومرماجنة[3] وأوراس إلى المسيلة[4] ظواعن، ومنهم كذلك بطون قبلة تاهرت كانوا مع لواتة[5] ثم زحفوا خلال القرن الخامس الهجري وما بعده تحت ضغط العرب، وقد استغلوا ضعف قبائل بني يلومي وبني ومانو وخروجهم إلى الصحراء ليستقروا في مواطنهم بالجبل المطل على البطحاء والمعروف بهم (جبل هوارة) ومن أشهر بطونهم هناك مسراتة[6]، وكانت رئاستهم في بيت بني إسحاق منهم، وقد اختطَّ ابنه محمد القلعة المنسوبة إليهم، ثم ورث رئاستهم أخوه حيون، ولما قامت دولة بني عبد الواد اتصلوا بسلاطينها وانتظموا في شرائعهم، وقد استعمل منهم أبو تاشفين، يعقوب بن يوسف بن حيون قائدا على بني توجين عندما غلبهم، ثم تلاشى حال هذا القبيل وخفَّ ساكن الجبل لما اضطهدتهم دولة بني عبد الواد[7] لاسيما وأنهم كانوا في طريق مرور الجيوش إلى الشرق فكل التحركات العسكرية سواء الزيانية أو المرينية أو الحفصية كانت تمرُّ عبر أراضيهم وبذلك أصبحت مواطنهم مسرحا للمعارك والعمليات العسكرية، ولا شك أنَّ بني عبد الواد قد استخدموا أفراد هذه القبيلة في الحروب كما يُفهم من عبارة ابن خلدون أعلاه، وبذلك أكلتهم الحروب أو اضطروا للهجرة إلى أماكن آمنة، ويظهر أنَّ بعضهم قد توغَّل في الصحراء على تخوم بلاد السودان ويعرفون هناك بهكارة، قلبت العجمة واوه كافا تخرج بين الكاف والقاف[8].

1- هوارة: وهم بنو هوار بن أوريغ بن برنس، وتعود شعوبهم إلى أربعة من أبنائه وهم: ملد ويقال لقبائله بنو لهان أو لهانة، ومغر أو مقر وقلدن وهوار، ولهذا الأخير ُتسب كل قبائل أوريغة فيقال لهم هوارة لكبر سنه وشهرته فيهم، كما اندرجت فيهم قبائل أداسة البترية لأنَّ أم أداس تزوَّجها أوريغ فأصبحوا إخوة لهم. ابن خلدون: المصدر السابق، ص1856-1859/ ابن حزم: المصدر السابق، ص495، ص497-498/ القلقشندي: نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب، ص441/ عبد الوهاب بن منصور: المرجع نفسه، ص314-315/ E. MERCIER: op cit, tome2, p182.

2-تَبِسَّة: هكذا ضبطها الحموي، وهي مدينة قديمة فيها آثار للأول وهي في الشرق من نهر ملاق، ومنها إلى قرية مسكيانة، ومنه إلى بجاية ستة أيام، وبينها وبين سطيف ستة مراحل، يسكن باديتها العرب. البكري: المصدر السابق، ص134/ الحموي: المصدر السابق، مج1، ص431/ الإدريسي: المصدر السابق، مج1، ص260/ الاستبصار، ص162.

3- مرماجنة: مدينة صغيرة بين الأربس وتامديت، بينها وبين مجانة مرحلتان، وهي لهوارة. الحميري: المصدر نفسه، ص540/ مجهول: الاستبصار: ص162/ البكري: المصدر نفسه، ص137/ الإدريسي: المصدر نفسه، ج1، ص292/ ابن حوقل: المصدر السابق، ص88.

4- اليعقوبي: كتاب البلدان، وضع حواشيه أحمد أمين ضناوي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2002م، ص190/ البكري: المصدر نفسه، ص145/ الاستبصار، ص172/ الإدريسي: ج1، ص254/ محمد علي دبوز: المرجع السابق، ج3، ص491.

5- البكري: المصدر نفسه، ص153/ ابن عذاري: المصدر نفسه، ج1، ص25، 214/ محمد علي دبوز: المرجع السابق، ج3، ص255.

6- ابن خلدون: المصدر السابق، مج2، ص1859. الميلي: المرجع السابق، ج2، ص255. يُعرف موطن هذه القبيلة الآن عند العامة باسم مْسَاراتْ. ويظهر أنَّ بعض بطون هوارة كانت موجودة شمال تاهرت نواحي يلل منذ القرن الثالث حسب ما يُفهم من عبارة اليعقوبي عندما يقول: "ومن مدينة تاهرت وما يحوز عمل ابن أفلح الرستمي إلى مملكة رجل من هوارة يقال له ابن مسالة الإباضي إلا أنه مخالف لابن أفلح يُحاربه، ومدينته التي يسكنها يُقال لها الجبل منها إلى مدينة يُقال لها يلل. المصدر نفسه، ص195.

7- ابن خلدون: المصدر نفسه، مج2، ص1859.

8- نفسه، مج2، ص1857/ محمد علي دبوز: المرجع نفسه، ج1، ص39.

قبائل منداسة[1]: كانت مواطنهم بتلول مندااس نواحي تيهرت، وإليهم يُنسب وادي مندااس بين تيارت وغليزان، ونظرا لقلة عددهم وضعف عصبيتهم تغلبت عليهم مطماطة وأخرجتهم من الوطن واعتمرته[2]، لكنهمأ ُخرجُوا بدورهم من قِبَل بني توجين كما أشرنا أعلاه.

هجرة قبائل كتامة[3]:

سدويكش: لم يحدِّد ابن خلدون نسبهم في أي بطن من كتامة لكنه أكَّد نسبهم فيهم، كانت مواطنهم في البسائط ما بين قسنطينة وبجاية، فيما اعتصمت باقي بطون كتامة مثل بني زلدوي[4] وزواوة[5] بالجبال، وكانت رئاستهم في بطن منهم يُعرفون بأولاد سواق وهم فرعان: أولاد علاوة بن سواق وأولاد يوسف ابن حمو بن سواق، ترأَّسَهم في العهد الموحدي علي بن علاوة ثم ابنه طلحة ثم أخوه يحي ثم تاريز بن طلحة بن علي الذي عزله أمير قسنطينة[6]، وولى مكانه عمه منديل، ثم استبد منهم بأولاد يوسف الذين زاحموا أولاد علاوة وأخرجوهم من الوطن فصاروا إلى عياض من عرب هلال وسكنوا في جوارهم بجبلهم المطل على المسيلة.

هجرة قبيلة صنهاجة: وهي إحدى القبائل البرنسية، وهو من ولد صناك بالصاد المشمَّة بالزاي والكاف القريبة من الجيم، ولمَّا عربته العرب زادت فيه الهاء بين النون والألف فصار صنهاج، وهم قسمان: صنهاجة الصحراء وصنهاجة التل أو الشمال، كانت مواطن

1- مندااسة: وهم أبناء مندااس بن مقر بن أوريغ وينسبون في هوارة. ابن خلدون: المصدر السابق، مج2، ص1848، ص1857/ عبد الوهاب بن منصور: المرجع السابق، ص316.

2- ابن خلدون: المصدر نفسه، مج2، ص1849.

3- كتامة: أبناء كتام أو كتم بن برنس، كانوا من أشهر بطون البربر وأشدهم قوة وأكثرهم استقرارا، كانت مواطن جمهورهم بشرق المغرب الأوسط من جبل أوراس إلى أرياف قسنطينة وميلة وسطيف، إلى سيف البحر ما بين بونة وبجاية، تعود بطونهم كلها إلى غرسن ويسودة ابنا كتام، فمن يسودة فلاسة ودنهاجة ومتوسة ووريسن وزواوة، ومن غرسن مصالة أو مزالة وقلان وماوطن ولهيصة وجيْملة ومسالتة وأجانة وغسمان وأوقاس.ابن خلدون: المصدر نفسه، مج2، ص1862/ القاضي النعمان: افتتاح الدعوة وابتداء الدولة، تحقيق فرحات الدشراوي، الدار التونسية للنشر والتوزيع، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ط2، ص80/ عبد الوهاب بن منصور: المرجع السابق، ص318-321.

4- الإدريسي: المصدر السابق، مج1، ص267-268/ مجهول: الاستبصار، ص168.

5- زواوة: اضطرب ابن حزم في نسبهم، فعدّهم مرة إخوة زواغة من ولد سمكان بن يحي بن ضريس بن زحيك بن مادغيس الأبتر، وجعلهم مرة أخرى من كتامة، ونفس الاضطراب وقع فيه ابن خلدون فذكرهم مع البتر ومع البرانس مع ميله إلى الجذم الثاني. ابن حزم: المصدر السابق، ص495-496، 501/ ابن خلدون: المصدر نفسه، مج2، ص1851، 1862، 1864/ عبد الوهاب بن منصور: المرجع نفسه، ص320.

6- قال ابن خلدون: " ولما بُويع السلطان أبو يحي بقسنطينة سنة عشر وسبعمائة، وقع من تاريز انحراف عن طاعته واعتلق بطاعة ابن الخلوف ببجاية، فقدَّم عوضا منه عمه منديل ". ص1863. الحقيقة أنَّ الذي بُويع بقسنطينة هو أبو بكر الذي كان أميرا على المدينة من قِبَل أخيه السلطان أبو البقاء خالد، ثم خرج عليه سنة 710هـ- 1310م. أخذ له البيعة الحاجب أبو عبد الرحمن ابن غمر منافسة لابن الخلوف الذي اشترط بيعته لأبي بكر عزل ابن غمر، أما أبو يحي زكريا بن أحمد بن محمد اللحياني، فكان في هذه الأثناء لا يزال في طرابلس بعد عودته من الحج، ولم يُبايع له بتونس إلا في رجب من سنة 711هـ-1311م، وعليه يكون الذي عزل تاريز هو أبو بكر وليس أبو يحي اللحياني. ابن خلدون: نفسه، مج2، ص1990-1993/ الزركشي: تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية، ص61/ ابن قنفذ: الفارسية، ص159/ ابن الشماع: المصدر السابق، ص84/ ابن أبي دينار: المصدر السابق، ص134/ حسن حسني عبد الوهاب: المرجع السابق، ص134.

هؤلاء الأواخر ما بين المغرب الأوسط وإفريقية، أما مجالات صنهاجة المغرب الأوسط فكانت تمتد من المسيلة إلى حمزة إلى الجزائر ولمدية ومليانة وربما إلى تاهرت، ومن أشهر بطونهم تلكاتة وملكانة ولمدية وبجاية، كان كبيرهم لعهد دولة الأغالبة (184-296هـ/ 800-909م) مناد بن منقوش ابن صنهاج الأصغر، ولما زحف العرب نحو الغرب، تركت قبيلة مليكش موطنها بجبال تيطري لهؤلاء واستوطنت بسيط متيجة والجبال المحيطة به[1].

من خلال تتبعنا لحركة وهجرة القبائل البربرية داخل المغرب الأوسط، استنتجنا بعض الملاحظات المتعلقة بهذه الظاهرة، والتي يمكن أنْ نلخصها في ما يلي:

1- إنَّ معظم القبائل المهاجرة هي القبائل الزناتية البترية، وقد يرجع السبب في ذلك إلى طبيعة حياة البداوة والتنقل التي عاشتها منذ القديم، والذي نتج عنه نوع من الشعور النفسي بالحرية وسِعَةُ الأفق وعدم الخضوع لسلطان الدول، بخلاف القبائل البرنسية مثل صنهاجة وكتامة التي كانت أكثر استقرارًا وخضوعا للدول التي تأسست في المنطقة، كما هو الحال مع العبيديين أو من جاء بعدهم، وقد أشار إلى ذلك ابن خلدون عندما تطرَّق لقبائل كتامة قائلا: "ولهم مع الدول في ذلك الوطن استقامة"[2]، والأكثر من ذلك أنَّ أبا بكر زعيم بني ثابت أهل الجبل المطل على القل وفد على الخليفة الموحدي بمراكش وتقرَّب إليه بفرض المغرم على قبيله[3]، ولم يكن مفروضا عليهم من قبل.

2- إنَّ اتجاه الهجرة كان في أغلبه من الشرق إلى الغرب، أي في خط سير وزحف العرب، وقد أشار Carette إلى أنَّ تيار هجرة زناتة لم يتوقف في هذا الاتجاه منذ أنْ طرق العرب هذه المناطق[4] (المناطق الشرقية) ورغم ما يشوب هذا التفسير من تحامل على العرب، إلا أنه يبقى من الأسباب الرئيسة للهجرة.

3- استمرار الحضور البشري والسياسي لبعض القبائل التي مسَّتها ظاهرة الهجرة، رغم ما في ذلك من أخطار، فقبائل بني عبد الواد وبني توجين ومغراوة مثلا حافظت على كيانها وأسمائها إلى وقت متأخِّر، وتمكنت من تأسيس إمارات، بينما ذابت قبائل صنهاجة وكتامة في سلطان الدول واندمجت مع العرب فتزيوا بزيهم واتخذوا شعارهم إلا من اعتصم منهم بالجبال مثل قبائل زواوة.

ثانيا: هجرة القبائل العربية: إنَّ القبائل العربية المخصوصة بالدراسة في هذا الفصل، هي القبائل الداخلة إلى بلاد المغرب أثناء الزحف الكبير خلال أواسط القرن الخامس الهجري/

1- ابن خلدون: المصدر السابق، مج2، ص1864-1865/ ابن حزم: المصدر السابق، ص495/ عبد الوهاب بن منصور: المرجع السابق، ص328 وما بعدها E.MERCIER : op cit, tome2, p189.

2- ابن خلدون: المصدر نفسه، مج2، ص1862.

3- نفسه، مج2، ص1863.

4- E. Carette : op cit, p206.

الحادي عشر ميلادي، وذلك بالنظر إلى عددهم[1] ودورهم في تغيير الخارطة السكانية وأثرهم في تحرك وهجرة القبائل، وتعود هذه القبائل إلى ثلاثة أصول هي: بنو هلال وبنو سليم والمعقل، ثم ما تفرَّع عنها من بطون وأفخاذ.

لم تبق القبائل العربية مستقرة بصفة دائمة في المناطق التي نزلتها أول مرة، بل ظَلَّ معظمها في حركة شبه دائمة، وذلك تبعا للظروف والعوامل التي ذكرناها آنفا، فبالنسبة للمغرب الأوسط، لم تكن مجالات العرب تتجاوز التلول الشرقية مع مطلع القرن السادس الهجري إلى الفتح الموحدي، أي بعد قرن بالضبط من دخولهم، فقد كان أغلبهم مثل زغبة ورياح والأثبج يحتلون المنطقة الممتدة بين قسنطينة والقل إلى جيجل وقبلة بجاية في البسائط، أي سطيف إلى حدود جبال البيبان غربا نزولا إلى المسيلة[2] جنوبا. وقد أشار الإدريسي إلى هذه الحدود بأكثر دقة، فعندما يتطرق إلى الطريق من بجاية إلى القلعة يذكر مجموعة من القرى والحصون إلى أن يقول: " ومن تاورت إلى الباب وإلى ها هنا تصل غارات العرب"[3]، ثم تمتد إلى حدود الزاب[4]. وعليه نستنتج أنَّ العرب ظلوا فترة طويلة في المنطقة الشرقية قبل أن يتقدموا غربا في العهدين الموحدي والزياني.

لـمَّا قامت دولة الموحدين واستتبَّ لهم الأمر لاسيما بعد انتصارهم على العرب في معركة سطيف (548هـ- 1153م) جنحت بعض القبائل إلى مسالمتهم ونزعت إليهم مثل زغبة، فيما نزلت قبائل أخرى الصحراء في اتجاه من الشرق إلى الغرب وذلك من نواحي أوراس وزاب بسكرة إلى منطقة الشطوط الوسطى وجبال العمور.

يظهر أنَّ القبائل العربية قد استقرَّت في مواطنها بإفريقية والمغرب الأوسط فترة من الزمن قبل أن تتحرَّك في عدة اتجاهات كما أشرنا أعلاه، ويُمكن أن نعتبر هذه الفترة بمثابة مرحلة استكشاف، ولكن لا يجب أن نعمِّم ذلك على جميع القبائل، حيث استقرّ بعض منها في مواطنها الأولى، ورغم ذلك كانت الظروف السياسية تفرض عليها تغيير مواطنها وهو ما سنتطرق إليه في دور الخلفاء الموحدين وسلاطين بني عبد الواد في تهجير هذه القبائل.

بعد هذه المقدمة المختصرة عن الوضع العام للقبائل العربية سنتتبَّع خطوط واتجاهات سير الهجرة خلال العهدين المذكورين لأنهما يغطيان الفترة المدروسة.

1- لم تذكر المصادر عددهم وهو ما جعل الدارسين يختلفون في تقديرهم بين مقلل ومكثر، والإشارة الوحيدة ذكرها ابن عذاري بقوله: " فجاز منهم خلق عظيم ". ويقدِّرهم البعض بزهاء أربعمائة ألف، فيما ذكر البعض الآخر عدد القبائل العربية التي دخلت بلاد المغرب بنحو عشر قبائل أي نصف سكان صحراء الجزيرة العربية مع بعض بطون قبائل اليمن، وقيل أنَّ عدد الرجال المحاربين ناهز خمسين ألفا، ولا يكاد يُحصى عدد النساء والأطفال. ابن عذاري: المصدر السابق، ج1، ص288/ الحسن الوزان: المصدر السابق، ج1، ص46/ حسن حسني عبد الوهاب: المرجع السابق، ص112/ عبد الوهاب بن منصور: المرجع السابق، ص391.

2- ابن خلدون: المصدر السابق، مج2، ص1834/ محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس، ص284-285.

3- الإدريسي: المصدر السابق، مج1، صص262-269.

4- نفسه، مج1، ص270.

أولا: قبائل بني هلال[1]: وهم أكثر عددا وبطونا ولذلك غلب اسمهم على باقي القبائل، ومن أشهر بطونهم الأصلية أو المنضوية تحتها: الأثبج ورياح وزغبة وعوف وقرة، وقد سكن معظمهم المغرب الأوسط[2].

1- **قبائل رياح[3]:** وهم أعز قبائل هلال وأكثرهم جمعا، وكانت رئاستهم عند دخولهم إفريقية لمؤنس بن يحي الصنبري ثم صارت للدواودة، ومساكنهم بنواحي قسنطينة والمسيلة والزاب، ومن أشهر بطونهم:

أ- مرداس: أكبر بطون رياح ومن قبائله الدواودة أبناء داود بن مرداس وبنو عامر بن يزيد بن مرداس وبنو عقيل بن مرداس، وقد برز من هذه البطون كلها الدواودة الذين كثرت شعوبهم بكثرة بطونهم، فكانت لهم الرئاسة في فرع أولاد سلطان، امتدت مجالات بطون رياح من القيروان وقسطيلية[4] بإفريقية إلى المسيلة والزاب بالمغرب الأوسط، ولما قامت الدولة الحفصية جأجأ الأمير أبو زكريا في بني سليم من مواطنهم بقابس وطرابلس واصطنعهم لمشايعة الدولة، فأنزل مرداس[5] والكعوب[6] بقسطيلية والقيروان فزاحموا رياحا وأزاحوهم إلى الغرب، فاستوطنوا تلول قسنطينة وبجاية إلى الزاب ووادي ريغ ووراكلا وما وراءها من القفار في القبلة، ثم امتدوا إلى زاغر قبلة تيطري[7]، أي نواحي الجلفة حاليا.

دخلت قبائل رياح في صراع ضد الحفصيين عندما بايعوا بقسنطينة للأمير أبي إسحاق إبراهيم بن أبي زكريا أخي السلطان أبو عبد الله محمد بن أبي زكريا يحي الأول المستنصر

1- بنو هلال: بن عامر بن صعصعة بن معاوية بن بكر بن هوازن بن منصور بن عكرمة بن خصفة بن قيس عيلان بن مضر، كان لهلال بن عامر ثلاثة إخوة وهم: نمير وربيعة وسوأة. أما بطون هلال فهي: شعبة وناشرة ونهيك وعبد مناف وعبد الله. ابن خلدون: المصدر السابق، مج1، ص554-556/ القلقشندي: نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب، ص437، ص330/ ابن حزم: المصدر السابق، ص259/ ابن الكلبي: جمهرة النسب، اختصره المبارك بن يحي الحمصي، تحقيق علي محمد عمر، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ط1، 1432هـ-2011م، ج1، ص170-171/ عبد الوهاب بن منصور: المرجع السابق، ص412-413، 417.

2- ابن خلدون: المصدر نفسه، مج1، ص556/ الميلي: المرجع السابق، ج2، ص192.

3- رياح: بن أبي ربيعة بن نهيك بن هلال، وتعود قبائل رياح إلى أربعة بطون هي: مرداس وسعيد وعلي وعامر. ابن خلدون: المصدر السابق، مج2، ص1796/ ابن حزم: السابق، ص275/ القلقشندي: المصدر السابق، ص266-267/ عبد الوهاب بن منصور: المرجع نفسه، ص421.

4- قسطيلية: من عمل بلاد الجريد، وهي بلاد واسعة، بها النخل والزيتون، قاعدتها توزر ومن مدنها الحامة وتقيوس ونفطة. الحميري: المصدر السابق، ص480/ ياقوت الحموي: المصدر السابق، مج4، ص50/ البكري: المصدر السابق، ص133/ اليعقوبي: المصدر السابق، ص188-189/ مجهول: الاستبصار، ص155/ الإدريسي: المصدر السابق، مج1، ص299.

5- مرداس: وهم بنو عوف بن بهثة بن سليم بن منصور بن عكرمة بن خصفة بن قيس عيلان بن مضر، وهم غير مرداس بن رياح السابق. ابن حزم: المصدر السابق، ص261/ القلقشندي: المصدر السابق، ص418/ ابن خلدون: المصدر نفسه، مج2، ص1816/ عبد الوهاب بن منصور: المرجع السابق، ص430.

6- الكعوب: بنو كعب بن أحمد بن ترجم بن حِمِيَر بن يحي بن علاق أخ عوف ومرداس أبناء بهثة بن سليم. ابن خلدون: نفسه، مج2، ص1816/ القلقشندي: المصدر نفسه، ص156-157، ص384/ مصطفى أبو ضيف: المرجع السابق، ص355.

7- ابن خلدون: المصدر السابق، مج2، ص1796، 1815-1816، 2115.

بالله فغزاهم سنة 666هـ-1267م وقتل بعض زعمائهم بزرايا من بلادهم، ونجا فلهم حيث أجازوا وادي شدى[1] فلحق أولاد سباع بن يحي بيغمراسن بن زيان بتلمسان، ثم رجعوا إلى مواطنهم بعدما تلقوا الدعم المادي، فتغلبوا على واركلا وقصور وادي ريغ، ثم زحفوا إلى الزاب وقتلوا عامله ابن عتو- أبو سعيد عثمان بن محمد- ومنه تقدموا إلى أوراس والمناطق التلية، عندها أقطعهم بنو حفص اتقاءً لعيثهم ما غلبوا عليه من الأمصار مثل نقاوس ومقرة والمسيلة، فاختص أولاد سباع بن يحي بن دريد بن مسعود بن سلطان بطولقة والمسيلة ونواحي بجاية، واختص أولاد محمد بن موسى بن محمد بن مسعود بن سلطان بمقرة وقسنطينة وبسكرة، وأولاد عساكر بن سلطان بنقاوس[2]، وبطون رياح كلها تبع للدواودة وملتمسون بما في أيديهم وليس لهم مواطن محددة يملكونها، ولذلك كانوا يبعدون النجعة في القفار والرمال.

2- **قبائل الأثبج:** بنو أثبج بن أبي ربيعة بن نهيك بن هلال كانت مواطنهم شرقي جبل أوراس[3]، ولما قامت الفتنة[4] بينهم وملك الدواودة من رياح ضواحي قسنطينة وغلبوهم افترقوا وتشتتوا في المواطن، فنزلوا قرى الزاب وقعدوا عن الظعن وأوطنوا القرى والآطام، واتجه بعضهم غربا فقد ذكر ابن خلدون منهم بطنا بجبل دراك مع العطاف[5].

أ- دريد: وهم أعز قبائل الأثبج بما كانت لهم من الرئاسة عند دخولهم إفريقية، ومواطنهم ما بين العناب إلى قسنطينة إلى طارف مصقلة وما يحاذيها من القفر[6]. أما بطون دريد فهي: أولاد سرور وأولاد عطية وأولاد عبد الله ووبرة. سكن أولاد عطية تلة ابن حلوف نواحي قسنطينة إلى أن زحف إليهم توبة بن عطاف في قومه أولاد عبد الله، فملكوا مواطنهم[7].

1- وادي شدى: يخرج أصل هذا الوادي من جبل راشد قبلة المغرب الأوسط، ويمر مشرِّقا مجتازا الزاب إلى أن يصب في سبخة نفزاوة (شط ملغيغ) ويعرف حاليا بوادي جدى. ابن خلدون: المصدر السابق، مج2، ص1969/ الأطلس العالمي، خارطة الجزائر، ص16- 17.

2- ابن خلدون: المصدر نفسه، مج2، ص1797-1798، 2004، 2027، 2047. ونقاوس مدينة صغيرة كثيرة الأنهار والثمار والمزارع، منها إلى المسيلة ثلاث أو أربع مراحل، ومنها إلى طبنة مرحلتان. اليعقوبي: المصدر السابق، ص190/ البكري: المصدر السابق، ص135/ مجهول: الاستبصار، ص172/ الإدريسي: المصدر السابق، مج1، ص264/ الحميري: المصدر السابق، ص579/ ابن حوقل: المصدر السابق، ص91.

3- ابن خلدون: المصدر نفسه، مج2، ص1789/ الإدريسي: المصدر نفسه، مج1، ص264/ عبد الوهاب بن منصور: المرجع السابق، ص417/ مصطفى أبو ضيف أحمد عمر: القبائل العربية في المغرب، ص207.

4- سبب هذه الفتنة هو مقتل شبانة بن الأحيمر من كرفة من طرف حسن بن سرحان بن وبرة من دريد، عندها اجتمعت كرفة وقرة وعياض على حرب دريد، وقد استغل الموحدون هذه الظروف فنقلوا العاصم ومقدم وقرة إلى المغرب الأقصى. ابن خلدون: نفسه، مج2، ص1789-1791.

5 - ابن خلدون: المصدر نفسه، مح2، ص1805/ عبد الوهاب بن منصور: المرجع السابق، ص417- 418.

6- ابن خلدون: المصدر السابق، مج2، ص1790/ عبد الوهاب بن منصور: المرجع السابق، ص418/ مصطفى أبو ضيف: المرجع نفسه، ص208.

7- ابن خلدون: نفسه، مج2، ص1790/ مصطفى أبو ضيف أحمد عمر: المرجع نفسه، ص209/ عبد الوهاب بن منصور: المرجع نفسه، ص418.

ب- كرفة: كانت مواطنهم بجبل أوراس وبلاد الزاب الشرقية مثل بادس[1] وتنومة، أقطعهم إياها أمراء بني حفص مقابل مظاهرتهم على حرب رياح، فلما ضعفت الدولة، اعتزت رياح وملكوا مجالات ظعنهم التي كانت تصل إلى قسنطينة، فشلّوا حركتهم عندها انقبضوا إلى جبل أوراس فأوطنه منهم بنو محمد ويُعرفون بالكلبية والصبحة أولاد صبيح بن فاضل بن محمد بن كليب والسرحانية أولاد سرحان بن فاضل، وكانت رئاستهم في بيت أولاد مساعد أحد أفخاذ نابت بن فاضل. أما بنو محمد والمراونة بنو كثير بن مروان بن قطن بن كرفة، فلم يكن لهم موطن قار لضعفهم وقلة عددهم، فكانوا ظواعن يجوبون القفار[2].

ج- لطيف: وهم أولاد سرح بن مشرف بن أثبج، كانوا ذوي كثرة أما بطونهم فهي: اليتامى أولاد كسلان بن خليفة بن لطيف ومنهم بنو ذوي مطرف وذوي أبي الخليل وذوي جلال بن معافى، ثم اللقامنة أولاد لقمان بن خليفة بن لطيف، وإليهم يعود نسب بنو مزني أمراء بسكرة إذ ينتمون إلى مزنة بن ديفل بن محيا بن جري بن علوان بن محمد بن لقمان بن خليفة بن لطيف، كانوا ظواعن وناجعة، ولما افترقوا وقلَّ جمعهم وعجزوا عن الظعن غلبهم رياح والدواودة على الضواحي فسار بعضهم إلى المغرب ونزل بقيتهم بلاد الزاب واتخذوا بها المدن والآطام[3] مثل تهودة والدوسن[4] وغريب وتنومة وبادس، ونزل بعضهم على العطاف من زغبة[5]، أما اللقامنة من أولاد جرير بن علوان بن محمد بن لقمان فنزلوا قرية ماشاش بالزاب لعجزهم عن الظعن،وقد استغلّهم بنو رمان للتحريش بهم ضد فضل بن علي بن مزني أمير بسكرة، فقتلوه سنة 683هـ-1284م، ثم تنكّروا لهم بعد سنتين من ذلك ونابذوهم العهد فخرجوا من البلد إلى ريغة[6].

د- العمور: ويُلحقون بالأثبج، فهم من ولد عمرو بن عبد مناف بن هلال إخوة قرة، وليسوا من ولد عمرو بن أبي ربيعة بن نهيك بن هلال الذي تنتمي إليه رياح وزغبة والأثبج[7]، وهم بطنان قرة وعبد الله، أما بنو قرة فافترقوا في القبائل والمدن فيما أوطنت بطون عبد الله

1- بادس: اسم لمدينتين، بادس فاس بالمغرب الأقصى، وبادس الزاب وهي مدينة كبيرة بينها وبين تهودة مرحلة، لها حصنان وأرباض واسعة وبسائط كثيرة ومزارع جليلة. ذكر الإدريسي أنَّ العرب تملك أرض هذا الحصن وتمنع أهله من الخروج عنه إلا بخفارة رجل منهم. نزهة المشتاق، مج1، ص264/ البكري: المصدر السابق، ص162/ مجهول: الاستبصار، ص175/ ياقوت الحموي: المصدر السابق، مج1، ص253/ الحميري: المصدر السابق، ص74.

2- ابن خلدون: المصدر السابق، مج2، ص1790/ مصطفى أبو ضيف: المرجع السابق، ص207-208/ عبد الوهاب بن منصور: المرجع السابق، ص418.

3- ابن خلدون: المصدر نفسه، مج2، ص1791/ عبد الوهاب بن منصور: المرجع نفسه، ص418/ مصطفى أبو ضيف: المرجع نفسه، ص352.

4- الدوسن: إحدى مدن الزاب قريبا من طولقة، وهي قديمة من بناء الرومان، افتتحها المسلمون وخربوها بعد أن امتنعت عليهم. ابن خلدون: المصدر نفسه، مج2، ص2046/ الحسن الوزان: المصدر السابق، ج1، ص32، ج02، ص140.

5- مبارك بن محمد الميلي: المرجع السابق، ج2، ص197.

6- ابن خلدون: المصدر نفسه، مج2، ص2047.

7- ابن خلدون: المصدر نفسه، مج2، ص1791/ ابن الكلبي: المصدر السابق، ج1، ص202/ عبد الوهاب بن منصور: المرجع نفسه، ص419/ مصطفى أبو ضيف أحمد عمر: المرجع نفسه، ص211.

أولاد ماضي وأولاد فارس بن عنان بن محمد وأولاد عزيز بن محمد سفح جبل أوراس المطل على بسكرة إلى الحضنة ممايلي الصحراء في جوار الدواودة من رياح وتحت أيديهم.

أما إخوانهم بنو شكر بن عنان بن محمد بن عبد الله فنزل منهم جبل راشد بطنان أولاد يحي بن سعيد بن بسيط بن شكر وأولاد زكري بن سعيد وهناك وقعت بينهما حروب تغلّب فيها أولاد يحي على بني عمومتهم أولاد زكري وأزاحوهم عن جبل راشد فصاروا إلى جبل كسال[1] من ناحية الغرب فأوطنوه، ثم اقتحم زغبة عليهم الموطن فاقتسموه بينهم وصار أولاد يحي أهل جبل راشد في إيالة سويد وأحلافا لهم، ولذلك لا يزال سكان هذه المناطق حتى الآن يصعدون في فصل الصيف بمواشيهم إلى جهات غليزان للرعي ثم يعودون، أما أولاد زكري أهل جبل كسال فصاروا في إيالة بني عامر وأحلافا لهم[2].

3- **قبائل زغبة[3]:** كانت مواطنهم الأولى بقابس وطرابلس ثم تقدَّموا نحو الغرب أواخر القرن السادس الهجري بسبب الحروب التي خاضها الموحدون ضد بني غانية الذين طالبوهم بالمغارم، فانحازوا إلى أولائك واستوطنوا المناطق الممتدة من المسيلة إلى قبلة تلمسان في القفار حيث نزلوا في مجالات بني بادين من زناتة، وقد توطَّدت العلاقات بينهما حيث انعقد بينهما حلف على حسن الجوار والذب عن الأوطان وحمايتها من العدو[4] المتمثل في غارات جيوش بني غانية التي وصلت إلى الصحراء، كما اقتسموا المواطن تفاديا لأي خلاف أو صدام، فملك بنو بادين التلول والضواحي وأقامت زغبة في القفار[5].

أ- **بني يزيد:** كانت لهم مكانة بين قبائل زغبة لكثرتهم، ومن بطونهم حميان[6] وبنو موسى وبنو كرز والمرابعة والخشنة، وهم جميعا بنو يزيد بن عيسى بن زغبة وإخوانهم عكرمة

1- يقع جبل كسال بجبال العمور من سلسلة الأطلس الصحراوي ببلدية ستيتن غرب مدينة البيِّض، يبلغ ارتفاعه 2008 متر. الأطلس العالمي، إعداد المعهد الوطني التربوي، الجزائر، خارطة الجزائر الطبيعية، ص16- 17.

2- ابن خلدون: المصدر السابق، مج2، ص1792.

3- زغبة: وهم بنو زغبة بن أبي ربيعة بن نهيك بن هلال بن عامر إخوة رياح. ابن خلدون: المصدر السابق، ص1801/ القلقشندي: المصدر السابق، ص272/ عبد الوهاب بن منصور: المرجع السابق، ص422.

4- ابن خلدون: المصدر نفسه، مج2، ص1788- 1789، 1801، 2113/ عبد القادر المشرفي: بهجة الناظر في أخبار الداخلين تحت ولاية الإسبانيين بوهران من الأعراب كبني عامر، تحقيق وتقديم محمد بن عبد الكريم، ص25/ أبو راس الناصري: المرجع السابق، ج1، ص71/ ج2، ص65. ومن هذا نستنتج أنَّ العلاقات بين البربر والعرب لم تكن علاقات حروب دائما، وقد ذكر الإدريسي أنَّ سكان قسنطينة كان لهم مع العرب معاملات وتَشارك في الحرث والادِّخار. ج1، ص265.

5- ابن خلدون: المصدر نفسه، مج2، ص1789، ص1801.

6- حميان: نسبة لجدهم حميان بن عقبة بن يزيد بن عيسى بن زغبة الهلالي، من قبائل بني يزيد التي استوطنت أرض حميان بإزاء الشط (الزغرير الغربي والزغرير الشرقي جنوب المدية) قبيلة الشعانبة التي حلت مطلع القرن السادس، ويبدو أنهم نزلوا جنوبا خلال القرن 16م أمام الحملات التركية، فسكنوا المنطقة الممتدة بين ورقلة وغرداية مثل متليلي ومن أشهر بطونهم شعانبة أولاد سعيد وشعانبة هب الريح وسعد عتبة. المشرفي: ابن خلدون: المصدر نفسه، مج2، ص1801/ المرجع نفسه، ص26- 27/ عبد الوهاب بن منصور: المرجع نفسه، ص423/ أبو راس: المرجع السابق، ج2، ص72/ عبد القادر موهوبي السائحي: المرجع السابق، ص133، ص163، ص173.

بن عيسى، وقد أقطعهم الموحدون التلول والضواحي فنزلوا أرض حمزة والدهوس مما يلي أرض رياح والأثابج ريفا وصحراءً، واستعملوهم للجباية على قبائل صنهاجة وزواوة فأحسنوا أداء المهمة وهو ما جعل نفوذهم يتزايد، فلما ضعفت دولة الموحدين ومن بعدهم زناتة، استبدوا بتلك الأوطان وملكوها[1]، ولما تغلَّب أبو عنان سلطان بني مرين على بني عبد الواد سنة 753هـ-1352م واستولى على بجاية خرجوا من وطنهم ولحقوا بقسنطينة فنزلوا على الدواودة وجاوروهم بحللهم وظعَّنهم[2]، فيما نزل بطن عكرمة منهم بجبل كريكرة قبلة السرسو في أيالة سويد[3].

ب- حُصَيْن: كانت مواطنهم بجوار بني يزيد إلى الغرب عنهم بجبل تيطري ونواحي المدية[4]، أنزلهم بها محمد بن عبد القوي أمير بني توجين وجعلهم في عسكره بعد أن طرد منها قبائل الثعالبة[5]، ثم خضعوا لبني مرين عندما احتلوا المغرب الأوسط ثم بعدها لبني عبد الواد، ولـمَّا انهزم أبو حمو موسى الثاني أمام الحفصيين سنة 766هـ- 1364م وخرج عليه ابن عمه أبو زيان محمد[6] بايعته حصين بالمدية سنة 768هـ- 1366م فأصبحوا رعاياه يؤدون إليه المغارم ويعسكرون معه[7]، وقد اعتزوا نتيجة ذلك فاحتلوا السهول الخصبة الممتدة جنوب التيطري حول نهر شلف[8]. ولحصين بطنين هما جندل وخراش[9]، فمن جندل أولاد خنفر بن مبارك بن فيصل بن سنان بن سباع بن موسى بن كمام بن علي، ومن خراش أولاد مسعود بن مظفر بن محمد الكامل، وأولاد طريف بن معبد ويُعرفون بالمعابدة، ويبدو أنهم تدرَّجوا أكثر في المواطن فتجاوزوا جبال التيطري إلى سهول التل حيث توجد بلدة تحمل اسمهم الآن وهي جندل قرب مليانة على نهر شلف.

1- ابن خلدون: المصدر السابق، مج1، ص556، مج2، ص1801، 2091/ مصطفى أبو ضيف أحمد عمر: المرجع السابق، ص225/ مبارك الميلي: المرجع السابق، ج2، ص199 E.MERCIER : op cit, P191.

2- ابن خلدون: المصدر نفسه، مج2، ص2277.

3- نفسه، مج2، ص1804.

4- نفسه، مج2، ص1802، 1865/ عبد الوهاب بن منصور: المرجع السابق، ص423/ مصطفى أبو ضيف أحمد عمر: المرجع نفسه، ص226/ E. MERCIER: op cit, tome 2, p191

5- ابن خلدون: نفسه، مج2، ص1802، 1812، 2170.

6- أبو زيان محمد: ابن أبي سعيد عثمان ابن أبي زيد عبد الرحمن بن أبي زكريا يحي بن يغمراسن بن زيان، الملقب بالقبي ومعناه العظيم الرأس، دخل في منافسة على السلطة ضد ابن عمه أبي حمو موسى الثاني بدعم من السلطان المريني أبيسالم، وقد وصف ابن خلدون ذلك بقوله: " واشتدت شوكة أبي زيان ابن عمه، وتغلَّب على القاصية، واجتمعت إليه العرب وكثر تابعه وزاحم السلطان أبا حمو بتلك الناحية الشرقية سنين تباعا ". واستمرت بينهما الوقائع إلى أن فرَّ إلى الشرق في إيالة بني حفص. ابن خلدون: المصدر السابق، مج02، ص2148، 2150، 2152، 2156/ مجهول: زهر البستان، ص106.

7- ابن خلدون: نفسه، ص1803، 1805، 2154، 2297/ يحي بن خلدون: المصدر السابق، ج2، ص361، 367/ مبارك بن محمد الميلي: المرجع السابق، ج2، ص374.

8- ابن خلدون: نفسه، مج2، ص1834/ شارل أندري جوليان: المرجع السابق، ج2، ص207.

9- ابن خلدون: نفسه، مج2، ص1803/ عبد الوهاب بن منصور: المرجع نفسه، ص423/ مصطفى أبو ضيف أحمد عمر: المرجع نفسه، ص226.

ج- بني مالك: تعود شعوب بنو مالك إلى بطنين من أبنائه وهما: عامر والحارث، فمن عامر سويد، ومن الحارث روى ومحمد الغريب، فمن روى العطاف والديالم من ولد ديلم بن حسن بن إبراهيم. كانت مواطنهم بالقفر قبلة المدية إلى جبل راشد بجوار بني بادين[1].

أما سويد فهم أكثر عددا لكثرة بطونهم وهي مجاهر وفليتة وجوثة وشبانة، وما تفرَّع عنها مثل غفير وشافع ومالف أبناء سليمان بن مجاهر، وكانت مواطنهم بالقبلة كما ذكرنا، فلما نزل بنو واسين التلول وملك منهم بنو بادين تلمسان وضواحيها، اختصَّ هؤلاء بالحلف فنزلوا بجوارهم فأقطعهم يغمراسن بن زيان بلاد البطحاء وسيرات، وقد توطدت بينها العلاقات لغَنَائهم في تقديم الأتاوة والجباية على الرَّعايا حتى كان يغمراسن في بعض خروجه عن تلمسان يستخلف عليها عمر بن مهدي[2] بن عيسى بن عبد القوي بن حمدان بن مقدر بن مجاهر، وخلال ذلك خلت مجالاتهم بالقفر من ظعونهم وناجعتهم، إلا أحياءً قليلة العدد من جوثة وفليتةوغفير وشافع، فاستغلَّت ذلك قبائل المعقل وفرضت عليهم أتاوة من بكرات الإبل كانوا يؤدونها إدالة مع زغبة للمعقل، إلى أن امتنعوا عن دفعها فحاربهم المعقل وزغبة مجتمعين ودفعوهم إلى الشرق[3].

لم يدم الود بين يغمراسن وسويد طويلا إذ حدثت بينهما فتنة هلك فيها عمر بن مهدي، عندها طردهم بنو عبد الواد من التلول والأرياف، فنزلت بطون شبانة ومجاهر وغفير وشافع ومالف وبورحمة وبوكامل القفر المحاذي لبني توجين، أما محيس إخوة سويد فنزلوا بضواحي وهران، ولما حاصر يوسف بن يعقوب المريني تلمسان سنة 699هـ- 1300م وفد عليه شيخهم سعيد بن عثمان بن عمر بن مهدي، ثم فرَّ بقومه إلى السرسو[4]، ولما عادت الدولة الزيانية على يد أبي حمو موسى الثاني أقطع كلميتو[5] لأبي بكر بن عريف بن يحي بن عثمان، ومازونة لأخيه محمد[6].

أما العطاف فكانوا قبلة مليانة، كانوا ظواعن وناجعة ويبدو أنهم استقروا بالتل وإليهم تنسب بلدة العطاف بين شلف وعين الدفلى، بينما أبعد الديالم في القفر ويبدو أنهم توزعوا بين القبائل، فيما استقرَّ بطن غريب بالتل[7].

1- ابن خلدون: المصدر السابق، مج2، ص1803/ عبد الوهاب بن منصور: المرجع السابق، ص423/ مصطفى أبو ضيف أحمد عمر: المرجع السابق، ص227.

2- ابن خلدون: المصدر نفسه، مج2، ص1803/ مصطفى أبو ضيف أحمد عمر: المرجع نفسه، ص227.

3- ابن خلدون: المصدر نفسه، مج2، ص1804/ عبد القادر المشرفي: المرجع السابق، ص14.

4- ابن خلدون: المصدر نفسه، مج2، ص1804.

5- كلميتو: قرية قريبة من بلدة عين تادلس من أحواز مستغانم، تُعرف حاليا بالسور. ابن سحنون الراشدي: الثغر الجماني في ابتسام الثغر الجماني، تحقيق وتقديم الشيخ المهدي البوعبدلي، عالم المعرفة، الجزائر، ط1، 2013م، ص453/ أبو راس: المرجع السابق، المحقق، ج2، ها50، ص49.

6- ابن خلدون: المصدر نفسه، مج2، ص1805.

7- نفسه، مج2، ص1806/ مصطفى أبو ضيف: المرجع نفسه، ص357.

د- عروة: وهم بطنان: النضر وخميس، فبطون خميس، عبيد الله وفرغ ويقظان، كان بنو يقظان وبنو عبيد الله أحلافا لسويد يظعنون لظعنهم ويقيمون لإقامتهم، أما بنو قائل بن فرغ فكانوا أحلافا لأولاد يحي بن سعيد بن بسيط بن شكر العمور بجبل راشد. أما النضر بن عروة فكانوا ظواعن منتبذين بالقفر ويصعدون إلى أطراف التلول في إيالة الديالم والعطاف وحصين[1].

هـ- بنو عامر: كانت مواطنهم شرق المغرب الأوسط نواحي المسيلة إلى الدهوس من أرض بلد حمزة في الغرب مع بني يزيد، نقلهم يغمراسن بن زيان إلى الغرب لما كُثر عيث المعقل أهل أنكاد المجاورون لمملكته وشنهم الغارات، وأنزلهم قبلة تلمسان ليكونوا حجزا بينه وبينهم، ثم ألحق بهم يغمراسن بني عمومتهم حميان بن عقبة بن يزيد بن عبس بن زغبة وذلك للاحتماء[2] بهم، ومنها كانوا يصعدون إلى التل في المرابع والمصايف[3]، وهم ثلاثة بطون: بنو يعقوب وبنو حميد وبنو شافع، وكانت رئاسة بني عامر كافة على عهد يغمراسن وابنه عثمان لداود بن هلال بن عطاف، بن رداد بن ركيش بن عياد بن منيع بن يعقوب، ثم سخطه عثمان بن يغمراسن عندما رفض إخفار ذمة الأمير أبي زكريا يحي بن إبراهيم بن أبي إسحاق الحفصي لما فرَّ من ملجئه بتلمسان يريد الخروج على السلطان أبو حفص عمر بن أبي زكريا المستنصر بالله فرحل معه ولما تغلَّب أبو زكريا على بجاية وقسنطينة أقطعه وطن كدارة (قدارة) من بلد حمزة[4]، فأقام داود مع قومه هناك إلى أن قتله يوسف بن يعقوب عندما وَفد عليه في حصاره لتلمسان، فقام بأمرهم من بعده ابنه سعيد، ثم أرجعهم بنو عثمان بن يغمراسن مع مطلع القرن الثامن.

كان لهذه القبيلة دورا كبيرا في الأحداث السياسية والعسكرية ولاسيما صراع بني عبد الواد ضد بني مرين، وقد زاد من تعقيداتها تذبذب ولائهم لهذا الطرف أو ذاك، وانقسامهم بعدما كانوا حيا واحدا إلى فريقين متصارعين وذلك بعد أن قَتَل إبراهيم بن يعقوب من بني حميد سعيد بن داود بن هلال من بني يعقوب، ثم قَتَل سعيد بن عثمان لعامر بن إبراهيم بن يعقوب آخذا بثأر أبيه، ونتيجة لذلك ظَلَّ كلا الفريقين في حركة هجرة دائمة بين شرق المغرب الأوسط وغربه وصحرائه.

لما تكررت حملات[5] بنو مرين العسكرية على المغرب الأوسط، وكانت مجالات بني عامر مسرحا للمعارك لمكانهم من بني عبد الواد وكادوا يستأصلونهم عندها نقلهم أبو عنان

1- ابن خلدون: المصدر السابق، مج2، ص1809/ مصطفى أبو ضيف أحمد عمر: المرجع السابق، ص231.

2- شارل أندري جوليان: المرجع السابق، ج2، ص203/ عبد القادر المشرفي: المرجع السابق، ص27.

3- ابن خلدون: المصدر نفسه، مج2، ص1806/ عبد القادر المشرفي: المرجع نفسه، ص14، 25- 27.

4- ابن خلدون: المصدر نفسه، مج2، ص1976، 1980-1981، 1806/ حسن حسني عبد الوهاب: المرجع السابق، ص133.

5- من الحملات العسكرية التي شنَّها الجيش المريني ضد بني عبد الواد وحلفائهم بني عامر، حملة أبي عنان سنة 753هـ-1352م بأنكاد التي استلحم فيها الجيش المريني بني عبد الواد وأشياعهم قتلا وسبيا. ابن خلدون: المصدر نفسه، مج2، ص2267/ ابن الأحمر: تاريخ الدولة الزيانية بتلمسان، ص70/ التنسي: المصدر السابق، ص154.

المريني من ضواحي تلمسان القبلية وأنزلهم تاسالة[1]، واتصلت مجالاتهم إلى هيدور جبل وهران[2]، ويبدو أنهم تدرَّجوا في المواطن حيث حازوا سهول وهران فاستقرَّ بعضهم في الشرق بسهل سيرات[3] وعلى ضفاف وادي هبرة[4] بين سيك وآرزيو ونزل بعضهم غربا في سهل ملاتة وتاركة (تارقة) وإليهم تُنسب بلدة العامرية بين وهران وعين يموشنت[5].

عادت بعض بطون بني عامر إلى الخلاف على السلطان أبي حمو، حيث وَفَد علي بن عمر بن إبراهيم وسليمان بن شعيب بن عامر من بني حميد على السلطان أبي العباس أحمد الحفصي (772-796هـ/1370-1394م) يطلبون صريخه، ثم راجع علي بن عمر طاعة أبي حمو فقدمه على بني عامر وخرج سليمان بن شعيب بن عامر مع قومه بني إبراهيم بن يعقوب إلى الصحراء أين نزلوا على أبي بكر بن عريف بن يحي من سويد[6].

ثانيا: قبائل المعقل: اختلف النسابة والمؤرخون في نسبهم، فهم يزعمون أنهم من آل البيت، من جعفر بن أبي طالب، ويعُدُّهم الهلاليون من بطونهم، وهو ما ينفيه ابن خلدون ويُرجِّح أنهم من عرب اليمن، وهم بطنان يسمى كل منهما معقل، أحدهما من قضاعة بن مالك بن عمرو بن مرة بن زيد بن مالك بن حِمْيَر، وهو معقل بن كعب بن عُلَيم بن جَناب[7] والأخر من بني الحارث بن مذحج واسمه ربيعة بن كعب بن ربيعة[8]. يُرجِّح ابن خلدون أن يكونوا من هذا الأخير لأنَّ مواطن بني الحارث بن كعب قريبة من البحرين حيث كان هؤلاء العرب مع القرامطة[9] قبل دخولهم إفريقية.

تعود شعوب المعقل إلى اثنين من ولده وهما: سجير أو صغير (وهو غير صغير بن عامر بن إبراهيم الزغبي) ومحمد، فمن صغير: عبيد الله جد ذوي عبيد الله وثعلب جد الثعالبة، ومن محمد: منصور جد ذوي منصور البطن الكبير، ومختار جد ذوي حسان والشبانات، وجلال وعثمان[10]. دخلوا مع الهلاليين إلى إفريقية في عدد قليل، ولما ضيَّق

1- يحي بن خلدون: المصدر السابق، ج2، ص305- 306/ عبد القادر المشرفي: المرجع السابق، ص25/ الآغا بن عودة المزاري: طلوع سعد السعود في أخبار وهران والجزائر واسبانيا وفرنسا، تحقيق ودراسة يحي بوعزيز، دار البصائر، الجزائر، طبعة خاصة، 2009م، ج1، ص84.

2- محمد بن يوسف الزياني: دليل الحيران، ص194/ أبو راس الناصري: المرجع السابق، ج1، ص70.

3- ابن خلدون: المصدر السابق، مج2، ص1808-1809.

4- مارمول كربخال: المصدر السابق، ج1، ص38.

5- التنسي: المصدر السابق، المحقق، ص154، ها274.

6- ابن خلدون: المصدر السابق، مج2، ص1808-1809.

7- نفسه، مج2، ص1810/ ابن الكلبي: المصدر السابق، ج2، ص174-179/ عبد الوهاب بن منصور: المرجع السابق، ص424/ مصطفى أبو ضيف أحمد عمر: المرجع السابق، ص232.

8- ابن الكلبي: نفسه، ج2، ص83-84، 119- 120، 122.

9- ابن خلدون: نفسه، مج2، ص1815-1816/ ابن الأثير: المصدر السابق، مج2، ص1533.

10- ابن خلدون: نفسه، مج2، ص1811/ عبد الوهاب بن منصور: المرجع نفسه، ص424/ مصطفى أبو ضيف: المرجع نفسه، ص358.

عليهم بنو سليم انتقلوا إلى الغرب بين المغربين الأقصى والأوسط فيما بقي بعضهم بإفريقية حيث اندرجوا في الكعوب، وقد كانوا رعاة متنقلين ولذلك أوغلوا في الصحراء[1].

أ- ذوي عبيد الله: جاوروا بني عامر بن زغبة حيث كانت مواطنهم ما بين تلمسان إلى وجدة وحول وادي ملوية من منبعه إلى مصبه، ويصلون إلى توات وتمنطيت وتاسابت[2] وتيكورارين[3]، وقد استغل ذوي عبيد الله صعود زناتة إلى التل ودخولها المدن والأمصار فتملّكت قصور الصحراء التي اختطتها هذه القبائل، لاسيما بعد أن كُثر عددهم بمن لحق بهم من قبائل مثل العمور والشظة إحدى بطون كرفة والمهاية من بطون عياض وحصين[4].

ومن أشهر بطون عبيد الله: خراج بن مطرف الذين استوطنوا بلاد توات[5]، ويبدو أنهم صعدوا نحو الشمال حيث سكنوا فجيج وصحراء بني كومي[6] حول وادي زوزفانة نواحي بشار حاليا، أما هراج أو هداج بن مهدي بن محمد، فكانوا يسكنون بسيط أنكاد[7].

صعد منهم بطن الخراج إلى التلول خلال القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي، مستغلين فترات الضعف والاضطراب التي مرت بها الدولة الزيانية، فتملّكوا وجدة وندرومة وبني يزناسن ومديونة وبني سنوس، ووصل نفوذهم إلى الساحل، حيث فرضوا ضريبة على كل من يجتاز الطريق من هنين إلى تلمسان، وقد خدموا السلطان أبي حمو موسى الثاني الذي جعل رئاستهم لرحو بن منصور بن يعقوب بن عبد الملك وطلحة بن يعقوب بن يغمور بن عبد الملك[8].

ب- الثعالبة: وهم بنو ثعلب بن علي بن بكر بن صغير أخي عبيد الله بن صغير بن معقل، كانت مواطنهم الأولى متصلة بالتلول الشرقية للمغرب الأوسط، ونظرا للصراع وحركة

1- ابن خلدون: المقدمة، ص97.

2- تاسابيت: أو تسبت إقليم مأهول في صحراء المغرب الأوسط شرق سجلماسة، به عدة قرى، ومعناه باللغة العربية المكان المعزول عن الطريق. الحسن الوزان: المصدر السابق، ج2، ص133/ العياشي: الرحلة العياشية، مج1، ص79/ محمد باي بالعالم: المرجع السابق، ج1، ص69.

3- تيكورارين: ومعناها بالبربرية المعسكرات، تعريبها كرارة وهي منطقة مأهولة شرق تاسابيت تحتوي على عدة قصور، بها بساتين النخيل وهي مجمع القوافل ورقاب القفر إلى بلاد السودان. الحسن الوزان: المرجع نفسه، ص133/ ابن خلدون: المصدر السابق، مج2، ص1811.

4- ابن خلدون: المصدر السابق، مج2، ص1810/ محمد باي بالعالم: المرجع السابق، ج1، ص، 109، 111. ج2، ص522.

5- ابن بطوطة: رحلة ابن بطوطة، ص706/ الحسن الوزان: المصدر السابق، ج1، ص62/ عبد الرحمن السعدي: المصدر السابق، ص61، ها1/ عبد الله حمادي الإدريسي: الفوات من تاريخ توات وصحاري الجهات، دار الكتاب الملكي، وزارة الثقافة، الجزائر، ط1، 1434هـ- 2013م، ج1، ص132/ محمد باي بالعالم: المرجع نفسه، ج1، ص109، 111/ عبد الوهاب بن منصور: المرجع السابق، ص426.

6- الحسن الوزان: المصدر نفسه، ج1، ص56/ مصطفى أبو ضيف أحمد عمر: المرجع السابق، ص232/ عبد الوهاب بن منصور: المرجع نفسه، ص426.

7- ابن خلدون: نفسه، مج2، ص1812/ عبد الوهاب بن منصور: نفسه، ص427/ الحسن الوزان: نفسه، ص56/ مارمول كربخال: المصدر السابق، ج1، ص109.

8- ابن خلدون: المصدر نفسه، مج2، ص1811.

التدافع التي حدثت بين قبائل بني سليم ورياح وزغبة[1] في النصف الأول من القرن السابع الهجري أجبرتهم على هجرة موطنهم متجهين نحو الغرب حيث عبروا سهل كزول، ثم صعدوا شمالا أين استقروا بجبل تيطري قرب مدينة آشير[2] فلما تغلَّب بنو توجين على التلول وملكوا جبل وانشريس، زحف محمد بن عبد القوي إلى المدية سنة 681هـ- 1282م في إطار توسيع إمارته[3] فاستولى على أوطان صنهاجة، ثم غزا قبائل الثعالبة فغلبهم على تيطري وأزاحهم عنه وأسكن حصين موطنهم، عندها نزلوا بسيط ميتجة ودخلوا في إيالة مليكش الصنهاجيين[4] ولما تغلَّب المرينيون على المغرب الأوسط سنة 750هـ- 1349م دخلوا في إيالتهم واستغلوا ذلك في الاستبداد بذلك الموطن[5] وكانت رئاستهم على عهد أبي حمو الثاني لسالم بن إبراهيم بن نصر بن حنيش بن أبي حميد ابن ثابت بن محمد بن سباع إلى أن زحف إليه أبو حمو سنة 779هـ- 1377م فحاصره بجبال متيجة وألقي عليه القبض ثم قتله قعصا بالرماح، تلاشى بعدها هذا القبيل ورضي بالطاعة من بقي منهم.

لم تستطع هذه القبيلة أن تقوم بدور سياسي وعسكري كبير رغم استقرارها في منطقة إستراتيجية وتحالفها مبكرا مع الموحدين، ويعود ذلك أساسا إلى ضعف عصبيتها، وقد لاحظ ذلك ابن خلدون عند معرض حديثه عن زعيمها بقوله: **"**وذهب أثره وما كان له من الرئاسة التي لم تكن الثعالبة لها بأهل**"[6].**

ثالثا: قبائل بني سليم: وهم الشعب الثالث الداخل إلى بلاد المغرب، ونسبهم إلى منصور بن عكرمة بن خصفة بن قيس عيلان بن مضر، وله بطنان عظيمان هما بنو سليم بن

1- من الأسباب السياسية لحركة التدافع هذه، رغبة بني حفص في الانتقام من قبائل الدواودة التي ساندت بني غانية في ثورتهم، فسلطت عليهم بني سليم، إضافة إلى أسباب اقتصادية واجتماعية وهي التنافس على الأراضي الزراعية، وقد أشار ابن خلدون إلى جانب منها بقوله: " وكانت أبَّة إقطاعا لمحمد بن مسعود بن سلطان، فأقبل إليه مرداس في بعض السنين عيرهم للكيل ونزلوا به فرأوا نعمة الدواودة في تلولهم فشرهوا إليها وأجمعوا طلبها فحاربوهم ". ابن خلدون: المصدر نفسه، مج2، ص1816-1817.

2- آشير: تقع في سفح جبل تيطري بلدية الكاف الأخضر دائرة عين بوسيف جنوب شرق المدية على الطريق الوطني رقم 60، أسسها زيري بن مناد الصنهاجي سنة 324هـ/936م، وقد أورد ابن الأثير خطأً تاريخ بنائها بسنة 364هـ- 974م ويقول: " فلما بناها سُرَّ بذلك القائم "، رغم أنَّ هذا الأخير قد توفي سنة 334هـ- 945م، والذي حمله على هذا الخطأ هو أنَّ بلكين بن زيري بنى سورها سنة 367هـ- 977م. وهي مدينة قديمة فيها آثار عجيبة منها بنيان عظيم يُعرف بمحراب سليمان، بينها وبين المسيلة مرحلة، وتتكون من قسمين آشير المدينة والبنية، ومن معالم المدينة قصر منزة بنت السلطان. خضعت المدينة للدولة الحمادية حيث اتخذها حماد بن بلكين عاصمة ثانية له. البكري: المصدر السابق، ص145-146/ ياقوت الحموي: المصدر السابق، ج1، ص164-165/ مجهول: الاستبصار، ص170/ الإدريسي: المصدر السابق، مج1، ص254/ الحميري: المصدر السابق، ص60/ النويري: المصدر السابق، ص304- 305.

3- أتَّصل ملك محمد بن عبد القوي في ضواحي المغرب الأوسط ما بين مواطن بني راشد إلى بلاد صنهاجة بنواحي المدية وما في قبلة ذلك من بلاد السرسو وجباله إلى أرض الزاب. ابن خلدون: المصدر السابق، مج2، ص2168- 2171.

4- ابن خلدون: المصدر نفسه، مج2، ص1812/ عبد الوهاب بن منصور: المرجع السابق، ص424/ مصطفى أبو ضيف أحمد عمر: المرجع السابق، ص234/ أبو راس الناصري: المرجع السابق، ج2، ص63.

5- ابن خلدون: نفسه، مج2، ص1812، 2143/ E. MERCIER : op cit . p189

6- ابن خلدون: المصدر نفسه، مج2، ص1813، 2152، 2156-2158.

منصور وهوازن بن منصور، وإلى بهثة بن سليم تعود جميع بطونهم[1]. دخل بنو سليم بلاد المغرب متأخرين وذلك بعدما ولجه قبلهم إخوانهم الهلالية والمعقل، وترجع شعوب بني سليم إلى أربعة بطون وهي: زغُب وعوف وذباب أو ذياب وهبيب.

أ- بنو عوف: بن بهثة بن سليم، وكانت مواطنهم من وادي قابس شرقي إفريقية إلى بونة بالمغرب الأوسط، ولهم جذمان عظيمان: مرداس وعلاق، فلعلاق بطنين منهما تفرعت شعوبه وهما يحي وحصن، فمن بني يحي الكعوب وقد مرَّ التعريف بهم، ومن بطونهم أولاد شيخة بن يعقوب بن كعب وأولاد مهلهل بن قاسم بن أحمد بن كعب بن يزيد بن علي بن يعقوب بن كعب وأولاد أبي الليل أخ قاسم. أما مرداس فكانوا أقل عددا ورئاستهم في أولاد جامع[2] الذين اختصهم السلطان الحفصي أبو زكريا بالولاية، ثم حدثت بينهم وبين بني عمومتهم من علاق منافسة بتحريش من السلطان، غضب لأجلها عنان بن جابر بن جامع فدخل بقومه المغرب الأوسط وأقام بناجعته بزاغر وما يقاربها من بلاد رياح[3].

اشتدت المنافسة بين أولاد أبي الليل وبين أولاد مهلهل وأولاد شيخة من بطون علاق والتي انعكست على علاقتهم بالحفصيين سلما وحربا إلى أن سار إليهم السلطان أبو العباس أحمد (772- 796هـ/1370- 1394م) سنة 780هـ- 1378م ببلاد الجريد لحملهم على الطاعة فدافعوه عنها ثم غلبهم وأزاحهم عن ضواحيها فأبعد أولاد حمزة بن عمر بن أبي الليل وأحلافهم إلى الغرب[4].

ب- ذباب: وهم بنو ربيعة بن زغب الأكبر بن جرو بن مالك بن خفاف بن امرئ القيس بن بهثة بن سليم بن منصور[5]. أما بطونهم التي سكنت المغرب الأوسط فهي: النوائل أبناء نائل بن عامر بن جابر بن فائد بن رافع بن ذباب، منهم القبيلة المشهورة المستقرة قرب الجلفة، إخوانهم أولاد سنان بن عامر، منهم قبيلة مستقرة قرب قالمة[6].

1- ابن خلدون: المصدر السابق، مج1، 554-555. مج2، ص1815/ ابن حزم: المصدر السابق، ص261/ ابن الكلبي: المصدر السابق، ج1، ص216/ القلقشندي: المصدر السابق، ص294-295.

2- ابن خلدون: المصدر نفسه، مج2، ص1816-1817/ القلقشندي: المصدر نفسه، ص381/ عبد الوهاب بن منصور: المرجع نفسه، ص430/ مصطفى أبو ضيف أحمد عمر: المرجع نفسه، ص216.

3- ابن خلدون: المصدر السابق، مج2، ص1817.

4- ابن خلدون: المصدر نفسه، مج2، ص1820-1821، 2033، 2035/ ابن الشماع: المصدر السابق، ص110/ ابن أبي دينار: المصدر السابق، ص142/ الزركشي: المصدر السابق، ص109/ حسن حسني عبد الوهاب: المرجع السابق، ص142-143.

5- ابن خلدون: المصدر نفسه، مج2، ص1823. التجاني: رحلة التجاني، تقديم حسن حسني عبد الوهاب، الدار العربية للكتاب، ليبيا- تونس، 1981م، ص85-86/ القلقشندي: المصدر السابق، ص250/ عبد الوهاب بن منصور: المرجع السابق، ص428/ مصطفى أبو ضيف أحمد عمر: المرجع السابق، ص219.

6- التجاني: نفسه، ص86/ ابن خلدون: المصدر نفسه، مج2، ص1823/ عبد الوهاب بن منصور: المرجع نفسه، ص428.

صعود القبائل العربية إلى التلول: استوطنت معظم القبائل العربية التي دخلت المغرب الأوسط الجهة الشرقية منه في التلول وتخوم الصحراء لسهولة طرقها والتحرك فيها[1]، معتمدين في ذلك في أغلب الأحيان على كثرة عددهم وقوة عصبيتهم. ولما ملك الموحدون المغرب الأوسط أقطعوهم بعض تلوله وهو ما فتح لهم الباب في التقدم أكثر، حيث تدرَّجوا في زحفهم غربا مستغلين الظروف السياسية والاجتماعية والاقتصادية ولاسيما في العهد الزياني، حيث انتقلت كثير من بطون زغبة والمعقل وبنو سليم إلى هذه الجهات سواء تغلُّبا منهم أو باستدعاء من سلاطين بني عبد الواد.

بنو عبد الواد والقبائل العربية: أصبح العرب منذ توطُّنهم في بلاد المغرب عموما، وبالمغرب الأوسط بصفة خاصة طرفا مهمًّا في المعادلة السياسية لدى الدول التي قامت في المنطقة ابتداءً من الموحدين ثم من جاء على إثرهم من بني مرين وبني حفص، ولم يشذ عنهم طبعا بنو عبد الواد، ويعود دور العرب هذا وبخاصة في المغرب الأوسط لموقعه كمجال للعبور، ثم الصراعات التي شهدها سواء بين الدول القائمة في المنطقة أو فيما بين القبائل، وقد تطرَّقنا في الفصل التمهيدي إلى دور الظروف والعوامل السياسية في حركة القبائل وهجرتها، كما أشرنا في بداية هذا الفصل إلى علاقة الموحدين بالعرب ونقلهم لبطون بعض القبائل مثل جشم[2] ومن اندرج فيها إلى بلاد الهبط وبسيط تامسنا[3] بين سلا ومراكش.

انتهج بنو عبد الواد نفس سياسة الموحدين قبلهم في علاقتهم بالقبائل العربية، وإذا كان الموحدون قد نقلوهم اتقاءً لشرهم، فإنَّ بني عبد الواد جلبوهم لأسباب سياسية وعسكرية نتيجة الضغط الذي تعرَّضوا له من طرف جيرانهم بني حفص وبني مرين الذين تكررت حملاتهم على المغرب الأوسط، أين تمكَّنوا فيها من احتلال تلمسان عدة مرات[4]، ولذلك عمد سلاطين هذه الدولة إلى التقرُّب من القبائل العربية واستمالتها ونقلها من الشرق إلى الغرب وتجييشهم ضد أعدائهم، يقول العمري عن دور قبائل العرب في دولة يغمراسن: "وقد صار

1- عَقَد ابن خلدون في باب العمران البدوي فصلا بعنوان: أنَّ العرب لا يتغلبون إلا على البسائط. ويرجع ذلك إلى طبيعة حياتهم التي ألِفوها بمواطنهم الأولى في الصحراء، وابتعادهم عن ركوب الخطر والصِّعاب. المقدمة، ص117.

2- جُشَم: بن معاوية بن بكر بن هوازن بن منصور بن عكرمة بن خصفة بن قيس عيلان، ومن جشم قبيلة غزية الشهيرة التي ينتسب إليها دريد بن الصمة الشاعر، وقد اندمجت فيها بطون أخرى من قرة والعاصم ومقدم والخلط، فعدوا منها وغلب عليهم جميعا اسم جشم. ابن خلدون: المصدر السابق، مج1، ص555-556. مج2، ص1792/ ابن الكلبي: المصدر السابق، ج1، ص209/ القلقشندي: المصدر السابق، ص214/ عبد الوهاب بن منصور: المرجع السابق، ص420/ السلاوي: المرجع السابق، ج2، ص151- 152.

3- بلاد الهبط وتامسنا تقعان وسط المغرب الأقصى، وتتبعان لإقليم فاس الممتد من نهر ورغة شمالا إلى نهر أبي رقراق في الجنوب والغرب. الحسن الوزان: المصدر السابق، ج1، ص193-194، 306.

4- تعرضت تلمسان للغزو والاحتلال المريني في عهد السلطان أبي الحسن (737- 749هـ/ 1336- 1348م) ثم في عهد أبي عنان (753- 760هـ/ 1352- 1359م) ثم في عهد عبد العزيز بن أبي الحسن (772- 774هـ/ 1371- 1373م) وفي عهد أبي العباس أحمد بن سالم (784- 786هـ/ 1383- 1385م) ثم في عهد أبي فارس بن أبي العباس سنة 796هـ/ 1395م.

الكل لهذا السلطان جندا مع من كان معه من قبائله، ومن جملة عساكره قبائل من العرب كثيرة "[1]، ولتوثيق هذه الصِّلات منحوهم الإقطاعات[2] وأوكلوا إليهم جباية المغارم، وقد أشار ابن خلدون إلى سياسة هذا السلطان مع العرب بقوله: " واستمال عشيره وقبيله وأحلافهم من زغبة بحسن السياسة والاصطناع وكرم الجوار "[3].

لم يهنأ بنو عبد الواد بالاستقرار والأمن منذ أنْ ظهر بنو عمومتهم كقوة سياسية وعسكرية، ذلك أنَّ هدف بني مرين كان محاولة إخضاع كامل بلاد المغرب لسلطانهم، وهو ما يمكن ملاحظته من خلال أعمالهم العسكرية ضد الموحدين وضد بني عبد الواد، حيث كانت تسير في آن واحد تقريبا، فبعد أن استولوا على فاس سنة 646هـ- 1248م، ثم بلاد درعة وسجلماسة سنة 553هـ- 1158م ارتحل الأمير أبو يحي بن عبد الحق لقتال يغمراسن بأحواز وجدة فكانت عليه سنة 655هـ- 1257م وقعة أبي سليط[4].

تواصلت حملات المرينيين ضد بني عبد الواد أين انهزم يغمراسن بن زيان في معركة تلاغ[5] سنة 666هـ- 1267م، إلا أنَّ مظاهر الصراع الحقيقي المباشر تبدأ بعد سقوط الموحدين حيث جرت قرب وجدة سنة 670هـ- 1271م معركة أيسلي[6].

أدرك يغمراسن بن زيان حقيقة الخطر المريني على دولته وهو ما دفعه إلى جلب العرب، ورغم اعتماده عليهم كقوة عسكرية، إلا أنه وجد صعوبة في توطينهم واصطناعهم لما كانوا يبدونه من الفساد والعصيان وتذبذب ولائهم وهو ما اضطره إلى غزوهم مرارا[7].

نزلت بعض القبائل العربية المهاجرة إلى الغرب في التلول والأمصار كتلمسان[8] والبطحاء، حتى تكون قريبة من السلطان للاستنفار عند الحاجة وفرض سلطة الدولة على القبائل المناوئة أو لجمع الضرائب والمغارم وتنشيط الفلاحة والصناعة التي كانت الدولة

1- العمري: المصدر السابق، س4، ص172.

2- الإقطاع بكسر الهمزة ما يقطعه ولي الأمر لنفسه أو لغيره من أرض أو غيرها، من أي نوع من أنواع المال الثابت أو المنقول، ومنها الإقطاع الحربي وهو إقطاع الجند. وفيه يقول الماوردي: " وإقطاع السلطان مختصّ بما جاز فيه تصرُّفه ونفذت فيه أوامره، ولا يصح فيما تعيَّن فيه مالكه وتميَّز مستحقه، وهو ضربان: إقطاع تمليك وإقطاع استغلال أو انتفاع ويسمى إقطاع الإمتاع، وهناك إقطاع إرفاق ويتعلق بالأسواق والرحاب. الماوردي: المصدر السابق، ص268. محمد عمارة: قاموس المصطلحات الاقتصادية في الحضارة الإسلامية، دار الشروق، بيروت- القاهرة، ط1، 1413هـ- 1993م، ص61/ مصطفى أحمد بن حموش: فقه العمران الإسلامي من خلال الأرشيف العثماني بالجزائر 956- 1246هـ/ 1549- 1830م، دار البحوث والدراسات الإسلامية وإحياء التراث، دبي، ط1، 1421هـ- 2000م، ص50- 51/ عز الدين عمر موسى: النشاط الاقتصادي في الغرب الإسلامي، ص145.

3- ابن خلدون: المصدر نفسه، مج2، ص2113.

4- نفسه، مج2، ص2117، 2183.

5- نفسه، مج2، ص2185/ ابن الأحمر: المصدر السابق، ص66/ ابن أبي زرع: الذخيرة السنية، ص147.

6- ابن خلدون: نفسه، مج2، ص2188/ ابن الأحمر: المصدر نفسه، ص65-67/ ابن أبي زرع: المصدر نفسه، ص167.

7- ذكر يحي بن خلدون أنَّ يغمراسن غزا العرب اثنتين وسبعين غزوة. بغية الرواد، ج1، ص207.

8- نفسه، ج1، ص90.

في حاجة إليها وبخاصة أثناء الحروب وفترات الحصار الذي باتت تتعرض له المدن، بينما نزل بعضها قصور الصحراء أين مارسوا زراعة النخيل وتربية الإبل، وكأنَّ بني عبد الواد وزعوا هذه القبائل بين التل والصحراء مراعاة للأهداف والأبعاد السياسية والأمنية حتى لا يكونوا قوة موحَّدة في حالة العصيان أو الثورة لاسيما وأنهم عُرِفوا بتقلُّب ولائهم للدولة مرارًا، ومن جهة أخرى اتخاذ موطنهم كملجأ يأوي إليه السلاطين أثناء الحملات العسكرية التي تُشنُّ ضدهم، وبخاصة من قِبَل بني مرين حتى أصبحت سياسة واستراتيجية عسكرية معتادة ومنتهجة لدى بني عبد الواد[1]، ويمكن أن نستشف هذه السياسة من خلال منعهم عرب الصحراء من وَطء التلول، إلا في حالة تغلُّبِهم عليها أو الحاجة الماسة إليهم.

انطلاقا من سير حركة الهجرة للقبائل العربية، لاحظنا أنها تمت عبر ثلاثة أُطُر، إطار الدولتين الموحدية ثم الحفصية حيث جرت هذه الظاهرة في مجال محدود وهو الجهة الشرقية للمغرب الأوسط الممتدة من منطقة الزاب إلى قسنطينة وهي المجال الذي شهد صراعا بين السلطة والقبائل لاسيما بعد أن انقسمت الدولة الحفصية إلى قسمين[2]. أما الإطار الثاني فقد مَثَّلَته دولة بني عبد الواد الذي اتخذت فيه الهجرة منحى أوسع سواء من حيث المجال الذي تمت فيه (من الشرق إلى الغرب أو العكس) أو من حيث عدد القبائل التي مسَّتها ظاهرة الهجرة.

إذا كانت العوامل السياسية أكثر الأسباب الدافعة للهجرة، ونقصد بها تحديدا الصراع الزياني الحفصي والزياني المريني على وجه الخصوص، فإنَّ القبائل العربية ذاتها لم تكن على انسجام فيما بينها ولاسيما في إقليم دولة بني عبد الواد، فلم نلاحظ مثلا تأسيس إمارات عربية على غرار ما حدث في إفريقية كإمارة بني الرند بقفصة أو إمارة بني رمان ثم بني مزني ببسكرة[3]، أو حتى البربرية مثل إمارة بني منديل المغراوية[4]، هذه الحالة والظروف

1- من أمثلة ذلك لجوء يغمراسن بن زيان إلى الصحراء لما استولى أبو زكريا بن أبي حفص على عاصمته سنة 639هـ-1241م، (يحدد التنسي ذلك بسنة 645هـ- 1247م)، ثم فرار أبو حمو موسى الثاني إلى القبلة عند عرب بني عامر لما هاجم مسعود بن رحو قائد السلطان المريني السعيد أبو بكر بن أبي عنان مدينة تلمسان سنة 760هـ- 1359م. مجهول: زهر البستان، ص59/ ابن خلدون: المصدر السابق، مج2، ص2115، 2147/ التنسي: المصدر السابق، ص117/ يحي بن خلدون: المصدر السابق، ج1، ص205/ ابن قنفذ: الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية، ص109/ الزركشي: المصدر السابق، ص29/ ابن الشماع: المصدر السابق، ص59.

2- انقسمت الدولة الحفصية في عهد الأمير أبو حفص عمر بن أبي زكريا، عندما خرج عليه ابن عمه يحي بن إبراهيم بن أبي زكريا سنة 683هـ- 1284م إلى قسمين: شرقية وعاصمتها تونس، وغربية تضم إقليمي الزاب وقسنطينة وعاصمتها بجاية. ابن خلدون: المصدر نفسه، مج2، ص1981، 2047/ ابن قنفذ: المصدر نفسه، ص148/ حسن حسني عبد الوهاب: المرجع السابق، ص133.

3- عن تاريخ هذه الإمارة يُنظر، ابن خلدون: المصدر نفسه، مج2، ص1872، ص2046/ مصطفى أبو ضيف: المرجع السابق، ص139.

4- عن تاريخ هذه الإمارة يُنظر، ابن خلدون: المصدر نفسه، مج2، ص2103، 2217/ أبو راس الناصري: المرجع السابق، ج1، ص93/ ج2، ص62-63/ المهدي البوعبدلي: تاريخ المدن، ص196-197.

التي كانت تعيشها القبائل العربية مَّثلت الإطار الأخير للهجرة بسبب ما كان يحدث بينها من منافسة وصراع جعلها في حركة مستمرة.

وفي الأخير يمكن القول أنَّ معظم الهجرات الداخلية وبخاصة العربية منها تمت في العهد الزياني، كما يُلاحظ أنَّ سير الهجرة بالنسبة للقبائل العربية اَتخذ منحى تراتبيا تقريبا وهو نزول هذه القبائل إلى الصحراء ومن الصحراء الصعود نحو التل، وعلى العموم فإنَّ حركة الهجرة هذه سواءٌ العربية منها أو البربرية التي تمت في العهد الزياني هي التي تَشكّل من خلالها بصورة شبه نهائية تقريبًا ملمح وتركيبة مجتمع المغرب الأوسط والجزائر في العصر الحديث.

الفصل الثاني: الهجرة الخارجية

*** تمهيد**

*** أولا: الهجــرة الصــادرة: 1- الهجرة إلى المغرب والأندلس**

هجرة القبائل البربرية: *** في العهد الموحدي.**

*** في العهد الزياني.**

2- الهجرة إلى إفريقية.

3- الهجرة إلى المشرق:

1- إلى الحجاز (مكة والمدينة).

2- إلى بلاد الشام.

3- إلى مصر.

هجرة القبائل العربية:

1- في العهد الموحدي.

2- في العهد الزياني.

ثانيا: الهجرة الــواردة.

1- هجرة الأندلسيين إلى المغرب الأوسط.

2- الهجرة من المغرب الأقصى إلى المغرب الأوسط.

3- الهجرة من إفريقية إلى المغرب الأوسط.

4- الهجرة من المشرق إلى المغرب الأوسط.

عادة ما تتم الهجرة على مستويين، المستوى الداخلي وهو ما عالجناه في الفصل الأول وسنتطرق في هذا الفصل إلى الهجرة الخارجية، وذلك من حيث أسبابها ودوافعها واتجاهاتها وحجمها، وإذا كانت الهجرة الداخلية محدودة بالإطار الجغرافي للإقليم أو للدولة القائمة وتبدو طبيعية إلى حد ما في الأحوال العادية لارتباطها بالظروف الطبيعية والحياة الاجتماعية والعلاقات، بل يصبح ذلك أحيانا أمرا لا بدَّ منه، فإنَّ الهجرة الخارجية أكثر أثرا وتعبيرا عن ظروف سياسية وثقافية وواقع اجتماعي، فكثيرا ما يُساهم المهاجرون في صناعة أو تغيير وضع قائم في المناطق المهَاجَر إليها سلبا أو إيجابا، ويُمكن أن نقسِّم هذه الهجرة من حيث مصدرها إلى قسمين: الهجرة الصادرة، ونقصد بها التي تمَّت انطلاقا من المغرب الأوسط نحو الخارج، ثم الهجرة الواردة، أي التي تمَّت نحو المغرب الأوسط.

أولا: الهجرة الصادرة:

1– نحو المغرب الأقصى والأندلس: إذا كان المغرب الأقصى يُشكّل قسما مستقلا من أقسام بلاد المغرب الإسلامي كما وضَّحنا في الفصل التمهيدي، إلا أنَّ الظروف السياسية ونقصد بها على الخصوص الدول التي خاضت تجارب الوحدة، والواقع السكاني لا يعترفان في كثير من الأحيان بهذه الحدود، إذ كانت الحركة بين المغربين تتم بصورة مباشرة، ولذلك فالمتتبع لحركة الهجرة سيلاحظ أنها تمت إما بدافع طبيعي واجتماعي محض[1] في إطار التحرُّك بحثا عن موطن مناسب للحياة، أو كان ذلك في إطار سياسة الدول التي قامت في المنطقة سواء الموحدون أو من أعقبهم من الدول، ونفس الأمر ينطبق على الأندلس، حيث أنَّ العلاقات بين العدوتين تعود إلى فترات متقدِّمة من تاريخهما والتي كثيرا ما أملاها الواقع السياسي والمصالح الاقتصادية، وعليه فإنَّ حركة الهجرة بينهما كانت أكثر مما هي علية من باقي أقاليم العالم الإسلامي.

<u>هجرة القبائل البربرية في العهد الموحدي</u>: بدأنا بالقبائل البربرية لأصالتها في المنطقة مقابل القبائل العربية، إضافة إلى دورها السياسي والعسكري والثقافي، فكثيرا ما كان مصير القبيلة مرتبطا بالظروف السياسية التي عاشت في ظلها، سواء من حيث استقرارها أو من حيث واقعها وعلاقاتها ويظهر أنَّ هذا المصير غالبا ما تُحدِّده عصبية القبيلة قوة وضعفا، وإذ ينطبق هذا على الهجرة الجماعية، فإنَّ الأمر قد يختلف بالنسبة للهجرة الفردية التي تتحكم فيها ظروف شخصية ونفسية وأهداف دينية، ومن أمثلة ارتباط القبائل بالدول ودورها السياسي والعسكري وتأثير ذلك على استقرارها ما حدث لقبيلة كتامة لما احتضنت دعوة بني عبيد وكانت أساس قيام دولتهم، فلما فتح هؤلاء مصر وانتقلوا إليها أواخر سنة

1- نشير هنا وبالخصوص إلى أنَّ القبائل العربية في المغربين الأوسط والأقصى والأندلس لم يكن لها هدفا دينيا أو قوميا سياسيًا، فلم تشكّل مثلا جيشا نظاميا وتتوحَّد لإقامة سلطة أو حكما عربيا، وإنما كانت تهدف إلى تحقيق مصالح في إطار ظامها الاجتماعي ونمطها المعيشي، بل كانت مستغلّـَة من طرف الملوك والسلاطين والطامحين للسلطة من بعض زعماء القبائل البربرية من خلال تكليفهم بالجباية والعسكرة معهم مقابل اقطاعات.

361هـ-972م، انتقل معهم كثير من أفراد هذه القبيلة ولم يبق منهم إلا عددا قليلا بمواطنهم الأولى إذ كانوا يشكّلون معظم جيشهم وموظفي دواوينهم، والأمر نفسه سيحدث لقبيلة كومية مع الموحدين لما ملكوا المغرب الأقصى والأندلس. وقبل التطرُّق للقبائل المهاجرة، نشير فقط إلى أنَّ بعضها كان يهجَّر قسرا وعادة ما يتم ذلك نتيجة ضعف القبيلة وانهزامها في المواجهات العسكرية، وبعضها كان يهاجر اختيارا بسبب ارتباطات ومصالح، وسنركّز على الدول الثلاث ذات الأثر المباشر في هجرة قبائل المغرب الأوسط وهي دولة الموحدين ثم بنو عبد الواد وبنو مرين.

1- تهجير بني يلومي: وهي من القبائل الأولى التي نقل الموحدون بعض أفرادها إلى المغرب الأقصى بعدما انتقضوا عليهم بإحدى حصونهم بزعامة شيخيهم سيد الناس وبدر ابني أمير الناس حيث أنزلوهم مراكش[1].

2- هجرة قبيلة كومية: وهم بنو فاتن بن تمصيت أو تمزيت بن ضريس بن زحيك بن مادغيس الأبتر، إخوة لماية ومطغرة. كانوا يُعرفون قديما بصطفورة أو صدفورة، ولهم ثلاثة بطون منها تشعَّبَت قبائلهم وهي: ندرومة وصغارة أو مغارة وبني يلول، وكانت لهم كثرة موفورة وشوكة مرهوبة[2]، وكانت مواطنهم بالمغرب الأوسط لسيف البحر شمال تلمسان ما بين أرشكول وترنانة[3].

إنَّ الدور الذي قامت به كومية مع الموحدين لا يقل أهمية عن الذي قامت به كتامة مع العبيديين، ولذلك فقد انتقل معظم أفرادها إلى المغرب الأقصى والأندلس لما كانوا في خدمة بني عبد المؤمن، وعليه يُمكن أن نُرجع هجرة هذه القبيلة إلى عدة أسباب وظروف منها:

* قوة هذه القبيلة من حيث عدد أفرادها[4] ما جعل الموحدين يعوِّلون عليها ولاسيما فترة تكوين الدولة حيث كان عبد المؤمن بن علي في أَمَسِّ الحاجة إليهم، لثقته فيهم ولمحلِّ قرابته منهم وذلك إما لمواجهة الثورات الداخلية، أو للجهاد في الأندلس لاحقا.

* سَبْق هذه القبيلة إلى التوحيد ولعلّه السبب المهم، ذلك أنَّ اعتناق المذهب التومرتي من أي قبيلة أو فرد كان يُكسِب صاحبه امتيازا ومكانة في سُلَّم السلطة الموحدية وبذلك أصبحت كومية من القبائل المهمة حتى أنّها عُدَّت منهم وأصبحت ثامنة القبائل المنْظَمَّة للموحدين

1- ابن خلدون: المصدر السابق، مج2، ص2099.

2- نفسه، مج2، ص1849/ ابن حزم: المصدر السابق، ص496/ عبد الوهاب بن منصور: المرجع السابق، ص309/ الميلي: المرجع السابق، ج1، ص105- 106.

3- ترنانة: مدينة كبيرة مسوَّرة بالقرب من ندرومة على ساحل البحر، وهي مرسى صيفي شرق مرسى عجرود على بعد عشرة أميال، ويليها شرقا مرسى أرشكول، كان سكانها من البربر ومطغرة. البكري: المصدر السابق، ص167، ص170. الحميري: المصدر السابق، ص126. الاستبصار، ص135.

4- عبد الواحد المراكشي: المصدر السابق، ص423/ ابن خلدون: المصدر نفسه، مج2، ص1851.

وفيها يقول ابن خلدون: " وصاروا من أعظم قبائل الموحدين لما ظاهروا المصامدة على أمر المهدي وكلمة توحيده "[1] ثم يضيف قائلا: " وثامنة قبائل الموحدين كومية قبيلة عبد المؤمن كبير صحابته، دخلوا في دعوته قبل الفتح، فكانت لهم المزيَّة بسابقة عبد المؤمن وسابقتهم فاختصَّ هؤلاء القبائل "[2]. فهل يكون ذلك هو سبب تولية ابن تومرت لعبد المؤمن أم لأنه من قبيلة غير مصمودية تجنُّبا لأي نزاع أو منافسة مستقبلا ؟ أم يكون ذلك بسبب قوة هذه القبيلة وضعف قبيلته هرغة التي قد لا يكون لها حظ في الحكم بين بقية القبائل[3].

* أما السبب المباشر لهجرة كومية إلى المغرب الأقصى فهو محاولة الاغتيال التي تعرَّض لها عبد المؤمن بن علي أثناء عودته من إفريقية سنة 556هـ- 1161م وذلك بنواحي تلمسان[4]، ويظهر أنَّ أزمة الشرعية والصِّراع على السلطة أصبح مطروحا بعد وفاة المهدي مباشرة حسب إشارة ابن خلدون بقوله: " وخشي أصحابه من افتراق الكلمة وما يُتَوقَّع من سخط المصامدة ولاية عبد المؤمن لكونه من غير جلدتهم "[5]، لكن أشياخ الموحدين تمكّنوا من تجاوز هذه القضية في البداية لاسيما وأنّها تزامنت مع حروبهم وتوسُّعاتهم في بلاد المغرب والأندلس.

لم يكن بعض أشياخ الموحدين من المصامدة راضين عن نفوذ قبيلة كومية واستئثارها بالسلطة، حسب قول صاحب المعجب: " لم يكن لها في قديم الدهر ولا في حديثه ذِكرٌ في رياسة ... فأصبح القوم اليوم وليس فوقهم أحد ببلاد المغرب ولا تُطاول أيديهم يدٌ لكون عبد المؤمن منهم "[6]، وقد أدرك المصامدة انفلات الأمر من أيديهم إثر توزيع عبد المؤمن الولايات على أبنائه بعد فتح إفريقية والمغرب الأوسط، عندما ولى السيد أبا حفص عمر على تلمسان وأحوازها وعقد على بجاية لأبي محمد عبد الله ولأبي الحسن علي على فاس وأبي سعيد عثمان على سبتة وطنجة، وليوسف على إشبيلية وشلب وأحوازهما واختصَّ ابنه

1- ابن خلدون: المصدر السابق، مج2، ص1850.

2- نفسه، مج2، ص1850، ص1937/ البيذق: المصدر السابق، ص35، 39.

3- يقول المراكشي عن مكانة هرغة بين باقي القبائل: " أوَّلهم قبيلة ابن تومرت وهي قبيلة تسمى هرغة وهي قليلة العدد بالنسبة لقبائل الموحدين، ثم قبيلة عبد المؤمن وهي قبيلة كثيرة العدد جمة الشعوب ". المعجب، ص423.

4- اختلف في سبب محاولة قتله، فذهب ابن أبي زرع إلى طول الغيبة والبعد عن الديار والأوطان حيث قال: " لما طالت بالموحدين الإقامة بالمشرق والتغرُّب عن أولادهم وأوطانهم، عزمت طائفة منهم على قتل عبد المؤمن ". الأنيس المطرب، ص199/ أما عبد الواحد المراكشي فيقول: " ونازع عبد المؤمن الأمر قوم من قرابة ابن تومرت يُعرفون بأيت ومغار يعني بنو ابن الشيخ، وانتهوا في ذلك إلى أن أجمع رأيهم ورأي من وافقهم على سوء صنيعهم أن يدخلوا على عبد المؤمن خباءه ليلا فيقتلوه ... ولَّ عبد المؤمن إذا فُقِد ولم يُعلَم من قَتَله صار الأمر إليهم لأنهم أحقُّ به ". المعجب، ص303. فيما سكتت معظم المصادر الأخرى عن هذه القضية. لمزيد من المعلومات عن هذه القضية يُنظر حسن علي حسن: الحضارة الإسلامية في المغرب والأندلس عصري المرابطين والموحدين، ص305/ السلاوي: الاستقصا، ج2، ص124/ الميلي: المرجع السابق، ج2، ص104.

5- ابن خلدون: المصدر نفسه، مج2، ص1912.

6- عبد الواحد المراكشي: المصدر نفسه، ص425.

محمد بولاية العهد[1]، عندها دبَّت عقارب الحسد في نفوس بعض المصامدة وفي مقدِّمتهم أخوي المهدي عبد العزيز وموسى وابن عمهما وصهرهما يصليتن[2] ومن شايعهم.

استدعاء كومية إلى المغرب الأقصى: ارتبطت هجرة كومية إلى المغرب الأقصى بعدة أسباب وظروف، فبالإضافة إلى محاولة الاغتيال التي تعرَّض لها عبد المؤمن وانتزاء أخوي المهدي، شعر عبد المؤمن بعِظَم المسؤولية وبالخطر في نفس الوقت، كيف لا وقد أنشأ دولة واسعة لم تنتظم لأحد قبله، فأصبح في حاجة معها لجيش كبير يحمي ثغورها وأطرافها ولاسيما في الأندلس المهدَّدة بالغزوات المسيحية، ويظهر كذلك أنَّ عبد المؤمن كان يحس بغربته ووحدته أمام جموع المصامدة فأراد أن يعتضد بقومه من جهة ويكافئهم على مساندتهم إياه خلال فتوحاته إذ كانوا ضمن جيشه كما يذكر ابن خلدون بقوله: " فاشتدَّ عضده بقومه، ودخلوا في أمره وشايعوه على تمكين سلطانه بين الموحدين وخلافته "[3] لكن يبقى الدافع السياسي العسكري فيما يبدو أقوى أسباب استدعاء كومية، فلو كان ذلك لهدف شخصي فكيف ينتظر كل هذه المدَّة لاستدعائهم وهي عشر سنوات تقريبا أي من سنة 447هـ-1152م إلى سنة 557هـ- 1162م تاريخ استدعائهم.

عمد عبد المؤمن إلى السرِّية في جلب قبيله كومية، فدسَّ إلى أشياخهم من يطلب منهم القدوم عليه، وأن يُركِبوا كل من بلغ الحُلُم، فاجتمع منهم أربعون ألف فارس، فرتَّبهم عبد المؤمن في الطبقة الثانية من أهل الديوان وجعلهم بطانته يركبون خلف ظهره ويمشون بين يديه[4]. ويُفهم من كلام ابن خلدون أنَّ استدعاء كومية لم يكن بسبب محاولة القتل التي تعرَّضَ لها الخليفة فقط، وإنما لحاجته إلى الجيش حيث يقول: " ولما رجع إلى المغرب وافتتح أمصاره واستولى على مراكش، استدعى قومه للرحلة إليها والعسكرة عليه فخفَّ

1- ابن خلدون: المصدر السابق، مج2، ص1917/ ابن أبي زرع: المصدر السابق، ص194- 195/ عبد الواحد المراكشي: المصدر السابق، ص293، 297، 275/ ابن عذاري: المصدر السابق، ق. الموحدين، ص50/ ابن سماك: المصدر السابق، ص228- 230.

2- كان هذا الصراع بعد عودة عبد المؤمن من إفريقية وذلك بين سنتي 547- 548هـ، أي بعد فتح بجاية وليس سنة 551هـ كما يذكر ابن خلدون في إحدى المواضع، لأنّ قتل يصلتين وهو صهره ثم أخوي المهدي كان سنة 548هـ حسب رواية ابن خلدون نفسه في قوله: " وتغيَّر بذلك كله ضمائر عبد العزيز وعيسى أخوي المهدي فلحقا بمراكش مضمرين الغدر وأدخلوا بعض الأوغاد في شأنهم فوثبوا بعمر بن تافراكين وقتلوه بمكانه من القصبة، ووصل على إثرهما الوزير أبو جعفر بن عطية وعبد المؤمن على إثره فأطفأ نار تلك الثورة وقتل أخوي المهدي" وهو ما تؤكده رسالة موحدية يقول فيها كاتبها: "فلما كانت الغزوة التي فُتِحت فيها بجاية ... ثارت كوامن حسدهم تطرق وتنتاب" . ابن خلدون: المصدر نفسه، مج2، ص1917، 2009/ ابن عذاري: ق. الموحدين، صص47- 51/ النويري: المصدر السابق، ص418- 419/ ابن أبي زرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس، ص194، 201/ مجموعة رسائل موحدية، تحقيق ليفي بروفنسال، ر11، ص48/ عبد الواحد المراكشي: المصدر نفسه، ص194/ السلاوي: المرجع السابق، ج2، ص109/ محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس، ص286.

3- ابن خلدون: المصدر نفسه، مج2، ص1851.

4- ابن أبي زرع: المصدر نفسه، ص201/ السلاوي: المرجع نفسه، ص124- 127.

جمهورهم إلى المغرب واستوطن مراكش لحمل سرير الخلافة والقيام بأمر الدعوة والذَّبِّ عن ثغورهم والمدافعة، فاعتضد بهم عبد المؤمن وبنوه سائر الدولة، وكانوا بمكانتهم فاتحة الكتاب وفذلكة[1] الجماعة "[2]، ويظهر أنَّ استدعاء كومية كان أمرًا مفروضا من الناحية العسكرية بحكم اتساع الدولة وحاجتها إلى جيش كبير لحمايتها، وإذا صحَّ عدد المهاجرين من كومية الذي تبدو فيه المبالغة واضحة (أربعون ألف فارس)[3] فستكون هذه الهجرة من أكبر الهجرات القبلية التي شهدها المغرب الأوسط في العصر الوسيط بعد حركة التهجير التي تعرَّضت لها كتامة في العهد العبيدي[4].

بعد أن دانت لعبد المؤمن بلاد المغرب ولاسيما بعد فتح المهدية سنة 555هـ- 1160م انجلى الناس إلى مراكش والمغرب الأقصى[5]، وكانت كومية في من انجلى، وقد كان لذلك أثر في التنظيم السياسي والإداري حيث أعادت التوازن القبلي للسلطة الموحدية سواء في تشكيل الجيش[6] أو في الوظائف الإدارية فأصبح منهم الوزراء والكتاب والولاة مثل أبي عبد الله عبد السلام بن محمد الكومي[7]، وأبو عبد الله محمد بن فرج الكومي الذي تولَّى مدينة المهدية بعد فتحها[8] ومحمد بن علي الكومي والي مدينة جيان[9].

استقرار كومية في الأندلس ودورها في الجهاد: إنَّ سياسة الخلفاء الموحدين ولاسيما الثلاثة الأوائل منهم كانت منصبَّة على ضبط بلاد الأندلس واسترجاع المدن التي استولى عليها المسيحيون أو انتزى بها الثوار عَقِب سقوط دولة المرابطين، ولذلك وجَّهوا معظم جهودهم للجهاد في الأندلس، التي ظلَّت منذ فتحها ثغرا للمسلمين، فيه جهادهم ورباطهم

1- فذلكة الجماعة: نهاية حساب وتمام أفراد الجماعة، وذلك من قولهم إذا أجمل أحدهم الحساب فذلك كذا وكذا. الفيروز أبادي: القاموس المحيط، ص898.

2- ابن خلدون: المصدر السابق، مج2، ص1851/ عز الدين أحمد موسى: النشاط الاقتصادي في الغرب الإسلامي خلال القرن السادس الهجري، ص73- 74.

3 - ابن أبي زرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس، ص201/ السلاوي الناصري: المرجع السابق، ج2، ص127.

4- بعد عودة المنصور من مطاردته لقبيلة لواتة نواحي تاهرت، تَوَقَّف بسطيف وفرض على قبيلة كتامة أربعة عشر ألف بيت يوافون المنصورية لتعميرها. الداعي إدريس: المصدر السابق، ص467- 468.

5- ابن عذاري: المصدر السابق، ق. الموحدين، ص153.

6- ابن صاحب الصلاة: المصدر السابق، ص403- 405/ ابن خلدون: المصدر نفسه، مج2، ص1851.

7- عبد السلام بن محمد الكومي: استوزره عبد المؤمن بن علي سنة 553هـ- 1158م بعد نكبة أبا جعفر بن عطية ومقتله، واستمرَّ في هذا المنصب إلى أن قُتِل مسموما بسجن تلمسان خلال حركة عبد المؤمن إليها سنة 555هـ. ابن عذاري: المصدر نفسه، ق. الموحدين، ص242/ عبد الواحد المراكشي: المصدر السابق، ص267/ ابن أبي زرع: المصدر السابق، ص196، 200/ ابن الخطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة، ج1، ص265/ ابن خلدون: المصدر نفسه، مج2، ص1917/ أحمد مختار العبادي: في تاريخ المغرب والأندلس، ص162- 163.

8- التجاني: رحلة التجاني، ص349.

9- ابن خلدون: المصدر نفسه، مج02، ص1918/ ابن صاحب الصلاة: المصدر نفسه، ص66.

ومدارج شهادتهم[1]، ولذلك ستشهد بلاد الأندلس وفود العديد من القبائل والأفراد لهذا الغرض، أين استقرَّ الكثير منهم هناك.

بعد عودة عبد المؤمن بن علي من حركته لفتح إفريقية شرع سنة 557هـ- 1162م في الإعداد لحملة عسكرية فأمر بإنشاء الأساطيل في جميع سواحل البلاد ونظر في استجلاب الخيل والاستكثار من أنواع السلاح، وقد تزامنت هذه الاستعدادات مع قدوم فرسان قبيل كومية، الذين انضموا إلى كتائب الجند الداخلة للأندلس[2] .

خرج عبد المؤمن إلى الأندلس برسم الجهاد مع مطلع سنة 558هـ-1163م بعدما اجتمع له من عساكر الموحدين والمرتزقة ومن قبائل المغرب وقبائل زناتة أزيد من ثلاثمائة ألف فارس[3]، ولا شكَّ أنَّ الكوميين كان لهم دورا في الجهاد هناك مع يوسف بن عبد المؤمن ثم ابنه يعقوب المنصور، ورغم أنَّ المصادر لا تشير صراحة بالاسم إلى قبيلة كومية، فإنَّ حضورهم كان ضمن جموع المصامدة باعتبارهم قبيل الخليفة، ومما يُثبت ذلك خروج الخليفة للغزو بعد أقل من سنتين من ورودهم عليه.

ومن العمليات العسكرية التي يكونوا قد شاركوا فيها حملة الموحدين لفتح شرق الأندلس[4] (مرسية وبلنسية) من يد ابن مردنيش[5]، ثم حصار الأذفونش (الفونسو الثامن) بمدينة وبذة[6] سنة 567هـ-1172م، وهو ما يمكن أن نستنتجه من ضخامة الجيش المُعَد لهذه

1- ابن خلدون: المصدر السابق، مج2، ص2192/ أما ابن بطوطة فيقول في هذا المقام: " الأجر موفور للساكن والثواب مذخور للمقيم والظاعن ". رحلة ابن بطوطة، ص675.

2- قام عبد المؤمن بحملتين، الأولى أواخر سنة 555هـ- 1160م والتي جاز فيها إلى جبل الفتح ودامت إلى سنة 556هـ-1161م، ثم حركته الثانية سنة 557هـ- 1162م لغزو ابن همشك الثائر بغرناطة. ابن أبي زرع: المصدر السابق، ص200-201/ عبد الواحد المراكشي: المصدر السابق، ص306/ ابن عذاري: المصدر السابق، ق. الموحدين، ص69- 70، 75/ ابن الأثير: المصدر السابق، مج2، ص2451- 2452/ ابن خلدون: المصدر نفسه، مج2، ص1917- 1918.

3- ابن أبي زرع: المصدر نفسه، ص202/ ابن عذاري: المصدر نفسه، ق. الموحدين، ص79/ السلاوي: المرجع السابق، ج2، ص128.

4- ابن أبي زرع: المصدر نفسه، ص211/ ابن الأثير: المصدر نفسه، مج2، ص2478/ عبد الواحد المراكشي: المصدر نفسه، ص322-323.

5- أبو عبد الله محمد بن سعد بن مردنيش، كان أبوه أمير إفراغة وما والاها من ثغور شرق الأندلس، ملَكَ محمد هذا كورة مرسية سنة 542هـ-1147م بعد وفاة والده، استعان بأصهاره بنو همشك وبالروم فرتّب منهم جندًا، فتغلّب على جيان وأُبَّذة وأطاعته بياسة وحاصر الموحدين بغرناطة سنة 557هـ-1160م، ثم صار أمره إلى الإدبار بعد تعزيز الموحدين لقواتهم وتخلّي صهره عنه، توفي سنة 567هـ-1172م. ابن الخطيب السلماني: أعمال الأعلام، ق2، ص259 وما بعدها/ ابن خلدون: المصدر نفسه، مج2، ص1917-1919/ عبد الواحد المراكشي: المصدر نفسه، ص278-279، ص322.

6- وبذة: مدينة بالأندلس من أعمال شنت برية، وهي حصن على واد بقرب أقليش. الحميري: المصدر السابق، ص607. ياقوت الحموي: المصدر السابق، مج4، ص444/ الإدريسي: المصدر السابق، مج2، ص560.

الغزوة، الذي يصفه صاحب المعجب بقوله: " فجمع أمير المؤمنين أبو يعقوب جموعا عظيمة من قبائل الموحدين وغيرهم من أصناف الجند "[1] حتى أنَّ جوازهم إلى الأندلس استغرق أكثر من أسبوعين، ولتأكيد ولاء هذه القبيلة وفرض وجودها على الساحة العسكرية وإبراز قدراتها كان على أفرادها المشاركة في غزوات الموحدين في الأندلس ومنها غزو مدينة شنترين[2] سنة 580هـ-1184م، ومن ذلك أنَّ أبا زكريا ابن حيون أحد شيوخ كومية طلب من الخليفة أن يسمح له بالمشاركة في هذه الغزوة رغم أنَّه كان معاقبا بالنفي في بطليوس وقد استجاب الخليفة لطلبه[3].

إنَّ استمرار الصراع الموحدي المسيحي في الأندلس كان من بين أسباب انتقال واستيطان هذه القبيلة هناك، ويظهر أنَّ بني عبد المؤمن قد شجَّعوا قبيلة كومية على الاستقرار للاستعانة بهم في جهاد المسحيين وتعمير مدن الأندلس وبخاصة مدينة قرطبة التي أصبحت بهم وبغيرهم من الجند بعد بُؤسها مطمحا للهمم ومسرحا لآمال الأمم وذلك مضاهاة لبني أمية لـمَّا اتخذوها عاصمة لهم[4]، لاسيما وأنّ الكوميين كانوا مُقَدَّمين عند الخلفاء في كل خير على التخصيص والتعميم[5]، وإذا كان هؤلاء القوم قد أبْلَوا في جهاد العدُوِّ، فإنَّ الظروف التي صاروا إليها بعد معركة حصن العقاب من تشتُّت وسوء الأحوال ألجأهم إلى اللصوصية وقطع السابلة ونهب السكان حتى كُثر التشكي منهم[6].

حاول الموحدون إعادة تجربة الوحدة السياسية والمذهبية لبلاد المغرب، ولتحقيق ذلك الهدف عمل بنو عبد المؤمن على ضبطها إداريا وتوفير الأمن في أرجائها، وهو ما ساهم في انتقال الأفراد والجماعات وبخاصة في مرحلة قوة هذه الدولة، وذلك حتى مطلع القرن

1- عبد الواحد المراكشي: المصدر السابق، ص321/ محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس عصر الموحدين، ص67.

2- شنترين: مدينة بغرب الأندلس من أعمال أشبونة، وهي مدينة عظيمة أزلية، بها جامع عظيم بناه الإمام الحكم وبها حمامات عظيمة وأسواق واسعة مرتَّبة، ولها عمل كثير يزيد على ألف قرية تشرب كلها من نهر يأتي إليها يسمى نهر أنة، ومن لشبونة إلى شنترين شرقا ثمانون ميلا وبينهما فحص بلاطة، وهي على جبل عال، ومنها إلى مدينة بطليوس أربع مراحل. مجهول: تاريخ الأندلس، تحقيق عبد القادر بوباية، ص99- 100/ الإدريسي: المصدر السابق، مج2، ص549-550/ الحموي: المصدر السابق، مج3، ص159/ الحميري: المصدر السابق، ص346/ مجهول: ذكر بلاد الأندلس، تحقيق وترجمة لويس مولينا، مدريد، 1983م، ج1، ص53/ المقري: نفح الطيب، مج1، ص164/ الأمير شكيب أرسلان: المرجع السابق، ج1، ص52، ص98. عن هذه الغزوة يُنظر عبد الواحد المراكشي: المصدر نفسه، ص330/ ابن عذاري: المصدر السابق، ق. الموحدين، ص160/ ابن الأثير: المصدر السابق، مج2، ص2541/ ابن خلدون: المصدر السابق، مج2، ص1920/ أبو الفدا: المصدر السابق، ج3، ص87/ ابن سماك العاملي: المصدر السابق، ص238/ ابن الخطيب: المصدر السابق، ق2، ص269.

3- ابن عذاري: المصدر نفسه، ق. الموحدين، ص155، 160.

4- ابن صاحب الصلاة: المن بالإمامة، ص138- 139.

5- رسائل موحدية- مجموعة جديدة- تحقيق ودراسة أحمد عزاوي، ج1، ر96، ص327.

6- نفسه، ج1، الرسائل: 90، 91، 92، 93، 94، صص315- 324.

السابع الهجري، وقد وصف ابن أبي زرع دولة يعقوب المنصور بقوله: "وكانت أيامه أيام دَعَة وأمن ورخاء ... فكانت الظعينة تخرج من بلاد نول لمطة حتى تصل برقة وحدَها، لا ترى من يعارضها ولا من يُكلِّمها"[1].

لم تكن مسألة الأمن والاستقرار وحدها كافية لإرساء أركان دولة بحجم الدولة الموحدية، لذلك اعتنى الخلفاء الموحدون بالعلوم والثقافة، لاسيما وأنَّ حركتهم قامت على أساس فكري عقدي وإن كانت أهدافها سياسية، فيُذكر عن عبد المؤمن إيثاره لأهل العلم وحُبِّه لهم والإحسان إليهم، يستدعيهم من البلاد ليكونوا عنده بجوار حضرته[2]، ومن ذلك أيضا جلبه الطلبة والصبيان من مختلف أنحاء الدولة، وبالخصوص الحواضر المهمَّة مثل إشبيلية وقرطبة وفاس وتلمسان حتى اجتمع إله منها نحو ثلاثة آلاف، فشرع في تعليمهم وتدريبهم لتكريس سياسة التوحيد وإنجاح مشروعه السياسي والمذهبي، فلما كمل له هذا المراد فيهم، عزل بهم أشياخ المصامدة عن ولاية الأعمال، وقد تمَّ ذلك تقريبا سنة 550هـ-1155م[3]، وإذا كان الموحدون قد أعابوا على الفقهاء في العهد المرابطي وحاربوهم، فإنَّ الاهتمام بهم في هذه الفترة لا يعدو أن يكون خدمة لمشروعهم والذي من بين أهدافه الحد من نفوذهم عن طريق تكوينهم وفق الخط والمنهج الموحدي.

الموحدون والتهجير: كنا أشرنا في الفصلين السابقين إلى سياسة التهجير التي انتهجها بعض الخلفاء والسلاطين ضد أفراد أو جماعات لأسباب سياسية وأمنية أو شخصية، ولم يشذ الموحدون عن هذه السياسة حيث تعرَّضت الكثير من الأسر لعملية التهجير، منها بني حمدون[4] وهي من الأسر التي كان لها نفوذا ودورًا في العهد الحمادي، ومن أفرادها الوزير القائد أبو محمد ميمون بن علي بن حمدون[5] صاحب القرار في دولة يحي بن العزيز، ورغم

1- ابن أبي زرع: المصدر السابق، ص217/ عبد الواحد المراكشي: المصدر السابق، ص330.

2- عبد الواحد المراكشي: المصدر نفسه، ص269/ حسن علي حسن: الحضارة الإسلامية في المغرب والأندلس، ص339.

3- ابن سماك العاملي: المصدر السابق، ص227-228/ ابن القطان: المصدر السابق، ص178-179/ عز الدين عمر موسى: الموحدون في الغرب الإسلامي تنظيماتهم ونظمهم، ص98.

4- من أفراد هذه الأسرة مطرف بن علي بن حمدون، يذكره ابن عذاري مرة بهذا الاسم، ومرة أخرى باسم مطرف بن علي بن خزرون الزناتي، ومرة بابن حمود. البيان المغرب، ج1، ص310، ص312، ص315. ومن أفراد هذه الأسرة كذلك أخاه الفقيه أبو عبد الله محمد وكانا من أوائل من وحَّد. رسائل موحدية، تحقيق ليفي بروفنسال، ص31- 32/ التجاني: رحلة التجاني، ص340/ ابن خلدون: المصدر السابق، مج2، ص1870/ ابن الأثير: المصدر السابق، مج2، ص2348/ ابن أبي دينار: المصدر السابق، ص90/ عبد الحليم عويس: المرجع السابق، ص158/ الهادي روجي إدريس: الدولة الصنهاجية- تاريخ إفريقية في عهد بني زيري- من القرن 10 إلى القرن 12م، نقله إلى العربية حمادي الساحلي، دار الغرب الإسلامي، ط1، 1992م، ص398/ رابح بونار: المرجع السابق، ص214/ محمد بن مبارك الميلي: المرجع السابق، ج2، ص250.

5- قال ابن أبي زرع: " فسار عبد المؤمن حتى نزل بجاية ففتح له بابها أبو محمد ميمون بن علي المعروف بابن حمدون: الأنيس المطرب بروض القرطاس، ص193.

توحيده وخدمته للموحدين فقد غُرِّب رفقة أخيه الفقيه أبو عبد الله محمد من بجاية إلى مدينة سلا[1] لاتهامهما بالدخول في أمر بني غانية[2]، ومن الأسر التي تعرَّضت لنفس المصير بني القائد، ورغم أنها أسرة مغمورة فيبدو أنهم خدموا الموحدين وتولوا مناصب لديهم، فقد قُتل ابني القائد بن حملة وحُمِل على من تبقى منهم ومن ذويهم وأصهارهم، وأُجبِروا على بيع أملاكهم وديارهم بثمن بخس وخرجوا على وجوههم حيث استقروا بمدينة سلا[3]، إلا أنه يُجهل سبب نكبتهم وهجرتهم ويُحتمل أنَّ لذلك علاقة بغزو بني غانية لبجاية، والملفِت هنا أنَّ الموحدين كانوا شديدي الحذر في علاقتهم مع رعاياهم من بعض الأفراد والقبائل بسبب الثورات والتمردات، فنتج عن ذلك التهجير والتغريب والنفي.

إنَّ ظاهرة الجلاء التي سادت في العصور الوسطى تُعدُّ من بين أهم أشكال الهجرة والتي عبَّر عنها ابن الخطيب بمقولة "الجلاء عادة فلول الدول وصرع الغلبات"[4]، وغالبًا ما يكون ذلك عند سقوط مدينة أو انهيار حكم أمام قيام دولة جديدة بحيث يرفض بعض الأفراد أو القبائل الخضوع لسلطان هذه الدولة، وقد رأينا بعض الأمثلة على ذلك في الفصل

1- ابن أبي زرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس، ص193/ ابن عذاري: المصدر السابق، ج1، ص310. ق. الموحدين، ص46، ص181/ ابن سماك: المصدر السابق، ص226/ ابن خلدون: المصدر السابق، مج2، ص1922/ ابن الأثير: المصدر السابق، مج2، ص2402/ محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس عصري المرابطين والموحدين، ص282.

2- بنو غانية: ظهر يحي ومحمد ابني علي وهما من قبيلة مسوفة ويُنسبان إلى أمهما غانية، في عهد علي بن يوسف بن تاشفين، تولى يحي وهو أكبرهما مدينة بلنسية ثم قرطبة إلى أن توفي في فتنة الموحدين، فاضطرب أمر أخيه محمد وبقي يجول في بلاد الأندلس، ثم عبر من دانية إلى جزيرة ميورقة في حشمه وأهل بيته فملكها وضمَّ إليه جزيرتي منورقة ويابسة، ويُقال إنَّ علي بن يوسف نفاه إليها على سبيل السجن. استقلَّ محمد بمملكة هذه الجزر وضبطها لنفسه، وأقام فيها جاريا على أمر لمتونة، وكان له من الولد: عبد الله وإسحاق والزبير وطلحة. عهد محمد بالأمر لأكبر ولده عبد الله، فحسده أخوه إسحاق وقتله واستقلَّ بالملك وهناك التحقَ به فلُّ لمتونة وأقبلوا جميعا على غزو بلاد الروم حتى امتلأت أيديهم أموالا وقوي أمره إلى أن استشهد في إحدى الغزوات ببلاد الروم سنة 580هـ- 1184م، فقام بالأمر بعده أكبر بنيه علي بن إسحاق وهو الذي قصد غزو بجاية ثم قُتِل في إحدى المعارك أمام الموحدين سنة 584هـ-1188م، فتولى بعده أخوه يحي بن إسحاق وكان معه إخوته عبد الله وأبو بكر وسير حيث لحقوا بالصحراء فكانوا بها مع العرب، ثم رجع عبد الله إلى جزيرة ميورقة فوجد أخاه محمد قد دعا للموحدين فأخرجه منها وضبط الجزيرة إلى أن دخلها عليه الموحدون سنة 600هـ-1204م. ولم يزل أمر يحي بإفريقية ينبه تارة ويخمل أخرى، وظلَّ الموحدون يطاردونه بين المغرب الأوسط وإفريقية إلى غاية وفاته سنة 631هـ- 1233م أو 633هـ- 1255م حيث دُفن قبلة مدينة الأربس وقيل بجهة مليانة، والحقيقة أنَّ هذه الثورة لم تجلب إلا الخراب والتشتت لمدن وسكان إفريقية والمغرب الأوسط. عبد الواحد المراكشي: المصدر السابق، ص342 وما بعدها/ ابن عذاري: المصدر السابق، ق. الموحدين، ص175 وما بعدها/ ابن خلدون: المصدر السابق، مج2، ص1887، ص1893/ التجاني: رحلة التجاني، ص103/ النويري: المصدر السابق، ص435- 436/ ابن الأثير: المصدر نفسه، مج2، ص2542/ ابن أبي زرع: المصدر نفسه، ص218- 219، 233/ ابن أبي دينار: المصدر نفسه، ص114- 115/ تاريخ إفريقيا العام - إفريقيا من القرن الثاني عشر إلى القرن السادس عشر - إشراف ج. ت. نياني، منظمة اليونسكو، باريس، 1988م، مج4، صص62- 66، 68.

3- ابن عذاري: المصدر نفسه، ق. الموحدين، ص181-182.

4- ابن الخطيب السلماني: رقم الحلل في نظم الدول، ص75.

السابق، وهو ما حدث أيضا للدولة الحمادية والتي كان من ضحاياها يحي بن العزيز[1] آخر أمراء بني حماد (515-547هـ/ 1121-1152م).

3- هجرة قبائل زناتة للرباط والجهاد في الأندلس: إذا اختصت الأندلس خلال القرون الأربع الأولى باستقبال البربر لأسباب سياسية في غالب الأحيان، فإنَّ الفترة الموالية وبالأخص القرن السادس الهجري شهدت فيها الأندلس موجة جديدة من المهاجرين العرب والبربر الذين نقلهم الموحدون للجهاد هناك، والحقيقة أنَّ الجهاد لم يكن سُنَّة الموحدين وإنما تواصل بمجاورة المسلمين للنصارى حتى أصبحت الأندلس كما يقول ابن خلدون ثغرا للمسلمين فيه جهادهم ورباطهم ومدارج شهادتهم ويظهر أنَّ عبد المؤمن بن علي قد أدرك ذلك الخطر الذي سيظل يتهدَّدُ المنطقة وهو ربما الخطأ الذي وقع فيه المرابطون عندما فضَّلوا البقاء في المغرب والاكتفاء ببعث الحملات العسكرية إلى الأندلس متى دعَتْ الحاجة إلى ذلك، وعليه كان حريصا على تأمينها عن طريق قوة عسكرية قارة ومستعدَّة لأي هجوم مسيحي حتى أنه شجَّع سكنى بعض مدن الأندلس مثل غرناطة لاسيما بعد فتحها سنة 557هـ-1162م[2].

يُمكن ملاحظة سياسة الموحدين هذه خلال المرحلة الأولى من عمر الدولة والتي تُمثِّل مرحلة الفتح والقوة حيث كان اتجاه الهجرة من بلاد المغرب إلى الأندلس إما بهدف الجهاد وحماية البلاد كما ذكرنا أو لأهداف أخرى، ولذلك نجد مثلا عبد الواحد المراكشي يخصص في كتابه جانبا لهذا الموضوع بعنوان: " منازل العرب الهلالية في المغرب والأندلس "[3] وهو ما تطرَّق إليه قبله ابن حزم عندما ذكر بيوتات البربر بالأندلس[4]، إلاَّ أنَّ فترة الضعف التي آلت إليها الدولة الموحدية مع مطلع القرن السابع الهجري ستعرف هجرة معاكسة، أي من الأندلس إلى بلاد المغرب.

1- لما استولى الموحدون على بجاية نزل يحي عند أخيه الحارث والي بونة فأساء استقباله وعنَّفه ونكر عليه صنيعه، فارتحل عند أخيه الحسن بقسنطينة وهناك استسلم للموحدين فنقله عبد المؤمن رفقه عائلته وخاصته من الخدم وأسكنه مراكش ثم سلا التي توفي بها سنة 558هـ. أما أخوه الحارث فقد استنجد بالنورمان الذين أمدوه بأسطول قاده فليب المهدوي فافتتحوها، ومكث الحارث ببونة إلى أن استولى عليها الموحدون سنة 551هـ- 1156م فقتلوه صبرا. ابن خلدون: المصدر السابق، مج2، ص1880، ص1916/ ابن سماك: المصدر السابق، ص226/ ابن أبي زرع: المصدر السابق، ص194/ عبد الواحد المراكشي: المصدر السابق، ص275/ التجاني: المصدر السابق، ص344/ ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ق3، ص100/ النويري: المصدر السابق، ص415/ ابن الأثير: المصدر السابق، مج2، ص2402/ ابن أبي دينار: المصدر السابق، ص111/ عبد الحليم عويس: المرجع السابق، ص197- 198/ مبارك بن محمد الميلي: المرجع السابق، ج2، ص268/ رابح بونار: المرجع السابق، ص214/ السلاوي: المرجع السابق، ج2، ص108.

2- ابن صاحب الصلاة: المن بالإمامة، ص138/ ابن الأثير: المصدر السابق، مج2، ص2452. وذلك بعد استرجاعها من يد ابن هَمُشْكُ وصهره ابن مردنيش.

3- المعجب في تلخيص أخبار المغرب، ص293.

4- جمهرة أنساب العرب، ص498.

معركة الأرك: تُعدَّ وقعة الأرك[1]- ALARCOS- من أشهر المعارك الإسلامية في الأندلس ضد المسيحيين، ولعلها الثانية بعد وقعة الزلاقة أيام المرابطين، وقد شارك في هذه المعركة كثير من قبائل زناتة المغرب الأوسط[2]، مغراوة تحت زعامة منديل بن عبد الرحمن، بنو عبد الواد بقيادة جابر بن يوسف، وبنو توجين برئاسة العباس بن عطية، ولذلك يصف العمري جند الأندلس بأنَّ أكثرهم من بر العدوة من بني مرين وعبد الواد وغيرهم[3]، ويظهر أنهم استقروا بالأندلس لحاجة الموحدين إليهم بسبب الخطر الصليبي الذي ظلَّ يُهددهم هناك وهو ما يصوِّره العمري دائما بقوله: " وبينهم وبين الإفرنج حروب ووقائع جمة في كل سنة إلا أن يكون صلح إلى أمد "[4]، لكن هجرة قبائل المغرب الأوسط إلى الأندلس قد توقفت أو تراجعت بسبب ما آلت إليه أوضاع الدولة الموحدية من ضعف وتكالب النصارى واستيلائهم على كثير من مدن الأندلس ولاسيما بعد هزيمة العقاب.

4- بنو مرين: اختلفت القبائل البربرية من حيث النضج والطموح السياسي، ففي الوقت الذي أقام فيه بعضها ملكا حضريا مثل صنهاجة أو بدويا مثل مغراوة، فضَّل بعضها حياة الترحال والعزلة السياسية بعيدا عن الصراعات وذلك إما لرسوخ عادة البداوة فيها كما يقول

1- الأرك: حصن منيع بمقربة من قلعة رباح نواحي بطليوس شمالي قرطبة، كانت عنده المعركة المشهورة بين جيش الموحدين ضد جيش ألفنش (الهنشة) وهو ألفونسو الثاني ملك قشتالة، وذلك يوم الأربعاء 9 شعبان 591هـ/ 19 جويلية 1195م بمكان يُعرَف بمرج الحديد، وقد ذَكرَت المصادر سببين لها، الأول وهو أنَّ طائفة من الفرنج لم ترض بالصلح الذي عقده المنصور معهم سنة 586هـ- 1190م، فلما كانت هذه السنة جمعت تلك الطائفة جموعا وخرجوا إلى بلاد الإسلام فقتلوا وسبوا وغنموا وأسروا، فامتعض من ذلك المنصور وتحرَّك من حاضرته مراكش إلى الأندلس، أما السبب الثاني فهو كتاب التبجُّح والسخرية الذي بعثه الفنش إلى المنصور، ويبدو أنَّ هذا الكتاب كان في عهد المرابطين عندما راسل أذفنش (ألفونسو السادس) ملك ليون، الأمير يوسف بن تاشفين، إلا إذا أعاد الأول كتابته بنفس الصيغة، أما ابن خلدون فجاء نصه غامضا في هذه الحادثة إذ يقول: " فبلغه من أمر الأندلس ما أهمَّه ". وكعادة المصادر في المعارك فقد اختلفت في عدد الجيشين وقتلى الطرفين، فيقدِّر البعض عدد النصارى بأكثر من ثلاثمائة ألف بينما تسكت عن عدد جيش المسلمين، أما قتلى العدو فبلغت ستة وأربعين ألفا ومائة ألف، بينما تقدِّره مصادر أخرى بثلاثين ألف واستشهد من المسلمين دون الخمسمائة ويبدو أنه الأقرب إلى الصواب، و تذكر أخرى أنَّ من قُتِل من الكفرة ألوف لا تُعدُّ ولا تُحصى. لمزيد من المعلومات يُنظر ابن خلدون: المصدر السابق، مج1، ص1169، مج2، ص1922-1923/ ابن الأثير: المصدر السابق، مج2، ص2606/ ابن أبي زرع: الأنيس المطرب، صص220-228/ الحميري: المصدر السابق، ص27/ ابن سماك العاملي: المصدر السابق، ص97، ص241/ ابن عذاري: البيان المغرب، ق. الموحدين صص217-221/ النويري: المصدر السابق، ص437/ عبد الواحد المراكشي: المصدر السابق، ص358/ ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ق2، ص269/ ابن العبري: تاريخ مختصر الدول، صححه ووضع فهرسته أنطون صالحاني اليسوعي، دار الرائد اللبناني، ط2، 1994م-1415هـ، ص390/ ابن الخطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة، مج1، ص383/ أبو الفدا: المختصر في أخبار البشر، ج3، ص114/ المقري: نفح الطيب، ج6، ص150/ حسين مؤنس: معالم تاريخ المغرب والأندلس، ص438- 439/ محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس – عصر الموحدين – ج5، ص197 وما بعدها.

2- السلاوي: المرجع السابق، ج2، ص168.

3- العمري: المصدر السابق، س4، ص231/ ابن خلدون: المصدر السابق، مج2، ص2192، مج1، ص1169، ص1180.

4- العمري: المصدر نفسه، س4، ص231.

ابن خلدون أو لضعف العصبية وبالتالي فضَّلت الهروب على الخضوع لسلطان الدول كما ذكرنا ذلك غير ما مرة، وهو ما حدث لبعض قبائل بني واسين، إذ انضمَّ بنو عبد الواد إلى الموحدين فيما أبعد بنو مرين النجعة إلى الصحراء التي وجدوا فيها الأمن والحرية من حكم بني عبد المؤمن.

كانت مواطن بني مرين بصحراء إفريقية وبلاد الزاب، ثم زحفوا غربا مع من انضمَّ إليهم مثل قبيلة بني وطاس (صنهاجيين) وبني علي وذلك أمام ضغط القبائل العربية فانبسطوا في صحراء المغرب الأوسط ما بين نهر ملوية وأرض الزاب[1] بعيدا عن الأرياف والتلول التي كانت تسيطر عليها قبائل زناتة الأخرى مثل بنو يلومي وبنو ومانو[2]، ويمكن اعتبار هذه الحركة المرحلة الأولى من هجرة بني مرين إلى المغرب الأقصى، ولما انهزموا أمام الموحدين وحلفائهم بني عبد الواد وبني توجين شعروا بالضعف والعزلة ما جعلهم يلجأون إلى القفر[3]، لاسيما بعد أن تحصَّل بنو عمومتهم على مكاسب عندما ولاهم الموحدون هضبة الشطوط وتلولها.

توتَّرت العلاقات بين بني مرين وبني عبد الواد في ظل تلك التطورات السياسية، والتي يعزوها ابن خلدون إلى جوار الموطن، ولذلك لم يجد بنو مرين بُدًّا من مغادرة موطنهم بالمغرب الأوسط أمام تحالف باقي قبائل بني واسين[4] (بنو عبد الواد، بنو توجين، بنو زردال، بنو راشد).

دخول بنو مرين إلى المغرب الأقصى: ظلَّ بنو مرين يترددون بمواطنهم بين المغربين إلى مطلع القرن السادس الهجري، يصعدون أحيانا إلى التل ثم يعودون إلى الصحراء، وقد تحالفوا مع ابن غانية عند زحفه على تلمسان[5] سنة 605هـ-1208م، إلى أن كانت وقعة حصن العقاب التي انهزم فيها الموحدون أمام تحالف الممالك المسيحية سنة 609هـ-1212م وهو ما فتح الباب أمام هذه القبائل لولوج المغرب الأقصى، والحقيقة أنَّ عملية الدخول هذه

1- ابن خلدون: المصدر السابق، مج2، ص2103، 2176/ ابن أبي زرع: الذخيرة السنية، ص21-20. الأنيس المطرب، ص281/ الإدريسي: المصدر السابق، مج1، ص256/ ابن مرزوق: المصدر السابق، ص110/ ابن سماك العاملي: المصدر السابق، ص284/ إبراهيم حركات: المرجع السابق، ج2، ص11- 12/ جورج مارسيي: المرجع السابق، ص317/ عبد الوهاب بن منصور: المرجع السابق، ص128/ عز الدين أحمد موسى: النشاط الاقتصادي في الغرب الإسلامي خلال القرن السادس الهجري، ص73.

2- ابن خلدون: المصدر نفسه، مج2، ص2102-2103.

3- نفسه، مج2، ص2176 وما بعدها/ ابن سماك العاملي: المصدر السابق، ص265، ص283/ ابن أبي زرع: المصدر نفسه، ص25. الأنيس المطرب، ص281/ ابن مرزوق: المصدر نفسه، ص110/ شارل أندري جوليان: المرجع السابق، ج2، ص212.

4- ابن خلدون: المصدر نفسه، مج2، ص2103، 2117، 2176.

5- نفسه، مج2، ص1925/ ابن عذاري: المصدر السابق، ق. الموحدين، ص252.

لم ترتبط بالهزيمة العسكرية التي لحقت بالموحدين فقط، بل تضافرت في ذلك عدة عوامل يُمكن أن نلخِّصها في ما يلي:

* اضطراب الأوضاع الداخلية للموحدين بعد الهزيمة في الأندلس، حيث تُجمع المصادر على تراجع دولتهم بعد محمد الناصر (595- 609هـ/1199- 1212م) وتولي ابنه يوسف المستنتصر بالله (609- 620هـ/1212- 1224م) الذي يصف ابن أبي زرع فترة حكمه بقوله: " وكانت أوامره لا تُمتَثل، وكل من ولي بلدا عمل فيه برأيه واستبدَّ فيه بأمره فضعفت دولة الموحدين في أيامه واعتراها النقص وأخذت في الإدبار "[1]. وقد اطَّلع المرينيون على الأوضاع السيئة التي كان يمر بها الموحدون من خلال دخولهم إلى المغرب الأقصى للرعي والميرة، وهو ما شجعهم على حربهم وامتلاك بلدهم.

* الجدب والمجاعة التي عانت منها قبائل بني مرين في الصحراء منذ أواسط القرن السادس ومنها المجاعة التي دامت من سنة 614هـ إلى سنة 616هـ/1217-1219م[2] والتي دفعتهم أمام تزايد عددهم إلى الانسياح في الأرض بحثا عن أرض خصبة لهم ولماشيتهم.

* ذكر صاحب الذخيرة السنية أنّه في سنة 601هـ-1204م حدثت بينهم وبين بني عبد الواد وبني واسين حربا بسبب امرأة فافترقوا من تلك السنة وقصدت مرين نحو المغرب[3]، وهذه الحوادث كانت معروفة بين القبائل ومن أمثلة ذلك ما حدث بين وجديجن ولواتة[4].

* لم ينس بنو مرين هزيمتهم أمام عبد المؤمن بن علي وبخاصة بعد أن ضربوهم بإخوانهم بني عبد الواد، وهو ما جعلهم يتحينون الفرصة للثأر من المصامدة.

لما كان وضع الموحدين على هذه الحال شرع بنو مرين في الدخول إلى المغرب الأقصى الذي يصفه ابن أبي زرع بقوله: " فوجدوا المغرب خاليا قد باد أهله ورجاله وفني خيله وحماته وأبطاله، وقُتلت قبائله وأقياله، قد أستُشهِدَ الجميع في غزاة العقاب فأقفرت بلادهم، فأقاموا بمكانهم وبعثوا البربر إلى إخوانهم يخبرونهم بحال البلاد وخلائها وخصبها

1- ابن أبي زرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس، ص242/ ابن عذاري: المصدر السابق، ق. الموحدين، ص265/ ابن الخطيب: رقم الحلل في نظم الدول، ص60/ الزركشي: المصدر السابق، ص19/ ابن أبي دينار: المصدر السابق، ص119/ محمد العروسي المطوي: السلطنة الحفصية تاريخها السياسي ودورها في المغرب الإسلامي، دار الغرب الإسلامي، 1406هـ- 1986م، ص94.

2- ابن عذاري: المصدر نفسه، ق. الموحدين، ص266-267/ ابن أبي زرع: الأنيس المطرب، ص187/ الذخيرة السنية، ص36-37، ص54/ إبراهيم حركات: المرجع السابق، ج2، ص12-13.

3- ابن أبي زرع: الذخيرة السنية، ص25-26.

4- سبب هذا النزاع، أنَّ امرأة من وجديجن نُكحَت في لواتة فعيَّرنها نساء هذه الأخيرة بالفقر فكتبت بذلك إلى زعيم قومها وهو ما أدى إلى حرب شاركت فيها العديد من القبائل على سبيل العصبية، أدت إلى إجلاء لواتة عن بعض مواطنها. ابن خلدون: المصدر السابق، مج2، ص1844، ص2095.

ونقاء هوائها وسعة مسارحها، ومراعيها ويأمرونهم بالمسير إليها والقدوم عليها فليس ثم من يصدهم عنها، فشدوا رحالهم وأقبلوا إلى المغرب مسرعين"[1]، وذلك سنة 610هـ- 1213م.

دخل بنو مرين في مواجهات عسكرية ضد الموحدين مستغلين ظروفهم السيِّئة وانشغالهم بالثورات فكانوا خلالها يتقدمون شيئا فشيئا إلى أن كانت سنة 613هـ- 1216م أين جرت أوَّل مواجهة عسكرية بوادي نكور المعروفة بـ (عام المشغلة) تمكّن فيها المرينيون من السيطرة على مواقع مهمة[2].

واصلَ بنو مرين حروبهم ضدَّ الموحدين خلال فترة الخلفاء الثلاثة الأواخر، ومما شجَّعهم على ذلك استقلال بني حفص وبني عبد الواد، وقد كان النصر حليفهم في أكثرها استولوا خلالها على مدينة فاس سنة 647هـ- 1249م[3]، ولمَّا تَوَلَّى أمرهم أبو يوسف يعقوب بن عبد الحق (656- 685هـ/ 1258- 1286م) تمكّن من فتح كثير من المدن كرباط تازا ومكناسة وسلا[4]، وهو ما يُمكن اعتباره الخطوة الأولى نحو تأسيس الدولة، استطاع بعدها بنو مرين من إلحاق الهزيمة بجيش المرتضى الموحدي (646- 665هـ/ 1249- 1266م) في موقعة أم الرجلين[5] على وادي أم الربيع سنة 660هـ-1262م، ثم زحفوا نحو مدينة مراكش فدخلوها سنة 668هـ- 1269م وبذلك استقرَّ بنو مرين بصفة نهائية في المغرب الأقصى مؤسسين ثاني دولة زناتية بعد دولة بني عبد الواد.

بقيت بعض عشائر بني مرين في مواطنها بالمغرب الأوسط، وقد ذكر ابن مرزوق أنَّ بقاياهم كانت لا تزال تقيم ببلاد الزاب وأوراس[6]، وقد يعود ذلك إلى ضعفهم ويذكر كاريت (E.CARETTE) كذلك أنه توجد بالقرب من واركلا بلدة يسكنها شعب يسمى أولاد

1- ابن أبي زرع: الذخيرة السنية، ص26/ ابن خلدون: المصدر السابق، مج2، ص2177/ ابن مرزوق: المسند الصحيح الحسن، ص110/ E. CARETTE : op cit, p206.

2- ابن خلدون: المصدر نفسه، مج2، ص2177/ ابن أبي زرع: الذخيرة السنية، ص27- 28. الأنيس المطرب، ص284/ ابن عذاري: المصدر السابق، ق. الموحدين، ص266/ عبد الوهاب بن منصور: المرجع السابق، ص129/ إبراهيم حركات: المرجع السابق، ج2، ص13.

3- ابن خلدون: المصدر نفسه، مج2، ص1933/ ابن مرزوق: المصدر نفسه، ص113/ ابن عذاري: المصدر نفسه، ق. الموحدين، ص396.

4- ابن خلدون: المصدر نفسه، مج2، ص2183/ ابن أبي زرع: الذخيرة السنية، ص84/ ابن عذاري: المصدر نفسه، ق. الموحدين، ص415/ ابن غازي: المصدر السابق، ص86- 87/ إبراهيم حركات: المرجع نفسه، ص17/ جورج مارسي: بلاد المغرب الإسلامي وعلاقاتها بالمشرق، ص318.

5- ابن خلدون: المصدر نفسه، مج2، ص2185، ص2187/ ابن أبي زرع: الذخيرة السنية، ص95/ ابن عذاري: المصدر نفسه، ق. الموحدين، ص389.

6- ابن مرزوق: المصدر نفسه، ص110/ ابن عذاري: المصدر نفسه، ص427.

المريني[1]، وتُنسِب بعض المراجع إلى هؤلاء إمارة بني جلاب[2] التي تأسَّست بتقرت وتماسين خلال القرن الثامن الهجري واستمرت إلى منتصف القرن العاشر الهجري بدخول الأتراك إلى المنطقة.

هجرة القبائل البربرية في العهد الزياني:

- صراع السلطة ودوره في الهجرة: تعددت قبائل بني عبد الواد، إلا أنَّ الصراع انحصر في بيتين منهم وهما بنو طاع الله وبنو كمي ابني علي بن يمل بن يزجن بن القاسم، إخوتهم بنو دلول وبنو معطي وزاد التنسي بنو مطهر ووعزان، ونصاب الرئاسة في هذه البطون في بني طاع الله بن محمد بن زكدان بن تيدوكسن بن طاع الله[3]، ولذلك فإنَّ النزاع حول الزعامة كثيرًا ما يكون على أشده بين بطون القبيلة الواحدة والذي عادة ما ينتهي بجلاء المنهزمة منها إلى مكان آخر.

1- هجرة قبائل بني عبد الواد:

أ- هجرة بني كمي: تعود بداية الصراع بين هذين الحيين عندما قتل كندوز بن عبد الله كبير بني كمي زيان بن ثابت كبير بني محمد بن زكدان من بني طاع الله، عندها ثأر له ابن عمه جابر بن يوسف بن محمد بقتل كندوز في بعض الحروب وقيل قتله غيلة، عندها فرَّ بنو كمي بقيادة شيخهم عبد الله بن كندوز إلى تونس ونزلوا على الأمير الحفصي أبي زكريا ثم ارتحلوا إلى المغرب الأقصى عند يعقوب بن عبد الحق فأنزلهم بجهات مراكش فالتحموا

1- E.CARRETTE : op cit, p207.

2- مؤسِّس هذه الإمارة هو أحمد بن جلاب الذي يقال إنه قدم من فاس حاجا، استقرَّ بتقرت فولاه سكانها أمرهم، وقد شمل حكمه عدة مدن وقرى منها النزلة وتيبسبست وتماسين، وبعد وفاته توارث أبناؤه هذه الإمارة، إلا أنَّ هناك اختلاف في تاريخ تأسيسها، فتذكر بعض المراجع تاريخ 735هـ- 1335م، وبعضها سنة 937هـ- 1531، في حين لا يذكر ابن خلدون هذه الإمارة خلال القرن الثامن الهجري، فعندما يتكلم عن رئاسة مدينة تقرت يقول: " كانت في بيت بني يوسف بن عبيد الله وهم من ريغة ويقال من سنجاس "، فهل ينفي ذلك وجودها، أم أنه تغاضى عن ذكرها. ابن خلدون: المصدر السابق، مج2، ص2093/ لمزيد من التوضيح، يُنظر العياشي: الرحلة العياشية، مج1، ص119- 120، ص122/ العدواني: تاريخ العدواني، تقديم وتحقيق وتعليق أبو القاسم سعد الله، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط2، 2005م، ص140- 141/ مارمول كربخال: المصدر السابق، ج3، ص165/ رحلة الحاج بن الدين الأغواطي، أوردها أبو القاسم سعد الله في كتابه أبحاث وأراء في تاريخ الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1986م، ج2، ص264/ عبد القادر موهوبي السائحي: المرجع السابق، صص56- 63/ إبراهيم الساسي العوامر: الصروف في تاريخ الصحراء وسوف، تعليق الجيلاني بن إبراهيم العوامر، منشورات ثالة، الجزائر، 2007م، ص266/ محمد الصالح بن العنتري: فريدة منيسة في حال دخول الترك بلد قسنطينة واستيلائهم على أوطانها أو تاريخ قسنطينة، مراجعة وتقديم وتعليق يحي بوعزيز، دار البصائر، الجزائر، 2008م، ص62.

3- عن بطون بني عبد الواد وشعوبهم ونسبهم يُنظر التنسي: المصدر السابق، ص109- 110، وتعليق المحقق، ص63 وما بعدها/ يحي بن خلدون: بغية الرواد، ج1، ص189- 190، ص204- 205/ عبد الرحمن بن خلدون: المصدر السابق، مج2، ص2109.

مع بني مرين وأصبحوا إحدى بطونهم[1]، وقد استعملهم هذا الأخير في بعض المهمات[2]، ثم آلت رئاستهم بعد عبد الله لابنه عمر.

استقر بنو كندوز في المغرب الأقصى إلى أنْ حاصر يوسف بن يعقوب بن عبد الحق تلمسان الحصار الطويل سنة 698هـ-1298م عندها أخذتهم الحمية فخرجوا على السلطان ولحقوا بحاحة[3] سنة 703هـ- 1303م واستولوا على بلاد السوس فخرج إليهم يعيش بن يعقوب أخ السلطان سنة 704هـ- 1304م فهزمهم وقتل عمر بن عبد الله بن كندوز وجماعة من كبرائهم فالتحقوا بتلمسان، ثم عادوا إلى مراكش وكان شيخهم محمد بن أبي بكر بن حمامة بن كندوز وراجعوا طاعة ملوك المغرب، ثم تزعَّمهم عمر بن محمد بن عبد الله ثم موسى بن محمد ثم ابنه يعقوب بن موسى حيث خدموا السلطان أبي الحسن، وكانوا ضمن جيشه قي وقعة القيروان سنة 748هـ- 1347م التي قُتِل فيها يعقوب، عندها لحق أخوه رحو وقومه بالمغرب الأقصى[4] فخدموا السلطان أبي عنان الذي استعمل عليهم عبو بن يوسف بن محمد ثم ابنه محمد بن عبو.

ب- تهجير بني مكن: استمرَّ صراع الزعامة في بيت بني زكدان بن تيدوكسن بن طاع الله وذلك في عهد يغمراسن بن زيان عندما برز يحي بن مكن بن محمد بن زكدان وابنه الزعيم الأمر الذي جعل يغمراسن ينتابه القلق خوفًا من منافستهما له فغرَّبهما إلى الأندلس، ولم تُشِر المصادر إلى تاريخ ذلك ولا المدة التي مكثوها هناك، وتبدو أنّها مدة قصيرة، عادا بعدها سنة 680هـ- 1281م في حملة يعقوب بن عبد الحق إلى تلمسان، فاستعمل يغمراسن منهما الزعيم بن يحي على ثغر مستغانم، لكنه سرعان ما خالف عليه ومالأ عدوه مغراوة فحاصره يغمراسن إلى أن لاذ منه بالسلم على الإجازة إلى الأندلس ثم لحق به أبوه يحي واستقرا هناك فتوفي يحي سنة 692هـ- 1293م وظل ابنه متغرِّبا إلى أن توفي[5].

1- ابن خلدون: المصدر السابق، مج2، ص2165-2166، 2110، 2224.

2- عبد الله بن كندوز: بعثه يعقوب بن عبد الحق في سفارة رفقة ابن أخيه عبد المؤمن بن إدريس بن عبد الحق والفقيه الكاتب أبو عبد الله الكناني إلى أبي عبد الله محمد بن أبي زكريا المستنصر بالله سنة 665هـ- 1266م. ابن أبي زرع: الذخيرة السنية، ص114.

3- حاحا: أحد الأقاليم السبع لمملكة مراكش (دكالة ـ تادلا ـ هسكورة ـ مراكش ـ حاحا ـ سوس ـ جزولة) يقع هذا الإقليم أقصى غرب إقليم مراكش، وهو عامر بالسكان، يحده من الغرب والشمال المحيط ومن الجنوب جبال الأطلس الكبير (بها قمة توبقال) المتاخمة لإقليم سوس ومن الشرق نهر أسيف الذي يفصله عن إقليم مراكش، ثم يلتقي نهر أسيف بنهر تنسيفت الذي يفصله عن إقليم دكالة، يتميز إقليم حاحا بوعورته وكثرة جباله وغاباته، ومن أهم مدنه: تَدنِستْ ومعظم سكانها يهود، تكوليت وغيرها. الحسن الوزان: المصدر السابق، ج1، ص95 وما بعدها/ مارمول كاربخال: المصدر السابق، ج2، ص5 وما بعدها.

4- ابن خلدون: المصدر نفسه، مج2، ص2165- 2167، 2223- 2224، 2310.

5- نفسه، مج2، ص2120- 2121.

ج- تهجير بني يغمراسن: لم يتوقف صراع السلطة بين فروع قبائل بني عبد الواد، بل امتدَّ إلى أسرة يغمراسن ذاتها، وكانت دائما الوجهة المفضَّلة هي الأندلس للتخلص من المنافسين، فقد أجاز أبو سعيد عثمان بن يغمراسن (681- 703هـ/ 1283- 1303م) ابن أخيه عبد الرحمن[1] بن يحي بن يغمراسن المرة الأولى سنة 694هـ- 1294م، ثم عاد إلى تلمسان سنة 712هـ- 1313م، فلما بصر به ابن عمه أبو حمو موسى الأول (707- 718هـ/ 1308- 1318م) لم يأمن على ملكه منه فأجازه البحر ثانية إلى الأندلس سنة 713هـ- 1313م فاستقرَّ بغرناطة إلى أن استشهد في واقعة وادي فرتونة[2] ضد النصارى سنة 716هـ- 1316م، ونفس الإجراء سيقوم به السلطان أبو تاشفين عبد الرحمن حيث أشخص سائر القرابة الذين كانوا بتلمسان من ولد يغمراسن وأجازهم إلى العدوة حذرا من مغبة ترشيحهم، وما يُتوقع من الفتن على الدولة[3].

السلطة الزيانية والقبائل: عاشت الدولة الزيانية أوضاعا داخلية مضطربة معظم فترات تاريخها ولاسيما بعد وفاة أول سلاطينها يغمراسن نتيجة حروبها ضد باقي قبائل بني واسين أو ضد العرب وقبائل مغراوة وذلك إما بسبب تدخل جارتيها بنو مرين وبنو حفص، أو رغبة من هذه القبائل في الاستقلال، وهو ما أدى إلى هجرة جماعية وفردية إما نحو المغرب الأقصى أو الأندلس.

2- هجرة مغراوة (بنو منديل): بقي الكثير من مغراوة بمركزهم الأول بوطن شلف وما إليه، فكان به بنو ورسيفان وبنو ورتزمان وبنو إيليت وبنو بوسعيد[4]، ولما انقرض ملك بني خزرون من طرابلس مع أواخر النصف الأول من القرن السادس الهجري، لحق منهم عبد الصمد بن محمد بن خزرون بقومه مغراوة، فأصهر إليهم فأنكحوه وكُثر ولده وعُرفوا ببني محمد، كما أصهر إليه بعض ولد ماخوخ ملوك بني ومانو بابنته فكان له منها من الولد عبد الرحمن، ولما ظهر الموحدون انحاش إليهم واعتزَّ في قومه خاصة بعد الثروة التي اكتسبها من بعض السادة الموحدين الذي خلّف له الظهر والذخيرة[5].

1- يحي بن خلدون: المصدر السابق، ج2، ص42. وصفه بمُحسَد آل بيته.

2- وادي فرتونة: من أحواز وادي آش قرب غرناطة، وقعت عنده معركة بين جيش النصارى بقيادة بطرة (DON PEDRO) وحليفهم نصر بن محمد الذي انتزى بوادي آش، وبين أبي الوليد فرج بن نصر، كانت فيه الهزيمة على المسلمين حيث استلحِم منهم سبعمائة فارس. ابن الخطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة، ج1، ص389. أعمال الأعلام، ق2، ص294/ يحي بن خلدون: نفسه، ج2، ص44/ عبد الرحمن بن خلدون: المصدر السابق، مج2، ص2141. ذكر أنه هلك في مرابطته بثغر قرمونة في بعض أيام الجهاد، والصحيح فرتونة/ شكيب أرسلان: الحلل السندسية، ج2، ص330.

3- ابن خلدون: المصدر نفسه، مج2، ص2134.

4- نفسه، مج2، ص2103.

5- نفسه، مج2، ص2104.

استغلَّ منديل بن عبد الرحمن الظروف الداخلية للدولة الموحدية فملك جبل وانشريس والمدية واختطّ قصبة مرات، ولما غزا يحي بن غانية المغرب الأوسط خرج إليه مدافعا عن متيجة فكانت الدبرة عليه حيث قُتِل هناك سنة 622هـ- 1225م فتولى أمر قومه ابنه العباس بن منديل (ت647هـ- 1249م) ثم أخوه محمد بن منديل إلى أن قتله أخواه ثابت وعايد سنة 662هـ- 1264م، عندها اتّصل أخوهم عمر بيغمراسن ومكّنه من مليانة سنة 668هـ- 1269م مقابل رئاسة قومه، وهو ما جعل أخواه ثابت وعائد يزدلفان إلى يغمراسن نكاية في عمر فمكّناه من تنس سنة 672هـ- 1273م مقابل اثني عشر ألفا من الذهب[1].

ظلت العلاقات بين مغراوة والدولة الزيانية تتراوح بين السلم والحرب، ففي سنة 681هـ- 1282م غزا يغمراسن بني منديل وأخذ منهم مدينة تنس ، ثم غزاهم ابنه عثمان بن يغمراسن سنة 693هـ- 1294م واستولى على أمصارهم[2]، عندها لحق ثابت بن منديل بالمغرب الأقصى ونزل على يوسف بن يعقوب إلى أن هلك سنة 694هـ- 1295م.

لما تحرَّك يوسف بن يعقوب لحصار تلمسان عقد لعمر بن ويغرن بن منديل على مليانة وتنس ومازونة سنة 699هـ- 1299م عندها وجد راشد بن محمد بن ثابت بن منديل في نفسه إذ لم يوله على قومه فقتل عمر بن ويغرن، فعقد المرينيون لحربه ونصَّبوا مكانه محمد بن عمر بن منديل، ولما يئس راشد من الملك لجأ إلى بجاية عند الحفصيين إلى أن قتله الوزير عبد الرحمن بن يعقوب بن خلوف ببجاية فافترق أمر بني منديل ومغراوة فأجاز بنو منيف بن ثابت وبنو ويغرن إلى الأندلس فاستقروا هناك للمرابطة والجهاد[3]، فكانت منهم عصابة حامية موطنة هناك، وبقي أعقابهم إلى أواخر القرن الثامن الهجري .

الصراع المريني الزياني ودوره في الهجرة: تُعدُّ الفترة الممتدة من أواخر القرن السابع إلى نهاية القرن الثامن الهجريين من أشدِّ الفترات صراعا بين بني عبد الواد وبين بني مرين، والتي انعكست على الوضع الداخلي للدولتين لكن على الدولة الزيانية بدرجة أكبر وبالتالي حركة الهجرة بالنسبة لقبائل المغرب الأوسط التي ستشهد أمواجا من التحركات القبلية في

1- ابن خلدون: المصدر السابق، مج2، صص2104- 2106.

2- نفسه، مج2، ص2106/ التنسي: المصدر السابق، ص129/ يحي بن خلدون: المصدر السابق، ج1، ص209/ أبي راس الناصري: المرجع السابق، ج1، ص93.

3- إضافة إلى هؤلاء أجاز كثير من رؤساء زناتة للجهاد في الأندلس رغبة في مساندة إخوانهم الذين تكالب عليهم العدو أو منافسة للمرينيين كما يقول ابن خلدون: "ونافسهم أقيال زناتة في مثلها، فاجتمع أبناء الملوك بالمغرب الأوسط مثل عبد الملك بن يغمراسن بن زيان وعايد بن منديل بن عبد الرحمن وزيان بن محمد بن عبد القوي، فتعاقدوا على الإجازة إلى الجهاد، فأجازوا فيمن خف من قومهم سنة ست وسبعين وستمائة ". مج2، ص2107، 2218، 2325/ التنسي: المصدر نفسه، ص136/ يحي بن خلدون: المصدر نفسه، ج1، ص213.

مختلف الاتجاهات، وقد كان لسلاطين بني مرين دورًا كبيرًا في ذلك، أما بنو عبد الواد فكان دورهم هو رد فعل على السياسة المرينية في أغلب الأحوال، ولاسيما في علاقتهم بالقبائل العربية، وقد كنا أشرنا سابقا إلى أنَّ هذا الصراع لم يكن بسبب الموطن فقط كما ذكر ابن خلدون، وإنما هو فيما يبدو أعمق من ذلك بكثير، فالمرينيون لم ينسوا هزيمتهم ومقتل زعيمهم المخضب بن عسكر[1] أمام الموحدين وحلفائهم بني واسين، وهو سبب ذو بعد قبلي خاصة وأنَّ العصبية كانت أساس أركان الدولة في العصور الوسطى، ولذلك حاول المرينيون إخضاع قبائل بني واسين التي استغلها الموحدون في ضرب بني مرين، وبالتالي جاء عمل هؤلاء كانتقام من هذه القبائل التي ساندت الموحدين.

عمل بنو مرين على توحيد قبائل بني واسين ومغراوة وحكم بلاد المغرب ووراثة الدولة الموحدية، وهو ما يمكن أن نستنتجه من الحملات المتكررة على المغرب الأوسط وإفريقية، والذي أشار إليه ابن خلدون بقوله: " تغلب السلطان أبو الحسن على المغرب الأوسط ومحا دولة آل زيان وجمع كلمة زناتة، وانتظم مع بلادهم بلاد إفريقية وعمل الموحدين "[2]، ويمكن أن نستشف السياسة التوسعية للمرينيين من خلال ما حدث بين السلطان أبي الحسن وعلي بن راشد بن ثابت بن منديل، عندما طلب هذا الأخير التجافي له عن ملك قومه بشلف مقابل مظاهرته له على بني عبد الواد وهو ما رفضه أبو الحسن[3].

استحكمت العداوة والعناد بين الطرفين والذي بلغ أحيانا درجة الحقد، ولذلك كان بنو مرين كلما احتلوا تلمسان إلا وقتلوا سلطانها، وهو ما حدث مثلا خلال حملة أبي الحسن سنة 737هـ- 1336م التي كان ضحيتها السلطان أبو تاشفين، وقد عبَّر عن ذلك ابن خلدون بقوله: "وشفا نفسه بقتل سلطانهم "[4] ونفس النهاية ستكون مصير أبي سعيد الذي قُتِل ذبحا في محبسه بعد دخول أبي عنان تلمسان سنة 753هـ- 1352م[5]، وقد كرَّست هذه الأعمال مزيدًا من الحقد والعداء بين الطرفين، ويصف صاحب زهر البستان ذلك الواقع من خلال نظرة أبي عنان بعد هذه الواقعة قائلا: " وكان في ذلك على علم من رجوع خلافتهم وتجديد سلطانهم وإنافتهم، وأنهم سينتقمون من قبيله ويسعون في خرابه "[6]، وقد كان لهذه الحملة

1- لما فتح عبد المؤمن تلمسان ووهران بعث ما وجد فيهما من الأموال والذخائر والسلاح إلى تينمل، اعترضها المخضب بن عسكر بوادي تلاغ فبعث إليه عبد المؤمن جيشا من الموحدين مع الشيخ أبو محمد عبد الحق بن منغفاد (معاذ) الزناتي لعبد وادي فالتقى به بفحص مسون، كان بينهما قتال عظيم قُتِل فيه المخضب. ابن أبي زرع: الذخيرة السنية، ص21/ ابن خلدون: المصدر السابق، مج2، ص2109/ يحي بن خلدون: المصدر السابق، ج1، ص189.

2 - ابن خلدون: المصدر نفسه، مج2، ص2014، 2107، 2244/ التنسي: المصدر السابق، ص149.

3- ابن خلدون: نفسه، مج2، ص2108/ التنسي: نفسه، ص146.

4- ابن خلدون: نفسه، مج2، ص2244.

5- نفسه، مج2، ص2251، 2267/ التنسي: نفسه، ص156/ يحي بن خلدون: المصدر نفسه، ج1، ص245- 246.

6- مجهول: زهر البستان في دولة بني زيان، ص16.

وقع أشد على بني عبد الواد حيث شتتت جمعهم فلجأ بعضهم إلى إفريقية وأجاز بعضهم الآخَر إلى الأندلس،وأُخِذ من أشياخهم ووجوههم ما نيف عن السبعمائة إلى أن أطلق سراح بعضهم السلطان أبو زيان محمد المتوكل عبد الرحمن (763- 767هـ/ 1361- 1366م) بعد الصلح الذي أبرمه مع أبي حمو موسى الثاني[1].

تمَيَّزَ بعض سلاطين بني مرين بنفسية مميزة كان لها دورا في الصراع والعلاقات بين دول بلاد المغرب الثلاث، ولعلَّ المقصود هنا هو السلطان أبو الحسن (731-749هـ/ 1330-1348م) الذي كان طموحا للملك والسلطة، يحبُّ الفخر والمدح، وقد ذكر ابن خلدون عدة مواقف تبين شخصيته هذه منها قوله: "وكان للسلطان أبي الحسن مذهب في الفخر معروف يتطاول به إلى مناغاة الملوك الأعاظم واقتفاء سننهم في مهاداة الأقتال والأنظار، وإنفاذ الرسل على ملوك النواحي القاصية والتخوم البعيدة"[2].

تهجير بني واسين: سعى بنو مرين إلى تحقيق أهدافهم تلك إما عن طريق التدخُّل المباشر في الشؤون الداخلية لبني زيان أو باستغلال الظروف العامة في المغرب الأوسط خلال الاضطرابات والثورات والاستثمار فيها كتحريض الثائرين واستقبال الفارين والمهاجرين أو بتهجير قبائله إلى المغرب الأقصى لإفراغه من ساكنته، وهي سياسة أصبحت معروفة لديهم، ومن أمثلة ذلك ما قام به أبو الحسن عندما تغلَّب على تلمسان حيث نقل قبائل بني راشد[3] وبني عبد الواد وتوجين وسائر زناتة وأنزلهم ببلاد المغرب، وسَدَّ بكل طائفة منهم ثغرا من أعماله، فأنزل منهم بقاصية السوس وبلاد غمارة، وأجاز منهم إلى ثغور عمله بالأندلس حامية ومرابطين[4].

إنَّ سياسة التهجير تُعدُّ من الظواهر التي تميزت بها القرون الوسطى بصفة عامة وفي بلاد المغرب بالذات حتى أصبحت سُنَّة طبقتها كل الدول التي حكمت المغرب الأوسط

1- مجهول: زهر البستان في دولة بني زيان، ص15- 16، ص165 وما بعدها/ يحي بن خلدون: المصدر السابق، ج1، ص245- 246/ ج2، ص223/ التنسي: المصدر السابق، ص157.

2- ابن خلدون: المصدر السابق، مج2، ص2243، 2245، 2250.

3- كانت رئاسة بني راشد بعد صعودهم إلى التل لإبراهيم بن عمران (بيت بني عمران) ثم استبدَّ عليه أخوه ونزمار، ولما هلك قام بأمرهم ابنه مقاتل بن ونزمار بعدما قتل عمه إبراهيم عندها تفرَّقت رئاسة بني عمران بين بني إبراهيم وبني ونزمار. ولما فتح أبو الحسن المريني تلمسان سنة 737هـ صار بنو ونزمار إلى طاعته وكانوا ممن نقلهم إلى المغرب الأقصى وأقطع لهم إسهاما أدالهم بها من تراثهم بأعمال تلمسان، وكان شيخهم آنذاك أبو يحي بن موسى بن عبد الرحمن بن ونزمار بن إبراهيم. ولما صار الأمر لبني عبد الواد في الكرة الثالثة على يد أبي حمو موسى الثاني وكان شيخهم زيان بن أبي يحي بن موسى، أقبل إليهم من المغرب فاعتقله مدة ثم فر والتحق بالمغرب ثم رجع إلى الطاعة فتقبَّض عليه أبو حمو وقتله بمحبسه سنة 768هـ وبذلك انقرض أمر بني ونزمار بن إبراهيم. ابن خلدون: المصدر نفسه، مج2، ص2137-2138، ص2167- 2168، 2244.

4- نفسه، مج2، ص2244.

تقريبًا، والتي عادة ما يكون الدافع الأمني أهم بواعثها، وذلك لحماية أقاليم الدولة إما من ثورة قائمة أو ثورة محتملة، وهو ما قام به السلطان أبو عنان عندما نقل ما يناهز المائتين من صنهاجة بجاية بعد ثورتهم على الحكم المريني لمدينتهم سنة 753هـ- 1352م[1]، ومنها كذلك إشخاص أعيان قسنطينة إلى فاس إثر حركته سنة 758هـ- 1357م فاس[2].

كنا أشرنا أعلاه إلى سياسة المرينيين اتجاه المغرب الأوسط وقبائله والقائمة على التدخل المباشر واستعمال القوة تارة، وباستقبال الثوار والفارين تارة أخرى، ومن الشخصيات التي انتقلت إلى المغرب الأقصى لأسباب سياسية أبو علي الملياني الذي فرَّ إلى المغرب الأقصى أمام حملة المستنصر الحفصي وذلك إثر محاولته الاستبداد ببلده مليانة سنة 659هـ- 1261م، فنزل على يعقوب بن عبد الحق الذي أقطعه بلد أغمات فاستقرَّ بها[3] إلى أن توفي سنة 686هـ- 1287م. أما زعيم بني توجين عدي بن يوسف بن زيان بن محمد بن عبد القوي فقد حاول إحياء إمارة أجداده والاستقلال بجبل وانشريس المنيع عندها نقله السلطان أبو الحسن إلى فاس[4]، وهكذا كانت نهاية حياة كثير من الطامحين السياسين الغربة عن وطنهم.

إضافة إلى الشخصيات السياسية والعسكرية شجع سلاطين بني مرين علماء المغرب الأوسط على الهجرة إلى المغرب الأقصى في إطار سياسة الاحتواء التي اتبعوها، فاستقبلوا

1- قامت هذه الثورة عندما تنازل أبو عبد الله محمد بن أبي زكريا يحي صاحب بجاية عن هذه المدينة لأبي عنان الذي عيَّن عليها وزيره عمر بن علي الوطاسي، عندها سخط فارح الحاجب الحفصي فعله هذا ودعا أهل بجاية إلى الثورة ببني مرين وذلك سنة 753هـ- 1352م والقيام بدعوة الموحدين، وقد تزعَّمها شيخ صنهاجة منصور بن الحاج، وكان أول عمل قاموا به هو قتل الوزير عمر بن علي، عندها بعث السلطان المريني حاجبه محمد بن أبي عمرو بجيش من تلمسان فدخل بجاية مع مطلع سنة 754هـ- 1353م وتقبَّض على زعماء الثورة فاعتقلهم ونقلهم إلى المغرب الأقصى. ابن خلدون: المصدر السابق، مج2، ص2268- 2269.

2- النميري: فيض العباب وإفاضة قداح الآداب في الحركة السعيدة إلى قسنطينة والزاب، دراسة وإعداد محمد ابن شقرون، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1990م، صص328- 330. تدخل هذه الحركة في إطار حملات المرينيين ضد المغرب الأوسط والتي لم تقتصر على تلمسان فقط، بل وصلت إلى الصحراء الشرقية.

3- ابن خلدون: المصدر نفسه، مج2، ص1968، ص2105، ص2224، ص2196/ التنسي: المصدر السابق، ص133/ الزركشي: المصدر السابق، ص87/ ابن سماك العاملي: المصدر السابق، ص283. وقد رحل معه إلى المغرب أبو العباس (أبو عبد الله) أحمد بن علي الملياني ابن أخيه، الذي اتخذه يوسف بن يعقوب صاحب علامته بعد أن قتل عمه، وهو ما جعله يُدبِّر مؤامرة للثأر من الواشين بعمه حتى قتلهم، ثم فرَّ إلى تلمسان ومنها اجتاز إلى غرناطة سنة 706هـ- 1306م التي توفي بها سنة 715هـ- 1315م ابن الخطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة، ج1، صص284- 286/ ابن الأحمر: بيوتات فاس الكبرى، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، 1972م، ص48/ عادل نويهض: المرجع السابق، ص315/ الحفناوي: المرجع السابق، ج2، ص68.

4- ابن خلدون: نفسه، مج2، ص2173.

كل قادم ولاسيما من المثقفين الذين اتخذوهم كتابا وحجابا[1]، ويظهر أنَّ هؤلاء المهاجرين قد وجدوا ظروف الاستقرار مواتية لِمَا وفّره السلاطين من أسباب ذلك، سواء في الميدان العلمي نتيجة النشاط الثقافي وانتشار المدارس[2]، أو من الناحية الاجتماعية حيث تحصَّلوا على وظائف ومناصب إدارية ودينية ... الخ، ولذلك سنجد الكثير منهم قد تولوا مناصب عليا لدى سلاطين بني مرين ككتاب وقضاة ومفتين.

انتقل كثير من أعلام المغرب الأوسط إلى المغرب الأقصى، ولا نريد هنا إحصاء كل من هاجر إلى هناك لأنَّ ذلك مما لا يمكن حصره وإنما سنذكر بعضا من هؤلاء، ولعلَّ من أبرزهم أبو عبد الله محمد بن محمد المقري التلمساني الفقيه العلامة المدرِّس المفتي من مؤلفاته كتاب القواعد في الفقه المالكي اشتمل ألفا ومائتا قاعدة،وُلِّي القضاء والتدريس في عهد السلطان أبي عنان بفاس إلى أن توفي سنة 759هـ- 1358م[3].

استطاع بعض هؤلاء المهاجرين إلى المغرب الأقصى من البروز على الساحة الفكرية فكوَّنوا بيوتات علم بفضل نشاطهم، وبذلك ساهموا في تنشيط الحياة العلمية حيث تعدَّت شهرة بعضهم المنطقة إلى الأندلس والمشرق نذكر منهم:

بيت بني الزواوي: وهم من قبيلة زواوة الذين بحوز مدينة بجاية، وهم بيت علم وفقه وتعليم للقرآن والكتابة، منهم محمد بن علي الزواوي[4].

بيت بني الملياني: بيتهم بيت عدالة وثروة وكتابة، وهم من مليانة المغرب الأوسط، منهم الكاتب أبو عبد الله يحي الملياني، كاتب ملوك بني مرين[5].

بيت بني أبي مدين[6]: أول من قدِم منهم على مدينة فاس عبد الله بن أبي مدين، كان مشاركا في الفقه وله معرفة بالوثائق، انتقل عبد الله إلى مكناسة الزيتون واستوطنها، ثم عاد إلى فاس التي تولى بها الحجابة والكتابة لأربعة من سلاطين بني مرين وهم على التوالي:

1- محمد رزوق: دراسات في تاريخ المغرب، إفريقيا الشرق، مكتبة الإسكندرية، ط1، 1991م، ص76.

2- ابن الخطيب: رقم الحلل في نظم الدول، ص102.

3- ابن الأحمر: بيوتات فاس الكبرى، ص64/ ابن الخطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة، ج2، ص191 وما بعدها/ ابن القاضي: درة الحجال، ص161/ الونشريسي: وفيات الونشريسي، ص47/ محمد مخلوف: المرجع السابق، ص232/ الحفناوي: المرجع السابق، ج2، ص487 وما بعدها.

4- ابن الأحمر: المصدر نفسه، ص10.

5- نفسه، ص48/ التنسي: المصدر السابق، ص133.

6- بنو مدين: وهم من بني عثمان من زواوة بجاية، نزلوا أوَّلا بجبال وزان واستوطنوا قصر عبد الكريم، لكن المصادر لا تذكر أسباب وظروف هجرتهم، ومن المحتمل أن يرتبط ذلك بالأوضاع الأمنية التي عاشتها المدينة، كانوا بيت فقه وكتابة وحجابة وثروة، ولذلك استخدمهم بنو مرين لخدمتهم، اشتهر منهم ثلاثة إخوة بعد وفاة أبيهم مدين شعيب سنة 697هـ- 1297م وهم عبد الله ومحمد المعروف بالحاج وأبو القاسم. ابن خلدون: المصدر السابق، مج2، ص2229/ ابن الأحمر: المصدر نفسه، ص50/ إبراهيم حركات: المرجع السابق، ج2، ص38.

يعقوب بن عبد الحق ثم يوسف بن يعقوب بن عبد الحق، وبعده أبي ثابت عامر بن عبد الله بن يوسف بن عبد الحق (706- 708هـ/ 1306- 1308م) ثم لأخيه أبي الربيع سليمان بن عبد الله (708- 710هـ/ 1308- 1310م) إلى أن قتله بدسيسة من حاجبه اليهودي[1] في ذي القعدة سنة 709هـ- 1309م واستكتب بدله أخاه الفقيه محمد بن أبي مدين الذي واصل وظيفة الكتابة للسلطان أبي سعيد عثمان بن يعقوب بن عبد الحق[2] (710- 731هـ/ 1310- 1331م) بينما تولى ابنه شعيب بن محمد كتابة الجباية.

يمكن القول أنَّ الهجرة إلى المغرب الأقصى قد صنعتها ظروف سياسية وثقافية جسَّدتها الحملات العسكرية المرينية المتكررة على المغرب الأوسط، ورغبتهم في إعادة تجربة الوحدة التي عرفتها بلاد المغرب منذ العهد العبيدي مرورا بالمرابطين ثم الموحدين ومحاولة بناء نموذج حضاري وثقافي مغربي والذي يُمكن أن نحدِّده بالمدرسة الفقهية الفاسية التي فرضت وجودها من خلال النوازل الفقهية، ولعلَّ حركة السلطان أبي الحسن إلى إفريقية سنة 747هـ- 1346م دليل على ذلك المشروع السياسي الوحدوي الذي سعى إليه سلاطين بني مرين وأشار إليه ابن خلدون في قوله: " واتَّسعتْ ممالكه ما بين مسراتة والسوس الأقصى من هذه العدوة، وإلى رندة من عدوة الأندلس "[3].

2- الهجرة إلى إفريقية: تُعدُّ بلاد إفريقية من الناحية الجغرافية امتدادا طبيعيا للمغرب الأوسط، ولذلك فإنّ الهجرة إليها تبدو أمرا عاديا، ولاسيما في بعض الفترات والظروف السياسية، ويظهر من الأحداث التاريخية أنَّ ظاهرة الهجرة غالبا ما كانت تتم في إطار متكامل بين دول بلاد المغرب الثلاث على الأقل، رغم ما كان بينهم من صراع آنذاك.

1-2 هجرة مغراوة وبني توجين: كانت المنطقة الممتدة من مصب نهر شلف إلى سهل متيجة، وهي مواطن مغراوة وبني توجين، محل صراع بين ثلاث قوى وهي بنو حفص وبنو مرين وبنو عبد الواد، ولذلك فإنَّ أهدافهم السياسية وعلاقتهم بهذه القبائل مَثّلت الدافع الأساسي لهجرتهم، حيث أصبحت مواطن هذه القبائل ساحات للقتال والمعارك.

بعد فك الحصار عن تلمسان إثر مهلك السلطان يوسف بن يعقوب بن عبد الحق سنة 706هـ- 1307م، وتجافي بني مرين عن الأمصار التي تملكوها بالمغرب الأوسط، وهو ما

1- وصف ابن خلدون مقتل عبد الله قائلا: " ولما أفضى الأمر إلى السلطان أبي الربيع، استعمل خليفة ـ من بني رقاصة اليهود ـ بداره ... فجعل غايته السعاية بعبد الله بن أبي مدين ". مج2، ص2230/ ابن أبي زرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس، ص389.

2- بن أبي زرع: المصدر نفسه، ص392، 396.

3- ابن خلدون: المصدر نفسه، مج2، ص2254.

جعل ملوك بني عبد الواد يُسارعون إلى بسط سلطتهم عليها خوفًا من إعلان استقلالها أو تمرُّدها، فخرج أبو حمو موسى الأول في حملة عسكرية سنة 707هـ- 1307مفتغلّب على بلاد مغراوة ثم بلاد بني توجين، عندها لحق بنو منديل بن عبد الرحمن المغراويين وبنو عبد القوي بن عطية التوجينيين بإفريقية عند أمراء بني حفص فصاروا في جملة عساكرهم، وكانوا يُؤلبون هذين الحيين ويستظهرون بهما على بني عبد الواد[1].

لم تتوقف حملات بني عبد الواد العسكرية ضد هذين القبيلين، ففي سنة 710هـ- 1310م أنفذ أبو حمو عساكره التي نزلت بتافركنيت من بلاد بني توجين، ولِبَثِّ الشقاق والتفرقة بين جموعهم جعل أبو حمو رئاستهم للحشم وبني تيغرين منهم[2].

عاد الصراع من جديد بين مغراوة وبني عبد الواد، عندما زحف راشد بن محمد بن ثابت بن منديل قادما من بلاد زواوة إلى وطن شلف في محاولة للم شمل قومه مستغلا حركة السلطان المريني أبو سعيد عثمان بن يعقوب على تلمسان سنة 714هـ- 1213م فخرج إليه أبو حمو بنفسه على رأس جيش ونزل بوادي نهل[3] حيث ابتنى قصره المعروف به، وهو ما كان سببا في تشريدهم وهجرتهم نحو إفريقية، ويبدو أنَّ عددهم كان كبيرا حسب ما يُفهم من نص ابن خلدون الذي يقول فيه : "واستلحق السلطان أبو يحي وحاجبه يعقوب بن غمر منهم جندا كثيفا أثبتهم في الديوان، وغالب بهم الخوارج والمنازعين للدولة "[4].

2-2 هجرة قبيلة مليكش: وهي إحدى بطون صنهاجة التي استوطنت سهل متيجة، ونظرا لأهمية هذه المنطقة بالنسبة للقبائل وبالنسبة للدول القائمة آنذاك، فقد عمل سلاطين بني عبد الواد من أجل السيطرة عليها[5] لاسيما وأنها كانت موطنا لأعدائهم ومركزا للثوار، ولذلك بعث أبو حمو موسى الأول من مقره بالشلف جيشا بقيادة العلج مسامحا إلى متيجة وهو ما جعل بنو منصور أمراء مليكش يفرون منها ويلجأون إلى الموحدين[6].

1- لحق بنو عبد القوي بإفريقية، فكان منهم العباس بن محمد بن عبد القوي إلى أن هلك وبقي عقبه في جند السلطان. ابن خلدون: مج2، 1952، 2119، 2128، 2229، 2238/ التنسي، ص136/ يحي بن خلدون: بغية الرواد، ج1، ص213/ ابن قنفذ: الفارسية، ص109.

2- ابن خلدون: المصدر نفسه، مج2، ص2129/ التنسي: نفسه، ص136/ يحي بن خلدون: نفسه، ج1، ص213.

3- وادي نهل: تذكره المصادر مرة بالنون ومرة بالتاء - تهل – وقد ذكر محمود بوعياد محقق كتاب تاريخ بني زيان أنه لم يتوصل إلى معرفته، ولعله هو وادي الثلاثاء حاليا والذي يلتقي بوادي آرهيو عند القصر الذي بناه أبو حمو وهي البلدة المعروفة آنئذ بعمي موسى الواقعة على بعد 25 كلم جنوب شرق بلدة وادي آرهيو. ابن خلدون: المصدر نفسه، مج2، ص2131/ التنسي: المصدر نفسه، ص136/ يحي بن خلدون: المصدر نفسه، ج1، ص213.

4- ابن خلدون: المصدر نفسه، مج2، ص2238.

5- كان أبو حمو موسى كان ينوي جعل مدينة الجزائر عاصمة له. ابن خلدون: المصدر نفسه، مج2، ص2162.

6- ابن خلدون: نفسه، مج2، ص2238/ يحي بن خلدون: المصدر نفسه، ج1، ص213/ التنسي: المصدر نفسه، ص137.

لا يجب أن نربط الهجرة دائما بالدوافع والظروف السياسية فقط، والتي غالبا ما تكون نتيجة صراعات وحملات عسكرية تؤدي إلى هجرة جماعية بل إنَّ الدوافع الثقافية قد تكون أقوى، لأنَّ طلب العلم لا يعترف بحدود الزمان والمكان، ولذلك فإنَّ إفريقية مثلا أصبحت من المراكز العلمية التي يقصدها طلبة وعلماء المغرب الأوسط، لاسيما في عهود حكم بعض الأمراء الذين أوْلَوا اهتماما بالثقافة والعلوم مثل أبي زكريا الأول الذي يقول فيه ابن القنفذ: " وجمعت دولته من رؤساء العلماء وفحول الشعراء ... وكان يجالس طلبة العلم ويشاركهم أحسن مشاركة "[1] كما شيَّد المساجد والمدارس، وأنشأ في قصره بالقصبة دارا للكتب، جمع فيها ستة وثلاثين ألف مجلَّد من أنفس المؤلفات[2]، أمَّا أبو حفص عمر بن أبي زكريا (683- 694هـ/ 1284- 1295م) فقد كان يعظِّم الفقهاء والصالحين وهو ما جعله يستقطب العلماء ولاسيما في ظل الأمن والعدل الذي ساد فترة حكمه[3].

إنَّ هجرة علماء وطلبة المغرب الأوسط إلى إفريقية يُمكن إرجاعها إلى فترة مبكِّرة تعود إلى القرن الثالث الهجري، وذلك للدراسة في القيروان لاشتهارها كمدرسة للفقه المالكي بالخصوص، كما تُعدُّ هذه الفترة بمثابة مرحلة احتكاك واقتباس وتكوين بالنسبة لهؤلاء، ولعلَّ من أشهر الأعلام الذين استقرَّوا هناك ابن الربيب[4]، ويبدو أنَّ عدد المهاجرين قد تراجع في هذه الفترة بعد أن ظهرت حواضر علمية كبجاية وتلمسان أغنتهم عن التوجه إلى إفريقية، ولا نريد هنا تَتبُّع كل من رحل ثم عاد إلى بلده (هجرة عودة) أو استوطن هناك وإنما سنركِّز على بعضهم ولاسيما من الفئة الثانية وهم الطلبة.

* **البجائي أبو عبد الله محمد بن محمد بن الجلاء (ت638هـ- 1240م):** تولى خطة الإنشاء والعلامة بتونس للسلطان أبي زكريا يحي الأول[5].

* **البجائي أبو محمد عبد الوهاب بن يوسف بن عبد القادر (ت ب680هـ- 1281م):** تعلَّم ببلده بجاية ثم رحل إلى المشرق ولقي علية من الأفاضل، له علم بأصول الدين والفقه وبراعة في علم المنطق على طريقة المتأخرين، ووُلي القضاء بتوزر وقفصة.

1- ابن قنفذ: الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية، ص112- 113.

2- ابن الشماع: المصدر السابق، ص57/ ابن قنفذ: المصدر نفسه، ص112- 113/ ابن أبي دينار: المصدر السابق، ص127/ حسن حسني عبد الوهاب: المرجع السابق، ص129.

3- ابن الشماع: المصدر نفسه، ص82/ الزركشي: تاريخ الدولتين، ص51.

4- ابن الربيب: الحسن بن محمد التميمي أصله من مدينة تاهرت، رحل لطلب العلم بالقيروان، كان خبيرا باللغة شاعرا مُقدَّما قوي الكلام ومترسِّلا مجيدا ولذلك كان عبد الكريم النهشلي يروي له ما لا يروي لغيره، كانت له عناية بالنسب له فيه تأليف مشهور، توفي بالقيروان سنة 430هـ- 1039م. السيوطي: بغية الوعاة، ج1، ص525/ القفطي: انباه الرواة، ج1، ص353/ عادل نويهض: المرجع السابق، ص158/ عمار هلال: المرجع السابق، ص50/ رابح بونار: المرجع السابق، ص288/ محمد محفوظ: تراجم المؤلفين التونسيين، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1982م، ص340.

5- ابن القنفذ: الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية، ص116/ الزركشي: المصدر نفسه، ص28.

* **المليكشي أبو عبد الله محمد بن عمر بن علي بن محمد بن إبراهيم البجائي:** كان فقيها كاتبا وأديبًا، أخذ أولا عن علماء مدينة الجزائر، حجَّ وسمع بالمدينة، ولمَّا عاد تولى خطة الإنشاء بتونس التي توفي بها سنة 740هـ- 1339م[1].

* **علي الزيات أبو الحسن البجائي[2]:** من أهل القرن السابع الهجري، كان حافظا للمذهب، قرأ بالأندلس ثم عاد إلى بجاية وأقرأ بها، رحل إلى حاضرة إفريقية واستوطنها، وكان تُقرَأ عليه كتب المذهب مثل: "التهذيب" و"الرسالة" و"الجلاب" و"التلقين".

3- الهجرة إلى المشرق الإسلامي: إنَّ أوَّل ما يتبادر إلى الذهن عند الحديث عن الهجرة إلى هذا الجناح من العالم الإسلامي، هو الهجرة نحو الحجاز، وليس المقصود هنا رحلة الحج، وإنما هجرة الاستيطان والتي تُعرف بالمجاورة. ثم تأتي بعد الحجاز كل من مصر والشام والعراق.

1-3 نحو مكة والمدينة: لا شك أنَّ لمكة والمدينة مكانة سامية في نفوس المسلمين وذلك لقداستهما وأهميتهما الدينية، فبمكة المسجد الحرام، وهو أحد المساجد الثلاث التي تُشدُّ إليها الرحال، فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: **((لا تُشدُّ الرِّحالُ إلاَّ إلى ثَلاثةِ مَسَاجِدَ: المسْجِدِ الحَرامِ، ومسْجِدِ الرَّسول- صلى الله عليه وسلم- ومسْجِدِ الأَقْصَى))**[3]. وعنه أيضا، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: **((صَلاَةٌ في مَسْجِدِي هَذَا خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ صَلاَةٍ فِيمَا سِوَاهُ، إلاَّ المسْجِدَ الحَرَامَ))**[4] وبها كذلك مشاعر الركن الخامس من أركان الإسلام (الحج) وهي مثوى إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام[5] ومسقط رأس خير الأنام ونشأته، ومحل نزول أكثر القرآن، ومظهر الإيمان والإسلام ومنشأ الخلفاء الراشدين[6]، وبها الجم الغفير من الصحابة والتابعين والصالحين والأولياء وفيها

1- ابن حجر: المصدر السابق، س4، ص108/ التنبكتي: نيل الابتهاج، ج2، ص53/ المقري: نفح الطيب، مج8، ص375/ الحفناوي: المرجع نفسه، مج1، ص664، مج2، ص478/ عادل نويهض: المرجع السابق، ص317- 318/ محمد محفوظ: المرجع السابق، ج4، ص380.

2- الغبريني: المصدر السابق، ص92/ التنبكتي: نيل الابتهاج، مج1، ص360/ الحفناوي: المرجع السابق، مج2، ص262.

3- البخاري: صحيح البخاري، كتاب فضل الصلاة في مسجد مكة والمدينة، باب فضل الصلاة في مسجد مكة والمدينة، رقم الحديث 1189، ص221/ الطرطوشي: الحوادث والبدع، ضبط نصه وعلّق عليه علي بن حسن بن علي بن عبد الحميد الحلبي، دار ابن الجوزي، الأحساء، ط1، 1411هـ- 1990م، ص108.

4- البخاري: نفسه، رقم الحديث 1190، ص221.

5- البلخي: كتاب البدء والتاريخ، وضع حواشيه خليل عمران المنصور، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1417هـ- 1997م، ج2، ص19.

6- النهرواني: الإعلام بأعلام بيت الله الحرام، مطبعة غُتِنغَة (ليبزيك)، ألمانيا، 1857م، ص19/ الهمذاني: صفة جزيرة العرب، تحقيق محمد علي الأكوع الحوالي، مكتبة الإرشاد، صنعاء، ط1، 1410هـ- 1990م، ص41/ ابن جبير: رحلة ابن جبير، ضبطه ووضع فهارسه محمد زينهم، دار المعارف، القاهرة، د ت، ص104.

يُضاعف الأجر على الأعمال التعبدية، ويحسُّ فيه المسلم بالراحة النفسية ولذلك قصدها واستوطنها كثير من الناس لتكون خاتمة حياتهم في أقدس مكان وأطهره، كما تُعدُّ مكة ملتقى للعلماء من كل البقاع الإسلامية وهو ما يُوفّر المال وعناء سفر الطلبة إلى هؤلاء العلماء في أقطارهم للأخذ عنهم.

أما بالنسبة للمدينة، فهي لا تَقِلُّ قداسة وحُبًا لدى المسلمين، كيف لا وهي مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم التي قال عنها: **((إِنَّ الإِيمَانَ لَيَأْرِزُ[1] إلى المدِينَةِ كمَا تَأْرِزُ الحَيَّةُ إلَى جُحْرِها))[2]**، وبها المسجد النبوي الشريف، وهو ثاني المساجد التي تُشدُّ إليها الرحال، وهي كذلك موطن الأنصار الذين أوَوْا الرسول صلى الله عليه وسلم ونصروه، حتى جعل حبهم إحدى علامات الإيمان، فعن أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: **((آيَةُ الإِيمَانِ حُبُّ الأَنْصَارِ، وآيَةُ النِّفَاقِ بُغْضُ الأَنْصَارِ))[3]**، ومن فضائل مكة والمدينة كذلك أنه لا يدخلهما المسيح الدجال، لقوله صلى الله عليه وسلم: **((لاَ يَدْخُلُ المدِينَةَ رُعْبُ المسِيحِ الدَّجَّالِ، لهَا يَوْمَئِذٍ سَبْعَةُ أَبْوابٍ، عَلَى كُلِّ بَابٍ مَلَكَان))[4]**، وقال أيضا: **((لَيْسَ مِنْ بَلَدٍ إِلاَّ سَيَطَؤُهُ الدَّجَّالُ، إِلاَّ مَكَّةَ وَالمدِينَةَ، لَيْسَ لَهُ مِنْ نِقَابِها نَقْبٌ إِلاَّ عَلَيْهِ الملائِكَةُ صَافِّينَ يَحْرُسُونَهَا، ثُمَّ تَرْجُفُ المدِينَةُ بِأَهْلِهَا ثَلاَثَ رَجَفَاتٍ، فَيُخْرِجُ اللَّهُ كُلَّ كَافِرٍ ومُنَافِقٍ))[5]**.

المجاورة بمكة: المجاورة لغة: من جاوَره مُجاوَرَة وجُوارًا بالضم وجِوارًا بالكسْر: صار جارَهُ، والجِوارُ: أن تُعطي الرَّجُل ذِمَّة، فيكون بها جارَكَ فتُجيرُهُ. والمجاورة: الاعتكاف في المسجد[6]، أما المجاورة بمكة والمدينة فهي ظاهرة اجتماعية ودينية، يُرَاد بها المقام مطلقا غير ملتزم بشرائط الاعتكاف.

أما حكم المجاورة بمكة الشريفة شرَّفها الله تعالى، فذهب أبو حنيفة وبعض الشافعية كراهة المقام بمكة وذلك لخوف سقوط حرمة البيت الشريف وقلَّة الاحترام ...، فإقامة المسلم في وطنه وهو مشتاق إلى مكة باق حرمتها خيْرٌ له وأسْلَم من مقامه بمكة من غير احترام أو نُقص احترام، ولذلك كان الخليفة الراشد عمر بن الخطاب رضي الله عنه يدور على الحاج بعد انقضاء النُسُك بالدُّرَّة ويقول: يا أهل اليمن يمنكم، يا أهل الشام شامكم ويا أهل العراق عراقكم، فإنَّه أبقى لحرمة بيت ربكم في قلوبكم[7]، وذَهَبَ الإمامان الشافعي

1-رأَزَ، يَأْرُزُ أرُوزًا: انقَبَضَ وتجمَّعَ وثَبَتَ، فهو أرزٌ وأروزٌ، ورجُلٌ أروزٌ: ثابت مجتمع، وسُئِل حاجة فأَرَزَ أي انقبض، وأَرْزَت الحيَّة: لاذت بجحرها ورجعت إليه. ابن منظور: المصدر السابق، مج4، ص4.

2- البخاري: صحيح البخاري، كتاب فضائل المدينة، باب الإيمان يأرزُ إلى المدينة، رقم الحديث 1876، ص340.

3- البخاري: المصدر نفسه، كتاب الإيمان، باب علامة الإيمان حب الأنصار، رقم الحديث 17، ص19.

4- نفسه، كتاب فضائل المدينة، باب لا يدخل الدجال المدينة، رقم الحديث 1879، ص340.

5- نفسه، رقم الحديث 1881، ص341.

6- الفيروز أبادي: المصدر السابق، ص332.

7- النهراواني: المصدر السابق، ص20- 21/ ابن بطوطة: رحلة ابن بطوطة، ص153.

وأحمد بن حنبل والقاضي أبو يوسف (ت182هـ- 798م) صاحب أبي حنيفة إلى استحباب المجاورة بها، ذكرا ذلك في باب الاعتكاف، وعليه عمل الناس، وسُئِل الإمام مالك بن أنس عن الحج والجوار أَحَبُّ إليك، أو الحج والرجوع ؟ فقال: ما كان الناس إلا على الحج والرجوع[1].

أسباب وعوامل الهجرة إلى الحجاز: إضافة إلى ما ذكرناه من قدسية هذه البقاع ومكانتها في نفوس المسلمين، هناك أسباب وعوامل سياسية واجتماعية وثقافية ساعدت في عودة الهجرة والمجاورة بمكة والمدينة، نذكر منها:

أ- السياسية: وتتمثّل في زوال الدولة العبيدية وقيام دولة المماليك، ذلك أنَّ موقف العبيديين من الخلافة السُّنّية العباسية معروف وهو محاولة القضاء عليها والاستئثار بحكم العالم الإسلامي بما فيه طبعا الأماكن المقدَّسة، وقد دخلت في صراع ضد العباسيين من جهة، وضد القرامطة من جهة ثانية، ونفس الموقف اتخذوه حيال الدولتين الزيرية والحمادية بإفريقية والمغرب الأوسط، والذي اتّخَذَ شكلا عدائيا منذ قُطِعَت دعوتهم هناك، تجلى في فرض الضرائب والمكوس على كل من يجتاز أرض مصر، ولذلك تراجع عدد القاصدين إلى المشرق سواء للحج أو لطلب العلم أو للتجارة ولاسيما في ظل الضعف والفوضى التي بلغتها دولة بني عبيد في عهد حكم الوزراء، حتى قال الوزير طلائع بن رُزَّيك:" كأني بهؤلاء الجهلاء وهم يقولون ما مات الأول حتى استُخلِف هذا، وما علموا أنني كنت من ساعة استعرضهم استعراض الغنم "[2]، ولذلك لاحظ بعض الدارسين عودة قوية للمهاجرين خلال الفترة التي أعقبت سقوط الدولة العبيدية سنة 567هـ- 1171م[3].

سمح سقوط الدولة العبيدية وقيام الدولة الأيوبية بمصر سنة 570هـ- 1174م من استعادة العباسيين لنفوذهم على بلاد الحرمين الشريفين، واحترام صلاح الدين لهذه السيادة وعدم التدخُّل أو المساس بالمقدَّسات الإسلامية، بل إنَّهَ اهتمَّ بشؤون مكة المادية والأمنية، فمنع أَشْرافَ مكة من أخذ المكوس والضرائب على الحجاج والتجار القادمين إلى الحجاز وتعويضهم عنها بأعطيات عينية ونقدية، وقد وصف ابن جبير في رحلته اهتمام صلاح الدين بأمر الحاج قائلا: " ولولا ما تلافى الله به المسلمين في هذه الجهات بصلاح الدين

1- النهرواني: المصدر السابق، ص22/ تقي الدين الفاسي: شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام، تحقيق علي عمر، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ط1، 1428هـ- 2008م، ج1، صص135- 139.

2- المقريزي: اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا، تحقيق محمد حلمي محمد أحمد، لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة، 1416هـ- 1996م، ج3، ص249/ ابن الأثير: المصدر السابق، مج2، ص2448.

3- عبد العزيز بن راشد السنيدي: " **المجاورون في مكة وأثرهم في الحياة العلمية خلال الفترة من 570- 660هـ/ 1174- 1261م** "، ندوة مكة المكرمة عاصمة الثقافة الإسلامية، 1426هـ، صص1- 96، ص4- 5. يقول في ذلك: " تزايدَ أعداد المجاورين في مكة من منسوبي العلم خلال الفترة التاريخية التي أعقبت سقوط الدولة العبيدية وواكبت سقوط الدولة الأيوبية تزايُدًا فاق كثيرًا بعدده من أتى للمجاورة في الفترة السابقة لهذا التاريخ/ عمار هلال: المرجع السابق، ص149.

لكانوا من الظلم في أمر لا يُنادى وليده ولا يلين شديده"، ثم يضيف قائلا: " والذي جعل له صلاح الدين، بدلا من مكس الحاج، ألفا دينار اثنان، وألفا اردب من القمح- وهو نحو الثمانمائة قفيز بالكيل الإشبيلي عندنا- حاشى أقطاعات أقطعها بصعيد مصر وبجهة اليمن لهم بهذا الرسم[1]. كما سعى صلاح الدين ومن أتى بعده من المماليك على تأمين السُّبُل ونشر الأمن في مصر واليمن ومكة لراحة وسلامة الحجاج والمجاورين[2].

ب- الروحية والعلمية: وتتمثل في رغبة البعض في أن تكون آخر حياته بأطهر وأقدس مكان، فانقطعوا هناك للعبادة ومجاهدة النفس[3] وطلب العلم في جو من الصفاء الروحي، لاسيما وأنَّ مكة كانت ملتقى لأجَلِّ علماء الإسلام، وهناك من جاور من أجل ممارسة وظيفة دينية، ليس طلبا للمال والكسب، وإنما لشرف الوظيفة في مكة والمدينة، لاسيما وأنَّ الحركة العلمية والثقافية كانت نشيطة نتيجة إنشاء العديد من المدارس النظامية، والتي بلغ عددها بمكة خلال القرن السابع الهجري حوالي ثماني مدارس[4]، استقطبت الكثير من العلماء والطلاب، من أشهرها المدرسة المظفرية[5] التي كان يُدرِّس بها إمام المالكية الشيخ خليل[6]، إضافة إلى المدارس انتشرت الزوايا والأربطة في كثير من المناطق المجاورة لمكة

1- ابن جبير: رحلة ابن جبير، ص79- 80، ص94.

2- يقول السيوطي: " وكانت مملكته (صلاح الدين) من المغرب إلى تخوم العراق ومعها اليمن والحجاز، ونشر العدل في الرعية وحكم بالقسط بين البرية ". حسن المحاضرة، ج2، ص16.

3- يصف ابن بطوطة عبادة أبي العباس أحمد بن محمد بن مرزوق بمكة قائلا: " وكنت أعجب من ملازمته الطواف مع شدة الحر بالمطاف، والمطاف مفروش الحجارة السود، وتصير ِبحَرِّ الشمس كأنها الصفائح المحماة، ولقد رأيت السقائين يصبُّون الماء عليها، فما يُجَاوَز الموضع الذي يُصَبُّ فيه إلا ويلتهب الموضع من حينه ... وكان أبو العباس يطوف حافي القدمين. ورأيته يوما يطوف فأحببت أن أطوف معه، فوصلت المطاف وأردت استلام الحجر الأسود فلحقني لهب تلك الحجارة، وأردت الرجوع بعد تقبيل الحجر، فما وصلته إلا بعد جهد عظيم، ورجعت فلم أطف ". ابن بطوطة، ص142.

4- تقي الدين الفاسي: المصدر السابق، ج1، صص539- 542/ عبد العزيز بن راشد السنيدي: المقال السابق، ص19/ السيوطي: المصدر نفسه، ج2، ص16/ أُنشئت أول مدرسة نظامية في المشرق ببغداد خلال النصف الثاني من القرن الخامس الهجري، ثم توالى إنشاء المدارس منها المدرسة الزجاجية بحلب التي أنشأها بدر الدولة أبو الربيع سليمان بن أرتق سنة 510هـ، ومنها كذلك المدرسة النورية التي أنشأها نور الدين بن محمود زنكي سنة 544هـ ... إلخ. ابن الشحنة: الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب، ص109، 111.

5- المدرسة المظفرية: نسبة إلى الملك المظفر (ت694هـ-1264م) شمس الدين يوسف بن عمر المنصور نور الدين بن علي بن رسول التركماني اليمني، ثاني ملوك الدولة الرسولية باليمن، وعاصمتها صنعاء، أول من حكم منهم نور الدين عمر بن رسول نائب الملك المسعود أتسر بن السلطان الملك الكامل سنة 626هـ- 1228م. أبو المحاسن اليماني: بهجة الزمن في تاريخ اليمن، تحقيق مصطفى حجازي، دار الكلمة، صنعاء، ط2، 1985م، ص84 وما بعدها/ ابن بطوطة: المصدر نفسه، ص160، ص169، ص172.

6- الإمام خليل: هو أبو عبد الله محمد بن أبي زيد عبد الرحمن بن محمد بن عمر، أهله من بلاد الجريد من إفريقية يُعرفون بها ببني حيون، مولده بمكة، كان من كبار شيوخها وفقهائها، وُصِف بفارس المنابر وإمام الأئمة، تولى الخطابة والصلاة بالحرم الشريف للمالكية، أخذ عن جماعة، وعنه أخذ خالد البلوي الذي أطال الثناء عليه في رحلته، توفي سنة 760هـ- 1359م. ابن بطوطة: المصدر نفسه، ص196/ ابن القنفذ: شرف الطالب، ص249/ الونشريسي: وفيات الونشريسي، ص49/ التنبكتي: نيل الابتهاج، مج1، ص181/ محمد مخلوف: المرجع السابق، ص222.

التي آوت المجاورين والمنقطعين للعبادة، منها الزاوية التي بخارج باب إبراهيم[1]، وهي خاصة بالمالكية وفيها دار الإمام خليل.

ج- المذهبية: ومن الدوافع التي قد تكون وراء هجرة شخصيات من المغرب الأوسط إلى الحجاز، اعتبار المدينة دار الإمام مالك[2]، صاحب المذهب الذي يكنون له كل الاحترام والإتّباع إلى درجة التعصُّب، وقد شجَّعهم على ذلك وجود مدارس للمذهب المالكي واستقرار كثير من أعلام بلاد المغرب والأندلس المالكية، الذين استأنسوا بهم وسكنوا بجوارهم، ولعلَّ من أشهرهم الإمام خليل سابق الذكر، الذي يُعدُّ من مراجع المذهب بالنسبة لهم، ومنهم كذلك أبو الحسن علي بن رزق الله الأنجري الطنجي، جاور مكة سنينا وبها وفاته[3]، ومنهم أيضا أبو يعقوب يوسف من بادية سبتة الذي صار شيخ رباط ربيع بعد وفاة أبي الحسن، وأبو محمد عبد الله بن فرحان التوزري، وأبو العباس أحمد الوادي آشي جاورا مكة سنة 728هـ- 1327م.

أما مجاورو المدينة المنورة من بلاد المغرب والأندلس فنذكر، أبو عبد الله محمد بن فرحون، وابنيه أبو محمد عبد الله مدرِّس المالكية، وأبو عبد الله محمد وأصلهم من مدينة تونس[4]، وأبو عبد الله محمد بن محمد الغرناطي المعروف بالتراس مؤِّذن المسجد النبوي[5] وأبو العباس الفاسي مدرِّس المالكية[6]. ويمكن أن نشير هنا كذلك إلى المضايقات التي تعرَّض لها المالكية من قبل الخلفاء الموحدين، ما دعاهم للفرار واللجوء إلى مكة والمدينة وهو ما تطرَّقنا إليه في علاقة الموحدين بفقهاء المالكية.

د- اجتماعية: وجد المجاورون بمكة من حسن الاستقبال والمجاورة ما جعلهم يطمئنون للإقامة هناك ولاسيما في ظل العناية التي أوْلاها الأمراء والسلاطين وأهل الخير من التجار والعامة للمجاورين، وذلك من خلال تخصيص بعض الأوقاف والصدقات لهؤلاء المنقطعين والتكفل بمعيشتهم[7]، الأمر الذي جعلهم يتفرغون للعلم والعبادة، وقد وصف الرحالة ابن بطوطة علاقة أهل مكة بالمجاورين قائلا: "ولأهل مكة الأفعال الجميلة، والمكارم التامة والأخلاق الحسنة، والإيثار إلى الضعفاء والمنقطعين، وحسن الجوار للغرباء ومن مكارمهم

1- ابن بطوطة: المصدر السابق، ص160.

2- توجد دار الإمام مالك شرقي المسجد النبوي، أما قبره فيوجد بمقبرة بقيع الغرقد. ابن بطوطة: المصدر نفسه، ص136، ص144.

3- نفسه، ص172.

4- نفسه، ص141.

5- نفسه، ص141.

6- نفسه، ص143.

7- من الإجراءات العملية التي قام بها السلطان صلاح الدين الأيوبي اتجاه المجاورين أن قرَّر لهم غلات وصلات تُحمل إليهم. السيوطي: حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة، ج2، ص17- 18.

أنهم متى صنع أحدهم وليمة، يبدأ فيها بالطعام للفقراء المنقطعين المجاورين "[1]، وكان قاضي مكة المكرَّمة نجم الدين محمد بن الإمام محي الدين الطبري كثير الصدقات والمواساة للمجاورين[2]، كما قام بعض الأغنياء بالصدقة على هؤلاء، فقد تصدَّقت السيدة هاجر أم الخليفة العباسي المستعصم بالله (640- 656هـ/ 1242- 1258م) عند حجها سنة 641هـ- 1243م بنحو ستين ألف دينار[3].

سكن معظم هؤلاء المجاورون في الزوايا والرباطات التي بلغ عددها أكثر من اثنتين وعشرين رباطا[4] في أنحاء مكة والمدينة، حيث خُصِّصت لها مساكن للإقامة وتمَّ التكفُّل بمعيشتهم من طعام وملبس، لاسيما وأنَّ أهل الحجاز كانوا يُعظِّمون هذه الرباطات ويعطفون على نازليها وينذرون لها النذور[5]، وقد جاور برباط الموفق ابن بطوطة خلال رحلته وكان من أحسن الرباطات حيث سكنه مجموعة من الصالحين، ومن الرباطات التي سكنها المجاورون والمنقطعون للعبادة كذلك رباط السدرة ورباطي ربيع وكلالة ومنهم المقرئ برهان الدين إبراهيم المصري.

المجاورون من المغرب الأوسط بمكة والمدينة:

* **أبو العباس أحمد بن محمد بن محمد بن أبي بكر بن مرزوق التلمساني:** حجَّ رفقة ولده وجاور بمكة مدة، ثم عاد إلى بلده، ثم حجَّ ثانية وسكن بالمدينة، إلى أن مات بمكة سنة 740- 1339م أو 741هـ- 1340م[6].

* **أبو الحسن علي بن فرغوس التلمساني[7]:** وصفه ابن بطوطة بالصالح السابح السالك.

* **أبو محمد عبد الله بن عمر بن موسى البسكري:** من علماء المالكية، شاعر وأديب وفقيه فاضل، حجَّ وجاور بمكة والمدينة، كان رجلا متواضعا صالحا، عنده فضل وتواضع وكان مقصودا بالزيارة معروفا بالعبادة والانقطاع، بيته برباط دكالة، له نظم وكلام حسن ومدائح نبوية منها القصيدة التي مطلعها:

1- ابن بطوطة، ص168، ص169- 170/ ابن جبير: المصدر السابق، ص94.

2- ابن بطوطة: نفسه، ص169.

3- النهرواني: المصدر السابق، ص178.

4- من هذه الرباطات: ربيع، كلالة، السدرة، الموفق، مراغة. ابن بطوطة: نفسه، ص160،168- 170، 172/ النهرواني: المصدر السابق، ص443/ عبد العزيز بن راشد السنيدي: المقال السابق، ص21.

5- ابن بطوطة: المصدر السابق، ص172.

6- يحي بن خلدون: المصدر السابق، ج1، ص115/ ابن بطوطة: المصدر نفسه، ص142/ ابن حجر العسقلاني: المصدر السابق، س1، ص299/ ابن مريم: المصدر السابق، ص132- 133.

7- لم أعثر له على ترجمة.

دارُ الحَبيــبِ أحَقُّ أنْ تَهواهـا وتَحِـنَّ مِـنْ طَرَبٍ إِلـى ذِكراهَــا

وعلى الجفون متى همَمْتَ بزَورةٍ يا ابنَ الكِرامِ عليكَ أنْ تغشاهـا

وقد اختُلِفَ في تاريخ وفاته، فقد ذكر كل من ابن حجر والبرزالي أنه توفي سنة 713هـ-1313م، بينما ذكر عادل نويهض أنه توفي بعد سنة 765هـ- 1364م، ويظهر أنَّ التاريخ الأول أصح بحكم معرفة البرزالي به وهو من أهل المشرق. توفي بالمدينة ودُفِن بالبقيع[1].

* **عبد الله بن موسى بن عمر بن يونس الزواوي:** وُلِد قبل سنة 690هـ- 1291م، حجَّ وأقام بمكة والمدينة، أخذ عن ابن دقيق العيد، كان يحفظ الموطّأ، مات سنة 734هـ- 1333م[2].

* **أبو عبد الله محمد بن يحي بن مؤمن بن علي الزواوي الملقب بمنديل:** كان بحرا في العربية وتحقيق مسالكها، صالح زاهد ورع ، جاور بمكة سنين، وسمع من الجمال الأسيوطي، مات بها سنة 787هـ- 1385م[3].

* **عبد الله البجائي:** فقيه مالكي، تعلّم ونشأ ببجاية، حجَّ واستوطن مكة وجاور بها إلى أن توفي سنة 803هـ- 1400م[4].

رغم قلة عدد المجاورين بمكة والمدينة من أهل المغرب الأوسط بالمقارنة مع بعض المناطق الأخرى من العالم الإسلامي، فإن هذه المناطق ظلت من الأماكن المقدَّسة لديهم وقد حرص هؤلاء المجاورين على الالتزام بالصلاح والعبادة والورع، وقد عُرفوا بحبهم الشديد لهذه الأماكن المقدسة حتى أصبحوا محل زيارة، وبذلك يكونون قد أعطوا انطباعا حسنا عن أهل هذه الناحية من العالم الإسلامي، والمُلفِت للنظر عن هؤلاء المجاورين ورغم انتمائهم لمختلف مناطق المغرب الأوسط، فإنَّ معظم هؤلاء المهاجرين من بلاد زواوة، وقد يعود ذلك إلى شغفهم بالرحلة إلى المشرق، وتيَسُّر سبل السفر.

1- ابن حجر: المصدر السابق، س2، ص280/ الحفناوي: المرجع السابق، مج2، ص232/ البرزالي: المصدر السابق، ص199/ السبتي: ملئ العيبة بما جُمع بطول الغيبة في الوجهة الوجيهة إلى الحرمين مكة وطيبة، تقديم وتحقيق محمد الحبيب ابن الخوجة، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1408هـ- 1988م، صص267- 269/ عادل نويهض: المرجع السابق، ص42- 43.

2- ابن حجر: المصدر نفسه، مج2، ص307.

3- السيوطي: بغية الوعاة، مج1، ص267.

4- عادل نويهض: المرجع السابق، ص36.

2-3 الهجرة إلى بلاد الشام[1]: تُعدُّ بلاد الشام من أكثر مناطق العالم الإسلامي استقطابا للمغاربة، ويعود ذلك إلى مجموعة من الأسباب والعوامل وهي:

أ- الأسباب والعوامل الدينية: تعود هجرة أهل بلاد المغرب عموما إلى الشام في بعض أسبابها إلى خصوصية هذه البلاد التاريخية ومقدَّساتها الإسلامية التي لا تقل عن مكة والمدينة، ومنها المسجد الأقصى ثالث المساجد التي تُشدُّ إليها الرِّحال، فكانت رغبة المغاربة الهجرة إليه والصَّلاة فيه، ويُقال أنَّ سليمان - عليه السلام- لما فرغ من بناء بيت المقدس سأل الله ثلاثا منها، أنْ لا يأتي أحد هذا المسجد، لا يريد إلا الصَّلاة فيه إلا خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه، ولهذا كان عبد الله بن عمر رضي الله عنه يأتي بيت المقدس فيصلِّي فيه ركعتين[2]. ومن فضائل بيت المقدس، عن جابر بن عبد الله- رضي الله عنه- أنَّ رجلا قال: يا رسول الله أيُّ الخلق أوَّل دخولا إلى الجنة، قال: الأنبياء، قال ثم من، قال الشهداء، قال ثم من، قال مؤذنو بيت المقدس، قال ثم من، قال مؤذنو المسجد الحرام[3]. وعن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: **((من مات ببيت المقدس فكأنما مات في السماء))**[4]. ومن فضائل بلاد الشام كذلك أنَّ الدجال يبلُغ كل منهل إلا أربعة مساجد هي: المسجد الحرام ومسجد الرسول صلى الله عليه وسلم والمسجد الأقصى، مسرى رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي قال فيه تعالى: ***((سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ))***[5]

1بلاد الشام: الشأْمُ بسكون الهمزة والشأَمُ بفتح الهمزة، قيل سمِّيت بذلك لكثرة قراها وتداني بعضها من بعض فشُبِّهت بالشامات، وقيل سمِّيت بذلك لأن قوما من كنعان بن نوح خرجوا عند التفريق فتشاءموا إليها أي أخذوا ذات الشمال لأنه عن يسار الكعبة، وقيل سُميت بسام بن نوح- عليه السلام- واسمه بالسريانية شام بشين معجمة، وقيل أن أرضه بيض وحمر وسود الألوان، وقيل كذلك أنَّ بني إسرائيل تمزَّقت بعد موت سليمان بن داود- عليهما السلام- فصار بعضهم إلى بيت المقدس، وصار آخرون إلى مدينة يُقال لها شامين وهي بأرض فلسطين وبها سُميت الشام، وكان اسم الشام الأول سُورَى. تمتد بلاد الشام من بلاد الأرمن وهي المعروفة ببلاد سيس، يحيط به من جهة الغرب بحر الروم من طرسوس التي ببلاد الأرمن إلى رفح التي في أول الجفار بين مصر والشام، ويحيط به من جهة الجنوب حدّ يمتد من رفح إلى حدود تيه بني إسرائيل إلى ما بين الشوبك وإيلة إلى البلقاء، ويحيط به من جهة الشرق حدّ يمتد من البلقاء إلى مشاريق صرخد آخذا على أطراف الغوطة إلى سلمية إلى مشاريق حلب إلى بالس، ويحيط به من جهة الشمال حدّ يمتد من بالس مع الفرات إلى قلعة نجم إلى البيرة إلى قلعة الروم إلى سميساط إلى حيث ابتدأنا. والشام خمسة أجناد: جند قنّسرين ثم جند حمص ثم جند دمشق ثم جند الأردن ثم جند فلسطين. أبو الفداء: تقويم البلدان، ص225 وما بعدها/ ياقوت الحموي: المصدر السابق، مج3، ص116 / ابن سباهي زادة: أوضح المسالك إلى معرفة البلدان والممالك، تحقيق المهدي عبد الراضية، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1427هـ- 2006م، ص413- 414.

2- القاضي مجير الدين الحنبلي: الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، دار الجيل، لبنان، 1973م، ج1، ص110/ ابن كنان الصالحي الدمشقي: المواكب الإسلامية في الممالك والمحاسن الشامية، تحقيق ودراسة حكمت إسماعيل، مراجعة محمد المصري، وزارة الثقافة، دمشق، 1993م، ق2، ص23/ العبدري: المصدر السابق، ص468.

3- مجير الدين الحنبلي: المصدر نفسه، ص208- 209.

4- نفسه، ص209.

5- سورة الإسراء، الآية 1.

ومسجد الطور[1]، وبالشام يقتُلُ عيسى- عليه السلام- الدَّجَّال بموضع لُدّ على شوط فرس من الرملة[2]. وقد أورد الصالحي الدمشقي في فضائل الشام كثيرا من الأحاديث النبوية الشريفة[3]، وقد أورد ابن الشحنة حديثا عن ابن عمر قال: خيار أهل الأرض أكرمهم لمهاجر إبراهيم، فهو دليل على خيريتها وخيرية ملازمتها[4].

تضمُّ بلاد الشام ولاسيما فلسطين كثيرا من المشاهد، فهي مدفن لمعظم الأنبياء، فبالقدس منها ألف قبر من قبور الأنبياء عليهم السلام[5]، وبمدينة الخليل قبر إبراهيم الخليل عليه السلام، وبحلب مسجد يحي بن زكريا[6]، إضافة إلى قبور وأضرحة الصالحين التي أصبحت تثير في نفوس المغاربة الشوق لزيارتها والإقامة بها[7]، خاصة وأنَّ فترة القرن السادس الهجري وما بعده عرفت انتشارا واسعا للتصوُّف في بلاد المغرب واعتقاد الناس في الأولياء والصالحين.

ب- السياسية والمذهبية: لبلاد المغرب روابط تاريخية ببلاد الشام، منذ أن كانت مركز الخلافة الإسلامية في أهم وأزهى أدوارها، وهي الخلافة الأموية بدمشق (41- 132هـ/ 661- 750م) إذ مَثّلت بلاد المغرب إحدى ولايات هذه الدولة، كما كانت بالنسبة للمغاربة معقل ورمز الخلافة السنية، لاسيما بعد الصراع السني الشيعي في المغرب والمشرق والذي يمثّل أحد مظاهره موقف الفقيه المالكي النابلسي الذي اعتبر العبيديين أخطر من الروم حيث قال: " لو أنَّ معي عشرة أسهم، لرميتُ تسعة في المغاربة وواحدا في الروم "، ويقصد بالمغاربة العبيديين، وقدقُتِل شهيدا سنة 363هـ-973م بعد أن سلخ المعز العبيدي جلده عن لحمه حيًّا[8]. كما يُمكن أن يكون هنا للعلماء والفقهاء دورا في تشجيع الهجرة إلى بلاد الشام

1- البلخي: المصدر السابق، ج1، ص193.

2- أبو الفداء: تقويم البالدان، ص227/ البلخي: نفسه، ج1، ص193.

3- المواكب الإسلامية في الممالك والمحاسن الشامية، ق2، ص361 وما بعدها.

4- الدرُّ المنتخب في تاريخ مملكة حلب، تقديم محمد عبد الله الدرويش، دار الكتاب العربي، دمشق، 1404هـ- 1984م، ص15/ ابن العديم: زبدة الحلب في تاريخ حلب، تحقيق ونشر سامي الدهان، مكتبة الإسكندرية، د ت، ج1، ص32.

5- أبو الفداء: المصدر نفسه، ص208/ ياقوت الحموي: المصدر السابق، مج2، ص168/ الصالحي الدمشقي: المصدر نفسه، ص23/ ابن الوردي: خريدة العجائب وفريدة الغرائب، تصحيح وتعليق محمود فاخوري، دار الشرق العربي، بيروت- حلب، ص50.

6- ابن بطوطة: المصدر السابق، ص75/ ابن سباهي زاده: المصدر السابق، ص297/ أبو الفداء: المصدر السابق، ص230/ ياقوت الحموي: المصدر نفسه، مج2، ص168/ الصالحي الدمشقي: المصدر نفسه، ص57- 58.

7- الحاج عيفة: " عوامل استقطاب المغاربة إلى بلاد الشام بين القرن 6- 9هـ، مجلة دراسات تاريخية، صص33- 56، مركز البصيرة للبحوث والاستشارات والخدمات التعلمية، العدد1، توزيع دار الخلدونية، الجزائر، 1435هـ- 2013م، ص35.

8- القاضي عياض: ترتيب المدارك، مج2، ص19/ ابن الأثير: المصدر السابق، مج2، ص1794/ الذهبي: العبر في خبر من غبر، ج2، ص116.

من خلال كتاباتهم، لاسيما إذا كانت ذات طابع فقهي ومن كبار العلماء مثل عز الدين بن عبد السلام[1] في كتابه ترغيب أهل الإسلام في سكن الشام.

ج- عوامل طبيعية واقتصادية: تعدُّ بلاد الشام أرضا فلاحية، وفَّرت شروط العيش لقاطنيها، كما أنها طريق تجاري إذ تربط بين مصر والجزيرة العربية بالعراق وبلاد الروم، ويكفي أن ندلِّل على الرخاء الاقتصادي وصْفُ الجغرافيين لمدن الشام، إذ يقول ابن بطوطة مثلا عن مدينة حمص، أنها مدينة مليحة أرجاؤها مؤنقة وأشجارها مورقة وأنهارها متدفقة[2]، فيما وصف المقري بشيء من الإعجاب والانبهار مدينة دمشق قائلا: " دمشق الشام ذات الحسن والبهاء والاحتشام، والأدواح المتضوعة ... والغوطة الغناء والحديقة، والأظلال الوريفة والأفنان الوريقة، والزهر الذي تخاله مَبْسِمًا والندى ريقه، والقضبان المُلدُ، التي تُشوِّقُ رائيها بجنة الخلد" ثم يضيف قائلا: " ورأينا من محاسنها ما لا يستوفيه من تأنَّقَ في الخطاب، وأطال في الوصف وأطاب، وإنْ ملأ من البلاغة الوطاب، ثم قال:

محاسِنُ الشَّامِ أجْلى ... مِنْ أنْ تُحاطَ بِحَدٍّ

لَوْلاَ حِمَى الشَّرعِ قُلْنا ... وَلَمْ نَقِفْ عِندَ حدٍّ[3]

أما ابن جبير فيقول عن هذه المدينة: " جنة المشرق، ومطلع حسنه المؤنق المشرق، وهي خاتمة بلاد الإسلام التي استقريناها، وعروس المدن التي اجتليناها "[4].

لا شكَّ أنّ محاسن الشام الطبيعية والاقتصادية التي كان يرويها العائدون بعد رحلاتهم العلمية والدينية، أو ما يكتبه الرحالة والجغرافيون كانت تثير فضول ورغبة البعض في

1- عز الدين بن عبد السلام: هو أبو محمد عبد العزيز بن عبد السلام بن أبي القاسم بن الحسن السلمي الدمشقي الملقب بسلطان العلماء، فقيه شافعي بلغ رتبة الاجتهاد حتى قيل عنه مفتي الأنام وشيخ الإسلام، وُلد سنة 577هـ- 1181م، نشأ في دمشق، برع في الفقه والأصول والعربية، درَّس وأفتى وصنَّف، انتهت إليه رئاسة المذهب مع الزهد والورع والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والصلابة في الدين، تولى الخطابة والتدريس بالزاوية الغزالية ثم الخطابة بالجامع الأموي، ولما سلَّم الملك الصالح إسماعيل قلعة صفد لصاحب صيدا الفرنجي سنة 638هـ- 1240م أنكرا عليه ذلك هو وأبا عمرو بن الحاجب، فسجنه ثم أطلق سراحه فالتحق بمصر حيث ولاه صاحبها نجم الدين أيوب (638- 647هـ/ 1240- 1249م) القضاء والخطابة، ثم اعتزل ولزم بيته إلى أن توفي بالقاهرة سنة 660هـ- 1262م. من مصنفاته: التفسير الكبير والإلمام في أدلة الأحكام وقواعد الأحكام في إصلاح الأنام وغيرها. الذهبي: العبر في خبر من غبر، ج3، ص299/ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة في تاريخ مصر والقاهرة، ص284/ اليافعي اليمني: مرآة الجنان، ج4، ص116/ النعيمي الدمشقي: الدارس في تاريخ المدارس، ج1، ص419/ ابن القنفذ: شرف الطالب، ص222- 223.

2- ابن بطوطة: المصدر السابق، ص86.

3- المقري: نفح الطيب، مج1، ص64- 65.

4- ابن جبير: المصدر السابق، ص209- 210/ الصالحي الدمشقي: المصدر السابق، ص364/ ابن الوردي: المصدر السابق، ص48/ ابن بطوطة: المصدر السابق، ص104/ ياقوت الحموي: المصدر السابق، مج2، ص307 وما بعدها/ الحميري: المصدر السابق، ص237.

الهجرة إلى بلاد الشام والاستقرار بها، لاسيما لمن ضاقت بهم سبل العيش في بلدهم لأي سبب من الأسباب.

د- العوامل الثقافية: يُعدُّ طلب العلم من أقوى الأسباب الباعثة على الهجرة ولذلك فقد مَّثلت دمشق بإرثها التاريخي والحضاري أحد أهم الحواضر العلمية والثقافية في العالم الإسلامي إذ يُعدُّ المسجد الأموي[1] من المراكز العلمية على مرِّ العصور، وقد كان للنهضة العلمية التي شهدتها الشام في عهود الدولة النورية والأيوبية ثم دولة المماليك دورا في جلب العلماء والطلبة من الغرب الإسلامي، ومن المغرب الأوسط بالخصوص، وذلك بفضل إنشاء العديد من المؤسسات الثقافية من مدارس وزوايا ورباطات ومساجد، حيث بلغ عدد المدارس مثلا في العهد النوري ثمانية وخمسين مدرسة[2] والتي كانت تحتوي على كل مرافق الإقامة من مساكن ومستلزمات الحياة ومزوَّدة بالمكتبات والمدرِّسين والمشرفين، ومما زاد في استقطاب المغاربة إليها أنَّ بعض هذه المدارس كان مخصَّصا للمالكية مذهب أهل المغرب الذين كثر أتباعه هناك، وهو ما وفّر وظائف لأهله كالتعليم والقضاء والإمامة، ومن أشهر مدارس المالكية بالشام:

- مدرسة الزاوية المالكية[3]: من مدارس الجامع الأموي بدمشق، واقفها السلطان الملك الناصر صلاح الدين، ملاصق المقصورة الحنفية من غربي الجامع، درَّس بها إمام المالكية ابن الحاجب أبو عمرو عثمان إلى أن خرج منها صحبة الشيخ عز الدين بن عبد السلام.

- المدرسة الشرابيشية: نسبة إلى شهاب الدين أحمد بن نور الدولة علي بن أبي المجد بن محاسن الشرابيشي التاجر السفار (ت734هـ- 1333م)، تقع بدرب الشعارين لصيق حمام صالح، داخل باب الجابية[4].

- المدرسة الصمصامية: تقع بمحلة حجر الذهب شرقي دار القرآن الوجيهية وقبلي المسرورية الشافعية، وقّف عليها شمس الدين غبريال (وهو عبد الله بن صنيعة القبطي الوزير، أسلم سنة 701هـ- 1301م) وعيَّن للتدريس بها نور الدين علي بن عبد النصير، وممن حضر عنده الشيخ تقي الدين ابن تيمية، وبها يسكن قاضي المالكية وقعوده للأحكام[5].

- المدرسة الصلاحية: وتسمى كذلك بالمدرسة النورية، قيل أنشأها الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي بن آقسنقر، إلاّ أنَّ بعض المحققين ينسبون بناءها لابنه الملك الصالح

1- ابن الوردي: المصدر السابق، ص49/ الحميري: المصدر السابق، ص238/ يقول ابن بطوطة عن مجاوريه: "وفي هذا المسجد جماعة كبيرة من المجاورين لا يخرجون منه، مقبلون على الصلاة والقراءة والذكر". المصدر السابق، ص109.

2- عن هذه المدارس يُمكن العودة إلى كتاب " الدارس في تاريخ المدارس " لعبد القادر النعيمي الدمشقي.

3- عبد القادر النعيمي: المصدر السابق، ج2، ص3- 4.

4- نفسه، ج2، ص7- 8/ ابن بطوطة: المصدر السابق، ص104، 115.

5- نفسه، ج2، ص8/ ابن بطوطة: المصدر نفسه، ص115.

إسماعيل (569- 577هـ/ 1173- 1181م)، فلما فرغ من بنائها، نقله من القلعة ودفنه بها وهي تشمل بعض دار هشام بن عبد الملك بن مروان[1]، قال الذهبي: في كتابه دول الإسلام: " وكانت داره عند الخوَّاصين، وهي اليوم تربة الملك نور الدين ومدرسته "[2] وكانت قديما دار معاوية بن أبي سفيان، فعُمِل منها مدرسة، وممن درَّس بها ابن الحاجب.

وجد أهل بلاد المغرب عموما في الشام كل الرعاية ولاسيما في عهد نور الدين محمود بن زنكي (541- 569هـ/ 1146- 1173م) حيث فضَّلهم على الجاليات المسلمة الأخرى[3] ولاسيما في تحريرهم من الأسر، فقد نذر في مرضة أصابته تفريق اثني عشر ألف دينار في فداء أسرى من المغاربة، فلما استبل من مرضه أرسل في فدائهم، فسيق فيهم نفر ليسوا من المغاربة - وكانوا من حماه من جملة عمالته - فأمر بصرفهم وإخراج عوض منهم من المغاربة، وقال: " هؤلاء يفديهم أهلوهم وجيرانهم، والمغاربة غرباء لا أهل لهم "[4]، وقد حظي أهل المغرب الأوسط هناك بمكانة واحترام متميزين ويعود ذلك لبلائهم في الحروب ضد الصليبيين لتحرير مناطق بلاد الشام، ولأمانتهم[5] ومروءتهم، حتى أنَّ إقامتهم ومتطلبات معايشهم كانت مكفولة لهم بفضل الأوقاف الكثيرة، ولنترك وصف ذلك لابن جبير الذي يقول: " ولكل مشهد من المشاهد أوقاف معينة، من بساتين أرض بيضاء ورباع، حتى لأنَّ البلد تكاد الأوقاف تستغرق جميع ما فيها، وكل مسجد يُستحدث بناؤه، أو مدرسة أو خانقة[6]، يعيِّن لها السلطان أوقافا تقوم بها بساكنيها الملتزمين لها "[7].

لم يقتصر الوقف لصالح المجاورين والغرباء على الأغنياء من الأمراء والتجار فحسب، بل شاركت فيه النسوة كذلك، يقول ابن جبير: "ومن النساء الخواتين ذوات الأقدار من تأمر ببناء مسجد أو رباط أو مدرسة ، وتنفق فيها الأموال الواسعة، وتُعيّن لها من أموالها الأوقاف "[8]. ومن مظاهر الاعتناء بالمغاربة واستقبالهم أنَّ عماد الدين القيصراني

1- عبد القادر النعيمي: المصدر السابق، ج1، ص606 وما بعدها. ج2، ص10 وما بعدها/ ابن بطوطة: المصدر السابق، ص115/ حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام، ج4، ص403.

2- الذهبي: ج1، ص113.

3- الحاج عيفة: المقال السابق، ص40.

4- ابن جبير: المصدر السابق، ص244.

5- يقول ابن بطوطة: " وأهل دمشق يتنافسون في عمارة المساجد والزوايا والمدارس والمشاهد، وهم يُحسنون الظن بالمغاربة، ويطمئنون إليهم بالأموال والأهلين والأولاد "، المصدر نفسه، ص122/ أما ابن جبير فيقول في نفس الموضوع : " وليس يُؤتمن فيها كلها سوى المغاربة الغرباء، لأنهم قد علا لهم بهذا البلد صيت في الأمانة، وطار لهم فيها ذكر "، الرحلة، ص222.

6- خانقاه: أو خانقة، كلمة فارسية وهي البيت المخصص لإقامة الزهاد والمتصوِّفة. ابن جبير: المصدر السابق، ص226/ الحميري: المصدر السابق، ص240.

7- رحلة ابن جبير، ص220/ ابن بطوطة: المصدر السابق، ص122.

8- ابن جبير: المصدر نفسه، ص220.

كاتب الملك الناصر، كان إذا سمع أنَّ مغربيا وصل إلى دمشق بحث عنه وأضافه وأحسن إليه، فإنْ عرف منه الدين والفضل أمره بملازمته[1]، ورغم أنَّ البعض أوعز ذلك إلى رغبة المماليك في تحقيق أهداف سياسية وهي اعتراف الفقهاء والقضاة والمتصوِّفة وأهل العلم عموما بسلطتهم وحكمهم، إلاَّ أنَّ ذلك لا يعني إقصاء الفئة العامة من الإقامة بالشام بدليل وجود البعض من اشتغل في مهن حقيرة كما سنرى لاحقا، وكان أيضا لأبي الربيع سليمان بن إبراهيم بن مالك المسوفي أحد أمناء الأوقاف اهتماما بإيواء أهل المغرب من الغرباء والمنقطعين[2]. ومن الذين كان لهم عناية بخدمة وإكرام الغرباء أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله بهاء الدين أبو محمد بن عساكر الدمشقي[3]، كما ساهم الأهالي من جهتهم في التكفُّل بهؤلاء المجاورين وذلك بإطعامهم وكسوتهم[4].

لم تكن سبل عيش المهاجرين تنحصر في الأوقاف وحدها، بل أوكلت لهم بعض الوظائف العلمية والدينية كالإمامة أو سدانة مشهد من المشاهد، أو في الخدمات كالقيام على البساتين والطواحين والحمامات وكفالة الصبيان[5] وغيرها للاسترزاق منها لاسيما وأنَّهم عُرفوا بالأمانة كما ذكرنا أعلاه.

حظي أهل المغرب عموما بمكانة متميِّزة وبالخصوص من كان على قدر من العلم أو طالبا له أو حافظا لكتاب الله فأوقفت لهم مرافق الاستقبال والإقامة التي لا تُحص عددا[6] وكأنِّي بالرحالة ابن جبير يطلب من الشباب الهجرة نحو المشرق في قوله: " فمن شاء مِن نَشَأَ َة مغربنا فليرحل إلى هذه البلاد ويتغرَّب في طلب العلم، فيجد الأمور المعينات كثيرة " ثم يضيف قائلا: " فهذا المشرق باب مفتوح لذلك، فادخل أيها المجتهد بسلام وتغنَّم الفراغ والانفراد قبل علق الأهل والأولاد "[7]، وإذ بدا لنا أنَّ هذا يدخل في إطار الرحلات العلمية التي قد يعود صاحبها بعد حصوله على درجة من العلم، فالأكيد كذلك أنَّ عددا كبيرا منهم سيستقر هناك لاسيما إذا ارتبط بعمل أو وظيفة وكوَّن أسرة.

وفي الأخير نقول أنَّ كل الظروف كانت مهيأة بالمشرق لاستقبال مهاجري المغرب الأوسط، سواء ما تعلَّق بالإيواء والإقامة، أو ما تعلَّق بالجانب الاجتماعي من حيث الاندماج والعمل وسبل العيش، وهي ظروف كلها تبدو مشجِّعة على الاستقرار هناك، لاسيما بعد القضاء على الدولة العبيدية والمذهب الشيعي اللَّذان كانا حاجزا أمام مرور المغاربة عبر

1- ابن بطوطة: المصدر السابق، ص123.

2- ابن جبير: المصدر نفسه، ص221.

3- الذهبي: تذكرة الحفاظ، ج4، ص1367.

4- ابن بطوطة: المصدر نفسه، ص109

5- ابن جبير: المصدر نفسه، ص221- 222.

6- نفسه، ص227/ الحميري: المصدر السابق، ص240.

7- ابن جبير: المصدر نفسه، ص227.

مصر واستقرارهم بالشام، وفي ذلك يقول النعيمي الدمشقي عن نور الدين محمود بن زنكي: "وأظهر السُّنَّة بحلب وغيَّر البدعة التي كانت في التأذين، وقمع الرافضة، وبنى بها المساجد والمدارس، ووسَّع في أسواقهاومنع أخذ ما كان يِخذ منهم من المغارم ... ولقد أحسن إلى العلماء وأكرمهم، وبنى دور العدل وحضرها بنفسه، ووقف على المرضى، وأدرَّ على الضعفاء والأيتام وعلى المجاورين "[1].

دور أهل المغرب الأوسط في جهاد الصليبيين: لا شكَّ أنَّ علاقة المغرب الإسلامي بالمشرق قد توطَّدت ابتداء من النصف الثاني من القرن السادس الهجري/ الثاني عشر ميلادي، أي بعد زوال دولة بني عبيد، وهي الفترة التي عرفت طمع الصليبيين في احتلال مصر بعد أن استولوا على بيت المقدس وبعض مناطق الشام[2]، ولذلك كان التقارب بين حكام بلاد الشام (الدولة النورية ثم الصلاحية) وأهل المغرب مفيدا لأولئك لتحقيق عدة أهداف منها القضاء على المذهب الشيعي وإعادة الاعتبار للمذهب السّنّي والاعتراف بحكمهم، ومن جهة أخرى التصدي للتوسُّع الصليبي نحو الغرب ففُتِحت لهم الطريق للهجرة إلى المشرق للدفاع عن المقدَّسات الإسلامية ونيل الشهادة هناك، ومما يُؤكّد تلك العلاقات وبخاصة في وقت الشدَّة، المبعوث الذي أوفده صلاح الدين إلى يعقوب المنصور الموحدي سنة 585هـ- 1189م، وعن ذلك يقول ابن خلدون: "وانقضَّت أمم النصرانية من كل جهة واعترضوا أسطول صلاح الدين في البحر، فبعث صريخه إلى المنصور، يطلب منه إعانته بالأساطيل ... ووفد عليه أبو الحارث عبد الرحمن بن منقذ ... فلقيه وأدى إليه الرسالة فاعتذر له عن الأسطول وانصرف، ويُقال إنه جهَّز له بعد ذلك مائة وثمانين أسطولا "[3]، وحتى وإن لم يتم ذلك على المستوى الرسمي، فتكون تلك الدعوة قد لقيت استجابة فردية على الأقل من المتطوِّعة للجهاد.

وجد أهل المغرب الأوسط الفرصة لمساندة إخوانهم في المشرق ضد الصليبيين، كيف لا وقد عُرفوا بجهادهم في الأندلس مع محمد بن أبي عامر ثم مع المرابطين، بل مع كل الدول التي خاضت حركة الجهاد في الأندلس، وما من شكٍّ كذلك أنّهم ساهموا في المعارك ضد الصليبيين[4] سواء مع نور الدين زنكي[5] أو مع صلاح الدين الأيوبي، وهو ما نلمسه من كثرة من وقع في الأسر لدى العدو، وقد ذكر ابن جبير أسيرا من مدينة بونة[6] لكن لم يذكر

1- النعيمي الدمشقي: المصدر السابق، ج1، ص607- 608.

2- كان ابتداء غزو الصليبيين لبلاد الشام وبيت المقدس سنة 491هـ- 1097م. ابن الأثير: المصدر السابق، مج2، ص2179 وما بعدها/ أبو الفدا: المختصر في أخبار البشر، ج2، ص297/ الذهبي: دول الإسلام، ج1، ص425.

3- ابن خلدون: المصدر السابق، مج2، ص1923.

4- أحمد مختار العبادي: في تاريخ المغرب والأندلس، ص118.

5- من المعارك التي يكون قد شارك فيها المغاربة وقعة بانياس ضد الإفرنج سنة 552هـ. ابن القلانسي ذيل تاريخ دمشق، مطبعة الآباء اليسوعيين، بيروت، 1908م، ص340/ ابن العديم: زبدة الحلب من تاريخ حلب، ج2، ص308.

6- رحلة ابن جبير، ص244.

اسمه، كما أورد ابن شداد أنَّ رسول الإنكتير أحد ملوك الإفرنج أهدى أسيرا مغربيا[1] للسلطان صلاح الدين الأيوبي سنة 587هـ- 1191م إثر صلح جرى بينهما.

تقديرا للدور الجهادي الذي قام به هؤلاء، جعلهم أولى مَن يفدى مِن الأسرى قبل أسرى أهل الشام، فقد خصَّص السلاطين والأثرياء من التجار وحتى النساء أموالا كثيرة لاستخلاصهم من يد العدو وفي ذلك يقول ابن جبير: "ومن جميل صنع الله تعالى لأسرى المغاربة بهذه البلاد الشامية الإفرنجية، أنَّ كل مَن يخرج مِن ماله وصية من المسلمين بهذه الجهات الشامية وسواها، إنَّما يُعيِّنها في افتكاك المغاربة خاصة لبعدهم عن بلادهم ... فهم الغرباء المنقطعون عن بلادهم، فملوك أهل هذه الجهات من المسلمين والخواتين من النساء، وأهل اليسار والثراء إنما يُنفقون أموالهم في هذه السبيل "[2]، ونفس الأمر قام به بعض التجار اتجاه المغاربة، وقد اشتهر اثنان من تجار دمشق في هذا السبيل وهما: نصر بن قوام، وأبي الدر ياقوت مولى العطافي اللذان يقول فيهما ابن جبير: " وقد نصبهما الله عز وجل لافتكاك الأسرى المغربيين بأموالهما وأموال ذوي الوصايا لأنهما المقصودان بها، لما قد اشتهر من أمانتهما وثقتهما وبذلهما أموالهما في هذا السبيل، فلا يكاد مغربي يخلص من الأسر إلا على أيديهما "[3].

كما خُصِّصت في هذا الشأن أوقافا لفكاك الأسرى[4]، ونظرا لبلاء المغاربة في جهاد الصليبيين فقد أضحوا محل حقد ومتابعة من طرف هؤلاء وهو ما جعلهم يخصُّونهم بالضرائب والمكس دون غيرهم من التجار ومجتازي المناطق التي تحت نفوذهم، يُبيِّن ابن جبير سبب ذلك قائلا: " وأكثر المعترضين في هذا المكس المغاربة، ولا اعتراض على غيرهم من جميع بلاد المسلمين وذلك لِمَقْدَمةٍ منهم أحفظت الإفرنج عليهم، سببها أنَّ طائفة من أنجادهم غزت مع نور الدين رحمه الله أحد الحصون، فكان لهم في أَخْذِه غنى ظهر واشتهر، فجازاهم الإفرنج بهذه الضريبة المُكسية ألزموها رؤوسهم "وقالوا: "فلما تألَّبوا مع إخوانهم المسلمين علينا، وجب أن نضع هذه الضريبة عليهم "[5] وهو ما يُعتبَر اعترافا بدور هؤلاء المغاربة في الجهاد، والذي أكسبهم الثناء والذكر الجميل من قِبَل سكان وسلاطين بلاد الشام.

<u>المهاجرون من المغرب الأوسط في بلاد الشام:</u> سنورد أشهر من هاجر واستقرَّ ببلاد الشام ممن ذكرتهم كتب التراجم:

1- ابن شداد: النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية أو سيرة صلاح الدين، تحقيق جمال الدين الشيال، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط2، 1415هـ- 1994م، ص251/ ابن العبري: المصدر السابق، ص387.

2 - ابن جبير: المصدر السابق، ص244/ ابن تغري بردي: المصدر السابق، ص228.

3- ابن جبير: المصدر نفسه، ص244.

4- ابن بطوطة: المصدر السابق، ص122.

5- ابن جبير: المصدر نفسه، ص239.

* **الأشيري أبو محمد عبد الله بن محمد بن عبد الله بن علي الصنهاجي (ت561هـ-1165م):** إمام أهل الحديث والفقه والأدب، رحل إلى المغرب والأندلس فسمع من أبي جعفر بن غزلون وابن العربي، خدم خلفاء الدولة الموحدية إلى أن جرى له معهم أمر خشي عاقبته فانصرف عنهم ونزل على العلاء محمود الغزنوي المُدرِّس بمدرسة الحلاويين بمدينة حلب، فأسمع بها الحديث سنتي 558- 559هـ/ 1162- 1163م، ثم توجَّه إلى دمشق فأقام بها وحدَّث بالموطأ، ومنها توجَّه إلى بغداد فحدَّث بها، ثم سار إلى مكة فحجَّ وجاور مدة عاد إلى الشام حيث توفي ببقاع بعلبك من أعمال حمص[1].

* **البوني إبراهيم بن يوسف بن محمد وجيه الدين أبو الفرج (ت612هـ- 1215م):** من مدينة بونة، كان من كبار المقرئين، استقرَّ بدمشق وتولى إمامة الحنفية بها[2].

* **التلمساني زين الدين أبو حفص عمر بن سعيد بن يحي (ت756هـ - 1355م):** كان أمينا بدمشق في طاحون أشنان ثم اتّصل بخدمة علاء الدين الحاجب الناصري (ألطنبغا) نائب الشام فعُيِّن على قضاء حلب سنة 752هـ- 1351م رغم جهله وذلك بعد عزل الشهاب الرياحي، واستمرَّ في قضاء المالكية إلى أن توفي[3].

* **التلمساني عفيف الدين سليمان بن علي بن عبد الله الكومي (ت690هـ- 1291م):** أصله من قبيلة كومية، أديب وشاعر، له شعر جيِّد، دخل البلاد المشرقية على فتاء من سنه فنزل القاهرة بخانقاه سعيد ثم استوطن دمشق وحظي بها، كان متصوفا يتبع طريق ابن عربي وقيل أنّه كان على مذهب النصيرية، له شرح الفصوص لابن عربي، توفي بدمشق ودُفِن بمدافن الصوفية[4].

* **ابن حُلو**: أصله من مدينة جيجل، عاش خلال القرن السادس الهجري، رحل إلى المشرق وسكن مدينة دمشق[5].

1- ياقوت الحموي: المصدر السابق، مج1، ص165/ الذهبي: العبر، ج3، ص35- 36/ دول الإسلام، ج2، ص64/ القفطي: انباه الرواة، ج2، ص137 / عمار هلال: المرجع السابق، ص163/ يحي بوعزيز: أعلام الفكر والثقافة في الجزائر المحروسة، ج1، ص32.

2- عادل نويهض: المرجع السابق، ص47.

3- ابن حجر: المصدر السابق، س3، ص243/ الذهبي: العبر في خبر من غبر، ج4، ص169/ عادل نويهض: المرجع السابق، ص73- 74.

4- ابن القاضي: درة الحجال، ص435/ الذهبي: العبر، ج3، ص382/ اليافعي اليمني: مرآة الجنان، ج4، ص162/ الحفناوي: المرجع السابق، ج2، ص252/ عادل نويهض: المرجع نفسه، ص235/ عمار هلال: المرجع نفسه، ص173/ الحاج محمد بن رمضان شاوش: باقة السوسان، ج2، ص119.

5- عادل نويهض: المرجع نفسه، ص122.

* **التلمساني محمد بن يحي بن سليمان (ت794هـ - 1392م):** قاض من أهل تلمسان، بها نشأوتعلَّم، رحل إلى المشرق فولي قضاء حماه ثم طرابلس الشام ثم دمشق، دخل مصر لكنه نُفي منها إلى مدينة الرملة بفلسطين التي توفي بها[1].

* **الجزائري أحمد بن محمد بن الحسن (ت760هـ- 1359م):** وهو من المحدِّثين وأحد الفقهاء، رحل إلى المشرق وسمع من العز الحراني وحدَّث عنه، ومن النظام الخليلي وهو آخر من حدَّث عنه، توفي بمدينة غزة بفلسطين[2].

* **الزواوي عبد الرحمن بن عبد الله ضياء الدين الغماري (ت644هـ- 1246م):** من فقهاء المالكية، نحوي ومشارك في كثير من العلوم، سكن دمشق، تولى التدريس في زاوية المالكية مكان ابن الحاجب، مات بدمشق[3].

* **الزواوي عبد السلام بن علي بن عمر بن سيد الناس أبو محمد زين الدين (ت681هـ- 1282م):** وُلد ببجاية، انتقل شابا إلى مصر فقرأ بالإسكندرية والقاهرة، انتقل إلى دمشق سنة 617هـ- 1220م، كان شيخ مشايخ الإقراء بدمشق، درَّس بالمدرسة الصلاحية، وهو أول من تولى قضاء المالكية لمدة تسع سنين وذلك لمَّا تَقرَّر أن يكون القضاء في الولايات على المذاهب الأربعة، ثم عزل نفسه[4].

* **الزواوي محمد بن سليمان بن يوسف جمال الدين أبو عبد الله جمال الدين (ت717هـ - 1317م):** من أكابر فقهاء المالكية، قدِم الإسكندرية حدثا سنة 645هـ- 1247م وعمره خمس عشرة سنة، فاشتغل بالفقه والحديث على يد مشايخها منهم عز الدين بن عبد السلام فتفقَّه وبرع في المذهب، وُلي قضاء عدة مدن بمصر منها القاهرة، ثم انتقل إلى دمشق سنة 687هـ- 1288م فتولى قضاء المالكية مدة ثلاثين سنة حتى قيل أنَّ في أيامه ظهر من أحكام مذهب مالك ما لم يكن معروفا قبل ذلك، ثم عُزل عنه قبل عشرين يوما من وفاته لمرض أصابه لم يستطع مباشرة الأحكام[5].

1- عادل نويهض: المرجع السابق، ص83.

2- ابن حجر: المصدر السابق، س1، ص262/ عادل نويهض: المرجع نفسه، ص98.

3- النعيمي الدمشقي: المصدر السابق، ج2، ص5/ عادل نويهض: المرجع نفسه، ص162.

4- الذهبي: دول الإسلام، ج2، ص205. العبر، ج3، ص348/ النعيمي الدمشقي: المصدر نفسه، ج1، ص322، ج2، ص5، 11/ عادل نويهض: المرجع نفسه، ص162/ عمار هلال: المرجع السابق، ص171.

5- البرزالي: الوفيات، صص410- 412/ الذهبي: ذيول العبر، ج4، ص47/ النعيمي الدمشقي: المصدر نفسه، ج2، ص5، 12/ ابن فرحون: المصدر السابق، ص413/ اليافعي اليمني: المصدر السابق، ج4، ص193/عادل نويهض: نفسه، ص164/ عمار هلال: المرجع نفسه، ص180.

* **الزواوي يوسف بن عبد السلام بن علي بن عمر جمال الدين أبو يعقوب (ت683هـ - 1284م):** قاض من كبار العلماء، رحل مع والده واستقرَّ بدمشق ونشأ بها وتعلَّم، درَّس بالمدرسة المالكية بعد وفاة زين الدين الزواوي السابق، توفي وهو في طريق الحجاز[1].

* **الزواوي محي الدين الدين يحي بن صالح بن عتيق (ت710هـ - 1310م):** كان فقيها فاضلا، ناب عن القاضي المالكي بدمشق مدة ثم عزله ثم أعاده واستمرَّ إلى أن توفي يوم عيد الفطر بالمدرسة الشرابشية[2].

* **الزواوي محمد بن مسعود بن سليمان بن سومر فخر الدين:** من فقهاء المالكية، لم تذكر المصادر تاريخ وفاته، أفتى ودرَّس وناب في الحكم عن عمه بدمشق نحوًا من ثلاثين سنة كان مشهورا بالتصميم والنزاهة والعدل في الأحكام[3].

* **الغساني عبد الله بن يحي بن أبي بكر بن يوسف أبو محمد جمال الدين:** من مدينة جزائر بني مزغنى، رحل إلى المشرق وسكن دمشق، من أثاره تخريج الأحاديث الضعاف من سنن الدارقطني، منه مخطوط بيده في السليمانية بإسطنبول[4].

* **القلعي ابن البذوخ عمر بن علي أبو جعفر (ت575هـ- 1179م):** وُلد وتعلَّم ونشأ بقلعة بني حماد، طبيب خبير بالأدوية المفردة والمرَّكبة، كان له اعتناء بعلم الحديث، من مؤلفاته الطبية " لطائف الأنوار في الطب "، أقام بدمشق وتوفي بها[5].

* **الملياني سعيد بن محمد بن سعيد (ت771هـ- 1369م):** من أعيان المالكية، كان شيخا في العربية، دخل القاهرة سنة 720هـ- 1320م فسمع بها عن جماعة ثم تحوَّل إلى دمشق وتصدَّرَ بها لإقراء العربية إلى أن مات[6].

* **الوهراني علي بن عبد الله بن ناشر بن المبارك أبو بكر ويقال أبو الحسن (ت615هـ- 1217م):** مفسِّر ونحوي، له شعر جيِّد، وُلد ونشأ بوهران، رحل إلى المشرق وسكن

1- النعيمي الدمشقي: المصدر السابق، ج2، ص5/ عادل نويهض: المرجع السابق، ص168/ عمار هلال: المرجع السابق، ص172.

2- البرزالي: المصدر السابق، ص114/ ابن حجر: المصدر السابق، س4، ص416.

3- ابن حجر: المصدر نفسه، س4، ص255.

4- عادل نويهض: المرجع نفسه، ص251.

5- نفسه، ص362/ عمار هلال: المرجع نفسه، ص164.

6- ابن حجر: المصدر نفسه، س2، ص136/ السيوطي: بغية الوعاة، ج1، ص588/ عادل نويهض: المرجع نفسه، ص316.

دمشق ووُلي الخطابة بجامع داريا، إمام فاضل من أثاره تفسير القرآن الكريم وشرح شواهد الجمل للزجاجي في النحو[1].

* **الوهراني محمد بن محرز ركن الدين وقيل جمال الدين (ت575هـ- 1179م):** أحد الفضلاء الظرفاء، قدِم الديار المصرية أيام السلطان صلاح الدين الأيوبي، سلك طريق المزاح والدعابة،رحل إلى دمشق في عهد نور الدين محمود بن زنكي، وُلِّيَ الخطابة بجامع داريا وتوفي بها، من مؤلفاته كتاب المنامات المعروف بمنامات الوهراني، جمع فيه أنواعا من المجون والأدب، وجليس كل ظريف، توجد مخطوطة منه تحت رقم 1/AH665 بجامعة برنستن (و.م.أ)[2].

يظهر أنَّ عدد المهاجرين من المغرب الأوسط إلى الشام قد ارتفع بعد القرن السادس الهجري أين استقرَّ معظمهم في دمشق وحلب وبعدد أقل في فلسطين ولبنان، وذلك للأسباب التي ذكرناها سابقا، وقد اندمج هؤلاء المهاجرين مع الأهالي حيث كسبوا ودَّهم، في حين عاش آخرون في شكل مجموعات (جاليات) يترأسها شيخ منهم يعودون إليه في أمورهم وأحكامهم، وهو ما نستنتجه من نص لابن بطوطة يقول فيه: " سافرتُ عن القدس، ورافقني الواعظ المحدِّث شرف الدين الملياني، وشيخ المغاربة بالقدس الصوفي الفاضل طلحة العبد الوادي[3] فوصلنا إلى مدينة الخليل- عليه السلام- وزرناه "[4]. ويبدو أنَّ هؤلاء قد أصبحت لهم بطول مقامهم هناك معرفة بالمواضع والمشاهد ولاسيما المقدَّسة منها،جعلهم كأدلاَّء لمن يرغب في زيارتها من أهل المغرب.

3-3 الهجرة إلى مصر: إنَّ علاقة المغرب الأوسط بمصر علاقة تاريخية تعود إلى ما قبل الفتح الإسلامي أي إلى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم وما ورد في فضلها منها أنّه صلى الله عليه وسلم كتب إلى جماعة من الملوك يدعوهم إلى الإسلام فما أجابه أحد منهم وكتب إلى المقوقس صاحب مصر فأجابه عن كتابه جوابا جميلا وأهدى إليه ثيابا وكراعا وجاريتين أو أربع من القبط[5]، أما في العهد الإسلامي فقد كانت مصر وبلاد المغرب ولاية واحدة عند بداية الفتح قبل أن تنفصل هذه الأخيرة بعد تأسيس مدينة القيروان، كما أنَّ مصر

1- السيوطي: بغية الوعاة، ج2، ص172/ عادل نويهض: المرجع السابق، ص349/ عمار هلال: المرجع السابق، ص169.

2- الذهبي: العبر، ج3، ص69- 70/ الحفناوي: المرجع السابق، ج2، ص481.

3- لم أعثر له على ترجمة.

4- ابن بطوطة: المصدر السابق، ص660.

5- الكندي: فضائل مصر: تحقيق إبراهيم أحمد العدوي وعلي محمد عمر، دار الفكر، بيروت، ط1، 1391هـ- 1971م، ص23 وما بعدها/ ابن زولاق: المصدر السابق، ص18 وما بعدها/ ابن الأثير: المصدر السابق، مج1، ص326/ ابن خلدون: المصدر السابق، مج1، ص594/ صفي الرحمن المبارك فوري: الرحيق المختوم، دار الوفاء للطباعة، المنصورة، 1408هـ- 1987م، ص414 وما بعدها.

مّثلت أحد قواعد المذهب المالكي بعد المدينة والأندلس والتي أصبح أعلامها مرجعية فقهية لأهل المغرب بعد الأمام مالك مثل الليث بن سعد[1] وابن وهب[2] وابن لهيعة[3] وغيرهم.

إضافة إلى ذلك فإن مصر تقع في طريق الحاج إلى الحجاز والتي لابُدَّ من المرور عليها، ولا شكَّ أنَّ حجاج بلاد المغرب عموما كانوا يتوقفون بها للاستراحة وبيع وشراء ما يلزمهم لإتمام الرحلة، أو المكوث بعض الأيام للأخذ عن علمائها، وبذلك أصبحت مصر بالنسبة لهم بلدا معروفا ومعتادا، لاسيما إذا تَكرَّرَ الحج.

كنا أشرنا سابقا أن فترة النصف الثاني من القرن السادس الهجري كانت بداية عودة و تحسُّن العلاقات بين مصر وبلاد المغرب وذلك في عهد صلاح الدين الأيوبي الذي أعاد الدعوة للخلافة العباسية بمصر وأعمالها[4]، وهي الخلافة الشرعية في نظر أهل المغرب، ولاشكَّ أنَّ هذا الإنجاز السياسي الذي حققه صلاح الدين بعد توليه نيابة مصر سنة 567هـ-1171م قد أكسبه مكانة لدى المسلمين، أما الأمر الثاني فهو إلغاء المذهب الشيعي وإعادة العمل بالمذهب السُّني سواء الشافعي أو المالكي وتظاهرا الناس بهما[5].

إنَّ رغبة صلاح الدين في الجهاد ضد الصليبيين لاسترجاع المدن والمقدَّسات الإسلامية[6]، بعد تطهير مصر من المذهب الشيعي لاسيما بعد تعاون الوزير شاور وبعض

1- الليث بن سعد: أبو الحارث الفهمي، شيخ الديار المصرية وعالمها، أصله فارسي من أصبهان، كان إماما ثقة حجة رفيعا واسع العلم، أخذ عن الإمام مالك وروى عن عطاء بن أبي رباح وابن أبي مُليكة وخلق كثير، وعنه أخذ ابن وهب، قال الشافعي وابن بكير الليث أفقه من مالك، توفي سنة 175هـ- 791م. الذهبي: العبر، ج1، ص206، دول الإسلام، ج1، ص158/ محمد مخلوف: المرجع السابق، ص27.

2- ابن وهب: أبو محمد عبد الله بن وهب بن مسلم القرشي مولى يزيد بن ريحانة، أحد الأئمة الأعلام، جمع بين الفقه والحديث والعبادة، روى عن أربعمائة عالم منهم مالك والليث وقرأ على نافع، وقيل أنَّ الإمام مالك لم يكتب بالفقيه لأحد إلا لابن وهب، فكان يكتب إليه: " إلى عبد الله مفتي أهل مصر "، قال عنه الإمام أحمد بن حنبل: ابن وهب عالم صالح فقيه كثير العلم صحيح الحديث ثقة صدوق، توفي سنة 197هـ- 812م. الكندي: المصدر السابق، ص40/ ابن فرحون: المصدر السابق، ص214/ القاضي عياض: المصدر السابق، مج1، ص243/ الذهبي: تذكرة الحفاظ، ج1، ص304. العبر، ج1، ص251. دول الإسلام، ج1، ص174/ محمد مخلوف: المرجع نفسه، ص58/ الحجوي الثعالبي: المرجع السابق، ج2، ص215.

3- ابن لهيعة: أبو عبد الرحمن عبد الله بن لهيعة بن عقبة بن فرغان الحضرمي المصري، قاضي الديار المصرية وعالمها ومحدِّثها، قال عنه سفيان الثوري: عند ابن لهيعة الأصول وعندنا الفروع، أما أحمد بن حنبل فقال: لم يكن بمصر مثل ابن لهيعة في كثرة حديثه وضبطه. الكندي: المصدر نفسه، ص40/ الذهبي: العبر، ج1، ص204. تذكرة الحفاظ، ج1، ص237.

4- ابن زولاق: المصدر السابق، ص107- 108/ ابن الأثير: المصدر السابق، مج2، ص2485/ أبو الفدا: المختصر في أخبار البشر، ج3، ص66/ الذهبي: العبر، ج3، ص49.

5- المقريزي: اتعاظ الحنفا، ج3، ص319- 320/ القاضي مجير الدين الحنبلي: الأنس الجليل، ص278.

6- ابن شداد: النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، ص53.

الأعيان مع الأعداء[1]، جعلت المسلمين عامة يرغبون في الجهاد تحت لوائه، ولذلك كانت الانتصارات العسكرية التي حقّقها ضد الصليبيين في الشام وفلسطين ولاسيما في معركة حطين[2]، واسترجاعه لكثير من المدن مثل عكا وقيسارية وحيفا ويافا وتبنين، ثم الفتح الأعظم لبيت المقدس[3] الذي ظلَّ في يد الصليبيين قرابة قرن من الزمن، حافزا للهجرة والعيش في دولته، وجعلت المسلمين عامة يفتخرون بأعماله ويجاهدون تحت لوائه.

لم تكن الإنجازات السياسية والعسكرية وحدها لتكسب صلاح الدين ذلك المقام، بل إنَّ عدله واهتمامه بأمور المسلمين، كتأمين الطرق بقطع اللُّصوصية، وإبطال المكس[4] والسَّهر على راحة وسلامة الحجاج، شجَّعت أهل المغرب الأوسط على الهجرة إلى مصر والاستقرار بها، وفي ذلك يقول ابن جبير: "ومن مناقب هذا البلد- الإسكندرية- ومفاخره العائدة في الحقيقة إلى سلطانه- صلاح الدين- المدارس والمحارس الموضوعة فيه لأهل الطلب والتعبُّد، يفدون من الأقطار النائية، فيلقى كل واحد منهم مسكنا يأوي إليه، ومدرِّسا يعلِّمه الفن الذي يريد تعليمه" ثم يضيف: " واتّسع اعتناء السلطان بهؤلاء الغرباء الطارئين، حتى أمر بتعيين حمامات يستحمون فيها، ونصَّب لهم مارستانا لعلاج من مرض منهم". وإذا كانت هذه الخدمات عامة لكل المسلمين الذين لجئوا إلى ولايته، فيبدو أنَّ المغاربة كانوا مخصوصين دون غيرهم بمزية وقد يعود ذلك إلى دورهم في الجهاد بمصر والشام، فرتّب لهم خبزتين في اليوم لكل فرد ... فقد ينتهي في اليوم إلى ألفي خبزة أو أزيد[5] وهو ما يعادل ألف شخص أو أكثر.

1- داخل شاور وزير بني عبيد الخوف من استيلاء الأتراك على مصر، وعلم أنَّ أسد الدين شيركوه- عم صلاح الدين- قد طمع في البلاد فكاتَبَ الإفرنج، وقرَّر معهم أن يمكنوه في البلاد مقابل مال. ابن شداد: المصدر السابق، ص77/ ابن الأثير: المصدر السابق، مج2، ص2473/ المقريزي: اتعاظ الحنفا، ج3، ص301/ محمد سهيل طقوش: المرجع السابق، ص506.

2- حِطِّين: موضع بين طبرية وعكا بينه وبين طبرية نحو فرسخين، بالقرب منها قرية يُقال لها خيارة بها قبر شعيب عليه السلام، فيه وقعت المعركة المشهورة بين قوات صلاح الدين والجيوش الصليبية المتحالفة وذلك يوم السبت 24 ربيع الثاني سنة 583- 1187م، فكثُر القتل والأسر في العدو، فكان من يرى القتلى لا يظن أنهم أسروا واحدا، ومن يرى الأسرى لا يظن أنهم قتلوا واحدا. ابن شداد: المصدر نفسه، ص126 وما بعدها/ ابن الأثير: المصدر نفسه، مج2، ص2554/ ياقوت الحموي: المصدر السابق، مج2، ص160/ ابن تغري بردي: المصدر السابق، ص225/ أبو الفدا: المختصر في أخبار البشر، ج3، ص92/ مجير الدين الحنبلي: المصدر السابق، ص284/ الذهبي: العبر في خبر من غبر، ج3، ص85.

3- لما فرغ صلاح الدين من أمر عسقلان وافتتاحه لكثير من البلاد والمدن المجاورة لها، سار بجيش من مصر والشام إلى بيت المقدس فنزلوا عليها في منتصف رجب، وبعد حصاره واقتحامه طلب الصليبيون الآمان وتسليم المدينة بعد أن أخذ منهم مالا عظيما وذلك يوم الجمعة 27 رجب 583هـ- 1187م ابن الأثير: المصدر نفسه، مج2، ص2558/ ابن خلدون: المصدر السابق، مج2، ص1923/ ابن شداد: المصدر نفسه، ص135/ ابن تغري بردي: المصدر نفسه، ص228/ أبو الفدا: المصدر نفسه، ج3، ص93/ مجير الدين الحنبلي: المصدر نفسه، ص282/ الذهبي: دول الإسلام، ج2، ص90- 91. العبر، ج3، ص85.

4- ابن زولاق: المصدر السابق، ص108/ ابن جبير: المصدر السابق، ص63- 64.

5- ابن جبير: المصدر نفسه، ص53.

إضافة إلى متطلبات الحياة اليومية من مأكل ولباس ونظافة ورعاية صحية وفَّر صلاح الدين المأوى لهؤلاء المهاجرين وذلك بتخصيص غرف قرب المساجد والزوايا للسكن والتعبُّد، منها مسجد أحمد بن طولون الذي يقول عنه ابن جبير: " وهو من الجوامع العتيقة الأنيقة الواسعة البنيان، جعله السلطان مأوى للغرباء من المغاربة يسكنونه ويُحلِّقون فيه "[1]. ولم يكتفي بهذا، بل أجرى عليهم الأرزاق في كل شهر، وجعل أحكامهم عائدة إليهم حسب مذهبهم، وبذلك عاشوا في دعة وعافية وتفرَّغوا لعبادة ربهم، ووجدوا من فضل السلطان أفضل معين على الخير، كما خصَّص لهم مساجد حسب مذهبهم (المذهب المالكي) لصلاتهم منها مسجد عمرو بن العاص بالإسكندرية[2].

علاوة على المساجد خُصِّصت للمغاربة مدارس لقراءة المذهب منها المدرسة القمحية[3] والمدرسة المالكية بمدينة قوص[4].

تواصلت هجرة أهل المغرب الأوسط نحو مصر خلال القرنين السابع والثامن الهجريين، وأكثرهم من العلماء والطلبة، وذلك لمواصلة الدراسة وطلب العلم، أو لتولي مناصب كالقضاء ولاسيما بعد عودة الاعتبار للمذهب المالكي[5] وانتشار مزيد من المساجد والزوايا[6] التي لاشك أنه كان للمالكية حظٌّ فيها، ومما يُؤكِّد تواجدهم في مصر هو هروب الكثير منهم وعودتهم إلى بلادهم[7] خوفا من التتار لما احتلوا كثيرا من بلاد المشرق سنة 656هـ- 1258م وما بعدها.

دور أهل المغرب الأوسط في مصر: بالإضافة إلى مساهمة أهل المغرب الأوسط في الجهاد ضد الصليبيين من خلال المعارك والغزوات المباشرة إلى جانب إخوانهم المشارقة، كان لهم كذلك دورا في حماية المقدَّسات الإسلامية، فقد ذكرت المصادر حادثة خطيرة وهي أنَّ بعض الإفرنج أرادوا نبش قبر الرسول- صلى الله عليه وسلم- ونقل جسده إلى بلادهم ودفنه عندهم، فلما ساروا إلى المدينة حتى لم يكن بينهم وبينها أكثر من مسيرة يوم، أرسل وراءهم صلاح الدين مراكب عُمِّرت من مصر والإسكندرية بقيادة الحاجب لؤلؤ مع أنجاد من المغاربة البحريين فلحقوا بالعدو وألقوا عليهم القبض واقتيدوا إلى القاهرة حيث تولى قتلهم

1- ابن جبير: المصدر السابق، ص60.

2- نفسه، ص62.

3- المدرسة القمحية: وكانت أجل مدرسة للمالكية، أنشئت سنة 566هـ- 1170م بجوار جامع عمرو بن العاص، سميت بذلك لأنَّ القمح كان يوزع على فقهائها من ضيعة بالفيوم أوقفها صلاح الدين الأيوبي عليها وكان في موقعها قبل ذلك قيسارية (سوق) عُرفت بقيسارية الغزل. المقريزي: المصدر السابق، ج3، ص319.

4 - ابن بطوطة: المصدر السابق، ص70/ السيوطي: حسن المحاضرة، ج2، ص16.

5- ابن زولاق: المصدر السابق، ص134/ ابن بطوطة: المصدر نفسه، ص63.

6- ابن بطوطة: المصدر نفسه، ص62.

7- ابن تغري بردي: المصدر السابق، ص307.

الصوفية والفقهاء[1]. وربما يُذكّرنا هذا الحدث بدفاعهم عن الحجر الأسود لما أراد القرمطي تكسيره وقلعه حتى قُتلَ منهم جماعة[2].

<u>المهاجرون من المغرب الأوسط في مصر</u>: يُلاحظ أنَّ معظم المهاجرين كانوا إمَّا من العلماء والطلبة، إذ عادة ما تترجم كتب السيَّر والتراجم لهذه الفئة، بينما تتغاضى عن العامة من الجند وغيرهم، أو كانوا ممن فرَّ من سلطان لجور لحقه أو من الحجاج الذين كانوا يستقرون هناك ومن هؤلاء نذكر:

* **البجائي أبو محمد عبد الله بن سلامة (القرن 06هـ- 12م):** أديب وشاعر سكن مصر وعاصر العماد الأصفهاني الكاتب (ت597هـ- 1200م)[3].

* **البجائي أبو علي عمر بن عبد المحسن الوجهاني الصواف (ت691هـ- 1293م):** من فقهاء المالكية، قرأ ببجاية على أكابر مشائخها، ثم ارتحل إلى المشرق في عشر الستين وستمائة، استقرَّ بمصر وانقطع للعبادة والتبتل[4].

* **البجائي أبو بكر بن عبد الله (ت797هـ- 1394م):** قدِم الديار المصرية كبيرا فحجَّ وقرأ المدوَّنة، ثم حصلت له جذبة فانقطع بالقرب من جامع الأزهر[5].

* **البسكري أبو جعفر شمس الدين محمد بن محمد بن عمر بن عنقة (ت804هـ - 1402م):** من كبار المحدِّثين وفقهاء المالكية، رحل إلى بلاد الشام ومصر والحجاز، مات بمصر[6].

* **البوني أبو العباس أحمد بن علي بن يوسف تقي الدين (ت622هـ - 1225م):** وُلد ونشأ ببونة، صوفي من أشهر المصنفين في العلوم الخفية (السِّحر) التي بلغت حوالي خمسين

---

1 - ابن جبير: المصدر السابق، ص66.

2- قدِم اللعين أبو طاهر سليمان القرمطي (305- 322هـ/ 917- 934) إلى مكة سنة 317هـ- 930م فدخلها يوم التروية في تسعمائة مقاتل، فقلع باب الكعبة واقتلع الحجر الأسود وأخذ كسوة الكعبة وقسَّمها على أصحابه، وأقام ستة أيام يقتل ويأسر، وقيل إنَّ من قُتِلَ من الحجَّاج بفجاج مكة وظاهرها بلغ زهاء ثلاثين ألفًا، منهم أمير مكة وأصحابه وطرح القتلى في بئر زمزم، فعُطِّلت الجمعة ولم يحج أحد، وقيل إنَّ القرامطة لمَّا أخذوا الحجر الأسود هلك تحته أربعون جملا في الطريق من مكة إلى هَجَر بالبحرين، فلمَّا أعِيدَ سنة 339هـ- 951م حُمِلَ على جمل قَعُود هزيل فسَمِنَ. ابن بطوطة: المصدر السابق، ص157/ ابن الأثير: المصدر السابق، مج2، ص1627/ الذهبي: العبر، ج1، ص474. دول الإسلام، ج1، ص275/ أبو الفدا: المختصر في أخبار البشر، ج2، ص109/ السيوطي: تاريخ الخلفاء، ص273/ محمد سهيل طقوش: المرجع السابق، ص96.

3- عادل نويهض: المرجع السابق، ص37.

4- الغبريني: المصدر السابق، ص92/ عمار هلال: المرجع السابق، ص173/ الحفناوي: المرجع السابق، ج2، ص291.

5- ابن حجر: المصدر السابق، س1، ص445.

6- عادل نويهض: المرجع السابق، ص43.

مصنَّفا أو أكثر، منها: أسرار الحروف والكلمات، إظهار الرموز وإبداء الكنوز، شمس المعارف ولطائف العوارف، يُقال إنَّ كتبه هذه لا تزال متداولة بين المهتمين بالسحر والتعاويذ، استقرَّ بالقاهرة إلى أن توفي[1].

* **التلمساني أحمد بن يحي بن أبي بكر بن عبد الواحد ابن أبي حجلة شهاب الدين (ت776هـ - 1374م):** وُلد بتلمسان من عائلة صوفية، قدِم القاهرة وحجَّ ودخل دمشق واشتغل بالأدب حتى مهر، وُلي مشيخة الصوفية بصهريج منجك ظاهر القاهرة، له أكثر من ثمانين مصنفا في الأدب والفقه والحديث والنحو[2].

* **التلمساني أبو الحسن أحمد بن محمد بن عبد العزيز بن إسماعيل الأنصاري (ت633هـ - 1236م):** صوفي ومحدِّث وفقيه، سكن مصر، من أثاره مجاميع في التصوُّف[3].

* **التلمساني المزالي أبو عبد الله محمد بن موسى بن النعمان (ت682هـ- 1283م):** من فقهاء المالكية، وُلِد ونشأ بتلمسان، قدِم الإسكندرية شابا فسمع بها من محمد بن عماد والصفراوي، كان عارفا بالمذهب راسخ القَدَم في العبادة، توفي في رمضان ودُفِن بالقرافة، من مؤلفاته: مصباح الظلام في المستغيثين بخير الأنام في اليقظة والمنام، إعلام الأجناد والعباد أهل الاجتهاد بفضل الرباط والجهاد[4].

* **التلمساني محمد بن إبراهيم بن عبد الرحمن الخزرجي (ت656هـ- 1258م):** من فقهاء المالكية، نشأ وتعلَّم بتلمسان ثم هاجر إلى مصر واستقرَّ بالقاهرة، من أثاره شرح الجلاب[5].

* **التلمساني محمد بن أحمد بن إبراهيم بن أحمد موفق الدين (ت704هـ - 1304م):** وُلِد سنة 614هـ- 1217م، نزل مصر وطلب قليلا ثم طلب طريق الصلاح والعبادة[6].

* **التلمساني الراشدي أبو علي الحسن بن عبد الله بن ويحيان (ت685هـ- 1285م):** من كبار المقرئين، نشأ وتعلَّم بتلمسان، سكن مصر وتصدَّر للإقراء بها[7].

1- عادل نويهض: المرجع السابق، صص47- 49/ عمار هلال: المرجع السابق، ص169.

2- ابن حجر: المصدر السابق، س1، صص329/ الحفناوي: المرجع نفسه، ج2، ص48 / عمار هلال: نفسه، ص182.

3- عادل نويهض: المرجع نفسه، ص67.

4- الذهبي: العبر، ج3، ص354/ اليافعي اليمني:مرآة الجنان، ج4، ص150/ عادل نويهض: المرجع نفسه، ص293/ عمار هلال: المرجع نفسه، ص172.

5- التنبكتي: نيل الابتهاج، ج2، ص29/ عادل نويهض: المرجع نفسه، ص74/ الحفناوي: المرجع السابق، ج2، ص328.

6- ابن حجر: المصدر السابق، س3، ص303/ عادل نويهض: المرجع نفسه، ص76.

7- الذهبي: العبر، ج3، ص358/ عادل نويهض: المرجع نفسه، ص145.

*** التلمساني أبو عبد الله جمال الدين محمد بن عبد الله بن عبد العزيز بن عمر (ت680هـ- 1281م):** المعروف بحافي رأسه، وُلد بتاهرت وقيل بتلمسان، كان من أئمة العربية في عصره، هاجر إلى مصر واستقرَّ بالإسكندرية وتصدَّر لإقراء العربية إذ كان شيخها في النحو فتخرَّج به كثيرون[1].

*** محمد بن محمد بن عبد الله بن عبد العزيز بن عمر (ت725هـ - 1325م):** ابن السابق نشأ بالإسكندرية وحدَّث بها[2].

*** التلمساني أبو عبد الله محمد بن أحمد بن محمد بن أبي بكر أبو عبد الله بن مرزوق الخطيب (ت781هـ- 1379م):** ارتحل مع والده إلى المشرق سنة 718هـ- 1318م، ولما جاور والده بمكة، عاد هو إلى القاهرة ومنها إلى بلده تلمسان سنة 733هـ- 1332م فوجد أبا الحسن المريني محاصرا لها فولاه الخطابة بمسجدها، اّتصل بالسلطان أبي عنان وخدمه، ثم لحق بالبلاط الحفصي سنة 766هـ- 1364م حيث اشتغل بالخطابة والتدريس إلى سنة 773هـ- 1371م، ومنها توجَّه إلى مدينة الإسكندرية ثم إلى القاهرة حيث اّتصل بالسلطان الأشرف شعبان (764- 778هـ/ 1362- 1376م) الذي ولاه قضاء المالكية والتدريس إلى أن توفي، له شرح العمدة والشفاء في الحديث[3].

*** التلمساني يحي بن محمد بن موسى أبو زكريا التجيبي (ت652هـ- 1254م):** مفسِّر وواعظ، سمع بمكة، سكن الإسكندرية، من أثاره تفسير القرآن الكريم[4].

*** الزواوي أبو الحسن يحي بن عبد النور ابن معط زين الدين (ت628هـ- 1231م):** أحد أئمة النحو والأدب في عصره، سكن دمشق واشتغل بالتدريس، ثم رغَّبه الملك الكامل في الانتقال إلى القاهرة فدرَّس الأدب بالمدرسة الكاملية إثر عمارتها سنة 616هـ- 1219م، من مؤلفاته: الدرَّة الألفية في علم العربية، دُفن بالقرب من تربة الإمام الشافعي[5].

1- السيوطي: بغية الوعاة، ج1، ص138/ عادل نويهض: المرجع السابق، ص119.

2- ابن حجر: المصدر السابق، س4، ص191/ ابن القاضي: درة الحجال، ص154.

3- يحي بن خلدون: بغية الرواد، ج1، ص115/ السيوطي: المصدر نفسه، ج1، ص46/ ابن حجر: المصدر نفسه، س3، ص360/ ابن القاضي: المصدر نفسه، ص270/ ابن مريم: البستان، صص338- 343/ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ص498 وما بعدها/ الونشريسي: وفيات الونشريسي، ص64/ ابن القنفذ: شرف الطالب، ص255/ التنبكتي: نيل الابتهاج، ج2، ص111/ ابن مرزوق: المسند الصحيح الحسن، ص30/ محمد مخلوف: المرجع السابق، ص236.

4- عادل نويهض: المرجع نفسه، ص83.

5- الذهبي: العبر، ج3، ص201/ أبو الفدا: المختصر، ج3، ص186/ السيوطي: المصدر نفسه، ج2، ص344/ الحفناوي: المرجع السابق، ج2، ص580/ عمار هلال: المرجع السابق، ص169/ اليافعي اليمني: المصدر السابق، ج4، ص53.

*** الزواوي عيسى بن مسعود بن منصور بن يحي بن يونس بن عبد الله (ت743هـ-1342م):** وُلد سنة 664هـ- 1265م ببلاد زواوة، تفقَّهَ ببجاية على أبي يوسف يعقوب الزواوي، قدِم الإسكندرية، ثم دخل دمشق سنة 707هـ- 1307م وناب عن جمال الدين المالكي في الحكم سنينا، ودرَّس بالجامع الأموي ثم عاد إلى القاهرة فناب في الحكم عن زين الدين بن مخلوف ووُلي تدريس المالكية بالزاوية وأقبل على التصنيف فكتب: شرح مسلم في اثني عشر مجلَّدا وسماه إكمال الأكمال، وشرح مختصر ابن الحاجب الفقهي في سبعة أسفار، وشرح مختصر ابن يونس في ستة أسفار، وله كتاب في الوثائق، انتهت إليه رئاسة الفتوى في المذهب بمصر والشام، حجَّ سنة 732هـ- 1331م بعد أن نزل لولده علي عن التدريس بالزاوية واستقرَّ معيدا عن ولده إلى أن توفي[1].

*** الزواوي يحي بن موسى بن عمران المالكي (من أهل القرن الثامن الهجري):** ذكره ابن حجر، وقال رأيت خطه في إجازة سنة 771هـ- 1369م بالقاهرة ومعه الجمال الأسنوي والأكمل محمد بن محمود بن أحمد[2].

*** الزواوي محمد بن علي بن إسماعيل بدر الدين (ت775هـ- 1273م):** وُلد سنة 700هـ-1300م محدِّث فقيه حافظ، مشارك في عدة علوم، سمع صحيح البخاري من ست الوزراء وابن الشحنة وحدَّث به عنهما بالقاهرة، قُتِلَ بها غيلة[3].

*** القسنطيني رضي الدين أبو بكر بن عمر بن علي بن سالم (ت695هـ- 1296م):** وُلد بقسنطينة، هاجر رفقة عائلته إلى المشرق واستقرَّ بالقدس الشريف حيث نشأ وتعلَّم فكانت له معرفة تامة بالفقه ومشاركة في الحديث، انتقل إلى القاهرة التي صار من أكبر أئمتها في علوم العربية[4].

*** المتيجي أبو محمد عبد الله بن إبراهيم بن عيسى (ت636هـ- 1238م):** محدِّث وفقيه مالكي،نشأ وتعلَّم ببلده ثم رحل إلى المشرق واستقرَّ بالإسكندرية وحدَّث بها، روى عن عبد المجيد بن دليل، وعنه روى أبو بكر معين الدين الحنبلي البغدادي[5].

1- ابن حجر: المصدر السابق، س3، ص210/ ابن القاضي: المصدر السابق، ص375/ ابن فرحون: المصدر السابق، ص283/ الونشريسي: وفيات الونشريسي، ص37/ ابن فضل الله العمري: المصدر السابق، س1، ص101/عمار هلال: المرجع السابق، ص181/ محمد مخلوف: المرجع السابق، ص219.

2- الدرر الكامنة، س4، ص429.

3- نفسه، س4، ص58/ عادل نويهض: المرجع السابق، ص116.

4- السيوطي: بغية الوعاة، ج1، ص470/ ابن القاضي: درة الحجال، ص117/ عادل نويهض: المرجع نفسه، ص261.

5- ياقوت الحموي: المصدر السابق، مج4، ص205، مادة متيجة/ عادل نويهض: المرجع نفسه، ص285.

* **المسيلي أبو محمد عبد الله بن محمد جمال الدين (ت744هـ- 1343م):** من كبار فقهاء المالكية، الإمام العلامة، صاحب المصنفات البديعة، وهي في غاية الجودة والإفادة والتنقيح، انتفع به فخر الدين بن شكر المالكي، توفي بالقاهرة[1].

* **المليكشي حسن بن عبد الله (ت778هـ- 1376م):** فقيه مالكي، كان عارفا بالحديث ورجاله، وُلِد ببجاية ونشأ بها، ثم هاجر إلى المشرق أين حدَّث بالمدرسة الناصرية بالقاهرة وبها مات[2].

من خلال تتبعنا للأعلام الذين هاجروا واستقروا بمصر، يمكن استنتاج بعض الملاحظات الأساسية التي تتيح لنا تفسير أسباب الهجرة ومعرفة الظروف التي تمت فيها.

- من الناحية الزمنية يُلاحظ أنَّ القرنين السابع والثامن الهجريين/ القرن13- 14م عرفا أكبر عدد من المهاجرين، ويبدو أنَّ لذلك علاقة بالأوضاع الداخلية للمغرب الأوسط، وهي فترة صراعات سياسية وعسكرية بين دولة بني عبد الواد وجيرانها وعدم رغبة هؤلاء في اقتحام تلك الصراعات، وما كان يشوبها من خطر اتجاههم، ففضلوا الابتعاد والسلامة.

- تُمثِّل هذه الفترة، مرحلة ازدهار وانتشار للمذهب المالكي في المشرق والمغرب، فوجد هؤلاء العلماء في الهجرة إلى مصر الفرصة إما للاستزادة من العلم أو لتولي وظائف دينية وشرعية أو تعليمية في ظل عناية السلاطين هناك بإنشاء المدارس وتعميرها واستدعاء الفقهاء ولاسيما المالكية للتدريس بها.

- ازدهار وانتشار حركة التصوُّف، ولذلك وجد أولئك العلماء في تلك الظاهرة وبالخصوص في مصر أين انتشرت الزوايا ومشاهد الأولياء والصالحين التي أصبحت ملجأً لهؤلاء ومما زاد في الإقبال على التصوُّف، اعتقاد العامة وحتى السلاطين في المتصوفة وتقديرهم.

- معظم المهاجرين كانوا من تلمسان وبجاية وبلاد زواوة، في حين قلَّ عدد المهاجرين من مدن المغرب الأوسط الأخرى، ويظهر أنَّ ذلك يعود إلى عدة اعتبارات منها، أنَّ تلمسان وبجاية تُعدُّ من الحواضر العلمية التي كانت معروفة والحركة العلمية والثقافية بها قائمة، فتلمسان من أقدم مدن المغرب الأوسط ومثَّلت العاصمة لكثير من الدول التي قامت في المنطقة واستوطنها كثير من العلماء والصلحاء والمتصوفة ولعلَّ من أبرزهم الداودي[3].

1- ابن فرحون: المصدر السابق، ص232/ الحفناوي: المرجع السابق، ج2، ص241.

2- عادل نويهض: المرجع السابق، ص317.

3- الداودي: أبو جعفر أحمد بن نصر الأسدي، المسيلي مولدًا، الطرابلسي نشأة، التلمساني وفاة، من أئمة المالكية بالمغرب الأوسط، لم يتفقه في أكثر علمه على إمام مشهور، وإنما وصل إلى ذلك بإدراكه، حتى قيل له مرة: " أسكت لا شيخ لك ". من مؤلفاته: النامي في شرح الموطَّأ، الواعي في الفقه، الإيضاح في الرد على القدرية، كتاب الأموال وغيرها. توفي على الأصح سنة 402هـ- 1011م. القاضي عياض: ترتيب المدارك، مج2، ص229/ ابن فرحون: الديباج المذهب، ص94.

أما بجاية فهي كذلك من الحواضر العلمية التي ازدهرت منذ العهد الحمادي لاسيما بعد أن هاجر إليها بعض علماء المدن الداخلية مثل المسيلة والقلعة إثر سيطرة العرب عليهما، كما لا ننس أنَّ لموقع المدينتين دور في حركة الهجرة، فرغم أنّ تلمسان ليست مدينة ساحلية، فهي تشرف على عدة مراسي كهنين ووهران حيث يتم الإبحار إلى المشرق وبخاصة إذا كانت الطرق البرية غير آمنة، أما بجاية فهي مدينة ساحلية معروفة بحركة النقل، بل إنها مركز عبور، فكثيرا ما تتوقف بها السفن القادمة من الأندلس نحو المشرق.

هجرة القبائل العربية: شكَّل العرب كما أشرنا سابقا المجموعة الثانية في مجتمع بلاد المغرب بعد البربر من حيث العدد، والذين كان لهم دورا في الحياة الاجتماعية والسياسية، وسنقتصر في هذا العنصر على هجرة هؤلاء العرب إلى المغرب الأقصى والأندلس، لأنَّ ذلك مَّثل ظاهرة اجتماعية بارزة في تلك الفترة.

الهجرة إلى المغرب الأقصى والأندلس: يُعدُّ العهد الموحدي ثم الزياني والمريني الفترات التي بلغت فيها الهجرة العربية ذروتها، بالنظر إلى الأحداث السياسية والعسكرية المتلاحقة التي شهدتها بلاد المغرب وبالخصوص المغربين الأوسط والأقصى، إذ عمِلَ كلُّ طرف على استمالتهم أو طردهم إما لتجنُّب شرِّهم أو استغلالهم سياسيا وعسكريا.

1-1 في العهد الموحدي: كان هؤلاء في أشد الحاجة إلى العرب، من أجل تثبيت سلطانهم وتوسيع قاعدة ملكهم، ويمكن الاستدلال على ذلك بحادثتين، الأولى محاولة الاغتيال التي تعرَّض لها عبد المؤمن، حيث شعر فيها بالخطر الذي يتهدَّده ليس كشخص وإنما مصير مستقبل عرشه ككل، ولذلك استدعى قبيله كومية كما أوضحنا سابقا، وحتى يدعِّم مركزه ويُورِّث السلطة لأبنائه استدعى عرب إفريقية والمغرب الأوسط، وهي الحادثة الثانية في الموضوع وقد أورد تفاصيلها ابن الأثير بقوله: " في هذه السَّنة (551هـ) أمر عبد المؤمن بالبيعة لولده محمد بولاية عهده، وكان الشرط والقاعدة بين عبد المؤمن وعمر الهنتاتي[1] أنْ يلي عمر الأمر بعد عبد المؤمن، فلما تمكَّنَ عبد المؤمن من الـمُلك وكثُر أولاده أحبَّ أن ينقل الـمُلك إليهم، فأحضَرَ أمراء العرب من هِلال وزغبة وعدي وغيرهم إليه ووصلهم وأحسن إليهم، ووضع عليهم من يقول لهم ليطلبوا من عبد المؤمن ويقولوا له: نريد أن تجعل لنا وليَّ عهدٍ من ولدِك يرجع الناس إليه بعدك، ففعلوا ذلك ... فلما علِم عمر ذلك

1- عمر الهنتاتي: هو أبو حفص عمر بن يحي بن محمد بن وانودين بن علي بن أحمد بن والال بن إدريس بن خالد بن اليسع بن إلياس بن عمر بن وافتن بن محمد بن نجين بن كعب بن محمد بن سالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب، حسب ما نقله ابن خلدون عن بعض مؤرخي الموحدين. كان اسمه فاسكات أو فاصكة ويكنى بعمرآينتي، كان من أقرب الناس إلى ابن تومرت وهو من أوائل المبايعين له، شارك في كثير من الفتوح في المغرب الأقصى والأندلس، توفي في طاعون سنة 571هـ- 1175م، وهو جدُّ الحفصيين بإفريقية. ابن القطان: المصدر السابق، ص127- 128/ البيذق: المصدر السابق، صفحات: 50، 55، 75، 81، 83، 86، 88، 95، 97، 99، 101، 111، 119، 124، 125، 128/ ابن خلدون: المصدر السابق، مج2، ص1942/ يسميه عبد الواحد المراكشي بعمر ومزال. المعجب، ص262.

خاف على نفسه، فحضر عند عبد المؤمن وأجاب إلى خلع نفسه، فحينئذ بويع لمحمد بولاية العهد"[1]، وهكذا تمكّن عبد المؤمن من توريث العرش لأبنائه.

اتّبع عبد المؤمن أسلوبين في جلب العرب، بالقوة والغزو تارة وهو ما حدث في فتح إفريقية والمغرب الأوسط سنتي 547- 548هـ/ 1152- 1153م، حيث نقل الكثير منهم، وفي ذلك يقول البيذق: " ومهَّد الخليفة تلك البلاد، وأقبل إلى المغرب مع سادة العرب بأجمعهم، بأولادهم وعيالهم، فوصل أمير المسلمين إلى سلى، وقسَّم العرب على البلاد "[2]، يوضح ابن أبي زرع ذلك أكثر قائلا: " فسار (عبد المؤمن) حتى وصل إلى مقربة من وهران فطلبه عرب إفريقية في الوداع بالرجوع إلى حللهم فأسعفهم بذلك ونقل منهم إلى المغرب ألفا من كل قبيلة بعيالاتهم وأبنائهم وهم عرب الحشم "[3]، وباللين والموادعة وادّعاء رابطة النّسب تارة أخرى كما أشرنا إليه في الفصل الأول، ولذلك كان يُنكر نسبه إلى قبيلة كومية البربرية بقوله: " لستُ منهم وإنما نحن لقيس عيلان بن مضر بن نزار بن مَعَد بن عدنان، ولكومية علينا حق الولادة بينهم والمنشأ فيهم، وهم الأخوال "[4].

تتضح سياسة عبد المؤمن اتجاه العرب (التهجير) في وصيته لابنه يوسف، يقول له فيها: " وأخل إفريقية من العرب وأجْلِهِم إلى بلاد المغرب "[5]، ويدخل في إفريقية هنا القسم الشرقي من المغرب الأوسط الذي كان يسيطر عليها الحفصيون، ومن القبائل التي نقلها الموحدون، العاصم ومقدم وكرفة وجشم وكلهم من بني هلال، وذلك عقابا لهم على مساندتهم لبني غانية من جهة، وحرمان الثوار من السند البشري، فأنزلوهم ببسيط تامسنا[6]. إضافة إلى البطون الهلالية، نقل الموحدون بعض بطون رياح مثل الدواودة وأسكنوهم بلاط الهبط[7]، بهدف تشتيت قوتهم، وذلك لما كانوا عليه من الشوكة وكثرة العدد.

كانت هجرة بعض القبائل إلى المغرب الأقصى بسبب الصراعات التي كانت تحدث بين القبائل، وهي ظاهرة باتت معتادة، إما في إطار المنافسة على المجال أو بتحريش من

1- ابن الأثير: المصدر السابق، مج2، ص2422- 2423/ كانت ولاية عبد المؤمن لابنه بالعهد سنة 449هـ بعد عودته من حملته الأولى على شرق المغرب الأوسط وإفريقية فخالفه الموحدون ونكروا ولايته ابنه، وهو ما جعل عبد المؤمن يستدعي العرب ليكونوا عونا له على نقل السلطة إلى أبنائه وهو بمثابة تحذير للمعارضين أو الطامعين في الحكم على الأقل ومنهم عمر الهنتاتي بدليل تنازله عن خلافة عبد المؤمن لصالح أبنائه ابن أبي زرع: الأنيس المطرب، ص194/ ابن خلدون: المصدر السابق، مج2، ص1943/ النويري: المصدر السابق، ص419.

2- البيذق: المصدر السابق، ص116/ ابن خلدون: المصدر نفسه، مج2، ص1916.

3- الأنيس المطرب، ص199/ ابن أبي دينار: المصدر السابق، ص112.

4- عبد الواحد المراكشي: المعجب، ص265/ ابن خلدون: نفسه، مج2، ص1850.

5- ابن خلدون: المصدر نفسه، مج2، ص1943.

6- ابن خلدون: المصدر نفسه، مج2، ص1790- 1791، 1795/ أحمد عزاوي: رسائل موحدية، ج1، ر65، ص232/ عبد الوهاب بن منصور: المرجع السابق، ص418/ مصطفى أبو ضيف: المرجع السابق، ص207.

7- ابن خلدون: المصدر نفسه، مج2، ص1796/ مصطفى أبو ضيف: المرجع نفسه، ص213.

السلطة القائمة لكسر شوكتهم، وهو ما جرى للطيف إحدى بطون الأثبج التي هاجرت إلى المغرب الأقصى عندما غلبهم الدواودة[1].

العرب والجهاد في الأندلس: إنَّ جهاد الصليبيين كان إحدى اهتمامات ونشاط الموحدين في الأندلس وبخاصة في عهود الخلفاء الأربعة الأوائل، أي قبل وقعة العقاب المشئومة، وهو ما جعل الخلفاء يُجيِّشون أفراد القبائل ونقلهم للأندلس، ويبدو أنَّ خطر الصليبيين والثوار على الأندلس قد أدركه عبد المؤمن منذ البداية، ما جعله يعتمد عليهم، ففي إحدى غزواته للأندلس استنفر عرب المغرب الأوسط من بني هلال وحتى يضمن ولاءهم راح يذكّرهم برابطة النسب، ويمنيهم بالعيش الرغيد في الأندلس من خلال الأبيات الآتية:

تعَالَوْا فَقد شُدَّتْ إلى الغَزْو نيَّةٌ   عَوَاقِبُهَا مَنْصُورَةٌ بالأَوَائِل

أهَبْنا بِكُم للخَيْر واللهُ حسْبُنَا   وحسْبُكُم واللهُ أعْدَلُ عادِل

وَتَسْويغُكم نُعْمَى يَرفُّ ظِلالُهَا   عَلَيكم بِخَيرٍ عاجِلٍ غَيْرَ آجِل[2]

ولمَّا نزلوا هناك قام بتوزيعهم على مدن الأندلس، فأسكن بعضهم في نواحي قرطبة وبعضهم في نواحي إشبيلية مما يلي شريش. وقد استمرَّ نقل الموحدين للعرب إلى الأندلس كلَّما غزا الصليبيون مدينة أو جهة من الجهات، وذلك لدفع خطرهم عنها وجعلهم كحاميات فيها لاسيما بعد الهزيمة التي مُني بها الجيش الموحدي بحصن زغبولة[3] سنة 552هـ-1157م، وقد وصف ابن أبي دينار الجيش الذي جمعه الخليفة عبد المؤمن بن علي سنة 557هـ- 1162م لغزو الأندلس بقوله: "واستجلب الأجناد والمطوِّعة من سائر عمله يستنفرهم للجهاد، فاجتمع له ما لم يجتمع لغيره من بلاد إفريقية والمغرب ... واجتمع له من الموحدين ومن قبائل زناتة ومن العرب أزيد من ثلاثمائة ألف"[4]، ونفس السياسة اتبعها يوسف بن عبد المؤمن، حيث جمع من زغبة وغيرها في إحدى غزواته سنة 566هـ- 1170م أكثر من أربعة آلاف مقاتل[5].

1- ابن خلدون: المصدر السابق، مج2، ص1791/ عبد الوهاب بن منصور: المرجع السابق، ص418/ الميلي: المرجع السابق، ج2، ص197.

2- عبد الواحد المراكشي: المصدر السابق، ص294- 295/ ابن عذاري: البيان المغرب، ق. الموحدين، ص116.

3- ابن عذاري، المصدر نفسه، ق. الموحدين، ص61.

4- ابن أبي دينار: المصدر السابق، ص112.

5- يقول ابن خلدون في ذلك: " وفي سنة ثلاث وستين وخمسمائة اجتمع الموحدون على تجديد البيعة واللقب بأمير المؤمنين، وخاطب العرب بإفريقية يستدعيهم إلى الغزو ويحرِّضهم ". مج2، ص1919/ أما ابن الأثير فيقول: " في هذه السنة (580هـ) سار أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن إلى بلاد الأندلس وجاز البحر إليها في جمع عظيم من عساكر المغرب ". مج2، ص2541/ ابن صاحب الصلاة: المن بالإمامة، صص329- 331، ص349/ السلاوي: المرجع السابق، ج2، ص138.

استمَرَّ اعتماد بنو عبد المؤمن على العرب في جهاد النصارى بالأندلس منها غزوة يعقوب المنصور سنة 580هـ- 1184م[1]، وقد كان نتيجة هذه السياسة أن تَكاثَروا هناك وانتشروا حتى بلغ عددهم خمسة آلاف فارس سوى الرجالة[2].

لاشكَّ أنَّ للعرب دورا كبيرا في انتصارات الجيش الموحدي في كثير من المعارك بالأندلس، ولعلَّ منها معركة الأرك التي كان قائد العرب فيها جرمون بن رياح، حيث أوقع العرب بأحد أكبر جيوش للتحالف الصليبي وهو جيش ابن أدفونش ملك الجلالقة[3].

في الأخير يُمكن القول أنَّ الفترة الممتدَّة من منتصف القرن السادس إلى مطلع القرن السابع الهجريين المرحلة الأولى الحاسمة في هجرة العرب إلى الأندلس، وإنْ كان الهدف الأساسي من ذلك هو الجهاد، فإنَّ الموحدين عملوا على توزيع القبائل العربية على كافة مناطق سلطتهم ولاسيما في الأندلس كنوع من التغريب تفاديا لما قد يحدثوه من قلاقل، ولِيكُونوا شوكة ضد الأعداء الصليبيين، إلا أنَّ فترة ما بعد هزيمة العقاب مَّثلت مرحلة التراجع الكبير للهجرة العربية لِما أصاب الدولة من ضعف واضطراب وفقدان الكثير من قواعدها في الأندلس، ولعلَّ نص ابن خلدون أحسن تعبير عن ذلك عندما يقول: " واستبدَّ السلطان ابن الأحمر بملك ما بقي من الأندلس وأورثه عقِبَه من غير قَبِيل ولا كثير عُصبة ولا استكثار من الحامية إلا من يأخذه الجلاء من فحول زناتة وأعياص الملك فينزلون بهم غُزى"[4]، بل إنَّ ما سيحدث هو العكس أي الهجرة من الأندلس إلى بلاد المغرب إلا ما كان من المرينيين الذين أَحْيَوا حركة الجهاد من جديد.

2-1 في العهد الزياني والمريني: تحكَّمت في ظاهرة الهجرة خلال هذه المرحلة ثلاثة عوامل أساسية وهي الجهاد في الأندلس والصِّراع الزياني المريني وسياسة هؤلاء في المنطقة ثم المنافسات والصراعات القبلية.

نعود إلى النقطة الأولى وهي حركة الجهاد التي باشرها سلاطين بني مرين في محاولة منهم لإنقاذ الأندلس من تكالب النصارى عليه، فاستخدموا العرب بدورهم وإنْ اقتصر ذلك على عرب المغرب الأقصى الذي استوعب الكثير منهم في المرحلة السابقة بحيث أصبح الاعتماد على هؤلاء (عرب المغرب الأقصى) كافيا، لكن هذا لم يمنع جواز عرب المغرب الأوسط للجهادِ بغَضِّ النظر عن الدوافع والظروف السياسية، ولعلَّ قصائد الاستغاثة التي

1- يقول عنه ابن الأثير: " وأقام راية الجهاد وأحسَنَ السيرة في الناس ورتَّبَ ثغور الأندلس وشحنها بالمقاتلة ". مج2، ص2541/ ابن عذاري: المصدر السابق، ق. الموحدين، ص116 وما بعدها، ص172/ ابن خلدون: المصدر السابق، مج2، ص1920.

2- عبد الواحد المراكشي: المصدر السابق، ص295.

3- مرَّت تفاصيل ذلك في معركة الأرك، ص128.

4- ابن خلدون: المصدر نفسه، مج1، ص1173.

كان يُنظِّمها الشعراء باتت كافية لإثارة الهِمَم والهجرة للجهاد، منها قصيدة مالك بن المرحّل[1] التي يقول في بعض أبياتها:

لاَذت بِكم أندَلُسُ ناشِدةً   بِرَحِم الدِّين ونِعْمَ الرَّحِم

فاستَرحَمَتكم فارحموها فإنّه   لا يَرحم الرَّحمَنُ مَن لا يَرحمُ

مَا هِي إلا قِطعةٌ مِن أرضِكم   وأهلُهَا منكُم وأنتُم مِنهُم[2]

إنَّ الأوضاع التي عاشتها قبائل المغرب الأوسط في ظل الصراع بينها وبين سلاطين بني عبد الواد من جهة، وبين هؤلاء وبني مرين من جهة أخرى، جعلها تعيش حالة غير مستقرة، وذلك بهجرتها إلى المغرب أو الأندلس.

رغم علاقة التحالف التي كانت تربط قبائل سويد ببني عبد الواد، إلا أنه شابها في كثير من الأحيان التوتر، فقد نزع عريف بن يحي بن عثمان من زغبة إلى السلطان المريني أبي سعيد (710- 731هـ/ 1310- 1330م) سنة 720هـ- 1320م إثر خلافه مع السلطان أبو تاشفين عبد الرحمن بن موسى، ثم لحق به عمه ميمون بن عثمان رفقة أبنائه، فاتّخذ السلطان المريني أبو الحسن، عريف بن يحي بطانة لشوراه، عندها نزع ميمون وأبناؤه إلى أبي علي بتافيلالت، الخارج على أخيه، فلما تغلَّب عليه أبو الحسن أصبحوا في جملته وصار ونزمار بن عريف سفيرا له إلى الملوك[3].

حاول بنو مرين مرارا الاستيلاء على المغرب الأوسط أو ضمان ولاء قبائله على الأقل، ولذلك ظلَّ بعضها ورقة يستعملها هذا الطرف أو ذاك، ومن بين ما كان يُعرقل المرينيين في مسعاهم ذاك بعض القبائل العربية سواء المجاورة لوطنهم والتي حاولت الاستقلال أو قبائل المغرب الأوسط التي رفضت بدورها الخضوع لسلطة بني مرين، وهو ما عرَّضها للانتقام خلال حملة السلطان أبي عنان على قسنطينة سنة 758هـ- 1357م، أين قام بتخريب بعض قصورهم ونقل منهم إلى حضرته فاس وأوقفهم على مراسيم الخدمة[4].

1- ابن المرحَّل: هو مالك بن عبد الرحمن بن علي بن عبد الرحمن بن الفرج بن أزرق بن سعد بن سالم بن الفرج، وهو مصمودي سكن سبتة طويلا ثم مدينة فاس ثم عاد إلى سبتة وبآخرةٍ إلى فاس، يكنى أبا الحكم ويُعرَف بابن المرحَّل، وصف جرى على جدِّه علي بن عبد الرحمن لما رحل من شنتمرية حين إسلامها للروم حوالي سنة 550هـ- 1155م، تحرَّف مدة بصناعة التوثيق ببلده، وُلي القضاء مرات بجهات غرناطة وغيرها، مولده سنة 616هـ- 1219م ووفاته سنة 699هـ- 1299م. ابن الخطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة، ج3، صص313- 324/ النباهي: المصدر السابق، ص133.

2- ابن أبي زرع: الذخيرة السنية، ص98- 99.

3- ابن خلدون: المصدر السابق، مج2، ص1804- 1805، ص2265/ ابن أبي دينار: المصدر السابق، ص112.

4- ابن خلدون: نفسه، مج2، ص2273/ النميري: المصدر السابق، ص223، صص326- 328/ الزركشي: المصدر السابق، ص96- 97.

من خلال الأحداث السياسية والعسكرية التي صنعها كل من سلاطين المغربين الأوسط والأقصى بسياساتهما في إطار التوسع والنفوذ، لم تؤثر على ما يبدو بشكل كبير في حركة الهجرة، إذ لم يخْفَ على العرب نوايا كل طرف ولاسيما سلاطين المغرب الأقصى، ولذلك لم تشهد هذه الفترة هجرة جماعية واسعة وإنما كانت بشكل فردي أو أسري، ارتبط في أغلب الأحيان بأهداف ودواعٍ شخصية.

ثانيا: الهجرة الواردة: ونقصد بها استقبال المغرب الأوسط لمهاجرين من خارج حدوده واستقرارهم به سواء كانوا أفرادا أو جماعات، وهنا يُمكن أن نورد بعض المصطلحات المتعلّقة بهذا النوع من الهجرة منها:

الهجرة الأولية: وهي التي قام بها الفرد أو الجماعة لأول مرة.

هجرة استقرار: وهي التي يمكث فيها المهاجر في مدينة أو موضع داخل الإقليم ولا يُغادرها حتى يتوفى وتسمى استيطان، وكثيرا ما يُستَعمل هذا المصطلح في كتب التراجم.

هجرة عودة: وهي عودة الفرد أو الجماعة إلى وطنها الأصلي بعد هجرته لمدة طويلة سواء كان ذلك في طلب العلم أو للمجاورة.

الجلاء: وهو خروج الفرد والجماعة من بلدهم تحت الضغط أو الجبر، كالتهديد بالقتل أو السجن أو غيرها من أنواع الإكراه، ومنه الجالية أي الجماعة المهاجرة، وغالبا ما يطلق ابن خلدون هذا الوصف على أهل الأندلس الذين تركوا وطنهم واستقروا ببلاد المغرب عموما بعد استيلاء النصارى على مدنهم.

1- هجرة الأندلسيين إلى المغرب الأوسط: إنَّ اختلال ميزان القوة بين الغرب الإسلامي الـمُمَّثل في الدولة الموحدية والممالك المسيحية في الأندلس بعد موقعة العقاب، كان نذير خطر وشُؤم ليس على دولة الموحدين فحسب، بل على مصير بلاد الأندلس بما فيها من المسلمين، ولسنا بحاجة إلى تتبع سيرة وموقف الخلفاء بعد محمد الناصر مما بلغوه من التفريط والصراع على الحكم والفوضى في مقابل تكالب النصارى على المدن الإسلامية، ويكفي أنْ نورد نصّا واحدا لابن الخطيب لبيان ذلك في قوله: "وتغلّب الأشياخ على الدولة حسبما فعله الأتراك بالمشرق واضطربت الآراء وعظُم الفساد "[1]، ومكمن الخطر هنا ليس حركة الغزو التي كانت تُشَنُّ ضد الثغور وبعض المدن لأنَّ ذلك بات شيئا مألوفا، نفّذوه كلما سمحت لهم الفرصة بذلك، لكنَّ الحزم والقوة التي واجههم بها المسلمون في ظل الوحدة والجهاد سواء في عهد الإمارة أو الخلافة ثم دولة المرابطين وصدر دولة الموحدين، حالت دون تقدُّمهم، لكن الخطر تحوَّل بعد هزيمة العقاب إلى عمق الأندلس ومختلف جهاتها والذي كان مصحوبا بحركة طرد وإجلاء للمسلمين، ورغم محاولة المرينيين استعادة المبادرة

1- ابن الخطيب: رقم الحلل في نظم الدول، ص60.

بإحياء حركة الجهاد للحفاظ على الأندلس، إلا أنَّ الجو العام فيما يبدو كان يسير لصالح العدو الذي تمكّن من استرجاع عدة حصون ومدن.

كانت نتيجة الوضع الذي آلت إليه الأندلس من تشتُّتٍ وضعف سياسي وعسكري أنْ هاجر كثير من سكان الأندلس إلى عدوة المغرب، وسنركّز طبعا على الهجرة إلى المغرب الأوسط، مع الإشارة إلى ذلك في المغرب الأقصى وإفريقية كمقارنة بين الأقاليم الثلاث لمعرفة حجم كل إقليم من المهاجرين، والعوامل المتحكّمة في ذلك.

أسباب الهجرة: يُمكن اعتبار بداية الربع الثاني من القرن السابع الهجري على الأقل بداية حركة الهجرة نحو بلاد المغرب وإنْ كانت بشكل أقل إذ تمَّت غالبا على مستوى الأفراد أو الأسر لأنَّ أمل الجهاد والتصدِّي للعدو كان لا يزال قائما[1]، أو لأنَّ كثيرا من المدن لا تزال بِيَد المسلمين، وهو ما نلاحظه مثلا في استعمال بعض المؤرخين عبارة: " أعادها الله للإسلام " أو " جَبَرها الله " و" كلأها الله "[2] عندما يتكلمون عن بعض المدن التي استولى عليها العدو أو التي هي في حوزة المسلمين.

الحقيقة أنَّ الهجرة من الأندلس إلى بلاد المغرب لم تكن مرتبطة باستيلاء العدو على المدن الإسلامية فقط وإنْ كان هو العامل الأساس، بل تضافرت عدة أسباب وعوامل وظروف، وهو ما سنحاول توضيحه من خلال العناصر الآتية:

أ- تكالب العدو على مدن الأندلس: استغلَّت الممالك الصليبية القائمة في الأندلس ضعف الموحدين لتستولي على كثير من المدن بالقوة أو عن طريق الصلح بشروط قاسية، وفي كلتا الحالتين كان مصير الآلاف من المسلمين إما القتل أو التهجير، ومما زاد في خطورة الأمر استقلال كل رئيس بمدينة أو جهة من الجهات وهو ما ساعد العدو في طمعه وتكالبه.

تُعدُّ الفترة الممتدة من 622هـ- 1225م إلى 670هـ- 1271م مرحلة اشتدَّت فيها وطأة العدو على مسلمي الأندلس مستغلا فترة الفراغ والضعف السياسي والعسكري للموحدين والتي صوَّرها ابن خلدون في قوله: " فترة ضاعت فيها ثغور المسلمين واستبيح حماهم والْتَهَم العدو بلادهم وأموالهم، نهبا في الحروب ووضيعة ومداراة في السلم "[3]، وسنذكر أشهر المدن التي استولى عليها الصليبيون:

1- يمكن أن نذكر حادثة تُبرزُ مدى اهتمام بعض رؤساء المدن وحرصهم عليها من العدو، فقد ذكر ابن الخطيب أنّه جِيءَ للرئيس أبي عثمان سعيد بن حكم الأموي حاكم منورقة برجل قد شرب الخمر، وكان عنده ابن مُفَوِّز يقرأ عليه كتاب البخاري، فضُربت عنقه، فطوى ابن مفوّز الكتاب كارها لما أَقْدَمَ عليه الرئيس فقال له: " يا فقيه، هذه الجزيرة كثيرة العنب، والناس يشربون الخمر بها ويسكرون، فيضيِّعون الاحتراس، فيظهر علينا العدو ". أعمال الأعلام، ق2، ص276.

2- من أكثر المؤرخين استعمالا لهذه العبارات، مجهول: تاريخ الأندلس، ص111، ص133.

3- ابن خلدون: المصدر السابق، مج1، ص1169، 1172. مج2، ص1951، 1973، 2193/ المقري: نفح الطيب، مج6، ص219.

مدينة ماردة: وهي من بلاد غرب الأندلس، استولى عليها العدو[1] من يد محمد بن هود سنة 627هـ- 1229م، بعد أقل من سنتين من تملُّكها وتنازَلَ للنصارى عن ثلاثين حصنا[2] من حصون الإسلام.

مدينة بلنسية: وهي من مدن شرق الأندلس، لم تَدُم هذه المدينة في يد أبي جميل زيان بن أبي الحملات بن مردنيش أقل من عشر سنوات، أي من سنة 626هـ- 1228م إلى سنة 635هـ- 1238م تاريخ استيلاء جاقمُه ملك أرغون عليها[3]، جعلت صاحبها يستصرخ أبا زكريا الحفصي بواسطة كاتبه ابن الأبار وقصيدته السينية التي مطلعها:

أدْرك بِـخَيلِكَ خَيل الله أنـدَلُسَـا   إنَّ السَّبيلَ إلى مَنْجاتِها دَرَسَـا

وقال بعضهم يخاطب أبا زكريا الحفصي دائما:

نـادتـكَ أنـدلسُ فَلَبِّ نداءَهـا   واجْعَل طواغيتَ الصَّليب فِداءَها[4]

مدينة قرطبة: مَلَكها ابن الأذفونش[5] سنة 633هـ- 1236م.

جزيرة ميورقة: وهي من جزائر شرق الأندلس، فتحها المسلمون سنة 290هـ- 903م على يد عصام الخولاني، أخذها الموحدون من أيدي المرابطين سنة 600هـ- 1204م، فكان أول ولاتها أبو محمد عبد الله بن طاع الله الكومي، ثم وُلِّيها أبو يحي محمد بن أبي الحسن بن أبي عمران التينملي سنة 606هـ- 1211م إلى سقوطها بيد جاقمه (خايمي الأول) بن بِطْرُه بن أذفونش ملك أرغون سنة 627هـ- 1229م [6].

جزيرة شقر: أخذها العدو صلحا[7] سنة 639هـ- 1241م.

1- مجهول: تاريخ الأندلس، تحقيق عبد القادر بوباية، ص265/ ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ق2، ص280.

2- ابن خلدون: المصدر السابق، مج2، ص2193/ المقري: نفح الطيب، مج1، ص427.

3- ابن خلدون: نفسه، مج1، ص1169/ مج2، ص1949- 1950، 2193/ ابن الخطيب: نفسه، ق2، صص272- 274/ المقري: المصدر نفسه، مج6، 215.

4- المقري: نفسه، مج6، ص235.

5- ابن خلدون: نفسه، مج2، ص2193/ مجهول: المصدر نفسه، ص266/ المقري: المصدر نفسه، مج1، ص427، مج2، ص6. مج6، ص229/ السلاوي: المرجع السابق، ج2، ص220.

6- ابن عميرة المخزومي: تاريخ ميورقة، دراسة وتحقيق محمد بن معمر، دار الكتب العلمية، بيروت، 2007م، ص136-137/ ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ق2، ص276/ مجهول: المصدر نفسه، ص268/ ابن خلدون: المصدر نفسه، مج2، ص1924/ المقري: المصدر نفسه، مج6، ص225.

7- المقري: نفسه، مج6، ص228.

مدينة مرسية: من مدن شرق الأندلس، سقطت سنة 636هـ- 1238م على يد ألفونسو العاشر ملك قشتالة[1].

جزيرة منورقة: استولى عليها العدو البرجلوني سنة 686هـ- 1287م، وأجلى عنها المسلمين الذين التحقوا ببلاد الإسلام و ركب صاحبها البحر إلى سبتة ومنها إلى تونس حيث اسُتشهد غريقا رفقة عائلته بأحواز جزائر بني مزغنا[2].

مدينة جيان[3]: وهي من بلاد غرب الأندلس، شرقي قرطبة، استولى عليها النصارى سنة 644هـ- 1246م.

مدينة إشبيلية: وهي من مدن غرب الأندلس، ملكها صاحب قشتالة صلحا سنة 646هـ- 1248م بعد حصارها مدة سنة وخمسة اشهر[4].

مدينة دانية[5]: من عمل بلنسية على البحر من بلاد شرق الأندلس، استولى عليها خايمي الأول سنة 641هـ- 1243م.

مدينة شاطبة: من مدن شرق الأندلس، ملكها فرناندو الثالث سنة 645هـ- 1247م وقام بطرد سكانها[6].

مدينة وادي آش: استولى العدو على عدة حصون منها: قنبيل ومُنتِماس وبَجَاج[7] سنة 715هـ- 1315م.

ب- شعور المسلمين بالضعف والخوف: لقد كان لهزيمة العقاب أثرا نفسيا بالغا، وكأنَّ المسلمين أصبحوا غير قادرين على مقارعة النصارى لاسيما بعد إتّحاد مملكتي قشتالة وليون تحت زعامة فرناندو الثالث سنة 1230م إثر وفاة ألفونسو التاسع ملك ليون، إذ أصبحت مملكة قشتالة أقوى الممالك الإسبانية، فتملك المسلمين الخوف عن لقاء العدو، وفي

1- ابن خلدون: المصدر السابق، مج2، ص1954/ المقري: المصدر السابق، مج1، ص427، مج6، ص229.

2- ابن خلدون: المصدر نفسه، مج2، ص1980/ ابن الخطيب، المصدر السابق، ق2، ص276- 277/ المقري: المصدر نفسه، مج6، ص228.

3- ابن خلدون: نفسه، مج2، ص2193.

4- نفسه، مج2، ص1931، 1973، 2193/ ابن القنفذ: الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية، ص110/ المقري: نفسه، مج1، ص427. مج6، ص229.

5- ابن أبي زرع: الذخير السنية، ص61.

6 - المقري: المصدر نفسه، مج6، ص228.

7- ابن الخطيب، ق2، ص294.

ذلك يقول ابن أبي زرع: "وكان أهل الأندلس قد خامرهم خوف الروم وامتلأت قلوبهم رعبا منهم، فكانوا لا يستطيعون قتالهم ولا يقدِرون أنْ يواقفوهم ساعة، فملك الروم أكثر بلادها وقواعدها وحصونها ومعاقلها"[1]، والتي أرجعها بعض الدارسين إلى العقلية الانهزامية التي تملَّكت المسلمين في ظل الانهيار المعنوي نتيجة التشتت فيقول الطالبي: "وهكذا استولت على مسلمي الأندلس عقلية انهزامية، يُصوِّرها لنا أحسن تصوير الشاعر الأندلسي عبد الله بن فرج اليحصبي المشهور بابن العسال"[2] منذ أن استولى الإفرنج على مدينة طليطلة من يد ابن ذي النون سنة 475هـ- 1082م في قوله:

يا أهلَ أندلسٍ حُثّوا مَطِيَّكمُ   فما المقامُ بها إلاّ منَ الغَلطِ

الّثوبُ ينسَلُ مِنْ أطرافه وأرى   ثَوبَ الجزيرة منسولاً مِنَ الوَسَطِ[3]

يُعلِّق محمد الطالبي دائما على هذه الأبيات بقوله: " وهي تَرْشَح كلها بتلك العقلية الانهزامية والتي تركت السبب العميق والحقيقي الذي تولدت عنه الأحداث "، ثم يضيف قائلا: " والأمر الثاني الذي يتجلى أيضا بكل وضوح من هذه الأبيات لإدراك كل أبعاد الهجرة الأندلسية الاجتماعية والنفسية، هو أنَّ مسلمي الأندلس كانوا يشعرون أنهم أجانب، وأنهم بأرض ليست بأرضهم، حان وقت حثِّ المطايا لمغادرتها "[4].

ويقول شاعر آخر مُعبِّرا عن الحالة النفسية التي تملَّكت المسلمين هناك:

يا أهلَ أندلسٍ رُدُّوا المُعـارَ فما   في العُرْفِ عاريـّةٌ إلاّ مرَدَّاتٌ

ألـم تَرَوا بَيْذَقَ الكُفّار فَرْزَنَهُ   وشاهُنَا آخر الأبياتِ شَهْماتُ[5]

وهكذا كان النصارى يُحفِّزُهم داعي استرجاع الوطن فيما عُرِف لاحقا بحركة الاسترداد، الأمر الذي زادهم وحدة وعزمًا فيما كان المسلمون يحذوهم حنين العودة واللُّجوء إلى وطن الإسلام فوهنوا وتفرَّقوا، وبذلك تضافرت تلك العقلية وهذا الحنين الذي ولَّد نوعا من اليأس وفتح باب الهزائم ومِن ثَمَّ الهجرة التي لم تتوقف عند هذا الحد، بل ستتواصل إلى ما بعد سقوط غرناطة.

1- ابن أبي زرع: الذخيرة السنية، ص144/ السلاوي: المرجع السابق، ج2، ص203.

2- محمد الطالبي: **" الهجرة الأندلسية إلى إفريقية أيام الحفصيين "**، مجلة الأصالة، صص46- 90، ع26، السنة الرابعة، رجب- شعبان 1395هـ/ جويلية- أوت 1975م، ص48- 49/ محمد رزوق: دراسات في تاريخ المغرب، ص26.

3- المقري: المصدر السابق، مج6، ص121/ ابن سعيد المغربي: المغرب في حلى المغرب، ج2، ص21.

4- محمد الطالبي: المقال نفسه، ص49.

5- البيذق: يقصد بها المشاة في الحرب، وتَفَرْزَن البيذق: صار فِرْزانًا، وهي الملكة في لعبة الشطرنج. وشَهْمَات: كلمة في اصطلاح اللاعبين، يُعبِّرون بها عن انتهاء الدور، وأصله: " شاه مات " أي: مات الشاه، يقولها الغالب. المقري: نفح الطيب، مج6، ص122، ها1، ص122.

استحوذ النصارى على كثير من مدن وقواعد الأندلس بعد هزيمة العقاب، فَرَاح يلتهمها بلدًا بلَدًا[1]، جعلت الأديب أبو البقاء الرندي[2] يُسجِّل تلك الأحداث في حصرة قائلا:

أدْهَى الجزيرةَ أمرٌ لا عَزَاء لـه هَـوَى له أ ُحُدٌ وانهـدَّ ثَهْلان[3]

فاسْأَلْ بَلَنسـيةَ ما شأنُ مُـرْسيـةَ وأيْنَ شاطبـة أم أيـن جَـيَّـانُ

قَوَاعدٌ كُنَّ أركـانَ البلادِ فما عَسَـى البَقـاءُ إذ لـمْ تَبْقَ أركانُ[4]

أعاد أبو إسحاق إبراهيم بن الدباغ الاشبيلي صرخة ابن العسال بعد هزيمة العقاب باشبيلية قائلا:

فَما في أرضِ أندلسٍ مُقامٌ وقـدْ دَخلَ البلاَ مِنْ كلِّ بابِ[5]

نلمس من خلال هذا البيت حالة اليأس التي أصابت نفوس المسلمين، وبدل أنْ يدعوهم إلى الوحدة والعزم لمواجهة العدو، راح يدعوهم إلى مغادرة الأندلس، وهي تعبير عن الروح الانهزامية التي باتت تساور مسلمي الأندلس. ومما يكون قد ساهم كذلك في هجرة الأندلسيين، الكتب ولاسيما الفقهية التي كانت تحرِّم الإقامة في بلد الكفر وتُشجِّع على الخروج منها، وإن كان المقصود بها بلاد الكفار الأصلية التي يحكمونها ويسيطرون عليها بالكلية، فإنَّ تلك الكتابات وجدت استجابة لها في بلاد الكفار التي فتحها المسلمون، في ظل ذلك الانهيار العسكري والإحباط النفسي الذي يمكن أن تُؤَثِّر فيه فتوى واحدة أو بيتا من الشعر، وبخاصة في هذه الفترة وهي القرن السابع الهجري التي بلغ فيها الانقسام والضعف مبلغه، ومن هذه الكتب: " الجواب المختصر المروم في تحريم سكنى المسلمين بلاد الروم " لابن الفخار الجذامي[6] الذي يبدو أنه قد وجد استجابة في ظل تلك الظروف في حين كان آخرون يدعون إلى سكنى بلاد الشام، وإن كان الأمر يختلف بعض الشيء بين المنطقتين.

1- ابن أبي زرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس، ص240، صص273- 278.

2- أبو البقاء الرندي: هو صالح بن يزيد بن صالح بن موسى بن أبي القاسم بن علي بن شريف النفزي، من أهل رندة من عمل تاكرنا، يكنى أبا الطيب وأبا البقاء، كان شاعرا مُجيدا، خاتمة الأدباء بالأندلس، توفي سنة 684هـ- 1285م. ابن الخطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة، ج3، ص360.

3- ثهلان: جبل باليمن وقيل بالعالية ما بين نجد وتهامة، تضربُ به العرب المَثل في الثقل فتقول: أثقل من ثهلان. الحميري: المصدر السابق، ص151/ ياقوت الحموي: المصدر السابق، مج2، ص18، مج3، ص288.

4- المقري: المصدر نفسه، مج6، ص143- 144.

5- نفسه، مج6، ص222.

6- ابن الفخار: أبو بكر محمد بن علي بن أحمد الأركشي، الفقيه المتفنن، ألَّف نحو ثلاثين تأليفًا في فنون مختلفة منها: تحبير نظم الجمان في تفسير أم القرآن، توفي سنة 723هـ- 1323م، ويبدو أنه تأثر بحياة التهجير التي عاشها إذ خرج من بلده أركش لمَّا استولى عليها العدوّ فاستوطن شريش ثم لحق بالجزيرة الخضراء لمَّا أخذها العدوّ كذلك. ابن فرحون: المصدر السابق، ص395/ الونشريسي: الوفيات، ص22/ ابن حجر: المصدر السابق، س4، ص81/ ابن القاضي، ص179.

ج- الشعور بالغربة: إنَّ الحالة السياسية والعسكرية التي آلت إليها الأندلس، جعلت المسلمين هناك يشعرون وكأنهم أجانب في أرض ليست بأرضهم، لاسيما بعد أن حاصرهم العدو من الشرق والغرب والجوف، قال ابن خلدون: "ولم يزل الطاغية يقتطع ممالك الأندلس كورة كورة وثغرا ثغرا إلى أن ألجأ المسلمين إلى سيف البحر ما بين رندة من الغرب وإلبيرة من شرق الأندلس "[1]، وكأنَّ العدوّ يقول لهم عودوا من حيث أتيتم، وهكذا دهمت بالجلاء المكتوب والرجاء المكذوب عصائبها[2].

د- رواج بعض الأفكار: تذكر بعض المصادر أنَّ عمر بن عبد العزيز لم يكن يُحبِّذ بقاء المسلمين في الأندلس، ومنها ابن خلدون الذي يقول: " وقد كان عمر بن عبد العزيز رأى أن يُخرجَ المسلمين منها لانقطاعهم عن قومهم وأهل دينهم وبُعدَهم عن الصريخ، وشاور في ذلك كبار التابعين وأشراف العرب فرأوه رأيا، واعتزم عليها لولا ما اعتاقه من المنية وهو على ذلك "[3]، بينما أورد الونشريسي عنوانا على شكل فتوى " نهي عمر بن عبد العزيز عن الإقامة بالأندلس "[4]، وقد برَّر ذلك بجملة من الأحكام منها:

* خوف نقض ملوك النصارى لعهودهم اتجاه المسلمينومن ثـَمَّالتسلُّط على النفس والأهل والولد والمال أو ما يُعرف في الأصول بالكليات الخمس.

* الخوف على الفتنة في الدين.

* الخوف من سريان سيَّرهم ولسانهم ولباسهم وعوائدهم المذمومة إلى المقيمين معهم بطول السنين.

وقد استند الونشريسي إلى قول لمالك في هذا الموضوع يقول فيه: " إنَّ آية الهجرة تعطي أنَّ كل مسلم ينبغي أن يخرج من البلاد التي تُغيَّرُ فيها السنن ويُعمَلُ فيها بغير الحق فضلا عن الخروج والفرار من بلاد الكفرة وبقاع الفجرة[5]، ثم يخلص إلى الحكم في هذه القضية فيقول: " فقد ثبتت بهذه المفاسد الواقعة والمتوَّقعة تحريم هذه الإقامة وحظر هذه المساكنة المنحرفة عن الاستقامة "[6]، الأمر الذي جعله يُؤلـِّفُ رسالة في الهجرة سماها: " أسنى المتاجر في بيان أحكام من غلب على وطنه النصارى ولم يهاجر، وما يترتب عليه من العقوبات والزواجر " وذلك إثر سقوط مدينة غرناطة آخر معاقل المسلمين بالأندلس سنة 897هـ- 1492م. لكن السؤال المطروح هنا، هل النهي عن الإقامة المقصود في بلاد الكفار

1- ابن خلدون: المصدر السابق، مج1، ص1172.

2- ابن الأبار: التكملة لكتاب الصلة، ق1، ص4.

3- ابن خلدون: المصدر نفسه، مج2، ص2192/ مجهول: أخبار مجموعة، ص30.

4- الونشريسي: المعيار المعرب، ج2، ص140.

5- نفسه، ج2، ص141.

6- نفسه، ج2، صص140- 142

والتي يحكمونها أي التي لم يفتحها المسلمون ؟ أم في بلاد الأندلس عموما بما فيها تلك التي فتحها المسلمون وهي تحت سلطتهم وحكمهم ؟ فإذا كان الجواب هو الثاني، فهذا يعني أنَّ فتح الأندلس لم يكن أمرا ضروريا أو مطلوبا منذ البداية. وهنا يمكن أن نطرح سؤالا آخر ما دام أن الفتح قد تمَّ وأنَّ المسلمين قد مكثوا مدة طويلة في الأندلس، وهو: هل هذا النهي مرتبط بحالة المسلمين السياسية والعسكرية في بلد الكفر أي هل هو حكم مُؤَقّت أم هو حكم عام، روعيت فيه المصلحة الدينية وهي خوف الفتنة في الدين ؟

وإذا صحَّ نهي الخليفة عمر بن عبد العزيز عن ذلك، فلا يعدُّ ذريعة أو حجة على ما أصاب المسلمين في الأندلس، إذ يكون قد رأى في ذلك مصلحة للمسلمين بدليل إقامتهم بعده في بلاد الأندلس لمدة طويلة مع وجود الفقهاء والعلماء ولم ينكروا ذلك، وقد نهى قبله جدُّه عمر بن الخطاب- رضي الله عنه- عمرو بن العاص عندما استأذنه في غزو إفريقية وقال له: " إنها ليست بإفريقية، ولكنها المفرِّقة، غادرة مغدور بها، لا يغزوها أحد ما بقيت "[1]. فنهيه كان لمصلحة رآها هو، فلما توفي تواصلَ الفتح لفترة في عهد عثمان بن عفان رضي الله عنه ثم في العهد الأموي.

والحقيقة أنَّ مثل هذا الادِّعاء يكون من قبيل العذر الأقبح من ذنب، لأنها تؤدي إلى القول بأنَّ فتح الأندلس لا يعدو أن يكون مجرَّد حملة عسكرية، كان يمكن الاستغناء عنها[2]. وقبل عمر بن عبد العزيز، كان الوليد بن عبد الملك (86- 96هـ/ 705- 715م) قد أمر موسى بن نصير أن يخرج من الأندلس[3]. فهل كان انتشار هذه الأفكار في القرنين السابع والثامن الهجريين بالذات من قبيل تخفيف وطأة الهزائم وضياع الأندلس ؟ ومهما كانت الإجابة عن ذلك، فإنَّ الأندلسيين بدءوا في شد رحال الهجرة إلى بلاد العدوة التي يقول عنها ابن الأبار: " ولكن في هذه المائة الأخيرة أدركَ مرامهم الروم في الجزيرة، واستحكمت إبارتهم لها بحكم الفتنة المبيرة حتى ملكوها وجزائرها بين الصلح والعنوة، وغاية أهلها إلى هذه الغاية أن يتساقطوا على العدوة، وكل منهم مفلتٌ بجريعة الذقن، ومُسلِّم لعدوِّه الكافر محبوب الوطن "[4]. وفي ظل هذا الاضطراب الباعث على اليأس، أخذ كل مواطن أندلسي يبحث لنفسه عن مخرج ما، ومن تلك الحلول التي التجأت إليها نسبة من الأندلسيين هي الهجرة خارج حدود الوطن بحثا عن الأمن والاستقرار[5].

1- ابن عبد الحكم: فتوح إفريقية والأندلس، حققه وقدَّم له عبد الله أنيس الطباع، دار الكتاب اللبناني، بيروت، دت، ص33.

2- احميدة النيفر: **" المعيار، الهوية والحوار: قراءة في التجربة التاريخية للغرب الإسلامي "**، مجلة الثقافة والتراث، صص64- 71، مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث، دبي، الإمارات العربية المتحدة، ع14، سنة 1417هـ- 1996م، ص65.

3- المقري: المصدر السابق، مج1، صص264- 266.

4- الحلة السيراء، ص320.

5- أحمد المصباحي: " وصف ظهيرين موحديين لفائدة مهاجري شرق الأندلس "، مجلة أفاق الثقافة والتراث، صص53- 57، مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث، دبي، الإمارات العربية المتحدة، ع13، السنة الرابعة، 1417هـ- 1996م، ص54.

هـ- العوامل السياسية: كنا أشرنا في الفصل الأول إلى أنَّ الموحدين كثيرا ما كانوا يتخوفون من فقهاء المالكية ومن المتصوِّفة خشية تأليب العامة عليهم أو منافستهم على السلطة، ولعلَّهم أخذوا التجربة من ثورة ابن قسي، وقد عرفنا كذلك أنهم استدعوا الصوفي أبا مدين شعيب من بجاية لمجرد شكٍّ، ونفس الأمر حدث لبعض هؤلاء المتصوِّفة ومنهم ابن العريف (ت536هـ- 1141م) الذي استدعاه السلطان إلى مراكش وذلك لمَّا كثُر قاصديه من الزهاد والمريدين[1].

<u>اتجاهات الهجرة:</u> اختلفت وجهة الأندلسيين المهاجرين إلى عدوة المغرب حسب الظروف السياسية والتاريخية والاقتصادية والاجتماعية والنفسية، ومن المناسب هنا أن نتطرَّق إلى وجهة هؤلاء بالنسبة لدول بلاد المغرب الثلاث حتى يتسنى لنا معرفة حجم الهجرة ونصيب المغرب الأوسط منها، ورغم توزُّع هؤلاء المهاجرين على كامل بلاد المغرب فإنَّ إفريقية اختصَّت بحصة الأسد منهم وذلك لعدة أسباب:

* أنَّ الأسرة الحفصية التي كان مؤسسها أبو محمد عبد الواحد (ت618هـ- 1221م) أحد أبطال معركة الأرك قد استقرت بالأندلس قبل انتقالها إلى إفريقية، ولذلك كان الحفصيون يميلون إلى أهل الأندلس ويقدِّرون مواهبهم لخدمة دولتهم لاسيما وأنَّ إفريقية كانت دولة فتية في حاجة إلى نخبة علمية وطاقة بشرية في ظل الانهيار السكاني، وفي المقابل كانت إفريقية بالنسبة للأندلسيين تمثِّل الملاذ الأخير والمناسب لما تمتَّعت به من استقرار نسبي يمكن أن يستثمروا ويُبرزوا فيها مواهبهم في مجالات الصناعة والتجارة والفكر[2].

* أصبحت إفريقية والدولة الحفصية تمثِّل الخلافة الإسلامية والقوة السياسية والتي بويع لها ببلاد المغرب والأندلس، وصاحب مكة[3] بعد سقوط الخلافة العباسية في المشرق بعد اجتياح التتار لبغداد سنة 656هـ- 1258م ولكثير من بلاد الإسلام.

* الاستقبال الذي حظي به الأندلسيون من طرف أمراء بني حفص ولاسيما أهل العلم والفن منهم، الذين سيزينون البلاط الحفصي ويشاركون في الحياة العلمية، ولعلَّ أشهر من التحق بهم الكاتب ابن الأبار القضاعي، فكانت بيعة ابن مردنيش لأبي زكريا بداية العلاقات بين الأندلس وبلاد المغرب، والتي ستؤسِّس لهجرة الأندلسيين إلى المنطقة ومنها المغرب الأوسط.

1- ابن بشكوال: الصلة، مج1، ص130/ اليافعي اليمني: مرآة الجنان، ج3، ص204/ الذهبي: العبر، ج2، ص449/ ابن سعيد المغربي: المغرب في حلى المغرب، ج2، ص211/ ابن الزيات التادلي: المصدر السابق، ص97/ محمد بن محمد مخلوف: المرجع السابق، ص133.

2- محمد الطالبي: المقال السابق، ص51/ محمد عبد الله عنان: **" مدرسة بجاية الأندلسية وأثرها في إحياء العلوم بالمغرب الأوسط "**، <u>مجلة الأصالة</u>، صص193- 197، السنة الثالثة، ع13، صفر- ربيع الأول 1393هـ/ مارس- أفريل 1973م، ص194.

3- ابن خلدون: المصدر السابق، مج2، ص1949 وما بعدها.

الأندلسيون في المغرب الأوسط: إضافة إلى كتب التراجم، يعدُّ ابن خلدون من بين المصادر التي تعرَّضت لهجرة الأندلسيين، وإن كان ذلك بشكل عرضي من خلال بعض الحوادث ولاسيما دسائس البلاط، والمنافسة بين الكتاب والوزراء، ورغم أنَّ المغرب الأوسط لم يستقبل عددا كبيرا من المهاجرين بالمقارنة مع إفريقية مثلا وفي المرحلة الأولى على الأقل إلاّ أنه ظلَّ بيئة مفضَّلة لبعضهم ممن قصد الاستقرار به، وقبل تتبُّع هجرة الأندلسيين يمكن أن نورد بعض الملاحظات العامة التي مثّلت صورة المغرب الأوسط من الناحية السياسية والحضارية خلال ق7-8هـ/13-14م، وكانت لها علاقة مباشرة بظاهرة الهجرة:

* لم يشهد المغرب الأوسط وبخاصة خلال العهد الزياني حالة استقرار دائمة، بل إنَّ معظم تاريخه صراع وحروب إما بين القبائل، أو بين السلطة وبين القبائل سواء العربية منها أو البربرية ولاسيما في المنطقة الممتدة من أسافل شلف إلى متيجة، وهي موطن قبائل مغرواة وبني توجين والثعالبة المتمردة على السلطة الزيانية، ولذلك لم تشهد هذه المناطق إقبالا من قِبَل المهاجرين، إذ لا يمكن أن يعيشوا في وضع هربوا منه، أو بتعبير آخر أنَّ بني عبد الواد لم يوفروا لأنفسهم مجالا آمنا ما يمكّن غيرهم من اللجوء إليه.

* تُعدَّ بجاية وتلمسان وبدرجة أقل وهران، المدن الأكثر استقطابا للجاليات الأندلسية، وذلك باعتبارها حواضر قديمة وهامة، وفّرت الجو المناسب للاستقرار وبخاصة فئة العلماء والفقهاء الذين مارسوا بعض الوظائف السلطانية كالحجابة والكتابة أو الدينية كالإمامة والفتيا أو العلمية كالتدريس.

* ساهمت كتابات بعض المؤرخين في الهجرة نحو المغرب الأوسط، إذ خصَّص بعضهم مثل يحي بن خلدون جزءًا من كتابه للجاليات الأندلسية[1] التي استقرت بتلمسان وهو ما يعدُّ كتقديم لتوطين هؤلاء[2]، أما ابن خطاب المرسي الذي كتب عن يغمراسن، يبدي من خلال ظهير موجه لأهل الأندلس المستوطنين بحضرة تلمسان ظروف إقامتهم يقول فيه: "أحلّهم به من رعيه الجميل كنافا وبوَّأهم من اهتمامه الكريم وإنعامه العميم ... حين اختبر خدمتهم فشكر ما تولوا فيها من الجد والاجتهاد واطَّلع على أغراضهم السديدة في اختيار حضرته السعيدة للسكن على سائر البلاد"[3]، وكأنها دعوة لكل من يرغب في الالتحاق بهذه المدينة.

* انتشار ظاهرة التصوُّف في الأندلس وامتداد أثرها في بلاد المغرب منذ القرن السادس الهجري، ولعلَّ ضريح أبي مدين شعيب وهو متصوِّف أندلسي قد تكون وراء هجرتهم إلى مدينة تلمسان.

1- بغية الرواد، ق. التراجم، ص100 وما بعدها.

2- محمد رزوق: دراسات في تاريخ المغرب، ص62.

3- HASSAN EL-GHAILANI. edición Del <fasl al-jitab> de abu bakr ibn jattab al-mursi, tesis doctoral, dirigida por la dra – da. Maria jesus viguera molins, catedratica de estudios arabes e islamicos, universidad complutense de madrid, facultad de filologie, departamento de estudios arabes e islamicos, 1994,p119.

* تجلَّت الهجرة بصورة واضحة خلال القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر ميلادي نتيجة اكتظاظ المغرب الأقصى وإفريقية بالأندلسيين الذين جدوا في البحث عن أماكن شاغرة[1].

* شهدت بلاد العدوتين الأندلسية والمغربية فترات من التقارب والتعاون في العهد الموحدي أيام قوتهم، أو في العهد المريني، ولا شك أنَّ تلك الظروف قد سهَّلت انتقال الأندلسيين إلى بلاد المغرب، وهنا نشير إلى أنَّ الهجرة لم تكن مرتبطة دائما بفترات الضعف وإنما حتى أوقات الأمن والرخاء بدليل هجرة البعض والدولة الموحدية في الأندلس في أوج قوَّتها.

استقبل المغرب الأوسط عددا معتبرا من الجاليات الأندلسية التي قدِمت في شكل أفواج أو بصفة فردية، سواء كانوا من العرب والبربر المسلمين أو من اليهود والنصارى والذين استقروا بصفة خاصة في المدن الساحلية والمدن الهامة مثل تلمسان وبجاية، ويمكن أن نقسِّمهم من حيث مواطن هجرتهم إلى قسمين:

جالية شرق الأندلس: بدأت هجرة الأندلسيين بصفة خاصة بعد هزيمة العقاب مباشرة وبلغت ذروتها في النصف الأول من القرن السابع الهجري/ الثالث عشر ميلادي، ثم تَوَاصلت حسب الحالة السياسية لعدوتي المغرب، ويبدو أنَّ هجرتهم تمت بصفة جماعية حسب ما يستنتج من نصوص ابن خلدون الذي يستعمل مصطلح " الجالية "، وعن أسباب الهجرة وظروفها والمناطق التي لجأوا إليها يقول: " فلما تَكالبَ الطاغية على الدولة والْتَهَم ثغورها واكتسح بسائطها وآسَفَ إلى قواعدها وأمصارها، أجاز الأعلام وأهل البيوت إلى أرض المغربين وإفريقية، وكان قصدهم إلى تونس أكثر لاستفحال الدولة الحفصية بها "[2]. وكما هو واضح من النص فإنَّ المغرب الأوسط قد نال حظه من هؤلاء المهجَّرين.

وبالنسبة لعدد المهاجرين عموما والعدد الذي التحق بكل دولة من دول المغرب الثلاث فإنَّ الإحصاءات في المصادر تكاد تنعدم، ولذلك اختلفت تقديراتهم فذهب البعض إلى تقديرهم بعشرات الآلاف[3]، وعليه يكون عدد من لجأ إلى المغرب الأوسط بضعة آلاف على أقل تقدير، وتعد جالية شرق الأندلس أكثر الجاليات هجرة إلى المغرب الأوسط بعد أن استولى العدوُّ على مدنهم والذين تَوَجَّه معظمهم إلى مدينة بجاية باعتبارها حاضرة علمية ومدينة ساحلية وتجارية وقربها من شرق الأندلس، كما استغلَّ سلاطين بني عبد الواد هذه الظروف ففتحوا أبواب مدينة تلمسان لاستقبال هؤلاء المهاجرين سواء كعمل تضامني إسلامي مع إخوانهم المطرودين أو كان لأغراض أخرى، ومن هذه الجاليات جالية برجة[4]

1- محمد رزوق: المرجع السابق، ص50.

2- ابن خلدون: المصدر السابق، مج2، ص1976/ التنسي: المصدر السابق، ص127/ يحي بن خلدون: المصدر السابق، ج1، ص129.

3- محمد الطالبي: المقال السابق، ص56.

4- بَرجة، مدينة بالأندلس من أعمال البيرة، بينها وبين المرية مرحلة كبيرة، وهي من إقليم بجانة، بها أسواق وصناعات وحروث ومزارع. الإدريسي: ج2، ص537، 563/ أبو الفدا: تقويم البلدان، ص177/ شكيب أرسلان: ج2، ص167.

التي نزلت بمدينة السمار من نواحي يلل في عهد يغمرسن بن زيان أي خلال القرن السابع الهجري، ثم انتقلوا إلى تافسرة من نواحي القلعة (قلعة هوارة) ومنها انتقلوا إلى البرج قرب معسكر وشيدوا بها برجا فسُمِّيت المدينة به[1]. وزيادة على المسلمين وفدت على المغرب الأوسط جاليات من اليهود والنصارى.

1- اليهود: لا يمكن إعطاء تاريخ محدَّد عن مجيء هؤلاء إلى المغرب الأوسط لاسيما قبل العهد الزياني، والظاهر أنهم كانوا موجودين في تلك الفترة حيث تشير الشواهد إلى قبر الربِّي شبارلوك[2] - RABBIN SCHPARLOCH- بمدينة تلمسان، وقد ارتفع عددهم فيما بعد مع أواخر القرن الثامن الهجري/ القرن 14م حتى أصبحوا جالية معتبرة، أما عن ظروف وأسباب قدومهم فالأكيد أنهم وفدوا مع مهاجري الأندلس أو قدموا في جماعات مستقلة سواء نتيجة سقوط المدن التي كانوا يقطنونها أو بسبب الاضطهاد الذي لحقهم هناك، وقد استقروا بصفة خاصة في الحواضر ومارسوا التجارة[3]، ومما يؤكد وجود هؤلاء في تلمسان ما حكاه ابن خلدون أنَّ السلطان أبا زيان محمد خاطبَ أخاه أبا حمو موسى في حصار تلمسان قائلا: " ولا تشاورني بعدها فيهن، بل سرِّح اليهود والنصارى إلى قتلهن وتعال إليَّ نخرج مع قومنا إلى عدوِّنا فنستميت "[4].

2- النصارى: إنّ تواجد النصارى في بلاد المغرب عموما يعود إلى عهد المرابطين الذين اتخذوا منهم فرقة في الجيش وكان من أبرز قادتها آنذاك الأبرتير[5] الذي قُتِل في إحدى المعارك، أما عن هجرتهم من بلادهم نحو المغرب الأوسط فتعود إلى خلافهم مع ملوكهم وساداتهم الاقطاعيين الذين نفوهم فتوجَّهوا إلى الخدمة العسكرية كمرتزقة لاسيما وأنَّ معظمهم كانوا من الفرسان ذوي الخبرة العسكرية ولذلك جعل منهم يغمراسن بن زيان فرقة في جيشه من الرامحة والناشبة بلغت زهاء ألفي فارس ثم استعملهم أبو حمو موسى الثاني عندما نزع إليه بعض الفرسان من بلنسية[6].

1- الآغا بن عودة المزاري: المرجع السابق، ج2، ص328. قال: وكان الذي أتى من برجة وبنى البرج يُقال له عياش وأولاده يُقال لهم العيايشة، واستخرج به عيًنا لشرب المدينة في غاية الحلاوة تُسمَّى عين عياش، وأرض البرج رملة توافق الغراسة لبرودتها، وهو ما يتوافق مع ما ذكره الإدريسي من أنَّ أهل برجة كانوا معروفين بالنشاط الفلاحي، ثم انتقل بعضهم إلى سيرات فصاروا بالوطاء وبقي الآخر بالجبل.

2-REVUE AFRICAINE: origine et constitution de la communaute israelite de tlemcen, pp376- 383, 4° anne, ALGER, BASTIDE, Librairie-editeur, 1870, p376.

3-ibid, p377/ ناصر الدين سعيدوني: مظاهر التأثير الإيبيري والمجود الأندلسي بالجزائر، دار الغرب الإسلامي، ط1، 2003م، ص37/ تاريخ إفريقيا العام، مج4، ص118/ الحاج محمد بن رمضان شاوش: المرجع السابق، ج2، ص41.

4- ابن خلدون: المصدر السابق، مج2، ص2127.

5- البيذق: المصدر السابق، ص83/ ابن القطان: المصدر السابق، ص263/ ابن عذاري: البيان المغرب، ج4، ص102/ ابن سماك العاملي: المصدر السابق، ص149.

6- مجهول: زهر البستان، ص260/ يحي بن خلدون: المصدر السابق، ج1، ص206/ ج2، ص390/ عبد الرحمن بن خلدون: المصدر نفسه، مج2، ص2113.

إضافة إلى الجندية امتهن بعض أفراد الجالية المسيحية النشاط التجاري ولاسيما القادمين من إيطاليا واليونان وصقلية حيث كانوا كوسطاء بين تجار المغرب الأوسط وبين الممالك المسيحية سواء في المدن الساحلية كبجاية أو الداخلية كتلمسان أين تمتّعوا بكامل حقوقهم الدينية والثقافية والاقتصادية، أما عددهم فيبدو أنه كان قليلا بالنظر إلى بعض الإجراءات التي كانت تُفرَض عليهم كأن لا يصطحبوا معهم زوجاتهم ولا يتزوجوا مسلمات[1].

شكّلت طبقة العلماء والأدباء أكبر نسبة من المهاجرين الأندلسيين والذين قدموا في غالب الأحيان بشكل فردي، وقد خدموا البلاط الزياني لاسيما وأنَّ هذه الفترة شهدت منافسة بين دول بلاد المغرب الثلاث في المجال العلمي والحضاري، وسنورد نماذج فقط عمن هاجر إلى المغرب الأوسط لأن ذلك مما لا يمكن حصره.

* **محمد بن عبد الله بن داود بن خطاب الغافقي أبو بكر[2]:** من أهل مرسية، رحل عنها بعد أن اختلّت أمورها فنزل مدينة تلمسان على يغمراسن سنة 676هـ- 1274م، كان من أبرع الكتاب خطا وأدبا وشعرا ومعرفة بأصول الفقه فقرَّبه وجعله صاحب القلم فكتب له إلى أن توفي يوم عاشوراء سنة 686هـ- 1287م. و ممن وفد معه ابن وضاح الذي كان أحد أعضاء مجلس الشورى لدى يغمراسن[3].

* **سعيد بن علي بن محمد بن عبد الرحمن بن زاهر أبو عثمان البلنسي[4]:** كان من فقهاء المالكية، رحل إلى العدوة واستوطن بجاية وأقرأ بها، توفي سنة 654هـ- 1256م.

* **أبو القاسم بن الشيخ[5]:** قدم من بلده دانية إلى بجاية سنة 626هـ- 1228م، واتّصل بعاملها محمد بن ياسين فاستكتبه، إلى أن توفي سنة 694هـ- 1294م.

* **محمد بن غمر السلمي[6]**: كان قاضيا بشاطبة، خرج مع الجالية عندما استولى عليها العدو ودخل إلى تونس، انتقل ابناه أبو بكر ومحمد إلى قسنطينة ونزلا على ابن أوقيان عامل الحفصيين ، توفي سنة 719هـ- 1319م.

1- روبار برانشفيك: المرجع السابق، ج1، ص481/ عبد العزيز فيلالي: المرجع السابق، ج1، ص190.

2- يحي بن خلدون: المصدر السابق، ج1، ص129، ص205/ عبد الرحمن بن خلدون: المصدر السابق، مج2، ص2114/ التنسي: المصدر السابق، ص127/ ابن الخطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة، ج2، صص426- 433/ ابن الأحمر: تاريخ الدولة الزيانية بتلمسان، ص64/ ابن مريم: المصدر السابق، ص397/ بن رمضان شاوش: المرجع السابق، ج2، ص117.

3- ابن خلدون: المصدر نفسه، مج2، ص2114.

4- ابن القنفذ: شرف الطالب، ص219.

5- ابن خلدون: المصدر السابق، مج2، ص1983.

6- نفسه، ص1987، 1998.

* **محمد بن محمد بن أحمد أبو عبد الله ابن الجنان الأنصاري:** من أهل مرسية، محدِّثٌ وراوية، كاتب بليغ، خرج من بلده لما استولى عليها العدو سنة 640هـ- 1242م، نزل سبتة ثم استقرَّ آخرا ببجاية التي توفي بها سنة 650هـ- 1252م[1].

* **محمد بن قاسم بن أحمد أبو عبد الله الأنصاري:** يُعرف بالمليلوط، هاجر رفقة والده وعمره ثمانية أعوام، نزل مدينة جزائر بني مزغنى ثم تحوَّل عنها إلى بجاية، عُرف هناك بالمربِّي، توفي سنة 728هـ- 1328م[2].

* **ابن وضاح:** من جالية شرق الأندلس، وفد على يغمراسن فكان من المقرَّبين إليه[3].

* **محمد بن صالح بن أحمد ابو عبد الله الكناني الشاطبي:** خرج من شاطبة حين استولى الروم عليها أواخر رمضان سنة 645هـ- 1247م، استوطن بجاية،قُدِّم للخطبة بها سنة 662هـ- 1263م، توفي سنة 699هـ- 1299م[4].

* **أحمد بن عبد الملك أبو بن العباس بن سوادق الجذامي:** من أهل المرية، أديب وكاتب وشاعر، توفي ببجاية سنة 722هـ- 1322م[5].

* **أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن بن علي بن محمد بن سليمان (ت610هـ- 1213م):** من مدينة مرسية، أحد القراء والمحدِّثين، نزل بجاية بعد عودته من الحج ثم استوطن تلمسان[6]

* **أحمد بن محمد بن أحمد بن إبراهيم بن هارون الغساني:** من أهل ألمرية، تقدَّم للخطبة والإمامة ببجاية، توفي يوم الجمعة الأول من رمضان سنة 726هـ- 1326م[7].

جالية غرب الأندلس: يُعتَبر ظهور مملكة برتقال الناشئة غرب الأندلس والتي أصبحت تُضايق المسلمين، من الأسباب المباشرة لهجرة الأندلسيين ولاسيما بعد الهزيمة التي تلقوها بقصر أبي دانس[8] سنة 614هـ- 1217م واستشهاد ستة عشر ألفا منهم.

1- ابن الخطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة، ج2، ص348.

2- ابن القاضي: درة الحجال، ص174.

3- ابن خلدون: المصدر السابق، مج2، ص2114.

4- ابن القاضي: المصدر نفسه، ص151.

5- نفسه، ص67/ ابن حجر: المصدر السابق، س1، ص191.

6- الذهبي: تذكرة الحفاظ، ج3، ص1394/ محمد بن محمد مخلوف: المرجع السابق، ص172.

7- ابن القاضي: المصدر السابق، ص67- 68.

8- ابن خلدون: المصدر نفسه، ص2246/ ابن أبي زرع: الذخيرة السنية، ص49/ ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ق2، ص336/ السلاوي: المرجع السابق، ج2، ص203.

* **محمد بن الحسن بن محمد أبو عبد الله اليحصبي الباروني[1]:** ويظهر أنه من مدينة بارو أو (فارو) نزل تلمسان وتوفي بها سنة 734هـ- 1333م.

* **سعيد بن علي بن محمد بن عبد الرحمن بن زاهر أبو عثمان[2]:** من بلنسية، استوطن بجاية وأقرأ بها، توفي سنة 654هـ- 1256م.

* **محمد بن أحمد بن عبد الرحمن أبو بكر الزهري[3]:** يُعرف بابن محرز، من أهل بلنسية فقيه ومحدِّث استوطن بجاية بعد سنة 640هـ- 1242م، كان رأس الجماعة الأندلسية ببجاية بحيث يجتمعون في منزله، أبن الأبار وأبو المطرف بن عميرة وأبو بكر بن سيد الناس وأبو عبد الله بن الجنان وغيرهم.

* **أبو عبد الله الشوذي الاشبيلي (الحلوي)[4]:** نزل تلمسان، بعد أن فرَّ من القضاء لبني عبد المؤمن بالأندلس.

* **أحمد بن محمد بن أحمد بن عبد الله بن قاسم ابن السراج[5]:** من أهل اشبيلية، خرج عند تغلُّب العدو عليها، أقام بسبتة قليلا، انتقل إلى بجاية واستوطنها، توفي سنة 657هـ- 1259م.

جالية الوسط والجوف:

* **بنو الملاح:** أهل بيت بقرطبة، كانو يحترفون بسك الدراهم والدنانير، أول من قدِم منهم عبد الرحمن بن محمد بن الملاح، نزل على يغمراسن بن زيان فجعله صاحب أشغاله[6]، ويبدو أنَّ بني عبد الواد قد استفادوا منهم في هذا الجانب (السكة) ثم ازدادت حظوتهم في عهد أبي حمو موسى الأول حيث كان وزيره محمد بن ميمون بن الملاح ثم ولده محمد الأشقر ثم ولده إبراهيم وعمه علي بن عبد الله[7].

* **عبد الحق بن عبد الرحمن أبو محمد الاشبيلي:** يُعرف بابن الخراط، نزل بجاية عند الفتنة الواقعة بالأندلس عند انقراض الدولة اللمتونية، وُلي الخطابة والصلاة بجامعها، كان فقيها حافظا عالما بالحديث وعلله عارفا بالرجال، توفي سنة 581هـ- 1185م[8].

1- ابن حجر: المصدر السابق، س3، ص425.

2- الغبريني: المصدر السابق، ص137/ ابن القنفذ: شرف الطالب، ص219.

3- الغبريني: المصدر السابق، ص134/ محمد بن محمد مخلوف: المرجع نفسه، ص194.

4- يحي بن خلدون: المصدر السابق، ج1، ص128/ ابن مريم: المصدر السابق، ص160.

5- الغبريني: المصدر نفسه، ص93/ ابن القنفذ: المصدر نفسه، ص220.

6- يحي بن خلدون، المصدر نفسه، ج1، ص205/ عبد الرحمن بن خلدون: المصدر السابق، مج2، ص2133.

7- يحي بن خلدون: نفسه، ج1، ص212/ ابن خلدون: نفسه، مج2، ص2133/ التنسي: المصدر السابق، ص138.

8- ابن فرحون: المصدر السابق، ص276/ الغبريني: نفسه، ص18/ الذهبي: تذكرة الحفاظ، ج4، ص1100.

* **إبراهيم بن عبد الله بن إبراهيم بن محمد النميري الغرناطي:** غادر الأندلس سنة 737هـ-1336م، استوطن بجاية ثم انتقل منها إلى تلمسان حيث انقطع للعبادة بتربة الشيخ أبي مدين توفي سنة 764هـ- 1363م[1].

* **أسرة الآبلي:** أصلهم من مدينة آبلة-AVILA - من بلاد الجوف، منهم محمد وأخاه إبراهيم، قدِما إلى تلمسان وانخرطا في سلك الجندية لدى السلطان يغمراسن بن زيان وولده، فكان إبراهيم الآبلي قائد حامية بمرسى هنين، وولده محمد بن إبراهيم (ت757هـ- 1350م) شيخ العلوم العقلية والنقلية، وهو شيخ عبد الرحمن بن خلدون بتلمسان[2].

أما عن نشاط هؤلاء المهاجرين في المغرب الأوسط، فقد اختلفت حسب مستواهم ومكانتهم العلمية ونشاطهم السابق، وحسب الإمكانيات والظروف التي أصبحوا يعيشونها في مناطقهم الجديدة، وعليه يمكن أن نصنفهم إلى الفئات الآتية:

أ- فئة العلماء والفقهاء: مارسوا وظائف دينية كالصلاة والخطابة والقضاء والتدريس.

ب- الكتاب والأدباء: اشتغلوا ككتاب أو حجاب أو وزراء في البلاط السلطاني.

ج- **الحرفيين:** وهم الذين كانوا يتقنون صنعة أو حرفة معينة كالسكاكة والصياغة والدباغة والنجارة والترصيع، أو صناعة الفخار والنسيج ووسائل الفلاحة، والتي عادة ما جلبوها معهم من بلدهم.

د- الجند: مارسوا مهمة الجندية حيث انخرطوا في جند السلطان، وقد كان منهم في فرقة الرماة أكثر من ألفين[3] لدى يغمراسن بن زيان، كما كان منهم بوهران ما نيَّف على مائة رامٍ، عُرفوا برماة الدَّحل الاندلسيين[4].

هـ- الزهاد والمُتصوِّفة: كان هدفهم الاستقرار والانقطاع للتعبُّد في ظروف آمنة، وقد اشتهرت مدينة تلمسان كمقر للمتصوِّفة القادمين من الأندلس وإفريقية والمغرب الاقصى، حتى أصبحت أضرحتهم زوايا ومدارس جلبت إليها الزوار والطلبة.

2- الهجرة من المغرب الأقصى إلى المغرب الأوسط: ارتبطت هجرة بعض القبائل العربية بالصراع الزياني المريني، ومنها قبائل المعقل التي كانت في صراع ضد المرينيين لما

1- ابن حجر: المصدر السابق، س1، ص28- 29.

2- ابن خلدون: المصدر السابق، مج2، ص2343/ يحي بن خلدون: المصدر السابق، ج1، ص120/ ابن مريم: المصدر السابق، ص381/ عادل نويهض: المرجع السابق، ص12/ ابن مرزوق: المسند الصحيح الحسن، ص266.

3- ابن فضل الله العمري: المصدر السابق، س4، ص172- 173.

4- مجهول: زهر البستان في دولة بني زيان، ص139.

حاولوا إخضاعهم، فحاربهم السلطان أبي الحسن سنة 686هـ- 1287م[1]، ويبدو أنَّ بني زيان قد استغلوا هذا التوتر في العلاقات لصالحهم منذ عهد يغمراسن الذي كان يدرك حاجته إليهم في مواجهة أطماع بني مرين، فقد لجأت بعض بطون ذوي منصور وذوي حسان من المعقل كالعمارنة والمنبات إلى نواحي تلمسان حيث أقطعهم[2] أبو حمو ضواحيها وفي ذلك يقول ابن خلدون: "وجأجأ أبو حمو بالمعقل من مواطنهم الغربية فاقبلوا عليه وعكفوا على خدمته "[3]، وهو ما جعل السلطان المريني يطلب منه التجافي عن قبولهم لما فيه من الاستكثار بهم عليه[4]، وكما هو واضح من الخطاب المريني فإنَّ هؤلاء كانوا من القوة ما يمكن أن يقلبوا الموازين لصالح أي طرف.

عادت بعض القبائل البربرية إلى مواطنها بعد غربة طويلة ومنها قبيلة بني ورا المغراوية، نقلهم يوسف بن يعقوب المريني من مراكش مع مطلع القرن الثامن الهجري بعد أن ارتاب بأمرهم وخشي من فسادهم وعيثهم فأنزلهم بشلف[5]، لاسيما وأنهم كانو معروفين بالثورات على الدول سواء في العهد الزيري الحمادي[6] أو في عهد بني عبد الواد[7].

إضافة إلى الهجرة القبلية، حدثت هجرات فردية وبخاصة من العلماء الذين استقروا في الحواضر كبجاية وتلمسان سواء كانوا من المغرب أو من الأندلس، ويلاحظ أنَّ بعضهم قد انتقل من المغرب الأقصى بعد إقامة قصيرة، نذكر منهم:

* **أبو علي حسين بن يوسف بن يحي الحسنيي السبتي:** تولى القضاء بتلمسان، كان حافظا للعلم محققا للتاريخ، توفي سنة 754هـ- 1353م[8].

* **ابن الدباغ عبد العزيز بن يوسف بن إبراهيم اللخمي:** من أهل مرسية، جاز إلى العدوة فسكن فاسا وأقرأ بها ثم انتقل إلى تلمسان فاستوطنها وبها توفي سنة 602هـ- 1205م[9].

1- ابن خلدون: المصدر السابق، مج2، ص2109، 2223.

2- يمكن أن نسمي هذا الإقطاع بإقطاع خدمة. عز الدين أحمد موسى: النشاط الاقتصادي في الغرب الإسلامي، ص146/ يُشبِّه جورج مارسيي هذا الاقطاع بالنظام الاقطاعي الذي ساد أوروبا في القرون الوسطى، والحقيقة أنه يختلف عنه تمامًا. بلاد المغرب وعلاقاتها ببلاد المشرق الإسلامي في العصور الوسطى، ص325.

3- ابن خلدون: المصدر نفسه، مج2، ص 1813- 1815، 2148، 2284، 2278، 2297/ يحي بن خلدون: المصدر السابق، ج2، ص143، ص300/ عبد الوهاب بن منصور: المرجع السابق، ص425/ جورج مارسي: المرجع نفسه، ص231.

4- ابن خلدون: المصدر نفسه، مج2، ص2297.

5- ابن خلدون: المصدر السابق، مج2، ص2093.

6 - نفسه، مج2، ص2092، عبد الحليم عويس: المرجع السابق، ص56، 58، 112.

7- ابن خلدون: نفسه، مج2، ص2123، 2134/ يحي بن خلدون: المصدر السابق، ج1، ص208- 209، 213، 236/ التنسي: المصدر السابق، ص129، 136، 153.

8- يحي بن خلدون: المصدر نفسه، ج1، ص131/ ابن القاضي: المصدر السابق، ص126.

9- ابن أبي زرع: الذخيرة السنية، ص40/ ابن خلدون: المصدر نفسه، مج2، ص1984.

3- الهجرة من إفريقية إلى المغرب الأوسط: كانت القبائل العربية في معظم الأحيان محرِّك الهجرة، بسبب الصراعات فيما بين هذه القبائل أو بينها وبين السلطة، ولذلك لما شايع الدواودة من رياح بني غانية في ثورتهم، استعان أبو زكريا يحي بقبائل الكعوب ومرداس السليمية من مواطنهم بطرابلس وقابس لضربهم فتكرَّرت بينهم الحروب والوقائع حتى أزاحوهم عن إفريقية فالتحقوا بقسنطينة وبونة إلى الزاب وريغ ووراركلا[1]، فيما شنَّ بنو حفص أحيانا حملات عسكرية أدت إلى جلائهم منها حملة المستنصر بالله ضد الدواودة سنة 664هـ- 1266م ثم حملة ثانية سنة 666هـ- 1268م التي دخل على إثرها بنو مسعود إلى نواحي بسكرة[2]، كما انتقل بعضهم كقبائل مرداس وعدوان من نواحي الكاف إلى الصحراء الشرقية للمغرب الأوسط حوالي سنة 600هـ- 1204م لارتياد الفلوات لما ضاقت عليهم المجالات لكثرة عددهموذلك بعد أن تغلَّبوا على سكانها من البربر[3].

أما بالنسبة للقبائل البربرية فنسجِّل عودة بني خزرون المغراويين الذين كانوا قد أقاموا إمارة بطرابلس بعد خروجهم من المغرب الأوسط منذ القرن الخامس الهجري/ ق11م، ولما ضعف أمرهم بسبب الصراعات والضائقة الاقتصادية التي دامت من سنة 537 إلى 542هـ/ 1142- 1147م[4] والتي استغلها روجار صاحب صقلية فبعث أسطوله بقيادة جرجي بن ميخائيل الذي ملكها وأخرج منها هذه القبائل[5]، وقد كان من زعمائهم عبد الصمد بن محمد بن خزرون، وجدُّه خزرون بن خليفة بن ورو الذي التحق بوطنه شلف فكان من أعقابه هناك بنو منديل.

أما بالنسبة للهجرات الفردية، فالمصادر لا تعطينا صورة واضحة إذ تقتصر في ذلك على الشخصيات العلمية دون غيرها والتي كان عددها قليلا إذا ما قورنت بالهجرة من المغرب الأوسط إلى إفريقية، وسنورد بعض الأمثلة كنماذج على ذلك.

* **أبو الطاهر إسماعيل بن إبراهيم التونسي:** كان من العلماء الحفاظ، اشخِص عن بلده إلى مراكش، واستقرَّ آخر عمره بتلمسان[6].

1- ابن خلدون: المصدر السابق، مج2، ص1796- 1797، 2076/ روبار برانشفيك: المرجع السابق، ج1، ص59.

2- ابن خلدون: المصدر نفسه، مج2، ص1969/ ابن القنفذ: الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية، ص127، 129/ ابن الشماع: المصدر السابق، ص68/ ابن أبي دينار: المصدر السابق، ص128/ محمد العروسي المطوي: السلطنة الحفصية، ص184- 185/ روبار برانشفيك: المرجع نفسه، ج1، ص79.

3- العدواني: المصدر السابق، ص92، 134/ إبراهيم الساسي العوامر: المرجع السابق، ص175.

4- ابن الأثير: المصدر السابق، مج2، ص2387/ المقريزي: اتعاظ الحنفا، ج3، ص178/ أبو الفدا: المختصر في اخبار البشر، ج3، ص28/ اليافعي اليمني: مرآة الجنان، ج3، ص210.

5- ابن خلدون: المصدر السابق، مج2، ص2090، 2104/ ابن جبير: المصدر السابق، ص241.

6- يحي بن خلدون: المصدر السابق، ج1، ص129.

* **أبو عبد الله محمد بن أحمد بن علي بن أبي عمرو التميمي**[1]**:** من بيت علم ورئاسة، نزل تلمسان بعد حصارها الأول، تولى بها القضاء، توفي في حدود سنة 740هـ- 1339م.

4- الهجرة من المشرق إلى المغرب الأوسط: اقتصرت هجرة المشارقة على بعض العناصر وفي فترات الحروب أو ارتبطت بظروف سياسية معيَّنة، فقد هاجر بعض الأكراد من العراق والشام حيث كانت لهم رئاسات أيام تغلُّب الأعاجم على الدولة، ولما غَلَب التتر على مُلك بني العباس سنة 656هـ- 1258م فرَّ الكثير من الأكراد وأجاز منهم إلى المغرب عشيرتان: بنو لوين وبنو تابير فيمن إليهم من الأتباع فدخلوا المغرب آخر دولة الموحدين[2]، ثم صار بعضهم إلى بني مرين ولحق بعضهم بيغمراسن بن زيان، منهم موسى بن علي بن حسن من بني تابير الذي تولى الحجابة والوزارة وقيادة الجيش، وقد بعثه أبو حمو موسى الأول ردءًا في جيش لحصار مدينة بجاية سنة 714هـ- 1314م[3]، ثم بعثه السلطان أبو تاشفين بن أبي حمو في مهمة عسكرية إلى الشرق[4] سنة 721هـ- 1321م وصل فيها إلى بونة وقسنطينة.

شهد المغرب الأوسط خلال القرنين السابع والثامن الهجريين موجات من الهجرات البشرية، فقد استقبل جاليات من مختلف المناطق المجاورة وبخاصة من الأندلس نتيجة الظروف والأسباب التي ذكرناها، فكان بيئة مناسبة للاستقرار وهو ما يعكس أهمية المنطقة وما بلغته الدولة الزيانية من تطور حضاري، كما عرف في نفس الوقت هجرة خارجية نحو المشرق وغيره، وعليه نستطيع القول أنَّ المغرب الأوسط كان مفتوحا لحركة بشرية ستكون لها نتائج في جميع الميادين وهو ما سنعالجه في الفصل الموالي.

1- يحي بن خلدون: المصدر السابق، ج1، ص131.

2- ابن خلدون: المصدر السابق، مج2، ص2138.

3- يحي بن خلدون: المصدر نفسه، ج1، ص213/ التنسي: المصدر السابق، ص137.

4- ابن خلدون: المصدر نفسه، مج2، ص2135/ يحي بن خلدون: المصدر نفسه، ج1، ص216/ التنسي: المصدر نفسه، ص143.

الفصل الثالث: آثار الهـجرة ونتائـجـها

أولا: آثار ونتائج الهجرة الداخلية

1- الآثار والنتائج الاجتماعية.

2- الآثار والنتائج السياسية.

3- الآثار والنتائج الثقافية.

4- الآثار والنتائج الاقتصادية.

ثانيا: آثار ونتائج الهجرة الخارجية

1- في المغرب الأقصى والأندلس.

2- في المشرق الإسلامي.

ثالثا: آثار ونتائج الهجرة الأندلسية في المغرب الأوسط

1- الآثار والنتائج العلمية.

2- الآثار والنتائج العمرانيـة.

3- الآثار والنتائج الاقتصادية.

4- الآثار والنتائج الاجتماعية والثقافية.

رابعا: آثار ونتائج الهجرة بين المغرب الأوسط وبلاد السودان.

1- الآثار والنتائج الاجتماعية.
2- الآثار والنتائج الثقافية.
3- الآثار والنتائج العمرانية.

لاشك أنَّ ما عاشته منطقة الغرب الإسلامي بصفة عامة والمغرب الأوسط من تحركات وهجرات داخلية وخارجية، لم تكن ظاهرة معزولة وحادثا عرضيا، بل كانت لها تداعيات ونتائج مختلفة سواء على المستوى المحلي أو بالنسبة للمناطق التي تمَّت إليها الهجرة. والحقيقة أنَّ هذه النتائج شكّلت في معظم جوانبها الهوية الاجتماعية والثقافية للمغرب الأوسط والتي تُعد في نفس الوقت كمحصِّلة لمراحل تاريخية مرت بها المنطقة.

إنَّ هذه الآثار والنتائج لم تكن على درجة واحدة في كل الأقاليم التي تمت فيها الظاهرة وذلك من حيث أهميتها أي في جانبيها السلبي أو الإيجابي أو من حيث عمقها ودرجة أثرها وذلك بحسب حجم الهجرة ونوعية الفئة المهاجرة وواقع وظروف المناطق التي استقروا فيها، فالهجرة الأندلسية إلى المغرب الأوسط مثلا تختلف عن الهجرة من هذا الأخير إلى المشرق وهكذا.

أولا: أثار ونتائج الهجرة الداخلية

كنا قد بدأنا في دراستنا هذه بالهجرة الداخلية (الفصل الأول) وعليه فمن المنطقي أنْ تكون أثار تلك الهجرة أوضح وأعمق من الخارجية، وإنْ كان هذا الحكم ليس حكما مطلقا وصائبا دائما، إذ يعود ذلك إلى الأسباب التي ذكرناها أعلاه، كما أننا هنا لسنا بصدد المفاضلة بين نوعي الهجرة وإنما المقارنة حتى نستنتج درجة التأثير والتأثُّر وأبعاد ذلك تاريخيا وحضاريا.

1- الآثار والنتائج الاجتماعية والعمرانية: كان العرب أكثر العناصر تأثيرا في هذا المجال، فإنَّ زحفهم نحو الغرب جعلهم يدفعون أمامهم القبائل البربرية، وبذلك ساهموا في تغيير الخارطة السكانية وإعادة تشكيلها، فقد تخلت كثير من هذه القبائل عن مواطنها لصالح العرب وصعدت إما شمالا نحو السواحل مثل مليكش الصنهاجية التي استقرت ببسيط متيجة، أو اعتصمت بالجبال، أو توغَّلت نحو الصحراء، في حين استغلَّت بعضها الظروف السياسية مثل بني عبد الواد الذين زحفوا نحو السهول الداخلية الغربية مستفيدين من تحالفهم مع الموحدين، واكتسبوا باحتكاكهم نضجا سياسيا مكّنهم من إقامة دولة لهم لاحقا، ويبدو أنَّ هزيمة العرب أمام هؤلاء في معركة سطيف سنة 547هـ- 1152م قد خفَّفت من وطأتهم على القبائل البربرية ولو إلى حين.

إذا كان للعرب دورا سلبيا في المجال العمراني وهو خراب المدن وتهجير ساكنتها ولاسيما في المراحل الأولى والتي مَّثلت فترة امتداد وتوسع بحثا عن مجال ملائم، فلا يمكن التمادي في هذا الحكم كما صوِّره البعض مثل ما ذهب إليه قوتيي- E. GAUTIER- عندما

قال أنَّ كل بلاد المغرب من تونس إلى تلمسان أصبحت مشلولة بسبب الأعراب[1] والحقيقة أنَّ التخريب لم يساهم فيه العرب وحدهم، إذ كان مرحلة عابرة بالنسبة لهؤلاء، كما ساهمت فيه ظروف أخرى مختلفة، ومن الأعمال السلبية التي مارسها العرب في مناطق استقرارهم الجديدة، اللصوصية، فقد أورد الونشريسي نازلة كتب بها أبو العباس أحمد المريض إلى الشيخ أبي عبد الله بن عرفة[2] يسأله عن قتل عرب الديالم وسعيد ورياح وسويد وبني عامر عرب المغرب الأوسط سنة ست وتسعين وسبعمائة، من شن هؤلاء للغارات وقطع الطرقات على المساكين وسفك دمائهم وانتهاب أموالهم بغير حق، وأخذ حرم الإسلام أبكارا وثيبا قهرا وغلبة، فأجاب ابن عرفة وأبو مهدي عيسى بن أحمد الغبريني بجواز قتالهم[3].

بالإضافة إلى دور العرب، تحكّمتْ الظروف السياسية في تغيير توطُّن القبائل، وقد ذكرنا في الفصل السابق أنَّ بني يالدس[4] إحدى بطون ومانو استوطنت قبلة المغرب الأوسط[5] لما انكسرت شوكتها وضعفت عصبيتها أمام الموحدين وحلفائهم من بني عبد الواد، كما لجأ بقايا المرابطين عند سقوط تلمسان إلى صحراء توات حيث أسسوا بها نواة قصور هذه المنطقة[6].

شهدت بعض المناطق حركة عمرانية بإنشاء وتعمير المدن والقصور، نتيجة استيطان العرب للمناطق التي هجرها البربر في الصحراء عند صعودهم إلى التل مثل بني عبد الواد والتي خلفتهم فيها بطون زغبة والمعقل ومن انضاف إليهم من قبائل البربر، فعمروا جميع قصورهم كبودة وتمنطيت وتاسبيت[7]، أما في بلاد الزاب فقد أنشئت العديد من القرى والمدن مثل الدوسن وغريبو وتنومة وبادس وتهوذا[8] والتي كان بعضها قواعد قديمة تعود

---

1 E.GAUTIER: -op cit, p405.

2- ابن عرفة: أبو عبد الله محمد بن محمد الورغمي، فقيه مالكي، كان حافظا للمذهب ضابطا لقواعده، له تقييد في المذهب وتفسير للقرآن، توفي سنة 803هـ. التنبكتي: نيل الابتهاج، مج2، ص127. ابن فرحون، ص419.

3- المعيار المعرب، مج2، صص435- 438، مج6، صص153- 156.

4- يسميها يحي بن خلدون، بني يالدز بالزاي. بغية الرواد، ج2، ص472.

5- ابن خلدون: المصدر السابق، مج2، ص2092.

6- ابن عذاري: المصدر السابق، ق. الموحدين، ص22- 23/ الحسن الوزان: المصدر السابق، ج2، ص151- 152/ ابن بابا حيدة: القول البسيط في أخبار تمنطيط، تحقيق فرج محمود فرج، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2007م، ص187/ محمد باي بالعالم: المرجع السابق، ج1، ص59.

7- ابن خلدون: المصدر نفسه، مج2، ص1810، ص1832/ محمد باي بالعالم: المرجع السابق، ج2، ص522/ فرج محمود فرج: إقليم توات خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2007م، ص17

8- ابن خلدون: المصدر نفسه، مج2، ص1791، ص2049، ص2091.

إلى بداية الفتح الإسلامي أو ما قبله، شكّلت بيئات عربية صرفة وقامت بها إمارات عربية شبه مستقلة أشهرها إمارة بني مزني[1]، كما استقبلت منطقة وادي ريغ عددا كبيرا من المهاجرين القادمين من واركلة وسدراتة[2]، لاسيما بعد التخريب الثاني الذي لحق هذه الأخيرة على يد يحي بن إسحاق الميورقي سنة 626هـ- 1229م. ومن القصور العامرة التي شيَّدها العرب في الصحراء، قصر عثمان بن علي بن أحمد الرياحي الذي وصفه النميري خلال حركة أبي عنان سنة 758هـ- 1356م إلى بلاد الزاب بقوله: " فرأينا قصرا بديعا قد قامت بذلك الموضع الخلاء عجائب آثاره ... وكان قصرا منفسح الساحة، منخرق المساحة، قد ارتفعت حيطانه من جهاته الأربع بالحجر المنجور " ثم يضيف قائلا: " وكانت بداخل القصر ديار محكمة البناء، متناسقة السكك مّتسعة الأذراء، أجلُّها دار عثمان بن أحمد، وكانت بديعة الاختطاط، معجبة الاستنباط، قد قامت من جهاتها الأربع على السواري السامية من الرخام "[3]. ورغم أنَّ هذه المدن والقصور لم تكن في مستوى مدن التل والساحل كتلمسان وبجاية مثلا، فإنَّ العرب يكونوا بذلك قد ساهموا في تعمير الصحراء.

علاوة على المدن والقصور التي أنشأها العرب في الصحراء على وجه الخصوص، فإنهم مثلوا نسبة كبيرة من ساكنة بعض المدن الكبرى في التل كقسنطينة التي استوطنها الدواودة من رياح، وتلمسان التي عرفت في العهد الزياني استقرارا كبيرا لقبائل زغبة[4] التي جلبها يغمراسن وأقطع لها الأقطاعات بنواحي المدينة وقد استغلّت هذه القبائل قوة عصبيتها وضعف الدولة الزيانية أواخر عهد أبي حمو موسى الثاني في السيطرة على مزيد من المناطق حسب ما ذكره ابن خلدون في قوله: " والحال بالمغرب الأوسط لهذا العهد من تغلُّب العرب على الضواحي والكثير من الأمصار، وتقلُّص ظل الدولة عن القاصية وارتدادها على عقبها إلى مراكزها بسيف البحر، وتضاؤل قدرتها عن قدرتهم وإعطاء اليد في مغالبتهم ببذل رغائب الأموال وإقطاع البلاد والنزول عن الكثير من الأمصار "[5]. ولذلك فإنَّ العرب غالبا ما يكونوا في صف الدولة في حال قوتها وإذا ما استفادوا ماديا، لكنهم سرعان ما يتمردون إذا حُرموا من الامتيازات أو أحسُّوا بضعفها.

1- بنو مزني: تنتمي هذه الأسرة العربية إلى لطيف إحدى بطون الأثبج حلفاء بني هلال. ابن خلدون: المصدر السابق، مج2، ص2046 وما بعدها، ص2158/ مصطفى أبو ضيف أحمد عمر: المرجع السابق، ص139.

2- يوسف بن بكير الحاج سعيد: تاريخ بني ميزاب، دراسة اجتماعية واقتصادية وسياسية، المطبعة العربية، غرداية، ط2، 2006م- 1427هـ، ص173/ عبد القادر موهوبي السائحي: المرجع السابق، ص115، ص117- 118.

3- فيض العباب، ص413- 414.

4- يحي بن خلدون: المصدر السابق، ج1، ص90.

5- ابن خلدون: المصدر نفسه، مج2، ص2159.

أخذت كثير من القرى والمناطق أسماء الأفراد أو الجماعات (القبائل) التي نزلتها واستوطنتها فيقال بني فلان أو أولاد فلان (آيت فلان)، ولا تزال العديد من البلدات تحمل هذا الاسم في معظم بلاد المغرب حتى اليوم.

2- **الآثار والنتائج السياسية:** أدت تحركات وهجرة القبائل إلى نتائج سياسية حاسمة بالنسبة للدول التي قامت في المغرب الأوسط، فقد استخدم الموحدون مثلا القبائل العربية كبني يزيد في بعض الوظائف المخزنية كالجباية على وطن صنهاجة وزواوة[1] أو في الجهاد بالأندلس حيث تمكّنوا بفضلهم من التصدّي للخطر المسيحي، أمَّا بني عبد الواد فكان لهم الفضل في قيام دولة الموحدين عندما اعتنقوا دعوتهم وتحالفوا معهم وحاربوا إلى جانبهم ضد المرابطين وضد قبائل زناتة.

أما بالنسبة لبني عبد الواد، فإنَّ حاجتهم للدعم ولاسيما في عهد يغمراسن، وفي ظل الخطر الذي بات يتهددهم من الغرب والشرق فرض عليهم الاعتماد على بعض القبائل العربية دون الالتفات لما قد يصدر منهم، ولذلك شُكّل أفرادها جزءًا كبيرا من جيشهم وبخاصة قبائل بني عامر الزغبية[2] معظم فترات تاريخهم تقريبا ونتيجة لذلك أصبحت سهول وهران وتسالة بنواحي سيدي بلعباس مواطنهم الأساسية حتى العصر الحديث[3]، في حين مَّثلت قبائل المعقل سياجا لحماية تلمسان[4] من حملات المرينيين المتكررة وبخاصة بعد إحياء الدولة في عهد أبي حمو موسى الثاني الذي بات يُعوِّل عليهم في حروبه ضد المرينيين وضد قبائل مغراوة، ومنها احتشادهم لامتلاك تلمسان بعد حركة السلطان المريني أبي فارس عبد العزيز (767- 774هـ/ 1365- 1372م) سنة 771هـ- 1369م عندما رفض أبو حمو إخفار ذمة المعقل وطرد اللاجئين منهم إلى المغرب الأقصى[5]، ولذلك نجد هذا السلطان يفتخر بدور العرب فيقول في قصيدة ميمية:

تَسَرْبلتُ كُردُوسَين[6] مِنْ آلَ عَامر   ومِنْ آل إدريسَ الشَّريفِ ابن قاسِم

1- ابن خلدون: المصدر السابق، مج2، ص1801.

2- نفسه، مج2، ص1803، 1254، 2278/ مجهول: زهر البستان، ص26/ الأغا بن عودة المزاري: المرجع السابق، ج2، ص278، 326.

3- الأغا بن عودة المزاري: المرجع نفسه، ج2، ص279. ج1، ص84.

4- ابن خلدون: المصدر نفسه، مج2، ص1811/ جورج مارسي: بلاد المغرب وعلاقتها بالمشرق الإسلامي، ص231.

5- ابن خلدون: المصدر نفسه، مج2، ص2297/ يحي بن خلدون: المصدر السابق، ج2، ص441.

6- الكُردُوسةُ، بالضم : قطعة عظيمة من الخيل، وكرْدَسَ الخيل: جعلها كتيبة كتيبة، والكردَسةُ: الوَثَاقُ، ومَشْيٌ في تقارب خَطوٍ كالمُقيَّد. المصدر نفسه، ص523. والسِّربال بالكسر: القميص أو الدِّرع، ويقصد بها الدُّروع التي تُلبس في الحرب.

رِجالٌ إذا هاجَ الوَطيسُ تَراهُمُ   أُسُودَ الوَغَى مِنْ كُلِّ لَيْثٍ ضُبارِمِ[1]

أما يحي بن خلدون فيقول دائما عن هذان القبيلان في أحداث سنة 773هـ- 1371م:

مِنْ عامِريٍّ ضيغَمٍ يَومَ الوَغَى   أو معقَلِيٍّ بِـهِمَّةٍ لم يَرفدِ[2]

نستنتج مما سبق أنَّ القبائل المهاجرة البربرية منها أو العربية كانت تُقوِّي الطرف الذي تنحاز إليه وتحافظ على التوازنات، ولذلك باتت محل صراع وتَجاُذب بين المرينيين وبني عبد الواد، وهو ماذكرناه سابقا حيث أنَّ السلطان أبو فارس أرسل في هذا الشأن سفارة سنة 771هـ- 1360م يطلب فيها من أبي حمو إرجاع عرب المعقل باعتبارهم من رعاياه، ضمت هذه السفارة محمد بن عمر البريطل وحسون بن علي الصبيحي[3].

أدى صعود بعض القبائل إلى التل وبالخصوص بني عبد الواد إلى تطورها سياسيا وحضاريا حيث تخطَّت الواقع القَبَلي وانتقلت إلى مستوى الدولة سواء نتيجة احتكاكها بالموحدين وبالدول المجاورة، أو بهجرة الأندلسيين والذي سنتناوله لاحقا، كما انتقلت إليها من جهة أخرى الزعامة والسيادة في المنطقة على حساب إخوانهم كبني توجين أو بالنسبة لقبائل مغراوة التي اكتفت جميعها بإقامة إمارات ومُلك بدوي.

3- الآثار والنتائج الثقافية: ذكرنا سابقا أنَّ علاقة العرب بالبربر لم تكن دائما علاقة صراع وحروب، بل حصل اندماج وتعاوُن بينهما ومصاهرة، ولذلك تأثَّرَ البربر بمظاهر الحياة العربية كالزي وسكنى الخيام وركوب الخيل، وقد أعطى ابن خلدون مثالا عن ذلك بقبيلة هوارة[4]، لكنَّ أهم أثر للعرب هو انتشار اللغة العربية وتعريب اللسان البربري[5]، أما حسين مؤنس فقد أعطى حركة التعريب بعدا سياسيا فيقول: " لكن بنو هلال أدوا مع ذلك خدمة كبرى بالنسبة لعروبة المغرب، فقد أضعفت جموعهم قوى تلك القبائل الزناتية التي كانت تحاول سيادة المغرب بالقوة والعنف وتخريب أعمال الدول المستقرة بصورة مستمرة، ثم أنَّ الهلاليين سكنوا السهول والجبال والسواحل وصاهروا الناس، فكان عملهم إكمالا لتعريب المغرب، فأصبحت العروبة أغلب عليهم من البربرية "[6].

1- مجهول: زهر البستان، ص34. والضُّبارم: الأسد، والرجل الجريئ على الأعداء. الفيروز أبادي: ص1078.

2- بغية الرواد، ج2، ص480.

3- نفسه، ج2، ص440/ ابن خلدون: المصدر السابق، مج2، ص2297.

4- ابن خلدون: المصدر نفسه، مج2، ص1858.

5- نفسه، مج2، ص1858، 1862، 1948، 2062/ الميلي: المرجع السابق، ج2، ص186- 187.

6- معالم تاريخ المغرب والأندلس، ص177.

لاشك أنَّ التأثير اللغوي قد تجسَّد أو ظهرت نتائجه في الميدان العلمي حيث أصبحت العربية لغة التأليف فاشتهرت كثير من الأسر البربرية بتضلُّعها في اللغة العربية كآل المشذالي وآل الزواوي الذين ذاع صيتهم ليس في بلدهم فحسب، بل في العالم الإسلامي سواء من خلال مؤلفاتهم أو بنشاطهم العلمي المباشر كالتدريس، وأصبحت اللغة البربرية لغة تَخَاطُب في المجالس فقط، ومحدودة المجال وذلك في المناطق الجبلية والمعزولة التي لم يتصل فيها العرب بالبربر.

أدت تحركات العلماء وتنقلاتهم بين حواضر المغرب الأوسط ولاسيما بين بجاية وتلمسان، والتدريس في مساجدها ومدارسها إلى تنشيط الحياة العلمية من خلال المناظرات والسجالات العلمية والمناقشات التي كانت تُجرى برعاية السلاطين في قضايا الفقه والأصول والاجتهاد، ومن هذه القضايا خلاف أبي زيد بن الإمام وعمران المشذالي حول ابن القاسم هل هومجتهد أم مقلِّد[1]، كما كان لعودة بعضهم من المشرق الذي كانت فيه سوق العلم نافقة دورا في نشر طرق تعليم جديدة لم تكن معهودة، من ذلك طريقة عمران المشذالي[2] التي بَّثها في تلمسان[3] بعد أن أخذها عن منصور المشذالي[4] من بجاية.

4- الآثار والنتائج الاقتصادية: تُعد النتائج الاقتصادية ثاني أثر لانتشار العرب في المغرب الأوسط بعد التعريب ولاسيما في المناطق الصحراوية والسهول الداخلية وذلك لارتباطهم بثلاث قطاعات مهمة وهي: تربية الحيوانات والتجارة ثم الزراعة، ففي القطاع الأول اعتنى العرب بتنمية الثروة الحيوانية كالشاة والبقر في السهول التلية والسباسب[5]، أو الإبل في

1- التنبكتي: نيل الابتهاج، ج1، ص297، ص90، كفاية المحتاج، ج1، ص188- 189/ المقري: نفح الطيب، مج7، ص208.

2- عمران المشدالي: أبو موسى عمران بن موسى، صهر ناصر الدين المشدالي، الفقيه المحقق نزيل تلمسان، درَّس بها الحديث والفقه والأصلين والفرائض والمنطق، كان واسعا في الفقه والجدل، أخذ عنه الإمام المقري، نقل عنه الونشريسي فتاوى كثيرة في المعيار، مولده سنة 670هـ- 1271م، توفي سنة 745هـ- 1344م. التنبكتي: نيل الابتهاج، ج1، ص396، كفاية المحتاج، ج1، صص290- 293/ وفيات الونشريسي، ص39/ يحي بن خلدون: المصدر السابق، ج1، ص121/ التنسي: المصدر السابق، ص141/ محمد مخوف: شجرة النور الزكية، ص220.

3- ابن خلدون: المقدمة، ص342- 343.

4- منصور المشدالي: أبو علي ناصر الدين منصور بن أحمد بن عبد الحق الزواوي، الإمام الفذ العلامة المجتهد، من أهل الشورى والفتوى في العلوم والنوازل، رحل صغيرا إلى المشرق مع أبيه، مكث نحوا من عشرين سنة، أجذ عن العز بن عبد السلام، وروى عن ابن الحاجب، وهو أول من أدخل مختصره الفرعي إلى بجاية ومنها انتشر بسائر بلاد المغرب، أخذ عنه جماعة منهم ابن مرزوق الجد، مولده سنة 631هـ- 1233م، توفي سنة 731هـ- 1330م. الغبريني: عنوان الدراية، ص105/ التنبكتي: نيل الابتهاج، ج2، ص306/ وفيات ابن القنفذ، ص232/ ابن حجر: المصدر السابق، س4، ص361/ ابن القاضي: المصدر السابق، ص295، ذكره باسم المشترائي بدل المشدالي/ وفيات الونشريسي، ص25.

5- ابن خلدون: المصدر نفسه، مج2، ص1790، 1806، 1810.

الصحراء والتي لم تكن مصدرا للغذاء فقط، بل وسيلة للتنقل والبريد والتجارة[1] حيث وصلت بفضلها القوافل التجارية إلى مختلف مناطق بلاد السودان.

أحيا العرب النشاط الزراعي في الصحراء بغراسة النخيل واستنباط المياه الجوفية[2] التي استخدمت في البستنة، ولعل وصف النميري لقصر عثمان بن علي دليل على ذلك إذ يقول: "وحفَّت بهذا القصر جنَّات تعرف في وجوهها نضرة النعيم، وحدائق تسهل ألفات غصونها ألسنة النسيم"[3]، والحقيقة أنَّ هذا النشاط لم يقتصر على العرب، بل مارسته القبائل البربرية التي تكون قد أخذته عنهم، يقول ابن خلدون عن بني يالدس إحدى بطون بني ومانو التي استقرت بإقليم توات: " واختطُّوا في تلك المواطن القصور والأطم، واتخذوا بها الجنَّات من النخيل والأعناب وسائر الفواكه "[4].

أمَّا بالنسبة للتجارة فقد قام العرب بتنظيم هذا القطاع والإشراف عليه عن طريق حراسة القوافل التجارية مقابل ضريبة تُسمَّى الخفارة، وعليه فإنَّ الفضل يعود إليهم في ربط الاتصال بين بلاد البربر وبين بلاد السودان الغربي وذلك بحكم قربهم ومعرفتهم بهذه البلاد ومسالكها.

اشتهر المغرب الأوسط بطريقين تجاريين رئيسين نحو بلاد السودان وهما طريق واركلا[5] في الشرق وطريق توات في الغرب حيث مَّثلت هذه الأخيرة الوسيط التجاري أو ما يمكن أن نسميه بتجارة العبور، فكانت القوافل القادمة من بلاد السودان تمرُّ حتمًا عبر إقليم توات ومنها إلى تلمسان ذهابا وإيابا، وعنها يقول ابن خلدون: " وهو ركاب التجار

1- الحسن الوزان: المصدر السابق، ج2، ص259 وما بعدها.

2- تُعرَف طريقة استنباط وتسيير المياه في الصحراء بنظام الفقاقير وهي عبارة عن سلسلة من الآبار مختلفة الأعماق، تُحفَر من الأعلى إلى الأسفل ثم ينخفض العمق إلى أن تخرج على وجه الأرض وقيل أنَّ اسمها مشتق من الفقر وهو الحَفْر، وقيل من الفِقرة بالكسر، والفقْرة والفَقارة: ما انتظم من عظام الصُّلب من لدن الكاهل إلى العَجْب، لأنَّ آبارها تشبه فقاقير الظهر، وقيل من التفجير لأنَّ الماء يتفجَّر منها. الفيروز أبادي: المصدر السابق، ص415/ محمد باي بالعالم: المرجع السابق، ج1، ص116. وقد اخْتُلِف في أول من أحدث الفقاقير، فقيل الأقباط وقيل زناتة وقيل اليهود لأنَّ هذا النظام كان موجودًا في المدينة المنوَّرة ويُعرف بالشِّراج أو الشُّرُوج.

3- فيض العباب، ص414.

4- ابن خلدون: المصدر السابق، مج2، ص2099.

5- اشتهرت واركلاوعُمرت ابتداءً من القرن السادس، بعدما تحيَّز إليها الكثير من قبائل زناتة لما تغلَّب عليهم العرب، كما سكنتها لاحقا بعض القبائل العربية مثل المخادمة والشعانبة. أصبحت واركلا في القرن الثامن بابا لولوج السفر من الزاب إلى بلاد السودان، يسلكها التجار، ويذكر أنه كان يمر بها سنويا اثنا عشر ألف راحلة. ابن خلدون: المصدر نفسه، مج2، ص2096/ ابن سعيد المغربي: بسط الأرض في الطول والعرض، ص60/ إبراهيم محمد الساسي العوامر: المرجع السابق، ص35- 36/ قارة مبروك بن صالح: أشراف وقبائل الجزائر، الكلمات للنشر والتوزيع، الجزائر، ط1، 2015م، ص109.

المترددين من المغرب إلى بلد مالي من السودان، ومن بلد مالي إليه "[1] حيث كانت مدينة غاو[2] إحدى الأسواق التي تصل إليها تجارتهم.

يبدو أنَّ عرب المعقل قد استفادوا من سيطرتهم على المنطقة الرابطة بين المغرب الأوسط في الشمال وبلاد السودان في الجنوب ومن ثَمَّ التحكُم في الطريق التجاري الرابط بين سجلماسة وتلمسان[3] فنشط هذا المحور لاسيما وأنَّ الموحدين وبني عبد الواد قد عملوا على تأمين هذا الطريق للتجار بحراسته وتوفير المياه بواسطة حفر الآبار، وأسندوا للعرب جباية الضرائب[4] حيث كانت الدولة في حاجة إلى الأموال لتغطية مرتبات الجند وتجهيز الجيش ونفقات الدولة العامة، ولاسيما في المناطق البعيدة، والظاهر أنَّ النشاط التجاري قد عرف بعض الاضطراب خلال فترات الضعف التي مرَّ بها الموحدون وبني عبد الواد أو أثناء الصراع المريني الزياني، ورغم ذلك حاول العرب تأمين الطرق التجارية ولصالحهم على الأقل.

ازدهرت تجارة العبيد في العهد الموحدي والزياني حيث شكّلت مع الذهب بضاعتي العصر، فقد أقبل التجار على جلب العنصر الأسود من أسواق بلاد السودان نتيجة الحملات التي كانت تشنُّها الممالك القوية ضد القبائل والممالك الضعيفة والتي يسميها برانشفيك بالهجرة الاضطرارية[5]، وقد ذكر الإدريسي أنَّ أهل تكرور[6] وغانة كانوا يعبُرون إلى بلاد

1- ابن خلدون: المصدر السابق، مج2، ص2099.

2- غاو: أو جاو، وتسمى كذلك كُوكُوْ وكاغ وهي في بلاد السودان على منعطف نهر النيجر، كانت عاصمة لمملكة سنغاي الإسلامية من القرن الخامس إلى القرن السابع الهجري/ القرن11- 13م، ثم خضعت لمملكة مالي في القرنين السابع والثامن الهجريين/ القرن13- 14م، إليها تدخل القوافل التجارية من مصر ووارقلان. البكري: المصدر السابق، ص273/ الزهري: المصدر السابق، ص123/ ابن بطوطة: المصدر السابق، ص690، 702/ السعدي: المصدر السابق، ص62/ الحسن الوزان: المصدر السابق، ج2، ص169/ جوان جوزيف: الإسلام في ممالك وإمبراطوريات إفريقيا السوداء، ترجمة مختار السويفي، دار الكتب الإسلامية، بيروت- القاهرة، ط1، 1404هـ- 1984م، ص82/ تاريخ إفريقيا العام، مج4، ص200.

3- تاريخ إفريقيا العام، مج4، ص124/ الميلي: المرجع السابق، ج2، ص188.

4- ابن خلدون: المصدر نفسه، مج2، ص1801، 1803، 1810- 1811.

5- روبار برانشفيك: المرجع السابق، ج2، ص161.

6- التكرور: مملكة من بلاد السودان في غرب إفريقيا، كانت عاصمتها على نهر السنيغال قرب مصبه في موريتانيا حاليا، ومنها إلى سجلماسة أربعون يومًا بسير القوافل، ومن مدنها بريسى على النهر مشرقا اثنتا عشر مرحلة، وفي الجنوب منها على مسيرة عشرة أيام أرض لملم طائفة من السودان. البكري: المصدر السابق، ص257/ الإدريسي: المصدر السابق، مج1، ص18- 19/ الحموي: المصدر السابق، مج1، ص449/ الحميري: المصدر السابق، ص134/ أبو الفدا: تقويم البلدان، ص153، ص157، ص161/ ابن خلدون: المصدر السابق، مج2، ص1894/ محمود كعت: تاريخ الفتاش، ص57، ها2/ البرتلي الولاتي: فتح الشكور في معرفة أعيان علماء التكرور، تحقيق إبراهيم الكتاني ومحمد حجي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1401هـ- 1981م، ص26.

لملم المجاورة لهم فيسبون أهلها ويجلبونهم إلى بلادهم ومنها يبيعونهم من التجار الداخلين إليهم، فيخرجهم التجار إلى سائر الأقطار[1]، ولا شكَّ أنَّ بلاد المغرب كان لها حظ في هذا النوع من السلعة.

كان تجار المغرب الأوسط يبيعون لأهل السودان بعض المواد المصنعة والتمور في مقابل جلب العبيد، وهو ما ذكره الإدريسي في قوله: " وليس في بلاد السودان شيء من الفواكه الرطبة إلا ما يُجلب إليها من التمر من بلاد سجلماسة وبلاد الزاب، يجلبه إليهم أهل وارقلان "[2]، أما ابن سعيد المغربي فيقول عن ذلك: " وهي بلاد نخيل وعبيد، ومنها تدخل العبيد إلى المغرب الأوسط وإفريقية، والسفر منها إلى بلاد السودان كثير "[3]، كما قام تجار تلمسان بجلب العبيد عبر منطقة توات[4].

شكّل العنصر الأسْود فئة مهمة في بنية مجتمع المغرب الأوسط، سواء الذين جلبهم الموحدون أو بنو زيان وسخَّروهم كمجنَّدين أو كشريحة عمالية (خَدَم) في المنازل والبساتين، وقد تمتَّعَت بعض السودانيات بحظوة لدى أرباب البيوت أو أحد أبنائهم فربما تزوَّجها أحدهم وهو ما جعل الدم الأسود يتسرب إلى كثير من العائلات[5]، لكن تواجُدهم نتجت عنه بعض الآفات الاجتماعية أثناء أداء واجبات أسيادهن، ومنها اختلاط الإماء بالعبيد والأحرار عند السقايات والأفران حيث كُنَّ يطلن الوقوف والحديث لغير ما أتين له، فكانت أثار ذلك ولادة الخدم أبناء الزنا[6]، كما شارك هذا العنصر في بعض مظاهر الحياة الاجتماعية كالأعراس ولذلك سُئل أحد الفقهاء: هل ذلك من المناكر التي تُرفع وتُغيَّر ؟ فأجاب بأن يُمنعوا ويُنهروا وقد تضمَّن معيار الونشريسي في قضايا العبيد، العديد من الفتاوى، مثل عيوب العبيد وما تعلَّق بهم من معاملة وبيع وزواج وتحرير[7]، وهو ما يدل على وجودهم بكثرة في المجتمع.

1- الإدريسي : المصدر السابق، مج1، ص19، 22/ الحميري: المصدر السابق، ص134، 511/ الحبيب الجنحاني: المرجع السابق، ص112.

2- الإدريسي: المصدر نفسه، مج1، ص20.

3- بسط الأرض في الطول والعرض، ص60.

4- ابن الخطيب السلماني: رقم الحلل في نظم الدول، ص74/ الحاج بن الدين الأغواطي: رحلة الأغواطي، ص20/ تاريخ إفريقيا العام، مج4، ص124.

5- روبار برانشفيك: المرجع السابق، ج2، ص162.

6- ابن سعيد العقباني: تحفة الناظر وغنية الذاكر في حفظ الشعائر وتغيير المناكر، تحقيق علي الشنوفي، مقتبس عن مذكرة للدراسات الشرقية، المعهد الفرنسي بدمشق، 1967م، ج19، ص79- 80.

7- الونشريسي: المعيار ، ج2، ص125، 128، 157، 256، 533. ج4، ص126، 236. ج6، ص126. ج9، ص51، 214.

ثانيا: آثار ونتائج الهجرة الخارجية: 1- نحو المغرب الأقصى والأندلس

تركت الهجرة آثارا مختلفة، نفسية واجتماعية وسياسية وفكرية سواء بالنسبة للأفراد المهاجرين أو بالنسبة لموطنهم الذي هاجروا منه أو الذي استقروا فيه، وعلاقتهم بمحيطهم ومجتمعهم الجديد تأثيرا وتأثرا سلبا وإيجابا.

لم تكن الهجرة تمسُّ الأشخاص أنفسهم فقط، بل امتدَّ أثرها إلى المجتمع ولاسيما ما تعلَّق بالمحيط القريب كالأسرة والعائلة من خلال ما طرحته من قضايا شرعية شخصية أو جماعية، تناولها الفقهاء حيث أصبحت تمثّل مادة علمية غزيرة لمؤلفاتهم، ولعلَّ ما تضمَّنته فتاوى أبو القاسم البرزلي (ت841هـ- 1438م) والونشريسي (ت914هـ- 1508م) مثلا خير دليل على ذلك.

أ- الآثار النفسية والفكرية: ليس من السهل على الفرد نسيان وطنه ودياره التي آلفها بمجرَّد الانتقال عنها، لكن الأكيد أنها ستترك آثارا نفسية عميقة ولاسيما بالنسبة لفئة الأدباء والشعراء الذين توقَّدت قرائحهم شعرا ونثرا في شكل شوق وحنين إلى المعاهد والديار وبذلك ازدهر أدب الشوق، أو في شكل أسى وحسرة وألم والذي ظهر كله إما من خلال القطع النثرية أو القصائد الشعرية التي نظمها هؤلاء، ونلمس ذلك الشعور مثلا عند ابن حماد الصنهاجي[1] في قوله:

بَعُدتُ عن الدِّيار وسَاكِنِيهَا وفـرَّق بيننا فَلـَكٌ وفُلكُ

ولـَمْ يـعدِل لعَمْرُ الله عندي فِراقُ أحِبَّةٍ مِـلْكٌ ومُـلْكُ[2]

لم يكن ابن حماد وهو في الغربة أن ينسى وطنه، ويبدو أنّه ظلَّ متعلِّقا به متابعا لأخباره، ومن غير المستبعد أنه اهتمَّ بتسجيل أحداثه التي يكون قد اعتمدها في تدوين مؤلفاته، فكتب يهنئ باسترجاع بلاد إفريقية والظهور على يحي بن إسحاق الميورقي، قائلا:

1- ابن حماد الصنهاجي: أبو عبد الله محمد بن علي بن حمَاد بن عيسى بن أبي بكر، أصله من قرية حمزة من حوز قلعة بني حماد، وُلد حوالي سنة 548هـ- 1152م، قرأ بالقلعة ثم ببجاية على أبي مدين وعبد الحق الإشبيلي غيره، وبمدينة الجزائر على خاله أبي الحسن علي بن طاهر بن محشوة، دخل الأندلس في أول المائة السابعة وتولى قضاء الجزيرة الخضراء، ثم سلا بالمغرب سنة 613هـ- 1232م، استوطن أخيرا مدينة مراكش التي توفي بها سنة 628هـ- 1230م على المشهور، من مؤلفاته: النبذ المحتاجة في أخبار صنهاجة بإفريقية وبجاية. الغبريني: المصدر السابق، ص100/ ابن الأبار: تحفة القادم، ص193/ ابن الزبير: المصدر السابق، ص21- 22/ ابن القنفذ: شرف الطالب، ص212- 213/ عادل نويهض: المرجع السابق، ص198/ علاوة عمارة: دراسات في التاريخ الوسيط للجزائر والغرب الإسلامي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2009م، ص162- 163.

2- ابن الأبار: تحفة القادم، ص193.

فُـتوحٌ[1] لها في كلِّ يـومٍ تَلاحُـقُ كما استَبَقَت يومَ الرِّهان السَّوابِـقُ

إضافة إلى الجانب الأدبي، ومن منطلق اعتزازه بقبيلته صنهاجة وبالدول التي أسستها أو عاشت في ظلها، ساهم ابن حماد في كتابة تاريخ المنطقة من خلال كتابين مشهورين هما: ' النبذة المحتاجة في أخبار صنهاجة بإفريقية وبجاية ' وكتاب ' أخبار ملوك بني عبيد وسيرتهم ' وكلاهما من كتب التاريخ المحلي (تاريخ الدول) أو ما يُعرف بالتاريخ السلالاتي. وعليه نستطيع القول أنَّ ابن حماد قد زوَّدنا بمصدرين أساسين عن تاريخ بلاد المغرب عموما في فترة هامة جدا وهي الفترة الممتدة من أواخر القرن الثالث إلى أوائل القرن السابع الهجري (617هـ- 1220م) وبأيدي أبناء المنطقة، وقد نقل عنه كلٌّ من ابن خلدون وابن الخطيب السلماني في أخبار الناصر بن علناس[2].

أما ابن خميس الذي فارق بلده تلمسان خوفا من سلطان بني زيان، فكان كثيرا ما يتشوَّق لمشاهدتها ويتأوَّه عند تذكُّره لمعاهدها ويُنشد القصائد، سالكا إليها من الحنين المسالك، وقد تَدَاول قصائده المؤرخون والأدباء، وجمعها أبو عبد الله محمد بن إبراهيم الحضرمي في كتاب سماه " الدر النفيس في شعر ابن خميس" منها قوله:

كَتَمتُ هَـواها ثـمَّ بَـرَّحَ بـِيَ الأَسَـى وكيفَ أُطيـقُ الكَتْمَ والـدَّمْعُ فـاضِحُ[3]

ويقول في شلال الوريط، أحد المناظر الطبيعية شرقي تلمسان

نَسَيتُ وما أَنسى الوريط ووَقفَةً أُنافِـحُ فيهـا روضَهُ وأفاوحُ

ويُفاخر بمدينة تلمسان فيقول:

تلمسانُ لو أنَّ الزمانَ بها يَسـخُو مُنى النفـس لا دارُ السلامِ ولا الكَرخُ[4]

1- يظهر أن المقصود بالفتوح هنا هي تلك الهزائم التي تلقَّاها يحي بن إسحاق وأنصاره من القبائل العربية ابتداءً من سنة 602هـ- 1205م حيث قُتل أخاه جبارة بن إسحاق وافتتح الناصر المهدية وأخذها من يد ابن عمه الوالي عليها علي بن الغازي، وعقد على إفريقية لأبي محمد عبد الواحد بن أبي حفص الهنتاتي، الذي انتصر على يحي في معركة وادي شبرو سنة 604هـ- 1207م ثم سنة 606هـ- 1209م. ابن خلدون: المصدر السابق، مج2، ص1891- 1892/ ابن عذاري: البيان المغرب، ق. الموحدين، ص248، 254/ روبار برانشفيك: المرجع السابق، ج1، ص45- 46/ حماه الله ولد السالم: تاريخ بلاد شنكيطي ، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2010م، ص137/ حسن حسني عبد الوهاب: المرجع السابق، ص124.

2- جلول أحمد البدوي: محقق كتاب ملوك بني عبيد وسيرتهم، مقدمة التحقيق، ص13/ أعمال الأعلام، ق2، ص94.

3- المقري: نفح الطيب، مج9، ص352/ يحي بن خلدون: المصدر السابق، ج1، ص86.

4- المقري: نفح الطيب، مج7، ص345/ أزهار الرياض، ج2، ص318/ الحفناوي: المرجع السابق، ج2، ص374.

ثم يمدح تلمسان ويتشوَّق إليها في قصيدة منها قوله:

يطيرُ فُـؤادي كلَّما لاحَ بـارقٌ ويـزدادُ شَوقي كلَّما مَرَّ سانحُ[1]

ولما ألَّم بتلمسان الحصار الطويل[2] من طرف السلطان المريني أبي يعقوب يوسف بن عبد الحق، كتب ابن خميس قصيدة تطرَّق فيها لذلك الخطب، فكان من الاتفاق الغريب سرعة وُقوع ما تمناه لتلمسان حيث فُكَّ عنها الحصار بعد أربعة أشهر[3].

ب- الآثار الاجتماعية والعمرانية: أدت ا لسياسة التي اَتبعها الموحدون والمتمِّثلة في نقل بعض القبائل سواء العربية منها أو البربرية إلى واقع اجتماعي جديد بوصول أمواج بشرية من المهجَّرين، ففي المغرب الأقصى مثلا توسعَت مدينة مراكش بعد أن اتخذها الموحدون عاصمة لهم وانتشرت اللغة العربية في الأقاليم الجنوبية التي كانت البربرية لا تزال اللغة السائدة بها، أما في الأندلس فقد بلغت العمارة بمدينة قرطبة من كثرة دورها واَتساع شوارعها مبلغا لم تبلغه بلدة[4] نتيجة توطين الموحدين للجند مثلما يقول ابن صاحب الصلاة: " ورتَّبوا الأجناد وجلبوهم من كل بلد للسكن فيها فظهر العمران"[5].

إنَّ العلاقات التي كانت تبدو طيبة بين أهل الأندلس وأهل بلاد المغرب عموما وما سادها من تعاون ولاسيما في جهاد النصارى، لم تخفِ النفرة بينهما، فتواجد البربر في الأندلس كان غير مرغوب فيهم، شكَّل صراعا خفيا بين الطائفتين، ولعلَّ بعض جذور تلك النفرة لدى الأندلسيين من البربر تعود على الأقل إلى عهد المنصور بن أبي عامر الذي استدعاهم من العدوة وقربهم وجعل منهم خاصته، ثم ما كان بعده من الفتنة أواخر القرن الرابع ومطلع القرن الخامس الهجريين والتي نُسبَت إلى البربر فأطلقوا عليها ' الفتنة البربرية ' نتج عنها أحقادا كامنة في النفوس[6]، وظل الأندلسيون ينظرون إلى البربر نظرة ازدراء

1- المقري: أزهار الرياض، ج2، ص324.

2- دام الحصار ثمان سنوات وثلاثة أشهر وخمسة أيام، وذلك من يوم الثلاثاء 2 شعبان سنة 698هـ- 1298م إلى يوم الأربعاء 7 من ذي الحجة من سنة 706هـ- 1307م، عاش خلالها السكان في ضيق شديد بسبب انعدام المواد الغذائية وغلائها، بلغ فيها عدد موتى تلمسان قتلا وجوعا زهاء مائة ألف وعشرين ألفا. يحي بن خلدون: المصدر السابق، ج1، ص211/ عبد الرحمن بن خلدون: المصدر السابق، مج2، ص2125- 2126/ التنسي: المصدر السابق، ص130/ ابن أبي زرع: المصدر السابق، ص386.

3- المقري: أزهار الرياض، ج2، ص331.

4- عبد الواحد المراكشي: المصدر السابق، ص456، 295/ المقري: نفح الطيب، مج2، ص8/ ابن صاحب الصلاة: المصدر السابق، ص138.

5- المن بالإمامة، ص141.

6- ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ق2، ص121.

واستعلاء، فكان هذا الشعور إعلانا وتصريحا[1] أحيانا وهو ما أبداه المهدي محمد بن هشام بن عبد الجبار وأتباعه بالأندلس خلال الفتنة والذي اتَّخَذَ شكلا عسكريا عندما طارد البربر وقتلهم[2]، وأحيانا أخرى تورية وتعريضا، فنسبوا بلاد المغرب إلى أخس أجزاء الطائر وهو ذنبه[3]، ومن مظاهر تهكُمهم بالبربر أنه قيل مرةلبربري عن تين بلَّش[4]: كيف رأيته؟ قال: لا تسألني عنه، وصُبَّ في حلقي بالقفة، وهو ولعمر الله معذور، لأنه نعمة حُرمَت بلاده منها[5]. كما ضرب العامة في حقهم أمثالا منها قولهم: " البربري والفار لا تَعَلّمُ باب الدار "[6]، وقد نتج عن ذلك التعصُّب الحقد والعداوة المتبادلة بين الطرفين، قال المقري: " فلما علم البربر عداوة أهل الأندلس وبُغضَهم لهم، أبغضوهم وحسدوهم، فلم تجد أندلسيًا إلا مُبغِضًا بربريا، وبالعكس "[7]، وقد أشرنا إلى جوانب من ذلك في الفصل الأول.

أما بالنسبة لأثر الهجرة على القبائل، فقد أدَّت إلى تشتُّت وانقراض البعض منها ولاسيما التي كان لها دورا سياسيا وعسكريا، وهي ظاهرة أصبحت نتائجها مألوفة كلما مرَّت المنطقة بأحداث وتطوُّرات سياسية وأعقبتها هجرة، وهو ما حدث سابقا مثلا مع قبيلة كتامة في العهد العبيدي، والنموذج هنا هو قبيلة كومية، وكأننا أمام عملية تبادل الأدوار حيث تقوم مع كل تجربة سياسية جديدة قبيلة تتحمَّل أعباء تلك التجربة.

انتقل معظم أفراد كومية كما أسلفنا إما إلى المغرب الأقصى أو الأندلس كأعوان وجند للموحدين، فأكلتهم الحروب وتفرَّقوا في الأوطان، ولذلك سيختفي تقريبا ذكر هذه القبيلة ودورها في المغرب الأوسط وبخاصة خلال القرن السابع الهجري الذي تعرَّض فيه الموحدون لهزائم عسكرية سواء في الأندلس على يد الصليبيين أو في بلاد المغرب نتيجة الثورات وحركات الانفصال التي قامت بها بعض القبائل كبني عبد الواد وبني مرين، ولم

1- يقول ابن عذاري في ذلك: " وكان محمد بن هشام بن عبد الجبار لما أراد الله من خذلانه مظهرا البغض للبربر، لا يقدر أن يستر ذلك، فكان يتكلم في مجالسه بسوء الثناء عليهم "، ج3، ص78/ أما ابن الخطيب فيقول: " وأعلن ببغض البرابرة وتنقُّصهم "، أعمال الأعلام، ق2، ص112- 113.

2- ابن الخطيب: نفسه، ق2، ص117، 121، 135، 137/ ابن عذاري: نفسه، ج3، ص81.

3- المقري: نفح الطيب، مج1، ص235.

4- بلَّش: من أعمال مالقة، اشتهرت بأجود أنواع التين المسمى بالرُّيي. الإدريسي: المصدر السابق، مج2، ص565، 570/ الحموي: المصدر السابق، مج1، ص381/ مجهول: تاريخ الأندلس، ص123/ ابن عذاري: نفسه، ج3، ص49/ المقري: نفسه، مج1، ص163/ ابن سعيد المغربي: المغرب في حلى المغرب، ج1، ص442.

5- المقري: المصدر نفسه، مج4، ص193.

6- الزجالي القرطبي: المصدر السابق، ج2، ص207.

7- المقري: المصدر نفسه، مج1، ص236.

يبق من هذه القبيلة في أواسط القرن الثامن الهجري إلا بعض الفروع مثل بني العابد الذين أجهز عليهم السلطان أبو ثابت العبد الواديقتلاً وسبيًا لما دخل تلمسان سنة 749هـ- 1348م بعد أن حاول كبيرهم إبراهيم بن عبد الملك الإنتزاء والاستقلال بهنين وندرومة، فضعفوا وأصبحوا في عداد القبائل الغارمة[1].

وإذا أثرت الهجرة على بعض القبائل بشكل سلبي، فقد وجدت فيها أخرى فرصة للامتداد والسيطرة على مجالات أوسع، وهو ما ينطبق على بعض القبائل العربية كرياح التي انبسطت في إقليم قسنطينة بعد أن نقل الموحدون جيرانهم مثل العاصم وقرة وكرفة إلى المغرب الأقصى، وقد أشرنا إلى ذلك في الفصل السابق.

لم تكن التقلبات السياسية التي عرفتها بلاد الغرب الإسلامي عموما والمشوبة بالصراعات العسكرية والاقتتال لتعيق التواصل والامتزاج الثقافي بين أقطار المنطقة، وهي نقطة إيجابية، فحركة القبائل والأفراد وبخاصة العلماء كانت مستمرة ولم تنساق وراء الخلفيات والأهداف السياسية لسلاطين وملوك الدول القائمة آنذاك وقد نعني بالخصوص هنا بني عبد الواد وبني مرين العدوين التقليديين، فالهجرة بين المغربين ذهابا وإيابا أزالت تلك الحواجز، ولعلَّ تَدخُّل الهزميري[2] ومساعيه لفك الحصار عن تلمسان دليل على ذلك، فهو لم يكن رجلا سياسيا حتى تُحرِّكه أطماع أو أهداف سياسية وإنما نظر إلى سكان تلمسان بنظرة إنسانية لاسيما وأنها مدينة العلماء والمتصوِّفة والصالحين[3]، فرحل من بلده أغمات إلى تلمسان متشفِّعا لدى سلطان المغرب للإفراج عن أهلها، ولما خاب مسعاه قال بنظرة صوفية: " يجيء سعادة يقضي هذا "[4].

1- ابن خلدون: المصدر السابق، مج2، ص2142، 1851/ يحي بن خلدون: المصدر السابق، ج1، ص242/ عبد الوهاب بن منصور: المرجع السابق، ص309.

2- الهزميري: أبو زيد عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحليم الأغماتي، الولي الشهير، شيخ الطائفة الهزميرية بالمغرب، العالم العامل ذو الكرامات، مات بعد أيام يسيرة من مقتل أبي يعقوب يوسف المريني سنة 706هـ- 1306م بمدينة فاس، وقبره داخل باب الفتوح بإزاء جامع الصابرين. ابن حجر: الدرر الكامنة، س2، ص333/ ابن القنفذ: أنس الفقير وعز الحقير، ص66 وما بعدها. شرف الطالب، ص230/ ابن القاضي: درة الحجال، ص329/ التنبكتي: نيل الابتهاج، ج1، ص262/ المقري: أزهار الرياض، ج2، ص330/ ابن عيشون الشراط: الروض العطر الأنفاس في أخبار الصالحين من أهل فاس، دراسة وتحقيق زهراء النظام، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، 1997م، ص207.

3- ابن الخطيب السلماني: كناسة الدكان بعد انتقال السكان، تحقيق محمد كمال شبانة، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ط1، 1423هـ- 2003م، ص85- 86.

4- التنسي: المصدر السابق، ص133/ المقري: أزهار الرياض، ج2، ص330. لم يذكر هذه القصة يحي بن خلدون ولا أخوه عبد الرحمن واكتفيا بخبر مقتل السلطان المريني على يد سعادة الخصي من موالي الملياني/ ابن أبي زرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس، ص388.

2- آثار الهجرة في المشرق:

أ- الاجتماعية والعمرانية: كثيرا ما يعيش أبناء المنطقة الواحدة في المهجر في مجموعات متقاربة وذلك بحكم الظروف الاجتماعية والنفسية والثقافية، ولذلك سنجد المغاربة عموما قد شكّلوا هذا النمط الاجتماعي، فعاشوا في أحياء عُرفت بهم، وعادة ما كانوا يوكلون بعض أمورهم لكبير أو فقيه فيهم يُعتبر كشيخ للجماعة، ينظر في قضاياهم الاجتماعية من عقود وصلح وفي القضايا الشرعية كالفتيا وغيرها، وقد أشار ابن بطوطة في رحلته أنه سافر من مدينة القدس رفقة الواعظ المحدِّث شرف الدين سليمان الملياني وشيخ المغاربة بالقدس[1] الصوفي الفاضل طلحة العبد الوادي[2].

كان لمهاجري المغرب الأوسط في المشرق آثار اجتماعية وعمرانية، فقد حظي هؤلاء بمكانة واحترام، سواء من قِبَل الأهالي أو من قِبَل السلاطين وقد رأينا سابقا كيف تمَّ الاعتناء بهم ماديا وأدبيا، ولاسيما العلماء الذين أصبحت لهم مكانة علمية بفضل اجتهادهم، وقد تولى كثير منهم وظائف كالتدريس والقضاء وغيرها.

أما في الجانب العمراني، فكان لهم بالقدس حارة تسمى حارة المغاربة[3]، ولا شك أنه كانت لهم حارات خاصة بهم في كل المدن التي استقروا بها، إلا أنَّ المصادر قد أغفلتها.

أوقاف أبي مدين العقارية بالقدس: وهي عبارة عن أراض وهبها السلطان صلاح الدين الأيوبي لأبي مدين وللجند المغاربة الذين شاركوا في تحرير بيت المقدس، ثم أكدها ابنه الملك الأفضل (ت622هـ- 1225م) الذي تقرَّب إلى العلماء والصلحاء[4]، تقدَّر مساحة هذا العقّار بستة عشر ألف هكتار في مدينة عين كرم في منطقة تُعرف بأم البنات، وحي في القدس الشريف قريبا من المسجد، وقد حوَّل أحد أحفاد أبي مدين هذه الأملاك إلى وقف لصالح الحجاج والمهاجرين المغاربة، وسُجِّلت بموجب عقد وقفي بتاريخ 29 رمضان 720هـ/ 3 نوفمبر 1320م[5]، وللحفاظ على هذا الوقف من الغاصب الصهيوني تأسست لجنة

1- رحلة ابن بطوطة، ص660.

2- تمت الإشارة إليه في الصفحة 161.

3- الحاج عيفة: المقال السابق، مجلة دراسات تاريخية، ص35.

4- ابن تغري بردي: المصدر السابق، ص253.

5-archives d'outre-mer, département d'Alger, fonds de la préfecture, répertoire numérique de la sous-série 2U, culte musulman. Acte de fondation du wakf Abou median, 04/ 112. Revue des études islamique, paris, 1954, librairie orientaliste, Paul geuthner, 04/ 081- 082- 104- 112- 114.

بوعلام جوهري:" **أبي مدين شعيب بين حاضرتي بجاية وتلمسان**"، سلسلة القوافل العلمية، ع5، بجاية، 2011م، ص122.

في تلمسان برئاسة محمد العشعاشي بتاريخ 17 ماي 1952م[1]، كما تقدَّمت الجزائر بعد الاستقلال برسالة لنفس الغرض بتاريخ 18 جانفي 1963م.

ب- الآثار العلمية: ساهم المهاجرون من المغرب الأوسط في تفعيل وانتشار المذهب المالكي هناك لاسيما وأنَّ المغاربة عموما كانوا من أشد المتمسكين به، وذلك عن طريق المدارس التي خُصِّصت لأصحاب هذا المذهب باعتباره من المذاهب السنية والذين قام أتباعه بدور مهم في المشرق وبخاصة في الحروب الصليبية، فكان عبد الله الأشيري يُدرِّس فيها الفقه المالكي وموطَّأ الإمام مالك، ويروي علم فقهاء الغرب الإسلامي من أمثال أبي بكر ابن العربي (ت543هـ- 1148م) فقيه الأندلس، والقاضي عياض بن موسى اليحصبي فقيه المغرب الأقصى (ت544هـ- 1149م) وأمثالهما وكلاهما من فقهاء المالكية، وقد ذكرنا عددا من هذه المدارس في الفصل السابق، وفي هذا الصدد يُروى أنَّ يحي بن هبيرة الوزير لما صنَّف كتاب الإفصاح وجمع له من علماء المذاهب، طلب فقيها مالكيا فدلوه على الأشيري، فطلبه من نور الدين محمود بن زنكي، فسيَّره إليه[2]، كما نشير إلى أنَّ عبد الله الأشيري قد ساهم في الحياة العلمية هناك بما نقله معه من كتب فقهية وتاريخية[3] والتي يكون قد اطَّلع عليها المشارقة واستفادوا منها. أما في مصر فقد انتعش المذهب المالكي كذلك بعد قيام صلاح الدين الأيوبي بعزل قضاة الشيعة وتنصيب قضاة شافعية ومالكية[4].

لم تنقطع الصِّلات وتبادُل الأخبار بين المغاربة في بلاد المشرق وأهلهم في المغرب سواء بواسطة التجارة أو خلال مواسم الحج حيث يعرِّجون عليهم بالزيارة قبل العودة إلى الديار، أو غيرها من طرق الاتصال، ولذلك كان ما يرد من معلومات بمثابة مادة إخبارية للمؤرخين هناك والذين استعملوها كمصادر لكتاباتهم التاريخية لاسيما وأنها منقولة عن شاهدي عيان أو قريبين من الأحداث، وهو ما يمكن اعتباره نوعا من التكامل العلمي بين قسمي العالم الإسلامي.

ومن المؤرخين المشارقة الذين استفادوا من الأخبار التي كان ينقلها أهل المغرب ابن القلانسي الذي يقول عن دعوة ابن تومرت وقيام الدولة الموحدية: " وحَضَرتْ كُتب من أهل المغرب إلى أقاربهم ببعض الشرح، ووافق ورود ذلك في سنة 541هـ ... فمن ذلك ظهور المعروف بالفقيه السوسي الخارج بالمغرب وما آل إليه أمره إلى أن هلك، ومن قام بعده

1- بوعلام جوهري: المقال السابق، ص123.

2- القفطي: انباه الرواة، ج2، ص138.

3- نفسه، ج2، ص137.

4- المقريزي: اتعاظ الحنفاء، ج3، ص319- 320.

واستمر على مذهبه وما اعتمده من الفساد وسفك الدماء[1] ومخالفة الشريعة الإسلامية "[2]، وهو يمدنا بمعلومات دقيقة عن بداية قيام الدولة والمواجهات العسكرية بين الموحدين والمرابطين فيقول: "وأريقت الدِّماء بين الجهتين، ولم تزل رحى الحرب دائرة بينهم إلى أن كان بينهم في عدة سنين متوالية أربعة مصافات هائلة منكرَة، قُتل فيها من الفريقين ما قُدِّر وحُزر[3] تقدير مائتي ألف نفس"[4]، ثم يذكر ابن القلانسي مصدر هذه المعلومات قائلا: " هذا ما أورَدَه وحكاه وشاهده واستقصاه الفقيه أبو عبد الله محمد بن عبد الجبار الصقلي بإملائه من لسانه "[5]، وهو يستقي معلوماته دائما عن بلاد المغرب مما يأتي به أهلها من السفار والتجار[6] ومنها كتاب المهدي بن تومرت إلى المرابطين[7]. أما ابن الأثير فيقول في نفس الموضوع ونقلا عن المغاربة: " هكذا سمعتُ جماعة من فضلاء المغاربة يذكرون في التمييز، وسمعتُ منهم من يقول: إنَّ ابن تومرت لما رأى كثرة أهل الشر والفساد ... ثم جمع الناس قاطبة، ورفع الأسماء التي كتبها ودفعها إلى الونشريسي المعروف بالبشير، وأمَرَه أن يعرض القبائل ويجعل أولئك المفسدين في جهة الشِّمال، ومن عداهم في جهة اليمين، ففعل ذلك، وأمَرَ أن يُكتف مَن على شِمال الونشريسي فكتفوا، وقال: إنَّ هؤلاء أشقياء قد وَجَب قتلهم، وأمَرَ كلَّ قبيلة أن يقتلوا أشقياءهم فقُتِلوا عن آخرهم"[8]. أما ابن شداد[9] فيقول عن المرابطين بعد سقوط دولتهم وهجرة بعضهم إلى المشرق: "ومما رأيت أنه كان لي صديق منهم بدمشق، فأتيت يوما إلى زيارته ... وقد تلَثّم بخلخاله، هذا بعد أن انقضت دولتهم وتفرَّقت جملتهم وتغرَّبوا في البلاد " ثم يضيف: "ولقد حكى لي من أثق به، أنه رأى

1- لعلَّ المقصود هنا مذابح التمييز التي ارتكبها المهدي بن تومرت بتواطؤ مع أبي عبد الله محمد البشير الونشريسي، والتي تقدِّرها بعض المصادر بسبعين ألفا، هذا زيادة على حملات القتل التي شنَّها الموحدون ضد القبائل وضد المرابطين. عن مذابح التمييز يُمكن العودة إلى، ابن القطان: المصدر السابق، أخبار سنة 519هـ، ص147- 148/ البيذق: المصدر السابق، ص58/ ابن خلدون: المصدر السابق، مج2، ص1911/ ابن عذاري: المصدر السابق، ج4، ص68/ ابن الأثير: المصدر السابق، مج2، ص2292- 2293/ السلاوي: المرجع السابق، ج2، ص80/ عبد الحفيظ حميمي: " **البشير الونشريسي أحد أهم القادة المقربين من المهدي بن تومرت الموحدي** " مجلة الخلدونية، صص63- 68، جامعة تيارت، ع8، ديسمبر 2015م، ص65- 66.

2- ذيل تاريخ دمشق، ص291.

3- الحَزْرُ: التقدير والخرص. الفيروز أبادي: المصدر السابق، ص337.

4- ابن القلانسي: المصدر السابق، ص292.

5- نفسه، ص293.

6- نفسه ، ص293.

7- نص الرسالة وهي قصيرة في الحلل الموشية، ص181/ يذكر محمد عليمكي محقِّق كتاب نظم الجمان أنَّ هذه الرسالة قد سقطت في بعض خروم الكتاب السابقة، ها1، ص132.

8- ابن الأثير: المصدر السابق، مج2، ص2293.

9- ابن شداد: أبو محمد عبد العزيز من ذرية المعز بن باديس الصنهاجي ملك إفريقية، من رجال أواخر القرن السادس الهجري، هاجر إلى الشام ومات به، كان من أمراء العساكر في دولة صلاح الدين الأيوبي، وهو صاحب كتاب " الجمع والبيان في أخبار المغرب والقيروان ".

شيخا من الملثمين بالمغرب "[1]. كما نقل عنه التجاني أثناء تواجده بالمشرق بعض أحداث ثورة ابن غانية وأثرها فقال: وفي تاريخ ابن شداد وذكر شدة ما انتهى إليه حال إفريقية أيام استيلاء علي بن إسحاق الميورقي عليها فقال: " أخبرني أبو عبد الله محمد بن البراء المهدوي وقد وصل إلى دمشق في هذه السنة يعني اثنين وثمانين وخمسمائة، قال فسألته عن أحوال إفريقية فقال: هلك العباد وخرب البلاد "[2].

إنَّ تواجد مهاجري المغرب الأوسط في المشرق ورغم قلّتهم بالمقارنة مع تواجُدِهم في الأندلس أو المغرب الأقصى، إلا أنَّ أثرهم بقي خالدا هناك، سواء بالذكر الجميل لما قاموا به من دور جهادي ضد الصليبيين وبأخلاقهم الحميدة، أو لنشاطهم العلمي من خلال التأليف وتدريس فقه المذهب المالكي، ثم ما تركوه من أثار عمرانية تُبرزُ مدى التواصل والترابط التاريخي بين مشرق العالم الإسلامي ومغربه.

ثالثا: آثار ونتائج الهجرة الأندلسية إلى المغرب الأوسط

توافد على المغرب الأوسط من الأندلسيين أفراد وجماعات على اختلاف أعراقهم وأديانهم وذلك منذ القرن الثالث الهجري ثم ازداد توافدهم طيلة القرنين السابع والثامن الهجريين/ الثالث عشر والرابع عشر ميلاديين نتيجة الظروف التي عاشتها بلاد الأندلس في الفترة المذكورة بسبب ضعف الدولة الموحدية، وتنامي نشاط حركة الاسترداد التي قامت بها الممالك المسيحية ضد المسلمين الذين دخلت جاليات معتبرة منهم إلى المغرب الأوسط رفقة بعض العناصر الأخرى كاليهود.

وجد الأندلسيون الظروف المناسبة للاستقرار في المغرب الأوسط، ولاسيما في ظل العلاقات الحسنة القائمة بين بعض سلاطين الدولة الزيانية وملوك الأندلس، وهو ما نلمسه مثلا من وصية السلطان أبي حمو موسى الثاني ولده في أهل الأندلس[3] ثم موقفه من الشدة التي أصابتهم حيث قال:"لأَصِلنَّ حَبلَ الأندلس بِحَبْلي ولأَجعلنّهم إن شاء الله من جملة قبيلي وأهلي "[4].وفعلاً فقد ترجم ذلك بمساعدات غذائية تمثّلت في حمولة قُدِّرت بخمسين ألف قدح

1- النويري: المصدر السابق، ص348.

2- رحلة التجاني، ص14.

3- يقول أبو حمو لابنه: " فليكن اهتمامك يا بني بأهل الأندلس أكثر الاهتمام، وأخذك في موالاتهم الأخذ التام، فتمدهم بما تستطيع عليه من الزرع والمال والخيل والحماة والأبطال ". أبو حمو موسى: المصدر السابق، ص257.

4- مجهول: زهر البستان في دولة بني زيان، ص222.

من الزرع[1]، وإذا كانت العلاقات بينهما ذات طابع أو بعد سياسي[2] فإنها كانت إلى حد ما باعثا على الهجرة إلى المغرب الأوسط.

كان لهؤلاء المهاجرين في وطنهم الجديد أثرا واضحا في الحياة الاجتماعية والاقتصادية والعلمية، وذلك بحسب طبقاتهم ومستوياتهم العلمية والمهن التي كانوا يمارسونها، وبذلك فإنهم طبعوا المنطقة بطابع أندلسي بما نقلوه من مظاهر الحياة وأنشطتها. أما من حيث توطُّنهم فانقسموا إلى قسمين، قسم استقرَّ في الحواضر الكبرى الساحلية والداخلية كبجاية وتلمسان ووهران وقسنطينة، أو بعض القرى البحرية مثل دلَّس، وقسم سكن البوادي والأرياف القريبة من المدن، واختصَّ كل قسم منهما بنشاط معيَّن.

1- الآثار والنتائج العلمية: يُلاحِظ المتتبِّع لحركة المهاجرين من خلال تراجمهم أو من خلال حياتهم اليومية، أن نسبة كبيرة منهم كانوا إما علماء وأدباء ومتصوِّفة، أو أصحاب حرف ومهن، وهو ما يعكس الدرجة التي بلغتها الأندلس من تطور حضاري واجتماعي، والذي سيكون له الأثر المباشر في المناطق التي استقرَّ بها هؤلاء.

نعود إلى الفئة الأولى التي قد تكون أكثر حظًّا لما لاقته من اهتمام ورعاية مادية وأدبية من قِبَل سلاطين بني عبد الواد ولاسيما في عهد يغمراسن بن زيان لما كانوا لا يزالون في طور النشأة وعلى حالة من البداوة[3]، فحاجتهم إلى التحضُّر والأخذ بأسبابه جعلتهم يرحبون بهذه الفئات التي قد تضيف جديدا إلى دولتهم، يقول التنسي عن السلطان يغمراسن: " ولما اشتهر اعتناؤه بالعلم وأهله، وفَدَ عليه من الأندلس خاتمة أهل الآداب "[4]، وقد ظهرت نتائج استقرار الأندلسيين بالمغرب الأوسط في عدة حقول علمية:

1- يجعل يحي بن خلدون تلك المساعدة سنة 763هـ/ 1361م. بغية الرواد، ج2، ص245. بينما يجعلها ابن الخطيب سنة 768هـ/ 1366م. الإحاطة في أخبار غرناطة، ج1، ص363. ولعلَّ ذلك حدثين منفصلين لأنَّ يحي بن خلدون يذكر في أحداث سنة 767هـ/ 1365م كتاب أبي عبد الله محمد بن أبي الحجاج بن أبي الوليد بن نصر إلى أبي حمو من إنشاء كاتبه أبي عبد الله محمد بن الخطيب السلماني، والتي امتعض فيها أبو حمو لما أصاب المسلمين في الأندلس فأمدَّهم بالأحمال العديدة من الذهب والفضة والخيل المسوَّمة والمراكب المشحونة زرعًا. بغية الرواد، ج2، ص342 وما بعدها.

2- تقرَّب بنو الأحمر ملوك غرناطة من بني عبد الواد ليشغلوا بني مرين عن أطماعهم في الأندلس، ولذلك كانت العلاقات بينهما وطيدة، تبادلوا فيها السفارات والمساعدات. يحي بن خلدون: المصدر نفسه، ج2، ص335، 342 وما بعدها/ ابن خلدون: المصدر السابق، مج2، ص2195، 2199، 222- 2223، 2231/ المقري: أزهار الرياض، ج1، ص176/ ابن الخطيب: الإحاطة ، ج4، ص53/ المقري: نفح الطيب، مج6، ص199/ أحمد مختار العبادي: المرجع السابق، ص198.

3- يحي بن خلدون: المصدر نفسه، ج1، ص205.

4- التنسي: المصدر السابق، ص127/ يحي بن خلدون: المصدر نفسه، ج1، ص129/ ابن خلدون: المصدر نفسه، مج2، ص2114.

* **التصوُّف:** يُعد التصوُّف من الظواهر والسلوكيات التي انتشرت في الأندلس وبصورة جلية في العهد الموحدي خلال القرنين السادس والسابع الهجريين، ويعود ذلك لسببين رئيسين، أوَّلهما: زوال دولة المرابطين، التي تعرَّض فيها التصوُّف لنكسة خلال حكمهم للأندلس بسبب تشدُّدهم مع المتصوِّفة[1]، وقد يكون حرق كتاب الإحياء للإمام الغزالي[2] ترجمة لذلك، أما السبب الثاني فهو تشجيع تيار التصوُّف وتسامح الموحدين مع أتباعه[3] وبخاصة إذا علمنا أنَّ ابن تومرت ذاته كان من أنصار الغزالي (نظريا على الأقل) فندَّب الناس إلى قراءة كتبه، وكان زيادة على ذلك لاهوتيا متكلِّما[4]، اَتخذ الممارسة الصوفية أسلوبا لنشر مذهبه.

ومما ساهم في انتشار التصوُّف في هذه الفترة كذلك، الضعف السياسي والتراجع الأخلاقي، ولا نريد هنا التأريخ للتصوُّف أو بالأحرى تتبُّع تاريخه وإنما سنتوقف عند بعض المحطات وعند بعض أعلامه لمعرفة دورهم وأثرهم في نقل التصوُّف إلى المغرب الأوسط[5].

لا يمكن أن نتكلم عن التصوُّف وبالمغرب الأوسط بالذات دون الإشارة إلى الأندلس، وذلك بحكم أسبقيته زمنيا من حيث الظهور هناك أو من حيث تأثير متصوِّفة الأندلس في المغرب الأوسط وامتداد نشاطهم، ولعلَّ بداية ذلك كانت مع أحد أهم أقطابه، ليس على المستوى المحلي فقط، بل على مستوى كل العالم الإسلامي، والذي أصبح يُمثِّل مدرسة قائمة بذاتها للتصوُّف النخبوي، يقول عنه ابن قنفذ: "وبلغ رحمه الله من الورع مقاما عليا، ونال من الزهد والتحقيق مثالا سنيا، تبعه فيه المتقون واقتدى به المحققون ولازمه المصدقون "[6] وذلك خلال القرن السادس الهجري/ الثاني عشر ميلادي، وهو أندلسي

1- محمود علي مكي: **" التراث المشترك الأندلسي المغربي في ميدان التصوُّف "**، التراث الحضاري المشترك بين إسبانيا والمغرب، صص155- 166، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية، الرباط، الهلال العربية للطباعة والنشر، 1412هـ- 1992م، ص161- 162.

2- عن هذا الموضوع يمكن العودة إلى ابن القطان: المصدر السابق، ص70/ عبد الواحد المراكشي: المصدر السابق، ص237/ ابن عذاري: المصدر السابق، ج4، ص59/ الزركشي: المصدر السابق، ص4/ طاهر المعموري: المرجع السابق، ص20 وما بعدها/ مونتغمري وات: المرجع السابق، ص146/ آنجل جنثالث بالنثيا: تاريخ الفكر الأندلسي، ترجمة حسين مؤنس، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، دت، ص365/ تاريخ إفريقيا العام، مج4، ص109.

3- عن تطوُّر التصوُّف على العهد الموحدي، يمكن العودة إلى عبد الحميد حاجيات: **" تطوُّر الفكر الإسلامي بالمغرب الأوسط على عهد الموحدين "** مجلة عصور الجديدة، مختبر البحث التاريخي، جامعة وهران، ع5، 2012م، صص53- 70/ آنجل جنثالث بالنثيا: المرجع نفسه، ص366.

4- مونتغمري وات: المرجع السابق، ص148- 149.

5- تاريخ إفريقيا العام، مج4، ص119.

6- أنس الفقير وعز الحقير ، ص19- 20.

ونقصد هنا بالتحديد أبا مدين شعيب[1]، لكونه تزامن مع فترة ازدهار حركة التصوُّف أو لنقل أنه يُمثل قمة ما وصل إليه هذا التيار ودوره في نشر التصوُّف ليس بالمغرب الأوسط فحسب، بل أنَّ أثره امتد في الغرب الإسلامي ككل.

ومن الذين ساهموا في نشر التصوُّف بالمغرب الأوسط أيضًا، قاسم القرطبي الذي ترك مالا وعقارا ببلده واستوطن بجاية[2] زاهدا فكان له بها أتباع كثيرون منهم أبي محمد عبد الله بن عبد المعطي ومعاوية الزواوي، ومن الذين نزلوا بجاية من الصوفية كذلك أبو عبد الله محمد بن علي الطائي المعروف بمحي الدين بن عربي (ت638هـ- 1240م) أصله من مرسية وسكن إشبيلية، دخل بجاية سنة 597هـ- 1200م واستقرَّ بها مدة، له تآليف كثيرة كلها في علم التصوف[3] والتي يكون قد انتشر بعضها ببجاية.

لاشكَّ أنَّ التواجد الكثيف للمتصوِّفة وتدوين مصنَّفات التراجم والفكر الصوفي وتداولها في أوساط المجتمع وما كان الناس يعيشونه ويشاهدونه من أحوال المتصوِّفة وكراماتهم من خلال الاتصال المباشر بهم وما يُنقله هؤلاء عنهم إلى العامة في صورة من القداسة وربما المعجزة، كلها عوامل أدَّت إلى تعلُّق العامة بهم والاعتقاد فيهم، وبالتالي محاولة سلوك طريقتهم، وهناك عامل آخر يكون قد حفَّز الناس إلى سلوك التصوُّف وهو تقرُّب بعض فقهاء المالكية من المتصوِّفة، فعبد الحق الإشبيلي[4] فقيه محدِّث لم يكن من الصوفية إلاَّ أنَّه

1- من مصادر ترجمته، ابن الزيات التادلي: التشوُّف إلى رجال التصوُّف، صص259- 266/ ابن القنفذ: المصدر السابق، ص 11- 26، 63، 94، 102- 103/ الغبريني: المصدر السابق، صص7- 13/ ابن مريم: المصدر السابق، صص223- 236/ التنبكتي: نيل الابتهاج، مج1، صص207- 213/ كفاية المحتاج، ج1، صص147- 152/ يحي بن خلدون: بغية الرواد، ج1، ص125- 126/ المقري: نفح الطيب، مج9، صص356- 363/ اليافعي اليمني: المصدر السابق، ج3، ص355/ الحفناوي: تعريف الخلف برجال السلف، ج2، ص174- 180/ محمد بن محمد مخلوف: المرجع السابق، ص164.

2- قاسم القرطبي: أبو الفضل بن محمد القرشي، الفقيه المنقطع، خرج من بلده قاصدا عدوة المغرب فاستوطن بجاية، ذكر له الغبريني كرامات كثيرة، توفي سنة 662هـ- 1263م، وقبره قريب من قبر الشيخ أبي زكريا الزواوي. الغبريني: المصدر نفسه، صص79- 82.

3- الغبريني: المصدر السابق، ص78/ تقي الدين الفاسي: عقيدة ابن عربي وحياته وما قاله المؤرخون والعلماء فيه، ضبط النص وعلّق عليه علي حسن علي عبد الحميد، مكتبة ابن الجوزي، الدمام، المملكة العربية السعودية، ط1، 1408هـ- 1988م/ الذهبي: العبر في خبر من غبر، ج3، ص233/ اليافعي اليمني: المصدر السابق، ج4، ص79/ المقري: المصدر نفسه، مج2، ص375/ عبد الرحمن الوكيل: هذه هي الصوفية، دار الكتب العلمية، بيروت، ط3، 1979م، صص34- 42.

4- عبد الحق الاشبيلي: أبو محمد بن عبد الرحمن الأزدي، يُعرف بابن الخراط، نزيل بجاية الإمام الحافظ الموصوف بالخير والصلاح والورع وملازمة السنَّة، نشر العلم ببجاية فأخذ عنه جلة وصنَّف التصانيف الجليلة منها الأحكام الكبرى والأحكام الصغرى في الحديث وديوان شعر في الزهد وأمور الآخرة، توفي سنة 581هـ- 1185م. الغبريني: صص18- 20/ ابن القنفذ: أنس الفقير، ص34. شرف الطالب، ص200/ الذهبي: تذكرة الحفاظ، ج4، ص1350/ العبر، ج3، ص82/ ابن فرحون: المصدر السابق، صص276- 278/ السيوطي: تاريخ الخلفاء، ص323/ محمد مخلوف: المرجع السابق، ص155.

كان يحضر مجالس أبي مدين فكان سلوكه الزهد إذ كان يقسم ليله أثلاثا: ثلثا للقرآن وثلثا للعبادة وثلثا للنوم، ومؤلفاته في ذلك مثل كتاب الزهد وكتاب التوبة وغيرها، اعتبرها الناس سبيلا لسلوك هذا الطريق، وبذلك انتشر التيار التصوُّفي ومَثَّل مرحلة من مراحله وهي تصوُّف العامة أو التصوُّف الشعبي، الذي توسَّعت قاعدته لاحقا، حتى صار كما قال الحسن الوزان: " كل جاهل يودُّ أن يكون صوفيا "[1]، وعليه يُمكن القول أنَّ التصوُّف أصبح هو الممثِّل الأول للثقافة الدينية في الغرب الإسلامي قبل الفقه والحديث[2]، ومن الذين كان لهم الأثر في نشر هذا النوع من التصوُّف ببجاية ابن سبعين المرسي[3]، أما بتلمسان فقد اشتهر أبو عبد الله الحلوي[4]، وذلك من خلال طريقة حياته واتّصاله بالمجتمع، فتذكر مصادر ترجمته أنه كان إذا مرَّ به الصبيان، ينقرون له فيدور ويشطح ويُنشد مقطعات متفقة الألفاظ في معنى المحبة.

نتج عن تصوُّف العامة بعض الخلافات مع الفقهاء والتي أدَّت أحيانا إلى جدال ومشادَّات، فقد ذكر الغبريني أنَّ أبا الحسن الصغير المعروف بالطيار دخل المسجد مع صحب له من الفقراء في وقت يُحيًّا فيه المسجد فجلسوا من غير تحية، فأمرَهم عبيد الله بن أحمد الأزدي[5] بالتحية فقال له الطيار: ولذكر الله أكبر وامتنع من الركوع ووقع بينه وبينهم

1- وصف إفريقيا، ج1، ص269.

2- محمد علي مكي: المقال السابق، ص162.

3- ابن سبعين: أبو محمد عبد الحق بن إبراهيم بن محمد، من أهل مرسية، رحل إلى العدوة وسكن بجاية مدة، لقيه أناس وأخذوا عنه، له أتباع كثير من الفقراء ومن عامة الناس، له شعر في التحقيق وفي مراقي أهل الطريق، توفي سنة 609هـ-1212م وقيل غير ذلك. الغبريني: المصدر السابق، ص110/ ابن الخطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة، ج4، ص31/ التنبكتي: نيل الابتهاج، مج1، ص310/ المقري: نفح الطيب، مج2، ص407/ آنجل جنثالث بالنثيا: المرجع السابق، صص386- 389.

4- الحلوي: الشيخ الولي أبو عبد الله الشوذي الإشبيلي المعروف بالحلوي، لأنه كان يبيع الحلوى للصبيان ويتصدَّق بثمنها، وهو من كبار العباد العارفين، قيل أنه وُلي القضاء بإشبيلية آخر دولة بني عبد المؤمن، ثم فرَّ بنفسه منه، وأوى إلى تلمسان في زي المجانين، كان يأوي إلى كهف خارج باب كشوطة إلى أن توفي ودفن خارج باب علي. يحي بن خلدون: المصدر السابق، ص127- 128/ ابن مريم: المصدر السابق، ص160/ عبد الحميد حاجيات: **" تطوُّر العلاقات بين تلمسان وغرناطة في العصر الوسيط "**، مجلة عصور الجديدة، مختبر تاريخ الجزائر، جامعة وهران، ع2، 2011م/ 1432هـ، صص37- 45، ص38/ عبد القادر بوباية: " إسهام العلماء الأندلسيين في الحركة العلمية بتلمسان خلال القرن السابع الهجري (13م) "، مجلة عصور الجديدة، نفس العدد، صص159- 169، ص162.

5- عبيد الله بن أحمد الأزدي: أبو الحسن عبيد الله بن أحمد بن عبد المجيد بن عمر بن يحي الأزدي، من أهل رندة، رحل إلى بجاية واستوطنها، كان على سنن الفقهاء وعلى طريق المتعبدين، وكان متنزِّها عن مقالة المتلبسين وشعوذة المشعوذين، غير مسامح في شيء مما يخالف ظاهر الشريعة ولا عامل على شطحات المتصوفة، توفي سنة 691هـ-1292م. الغبريني: المصدر السابق، ص51.

كلام، ولما ظهر منهم التوقف وقع العمل على نفيهم إلى المغرب وإخراجهم من البلد[1]. ويظهر أنَّ ذلك كان نتيجة جهل أولئك العامة كما وصفهم الغبريني، أو بسبب العناد وادِّعاء التصوُّف، ولذلك عقد ابن الحاج في كتابه المدخل فصلا في هؤلاء تحت عنوان: " في ذكر بعض المتشبهين بالمشايخ وأهل الإرادة " بيَّن فيه مزاعم وأحوال هؤلاء[2].

العودة القوية للمذهب المالكي: يظهر أنَّ مرحلة التراجع النسبي التي مرَّ بها المذهب المالكي في العهد الموحدي خلال القرن السادس الهجري، أي فترة حكم الخلفاء الثلاثة الأوائل قد بدأت تتلاشى في عهد أبي يوسف يعقوب المنصور من خلال بعض المواقف التي أوردها المراكشي منها أنّه لـمَّا زار هذا الخليفة تينمل، جاء النسوة يولولن ويضربن بالدفوف ويقُلن: صدق مولانا المهدي، نشهد أنه الإمام حقا، فحين رأى ذلك منهم تبسَّم استخفافا لعقولهن لأنه كان لا يرى رأيهم في ابن تومرت. أما الموقف الثاني فهو ما حكاه أبو العباس أحمد بن إبراهيم بن مُطرَّف المريّ وكان مع الخليفة أبي يوسف في الكعبة المشرَّفة قال: " قال لي أمير المؤمنين أبو يوسف: يا أبا العباس، اشهد لي بين يدي الله عزَّ وجلَّ أني لا أقول بالعصمة "[3]، وقد أشرنا في بداية الفصل الأول إلى موقف إدريس المأمون من ابن تومرت وشعار المهدوية.

إنَّ التحوُّل السياسي والمذهبي الذي عرفه المغرب الأوسط في ظل الدولة الموحدية مع مطلع القرن السابع الهجري ونقصد به تراجع العقيدة التومرتية وانهيار نظام الحكم قد أتاح الفرصة لصعود المذهب المالكي من جديد عبر نشاط فقهاء المذهب بصفة عامة والأندلسيين بخاصة الذين جعلوا من حواضر المغرب الأوسط مراكز لنشاطهم لاسيما بجاية، والحقيقة أنَّ هذه المدينة قد اشتهرت كمدرسة للفقه المالكي منذ العهد الحمادي وبخاصة في عهد حكم الناصر بن علناس ثم في عهد حفيده العزيز بن المنصور (498- 515هـ) حيث كان مجلسه حافلا بالعلماء[4].

ازدهرت بمدينتي ببجاية وتلمسان بعد قدوم هؤلاء الأندلسيين مختلف العلوم سواء الدينية منها والأدبية كالفقه والحديث والقراءات والعربية، أوالعلوم العقلية كالطب وأصبح للمتخرجين منهما مكانة على مستوى العالم الإسلامي فرحل بعضهم إلى المشرق أين تولوا

1- الغبريني: المصدر السابق، ص52.

2- المدخل، نشر مكتبة دار التراث، القاهرة، دت، ج3، ص193 وما بعدها.

3- المعجب في تلخيص أخبار المغرب، ص368- 369.

4- ابن خلدون: المصدر السابق، مج2، ص1879.

وظائف دينية وساهموا في حركة التأليف، وقد أشاد العبدري في رحلته بأهمية بجاية ومكانتها فقال: "وهذا البلد بقية قواعد الإسلام ومحل جلة من العلماء أعلام"[1].

أ- الفقه المالكي: نتج عن عودة الفقه المالكي على الساحة المذهبية إلى بروز العديد من الفقهاء، نذكر منهم ابن محرز البلنسي[2] الذي كانت تُقرأ عليه الكتب الفقهية وكتب الحديث وكتب اللغة، تعددت نشاطاته بين الرواية والتدريس والمقابلة والمذاكرة، وكتبه في غاية الجودة تقييدا وتنقيحا، وقد قيَّد عنه كثير من تلامذته. ومنهم كذلك محمد بن عميرة المخزومي[3] الذي كان له علم بالفقه وأصوله، مكث مدة طويلة ببجاية فاقرَأ بها ودرَّس هذين العِلْمين، وقد رأى له الغبريني تعليقا على كتاب المعالم في أصول الفقه وهو جواب لسؤال في عشرة أبواب. ومنهم أيضا ابن السراج الفقيه المالكي[4]، رحل إلى العدوة واستوطن بجاية. ولا ننس هنا دور أحد أعلام هذه المدينة في تثبيت المذهب المالكي وهو الفقيه ناصر الدين المشذالي[5] (ت731هـ- 1230م) أول من أدخل كتاب ابن الحاجب الفرعي من مصر والذي أصبح كالبرنامج للمذهب، فانتشر كتابه بقطر بجاية ومنها إلى سائر الأمصار المغربية. ونفس الأمر بالنسبة لتلمسان التي نشطت بها الدراسات الفقهية بفضل مدارسها العديدة التي أمَّها العلماء وغشيها الطلبة.

1- رحلة العبدري، ص83.

2- ابن محرز: هو أبو بكر محمد بن أحمد بن عبد الرحمن الزهري، الفقيه المحدث اللغوي التاريخي العالم المتفنن، استوطن بجاية، وكان يجتمع بمنزله أعلام وهو شيخ الجماعة وكبيرهم منهم ابن الأبار وابن عميرة وابن سيد الناس وابن الجيان، له تقييد على التلقين وتقارير كثيرة في فنون، توفي سنة 655هـ- 1258م. الغبريني: المصدر السابق، ص134/ المقري: نفح الطيب، مج2، ص282/ مج6، ص108/ التنبكتي: نيل الابتهاج، مج2، ص28/ محمد مخلوف: المرجع السابق، ص194.

3- محمد بن عميرة: أبو المطرَّف بن عبد الله البلنسي الإمام قدوة الفقهاء وعمدة العلماء الحامل لواء المنثور والمنظوم تولى قضاء سلا ثم مكناسة وغيرهما، له تأليف في كائنة ميورقة وتغلُّب الروم عليها، وكتاب التنبيهات على ما في التبيان من التمويهات، ردَّ فيه على كمال الدين الأنصاري، توفي سنة 658هـ. الغبريني: نفسه، ص141/ السيوطي: بغية الوعاة، ج1، ص319/ ابن الخطيب: الإحاطة، ج1، ص173/ محمد مخلوف: المرجع السابق، ص195.

4- ابن السراج: هو أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد بن أحمد بن عبد الله بن قاسم الأنصاري الإشبيلي، رحل إلى العدوة سنة 646هـ- 1248م فأقام قليلا بسبتة ثم انتقل إلى بجاية سنة 647ه فاستوطنها، أخذ عنه جلة، توفي سنة 657هـ- 1259م. الغبريني: المصدر نفسه، ص93/ الذهبي: العبر، ج3، ص286/ ابن القنفذ: شرف الطالب، ص220.

5- من مصادر ترجمته، الغبريني: المصدر السابق، ص105/ ابن حجر: المصدر السابق، س4، ص361/ ابن القنفذ: شرف الطالب، ص232/ الونشريسي: وفيات الونشريسي، ص25/ التنبكتي: نيل الابتهاج، مج2، ص306/ ابن خلدون: المقدمة، ص342، ص357/ السيوطي: بغية الوعاة، ج2، ص301/ ابن القاضي: درة الحجال، ص295/ الحفناوي: المرجع السابق، ج2، ص563/ محمد مخلوف: المرجع نفسه، ص217- 218/ عادل نويهض: المرجع السابق، ص302- 303/ المهدي البوعبدلي: الحياة الثقافية بالجزائر، ص256- 257.

ب- الحديث: وهو من العلوم التي برع فيها الأندلسيون، وانتصبوا لتدريسها بعد استقرارهم في حواضر المغرب الأوسط، معتمدين في ذلك على أمهات كتب الحديث المشهورة كالموطأ والصحيحين، وقد ذكر الرحالة العبدري البلنسي خلال مروره ببجاية في طريقه إلى الحج سنة 668هـ- 1269م أنّه مكث بها يومان، قرأ فيهما بعض كتاب الموطّأ[1] رواية يحي بن يحي الليثي وهي أشهر الروايات، وذلك على يد أبي عبد الله الشاطبي[2]. وممن كان يُدرِّس الحديث إلى جانب الفقه كذلك، ابن محرز السابق.

ج- القراءات: تُعدُّ القراءات من العلوم التي اعتنى بها الأندلسيون وبخاصة في فترة ازدهار المذهب المالكي، ويُعدُّ مجاهد العامري صاحب شرق الأندلس من أبرز الأعلام القرَّاء أواخر القرن الرابع وخلال القرن الخامس الهجريين، أخذ هذا العلم عن مولاه المنصور بن أبي عامر حتى صار إماما في القراءة[3]، ولعلَّ أبرز من ألّف في القراءات في نفس الفترة وأصبحت كتبه مثل التيسير[4] والمقنع معوَّل عليها وأَخَذَ بها جمهور الناس، أبو عمرو الداني[5] ، ثم تلميذه أبو داود سليمان بن نجاح. وقد نظّم أبو عبد الله محمد الشريشي المعروف بالخراز (ت718هـ- 1318م) سنة 703هـ- 1303م أرجوزة مورد الظمآن في رسم أحرف القرآن، تتكون من 608 بيت منها 454 بيتا في رسم أحرف القرآن و154 بيتا للضبط زاد فيها على كتاب المقنع، فاقتصر الناس على حفظها وهجروا بها كتب أبي داود

1- الرحلة العبدرية، ص51.

2- أبو عبد الله الشاطبي: أبو عبد الله محمد بن صالح بن أحمد الكناني، من أهل شاطبة، رحل إلى العدوة واستوطن بجاية أواخر سنة 645هـ- 1247م، وتولى بجامعها الصلاة والخطبة سنة 662هـ- 1225م إلى أن توفي سنة 699هـ- 1299م، كان عالما بالقراءات متقن فيها مجيد لها، له رواية متسعة في الحديث وفي غيره وروايته عالية، روى وأقرأ واستنفع به خلق كثير. الغبريني: المصدر السابق، ص40/ ابن القنفذ: شرف الطالب، ص228/ ابن القاضي: المصدر السابق، ص151/ المقري: نفح الطيب، مج6، ص110.

3- ابن خلدون: المقدمة، ص347/ ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ق2، ص218/ ابن عذاري: البيان المغرب، ج3، ص155.

4- التيسير: في القراءات، هو مختصر مشتمل على مذاهب القُرَّاء السبعة في الأمصار وما اشتهر من الروايات.

5- أبو عمرو الداني: عثمان بن سعيد بن عثمان الأموي القرطبي المعروف بابن الصيرفي، الحافظ المقرئ، سمع كثيرًا عن أئمة المشرق والمغرب، كان إماما في علم القرآن وروايته وتفسيره ومعانيه وإعرابه وجمع في ذلك تآليف حسانا منها جامع البيان في القراءات السبع ومفردات القراءات السبع وتفسير كبير وطبقات القراء وفهرست، والقراء خاضعون لتصانيفه، أخذ عنه عالم كثير، توفي سنة 444هـ- 1052م. الحميدي: جذوة المقتبس في تاريخ علماء الأندلس، حققه وعلق عليه بشار عواد معروف ومحمد بشار عواد، دار الغرب الإسلامي، تونس، ط1، 1429هـ- 2008م، ص445/ ابن بشكوال: كتاب الصلة، ج2، ص20/ الذهبي: تذكرة الحفاظ، ج3، ص1120/ العبر، ج2، ص286/ دول الإسلام، ج1، ص383/ ابن فرحون: المصدر السابق، ص288/ الحميري: المصدر السابق، ص232/ ابن خلدون: المقدمة، ص347/ ابن الخطيب: المصدر نفسه، ج2، ص218/ القفطي: المصدر السابق، ج2، ص341/ اليافعي اليمني: مرآة الجنان، ج3، ص49/ المقري: نفح الطيب، مج2، ص350/ محمد مخلوف: المرجع السابق، ص115.

وأبي عمرو والشاطبي في الرسم[1]. وقد قام محمد بن عبد الله التنسي بشرح قسم منها سماه: " الطراز[2] في شرح الخراز "[3].

من خلال تراجم الأندلسيين يلاحظ أنَّ كثيرا منهم قد اشتهر بالقراءات وهو ما جعلهم ينشرون هذا العلم بالمغرب الأوسط، ومن هؤلاء أبو الحسن الحضرمي الذي وَفَد مع الجالية وكان ينتحل القراءة، فأخذ عنه أهل بجاية علم القراءات[4]، ومنهم أبو عبد الله الكناني السابق وكذا أحمد بن خضر الشاطبي[5] وابن زاهر البلنسي[6] وابن سيد الناس اليعمري[7]، كلهم كانوا ذوي علم بالقراءات، ومما يدل على انتشار هذا العلم الشريف قراءة العبدري خلال إقامته القصيرة ببجاية كتابي التيسير والمقنع السابقين وقصيدة الشيخ الإمام أبي القاسم بن فُيُّرة[8]. أما بتلمسان فقد اشتهر ابن سعادة الإشبيلي[9] كمجوِّدٍ للقرآن.

1- ابن خلدون: المقدمة، ص347- 348/ محمد بن محمد مخلوف: المرجع السابق، ص215.

2- قد يكون نسبة إلى أبي عبد الله محمد بن سعيد بن علي بن يوسف الأنصاري الغرناطي المعروف بالطراز أحد الأعلام القرَّاء، (ت645هـ- 1247م). ابن فرحون: المصدر السابق، ص390/ محمد بن محمد مخلوف: المرجع السابق، ص183.

3- محمد بوشقيف: **" محمد بن عبد الله التنسي (ت899هـ- 1494م) الفقيه التاريخي "** مجلة عصور الجديدة، مختبر تاريخ الجزائر، جامعة وهران، ع3- 4، سنة 2011- 2012م، صص40- 52، ص44.

4- ابن خلدون: المصدر السابق، مج2، ص2013.

5- ابن خضر الشاطبي: هو أبو العباس أحمد بن محمد بن حسن بن محمد الصدفي، له معرفة بالقراءات متقنا ضابطا، له تآليف في ذلك، أخذ عنه الغبريني، توفي سنة 674هـ- 1249م. الغبريني: المصدر السابق، ص43.

6- ابن زاهر البلنسي: أبو عثمان سعيد بن علي بن محمد بن عبد الرحمن الأنصاري، الشيخ الفقيه المقرئ، استوطن بجاية وأقرأ بها، توفي سنة 654هـ- 1256م. الغبريني: المصدر نفسه، ص137.

7- ابن سيد الناس اليعمري : هو أبو بكر محمد بن أحمد بن عبد الله بن محمد بن يحي بن محمد بن محمد الإشبيلي، أصله من أبَّدة عمل جيان وهي وما والاها دار اليعمريين، كان راوية حافظا للحديث عارفا برجاله، وُلي الصلاة والخطبة بالجامع الأعظم ببجاية فكُثُر الآخذون عنه والسامعون منه والمقتدون به. الغبريني: المصدر نفسه، ص137/ الذهبي: تذكرة الحفاظ، ج4، ص1450/ العبر، ج3، ص296/ ابن القنفذ: شرف الطالب، ص221/ اليافعي اليمني: مرآة الجنان، ج4، ص115/ التنبكتي: كفاية المحتاج، ج2، ص25/ محمد بن محمد مخلوف: المرجع السابق، ص194.

8- أبو القاسم بن فيرة: أبو محمد قاسم بن فيرة بن أبي القاسم خلف الرعيني الشاطبي الضرير الإمام المتفنن، العالم بكتاب الله عز وجل قراءةً وتفسيرًا وبحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، يُصَحَّح عليه البخاري ومسلم والموطأ من حفظه، نظَّم القصيدة المسماة بحرز الأماني ووجه التهاني في القراءات أبدع فيها كل الإبداع وهي تشتمل على 1172 بيًتا وهي عمدة القراء في زمنه وبعده، توفي بمصر سنة 590هـ وقبره بالقرافة. ابن فرحون: المصدر السابق، ص323/ الذهبي: تذكرة الحفاظ، ج4، ص1356/ اليافعي اليمني: مرآة الجنان، ج3، ص353/ العبدري: رحلة العبدري، ص85/ السيوطي: تاريخ الخلفاء، ص323/ محمد بن محمد مخلوف: المرجع نفسه، ص159.

9- يحي بن خلدون: المصدر السابق، ج1، ص129.

*** العلوم العقلية:**

الطب والمنطق: يبدو أنَّ هذا العلم كان أقل اهتماما وأقل انتشارا وهو ما لاحظه الغبريني حيث يقول: " وهذه الصناعة هي أشدُّ الصنائع ضياعا في بلادنا، لأنه يتعرضها الغث والسمين ولا يقع بينهما التمييز إلا عند القليل من الناس "[1]، وقد لاحظَ ذلك ابن سعيد العقباني وروى حادثة تُبرزُ ضعف صناعة الطب فقال: " سمعتُ أنَّ بعضهم ركَّب دواءً لرجل ثم سأله بعد ذلك عن فِعله فلما أخبره ذلك الرجل وثب مسرورا وقال: ما كنتُ أظنُّ أنّه يفعل ذلك الفعل وكان هذا الطبيب المستخفي قد جرَّبه في هذا المسكين"[2]. كما يبدو أنَّ الطب على قلته كان موجودا في الحواضر فقط إذ اختصَّ به الولاة من الموحدين أو سلاطين بني عبد الواد في تلمسان، أما البوادي فكان شبه منعدم لعدم حاجة الناس إليه[3].

ومن الأندلسيين الذين اهتموا بهذا العلم ابن أندراس[4] الذي تبسَّط للطب طبيبا وباحثا ومقرِئا له، قرأ عليه الغبريني أرجوزة ابن سينا وكليات القانون، له رجز نظَّم فيه بعض الأدوية أكمله ببجاية. ومنهم أيضا أحمد بن خالد المالقي[5].

* **الفنون والآداب:** إنَّ الازدهار الحضاري الذي بلغته الأندلس قد انعكست آثاره على الحياة الاجتماعية فانتشرت مظاهر اللهو والترفيه من غناء وموسيقى[6] والتي أصبحت تُزيِّن المجالس والمناسبات، يصوِّر العذري ما وصلت إليه بعض مدن الأندلس فيقول: " وإنّما يتفاخر أهلها بكثرة الأغاني، يقولون: عند فلان عودان وثلاثة وأربعة وأكثر من ذلك "[7] ولا شكَّ أنَّ جانبا من مظاهر الحياة هذه قد انتشر في حواضر بلاد المغرب عموما[8] نتيجة

1- الغبريني: المصدر السابق، ص38/ روبار برانشفيك: المرجع السابق، ج2، ص387.

2- تحفة الناظر، ص83.

3- ابن خلدون: المقدمة، ص328.

4- ابن أندراس: أبو القاسم محمد بن أحمد بن محمد الأموي من أهل مرسية، ورد على بجاية في عشر الستين وستمائة، تولى الطب لولاة بجاية، توفي بتونس سنة 674هـ- 1275م. الغبريني: المصدر السابق، ص37/ روبار برانشفيك: المرجع السابق، ج2، ص389.

5- أحمد بن خالد المالقي: هو أبو العباس أحمد بن خالد، كانت له مشاركة في الطب والحكمة والطبيعيات، قرأ عليه الغبريني وغيره بعض كتب المنطق كالإشارات والتنبيهات لابن سينا، توفي في عشر الستين. الغبريني: المصدر نفسه، ص36- 37.

6- عبد الحليم عويس: التكاثر المادي وأثره في سقوط الأندلس، دار الصحوة للنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 1414هـ- 1994م، ص19/ روبار برانشفيك: المرجع نفسه، ج2، ص433.

7- ترصيع الأخبار وتنويع الآثار والبستان في غرائب البلدان والمسالك إلى جميع الممالك، تحقيق عبد العزيز الأهواني، منشورات معهد الدراسات الإسلامية في مدريد، دت، ص18/ المقري: نفح الطيب، مج2، ص10.

8- ابن خلدون: المقدمة، ص339.

التواصل والهجرة، ويمكن إرجاع ذلك إلى العهد الحمادي الذي عرف تواجدا للأندلسيين[1] حيث مثّل المغرب الأوسط بالنسبة لهم ملجأ مناسبا، فالمغرب الأقصى كان تابعا للمرابطين وبنو زيري في إفريقية منهمكين في مشاكلهم مع العرب وضد خطر الغزو النورماندي، ثم شاعت تلك المظاهر بعد أن اشتدت هجرتهم خلال القرنين السابع والثامن حتى أصبحت بجاية وتلمسان تشبهان إشبيلية في شغفهما بالموسيقى والطرب[2].

تبدو مظاهر التأثير الفني الموسيقي للأندلسيين في المدن التي استقروا بها واضحة ومنها بجاية التي يقول عنها الحسن الوزان: " والبجائيون أناس طيبون ميالون إلى المرح والموسيقى والرقص، لاسيما منهم الأمراء "[3] ونفس الأمر ينطبق على أهل مدينة دلس وهي من المدن الساحلية التي استوطنها المهاجرون الأندلسيون منذ أن نزلها أواخر القرن الخامس معز الدولة بن صمادح[4] صاحب ألمرية، والذين يصفهم الحسن الوزان دائما بقوله: " وهؤلاء السكان ذوو بشاشة ومرح، يحسنون تقريبا كلهم العزف على العود والقيثار "[5].

انتشرت الموسيقى الأندلسية وكثير من مظاهر اللهو حيث لم يتمكن الفقهاء فيما يبدو من القضاء عليها تماما والتي أدت إلى الانحلال الخلقي وهو ما لاحظه ابن تومرت عند مروره ببجاية، ولما تولى عبد المؤمن الخلافة بعث سنة 556هـ- 1160م رسالة إلى أهل بجاية من إنشاء الكاتب ابن عطية، وهي المعروفة برسالة الفصول ومما تضمنته محاربة فنون الملاهي وآلاتها وما يتبعها من المناكر[6].

أصبح الغناء والموسيقى الأندلسية تراثا مكتوبا ومحفوظا، تجلى في استعمال النوبة وتداوُل نصوصها التوشيحية والزجلية فانتشر فن المالوف الإشبيلي شرق المغرب الأوسط

1- يقول مبارك الميلي في ذلك: " وكانت موسيقى الجزائر الحمادية متأثرة بالموسيقى الإفريقية والأندلسية "، المرجع السابق، ج2، ص260.

2- محمد رزوق: دراسات في تاريخ المغرب، ص44/ ش.أ. جوليان: المرجع السابق، ج2، ص125/ روبار برانشفيك: المرجع السابق، ج2، ص433.

3- وصف إفريقيا، ج2، ص51.

4- التحق ابن صمادح بالمغرب الأوسط فارا من المرابطين بعد أن استولوا على مدينته سنة 484هـ، فأقطعه المنصور بن الناصر بن علناس بلدة دلس. عبد الله بن بلكين: المصدر السابق، ص202- 203/ ابن خلدون: المصدر السابق، مج2، ص1879/ ابن الأبار: المصدر السابق، ص222- 223/ ابن الخطيب: المصدر السابق، ق2، ص192/ المقري: نفح الطيب، مج4، ص329

5- وصف إفريقيا، ج2، ص42/ مارمول كربخال: المصدر السابق، ج2، ص372.

6- ليفي بروفنسال: مجموعة رسائل موحدية من إنشاء كتاب الدولة المؤمنية، ص132/ أحمد عزاوي: رسائل موحدية، ج1، ص543/ حسن علي حسن: الحضارة الإسلامية في المغرب والأندلس، ج3، ص431.

وبخاصة في مدينة قسنطينة[1] والذي لا يزال متداول فيها حتى الآن. وفي الأخير يمكن القول أنَّ الفن الموسيقي والغنائي للمغرب الأوسط هو مزيج من طبوع محلية وأندلسية وحتى مشرقية وسودانية، ويبدو أنَّ هذا كان في الحواضر، فيما حافظت البوادي والأرياف على طابعها البدوي الذي قد يكون أكثر تهذيبا.

الموشح: لا يمكن للغناء أن يُؤدى بدون موسيقى وكلمات ولذلك يرتبط الغناء بفن الموشحات، وكلمة الموشَّح هي المعنى العام للتزيين سواء كان ذلك وشاحا أو قلادة مرصَّعة أم غير ذلك، أما اصطلاحا فهو كلام منظوم على وزن مخصوص، أو هو فن شعري فصيح تكون فيه القوافي اثنتين اثنتين[2]، يقول ابن خلدون عن هذا الفن: " استحدثه المتأخرون بالأندلس وسَمَّوه بالموشح، ينظمونه أسماطا أسماطا وأغصانا أغصانا، وكان المخترع له مقدم بن معافى القبري من شعراء الأمير عبد الله بن محمد المرواني "[3] وذلك أواخر القرن الثالث الهجري/ مطلع القرن العاشر ميلادي.

بعد أن مرَّ هذا الفن بفترة فراغ، عاد بقوة على يد بعض الشعراء كمحمد بن عبادة القزاز[4] شاعر المعتصم بن صمادح صاحب ألمرية وذلك في القرن الخامس الهجري ، ثم ابن رافع شاعر المأمون بن ذي النون صاحب طليطلة[5]، الذي نظَّم موشحات مشهورة كان يُغنَّى بها في بلاد المغرب، ومنهم كذلك الأعمى الطليطلي (ت534هـ- 1140م)[6] ويحي بن بقي[7] وغيرهم.

الزجل: إضافة إلى الموشَّح استحدث الأندلسيون فنا آخَرَ سموه بالزجل وهو شعر يُصاغ في فقرات تسمى أبياتا، تبدأ مقطوعته ببيت يُعرف بالمركز أو السمط، تليه أغصان ذات قافية

1- عباس الجراري: **" أهمية الموسيقى والغناء في حضارة الأندلس "** منشور ضمن كتاب التراث الحضاري المشترك بين إسبانيا والمغرب، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية، الرباط، 1412هـ- 1992م، صص141- 154، ص149.

2- محمد زكريا عناني: الموشحات الأندلسية، عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 1998م، ص17، 21/ آنجل جنثالث بالنثيا: المرجع السابق، ص143. توفي ابن معافى القبري سنة 299هـ- 912م.

3- المقدمة، ص509/ المقري: أزهار الرياض، ج2، ص208/ نفح الطيب، مج4، ص134/ مج9، ص230/ مونتغمري وات: المرجع السابق، ص132.

4- ابن بسام: الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ج1، ص608/ ابن سعيد المغربي: المغرب في حلى المغرب، ج2، ص134.

5- ابن بسام: نفسه، ج2، ص18/ ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ق2، ص190.

6- ابن بسام: نفسه، ج2، ص547/ ابن سعيد: نفسه، ج1، ص289/ ابن خلدون: المقدمة، ص510/ آنجل جنثالث بالنثيا: المرجع نفسه، ص157.

7- ابن بسام: نفسه، ج2، ص459/ ابن سعيد: نفسه، ج2، ص19/ ابن خلدون: المقدمة، ص510.

واحدة ووزن واحد، والواقع أنَّ الزجل والموشحة فن شعري واحد، لكن الزجل يُطلق على السوقي الدارج، أما الموشحة فلا تكون إلا في العربي الفصيح[1]، وأول من برع في هذه الطريقة الزجلية أبو بكر بن قزمان (ت555هـ- 1160م)[2].

انتقل فن الموشح والزجل إلى بلاد المغرب عموما سواء في صورته الأدائية (الغناء) أو الإنشائية (التأليف) إما عن طريق المهاجرين أنفسهم أو عن طريق الرسائل وما يُنشأ في ذلك الفن، وفي هذا المقام يُذكر أنَّ أحد الفقهاء يدعى أبو بكر نَظَمَ موشحة في الأمير أبي سعيد بن يغمراسن بن زيان، قال في قسم منها:

وَجَلَّ في بُنيان فَخاره الصَّرْفُ على الحَديدِ

فَقالَت العُلْيَا: لا أرتَضِي ثَاني منهُ بَديلَ

فأنكر عليه أحد أصحابه قوله: على الحديد، وسأله تبديله فبدَّله بقوله: وَشَادَ مِنْ بُنيان فَخَارِهِ الصَّرفُ على مَشِيدِ. فكتب أبو بكر ابن خطاب المرسي للذي سأل تبديله[3].

وممن عُرف من الموشحين أو بالتأليف فيه بالمغرب الأوسط على العهد الموحدي، أبو الطاهر عمارة بن يحي الحسني، الذي ضُربت بتواشيحه المثل فيقول أحدهم لآخَر عند الشطط: "وأغني لك موشحا لعمارة"[4]، ومنهم كذلك علي بن المؤذن التلمساني[5] وابن الخرز البجائي[6] وابن الفكون[7]، الذي يقول عنه الغبريني: " من الأدباء الذين تستظرف أخبارهم وتروق أشعارهم ... وتواشيحه مستحسنة"[8]، ومن غير المستبعد أن تكون تواشيحه قد أديت

1- ابن خلدون: المقدمة، ص518/ آنجل جنثالث بالنثيا: المرجع السابق، ص143.

2- ابن بسام: المصدر السابق، ج2، ص583/ ابن سعيد: المصدر السابق، ج1، ص99، ص167/ ابن الخطيب: تحفة القادم، ص56/ المقري: نفح الطيب، مج5، ص172/ أزهار الرياض، ج2، ص216/ آنجل جنثالث بالنثيا: المرجع نفسه، ص158.

3- ابن خطاب المرسي: المصدر السابق، ص183.

4- الغبريني: المصدر السابق، ص21.

5- ابن خلدون: المصدر نفسه، ص525/ المقري: نفح الطيب، مج9، ص241/ أزهار الرياض، ج2، ص222. ورد في كتاب فصل الخطاب أنَّ ابن خطاب المرسي كتب رسالة مؤرخة في 10 محرم 677هـ- 1278م عن علي بن يحي المؤذن إلى الشيخ أبي القاسم بن الشيخ يطلب منه الإعانة بالمال للجامع الأعظم. ر85، ص180- 181.

6- المقري: نفح الطيب، مج9، ص237/ أزهار الرياض، ج2، ص213/ ابن خلدون: المقدمة، ص514.

7- ابن الفكون: أبو علي حسن بن علي بن عمر القسنطيني، شاعر المغرب الأوسط في وقته، له في ولاة بني عبد المؤمن ببجاية مدائح، كان حيا سنة 602هـ- 1205م. ابن القاضي: المصدر السابق، ص122/ الحفناوي: المرجع السابق، ج2، ص123/ عادل نويهض: المرجع السابق، ص253.

8- عنوان الدراية، ص160.

كأغاني، لاسيما وأنَّ المالوف قد شاع في قسنطينة كما أشرنا أعلاه، ومنهم كذلك أبو عبد الله محمد الأريسي[1] الذي كان مليح التواشيح.

* **فن الكتابة:** اعتمد جل الخلفاء الموحدين تقريبا على كتاب بربر وعرب من بلاد المغرب أو من الأندلس كأبي جعفر أحمد بن عطية وابن عياش القالمي وغيرهم، ويظهر أنَّ الموحدين والكُتّاب أنفسهم لم يولوا اهتماما للجانب الأدبي في رسائلهم فطغى عليها االطابع السياسي الدعائي[2]، إلا أنَّ ازدهار هذا الفن الأدبي قد تمَّ على يد كبار الأدباء الأندلسيين الوافدين إلى العدوة خلال القرن السابع الهجري وهي فترة قيام الدول المستقلة و الذين أثْرَوا الساحة الأدبية من خلال الرسائل والقطع النثرية والشعرية التي كانوا يُنشئونها سواء في المراسلات السلطانية الرسمية أو الرسائل الإخوانية أو العلمية، وسنركّز هنا على شخصيتين أحدثتا ثورة في هذا المجال ببلاد المغرب عموما والمغرب الأوسط بصفة خاصة، يتمَّثل الأول في ابن خطاب المرسي[3] نزيل تلمسان وكاتب يغمراسن بن زيان ثم ابنه أبي سعيد، الذي أصبح قدوة للكتاب في بلاد المغرب بسبب جزالة عباراته وقوة أسلوبه وبلاغته، فكانوا يُحاكون ديباجته وينسجون على منواله في رسائلهم، وقد نقل التنسي عن ابن رشيد أبو عبد الله محمد بن عمر (ت721هـ- 1321م) صاحب كتاب الرحلة "ملء العَيبة بما جُمِع بطول الغَيبة في الوجهة الوجيهة إلى الحرمين مكة وطيبة"، قوله في ابن خطاب: " وبوفاته انقرض علم الكتابة "[4].

أما الثاني فهو أحمد بن عبد الله بن عميرة المخزومي (ت656هـ- 1258م) تاج الأدباء وإمام الكتابة، فهو علَمُها المشهور وواحدها الذي عجزت عن ثانيه الدهور، ولاسيما في مخاطبة الإخوان[5]، استوطن بجاية ومكث بها مدة وأثّر في أهلها بأدبه فكان الناس يتداولون كتبه ويستحسنونها ويؤثرونها على كتب غيره، حتى قال الغبريني في حقه: "وما رأيتُ من الكتاب ما أعجبني مثل الكتب الفقيه أبي المطرف إلا كتب أبي جعفر بن عطية والكُتّاب

1- الغبريني: المصدر السابق، ص163/ الحفناوي: المرجع السابق، ج2، ص345/ عادل نويهض: المرجع السابق، ص15.

2- عن هذا الموضوع يُمكن العودة إلى كتاب عز الدين عمر موسى: الموحدون في العرب الإسلامي تنظيماتهم ونظمهم، صص160- 165/ رسائل موحدية، مقدمة المحقق، ج1، صص36- 40/ الرسائل17، 18، 19 مثلا.

3- ابن خطاب المرسي: أبو بكر محمد بن عبد الله بن داود الغافقي، كان من أبرع الكتاب خطا وأدبا وشعرا ومعرفة بأصول الفقه، كتب بغرناطة عن ملوكها ثم قفل إلى مرسية وقد اختلّت أمورها فارتحل إلى تلمسان، وتوفي بها سنة 686هـ- 1287م، وليس سنة 636هـ أو 680هـ كما تذكر بعض المصادر. يحي بن خلدون: المرجع السابق، ج1، ص129/ ابن الخطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة، ج2، ص426/ ابن مريم: المصدر السابق، ص397.

4- تاريخ بني زيان ملوك تلمسان، ص128.

5- ابن الخطيب: المصدر نفسه، ج1، ص174.

كثير وكُتّب هذين الرجلين عندي مقدَّم على غيرهما "[1]، ومما كتبه أيضا لبعض إخوانه بعد أن أعلمه بسقوط مدينة بلنسية سنة 636هـ- 1238م: " بالله أيَّ نحو ننحُو، أو مسطور نُثبِّت أو نمحو، وقد حُذِف الأصل والزائد، وذهبت الصِّلَةُ والعائد، وباب التعجُّب طال، وحال اليأس لا تخشى الانتقال، وذهبت علامة الرفع وفُقدت نون الجمع، والمعتل أعدى الصحيح والمثلَّث أردى الفصيح، وامتنعت الجموع من الصرف وأمنت زيادتها من الحذف، ومالت قواعد المِلَّةوصِرنا جمع القِلَّة، وظهرت علامة الخفض وجاء بدلُ الكلِّ من البعضِ "[2].

ومن الكُتّاب الذين كان لهم باع كذلك في هذا الفن الأدبي نذكر أبو محمد عبد الحق بن ربيع (ت675هـ- 1276م) أصله من أبَّذة[3]، برع في الخط المشرقي والمغربي وفي الكتابتان الشرعية والأدبية، نقل الغبريني عن أبي المطرَّف بن عميرة قوله فيه: " أما الكتابة الأدبية فنحن فيها وإياه على نسق وأما الشرعية فقد انفرد بها عن الناس "[4].

ومن الفنون الأدبية التي يظهر أنها انتقلت مع المهاجرين الأندلسيين، شعر المراثي[5] الذي يصوِّر حياة اللجوء، ويندب حال الأندلس بعد سقوط مدنها في يد النصارى، وقد أشرنا أعلاه إلى قطعة أبي المطرَّف النثرية، ولعلَّ الحوار الذي دار بين ابن اللبَّانة الشاعر[6] ومعز الدولة ابن صمادح ما يُبين ذلك. قال ابن اللبانة: " ما علمتُ جَور الدَّهر حتى اجتمعتُ ببجاية مع عز الدولة بن المعتصم بن صمادح ... ولقد ذكرتُهُ لأحد من صحبته من الأدباء ... فتشوَّق إلى الاجتماع به، فلما أعلمتُ عز الدولة قال: لا يجمل بنا الاجتماع مع أحد، لاسيما مع ذي أدب ونباهة يلقانا بعين الرحمة ... ونُكابد من ألفاظ توجِّعه وألحاظ تفجِّعه ما يُجدِّد لنا همًّا قد بلى، ويُحيي كمدًا قد فَنيَ "[7].

1- عنوان الدراية، ص141.

2- ابن الخطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة، ج1، ص176- 177.

3- أبدة: مدينة بالأندلس، وهي على سبعة أميال من جهة الشرق عن بياسة، وهي مدينة صغيرة وعلى مقربة من النهر الكبير ولها مزارع وغلات من القمح والشعير، ملكها النصارى بعد كائنة العقاب. الإدريسي: المصدر السابق، مج2، ص569/ الحميري: المصدر السابق، ص6.

4- عنوان الدراية، ص27- 28.

5- محمد سعيد الدغلي: الحياة الاجتماعية في الأندلس وأثرها في الأدب العربي والأدب الأندلسي، منشورات دار أسامة، ط1، 1404هـ- 1984م، ص87- 88.

6- ابن اللبَّانة: أبو بكر محمد بن عيسى بن محمد اللخمي الداني، أديب وشاعر، عارف بالأخبار، كان ملازما للمعتمد ابن عباد وفيه أجود مدائحه ومراثيه، ألَّف كتابين في أخبار بني عباد: " السلوك في وعظ الملوك " و " الاعتماد في أخبار بني عباد " توفي بميورقة سنة 507هـ- 1113م. عبد الواحد المراكشي: المصدر السابق، ها 1، ص208- 209، 211- 212، 219.

7- المقري: نفح الطيب، مج4، ص329.

ومن صوَّر الآداب والأخلاق التي طبعت الأندلسيين[1] ونقلوها إلى المغرب الأوسط والتي تبرز مدى تحضُّرهم ما حكاه ابن قنفذ من أنَّ وفدا من بجاية يترأسه الفقيه أبو العباس الغبريني زار الأمير أبا زكريا بعد برئه للهناء، وكان وفد قسنطينة برئاسة الفقيه أبي محمد عبد الله بن الديم، ولما تمَّت الزيارة قال الغبريني للفقيه ابن الديم: " أرأيتَ أدب أهل بلدنا معي، وأنت لا وقار لك مع أهل بلدك " فقال له القاضي ابن الديم: " إنَّ فقهاءكم مُحدَثون ببلدكم وهؤلاء كل بيت ترى أنها أرفع من الأخرى بأصالتهم في بلدهم وقِدَم نعمتهم"[2]. فهذا النص يُبين وجود جالية أندلسية معتبرة بمدينة بجاية، والأدب الذي تحَلوا به، والأكيد أنه انتشر في أوساط المجتمع البجائي وجميع المدن التي حلوا بها.

ورغم ما عاناه الأندلسيون من آلام الغربة ووحشة الديار، فإنهم حاولوا التأقلم والتصبُّر في وطنهم الجديد، منها قول ابن خطاب المرسي في القناعة والصبر:

أقنَعْ بما أُوتيتَهُ تَنَلْ الغِنا   وإذَا دهَتْكَ ملمَّةٌ فتصَبَّر[3].

ساهم الأندلسيون بفضل شعرائهم وأدبائهم المصقعين من تطوير الأدب شعرا ونثرا بحكم توليهم مهمة التعليم والتدريس والخطابة والكتابة، إضافة إلى مؤلفاتهم التي انتشرت وتناولها الطلبة وغيرهم، ولذلك يمكن القول أنَّ التأثيرات الأدبية والفنية لم تأتِ من المشرق وإنما أتت من الأندلس الذي أصبحت بلاد المغرب امتدادًا له، مَثّلت فيه الهجرة وأدبها أحد مظاهر وعوامل التأثير.

2- الآثار والنتائج العمرانية: تعرَّضت بعض مدن المغرب الأوسط خلال مرحلة الانتقال من الحكم المرابطي إلى الحكم الموحدي للتخريب والهجران نتيجة الأعمال العسكرية وحملات التهجير والإبادة التي اتّبعها الموحدون، والحقيقة أنَّ ذلك كان أحد أساليب الحروب في العصر الوسيط بشكل عام.

ومن المدن التي طالتها عملية التخريب وهجرها سكانها في هذه الفترة مدينتي تلمسان ووهران، كما تعرَّضت قلعة بني حماد لنفس المصير حيث أُحرقت دورها بالنار بعد أن قُتلَ من أهلها ثمانية عشر ألفا[4]. وبعد أن استوثق الأمر للموحدين حاولوا إعادة إعمار بعض المدن التي أصبحت كمراكز إدارية وبخاصة تلمسان[5]، لكن أحداث التخريب عادت مرة

1- المقري: المصدر السابق، مج4، ص134.

2- الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية، ص148- 149.

3- ابن الخطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة، ج2، ص428.

4- ابن خلدون: المصدر السابق، مج2، ص1913، 1917/ ابن عذاري: المصدر السابق، ق. الموحدين، ص21- 22.

5- ابن خلدون: المصدر السابق، مج2، ص2113.

أخرى مع ثورة بني غانية لتمس مدن المغرب الأوسط مثل تاهرت وتلمسان وواركلا وسدراتة وقد أشرنا إلى ذلك في أسباب الهجرة ضمن الفصل الأول.

حاول الموحدون إصلاح ما أفسده أولئك الثوار فيذكر المراكشي أنَّ محمد الناصر أنفق في ذلك مائة وعشرين حملا ذهبا[1]، وإذا كان ذلك ردة فعل طبيعية صادرة من سلطة تريد الظهور بمظهر القوة والعظمة أي أنَّ هدفها سياسي أكثر منه اجتماعي وهو إعادة بناء تلك المدن التي تمثّل قواعد الدولة. ومهما يكن فإنَّ هذه الأعمال الإصلاحية ساهمت إلى حد ما في الحركة العمرانية بالمغرب الأوسط.

إنَّ أثر الأندلسيين في الجانب العمراني سيظهر بوضوح في العهد الزياني، سواء من حيث حجم المدينة التي توسَّعت بازدياد عدد المباني بسبب ارتفاع عدد السكان، فقد بلغ سكان مدينة تلمسان مثلا مع مطلع القرن الثامن الهجري أكثر من مائة ألف وعشرين ألف نسمة[2]، أو من حيث دورهم المعماري في البناء والتشييد والطابع الأندلسي الذي أدخلوه معهم حيث اشتهر هؤلاء باستعمال الزخارف والمجصصات والتفنن في تشكيلها وتخريمها والتي برز استعمالها بصفة خاصة في المساجد ومنها مسجد أبي الحسن (696هـ- 1296م) ومسجد العباد (739هـ- 1338م) بتلمسان[3]، ومما زاد في التطوُّر العمراني مع قدوم الأندلسيين، رغبة السلاطين في الاستفادة من خبرتهم ومعرفتهم بهندسة البناء ولاسيما في تزيين القصور التي أصبح أثرهم فيها واضحا سواء في مدينة بجاية أو تلمسان.

يُمكن إرجاع النهضة العمرانية التي شهدتها مدينة تلمسان إلى عهد السلطان أبي حمو الأول ثم ابنه أبي تاشفين عبد الرحمن الذي كان مولعا بتحبير الدور وتشييد القصور، فخلَّد أثارا لم تكن قبله لملك، ورغم أنَّ كلاّ من يحي بن خلدون والتنسي يتفقان على أنّه استعان في ذلك بأسرى الروم[4]، في حين يذكر ابن خلدون أنَّ ذلك تمَّ بأيدي صنَّاع وفَعَلَة أندلسيين بعثهم أبن نصر[5] صاحب الأندلس، ويمكن تفسير ذلك بأنّ الروم مَثّلوا اليد العاملة بينما عادت هندسته للأندلسيين فاستجادوا لهم القصور والمنازل والبساتين بما أعيا على الناس

1- المعجب، ص398.

2- يحي بن خلدون: المصدر السابق، ج1، ص211/ الحسن الوزان: المصدر السابق، ج2، ص17/ جورج مارسيي: المرجع السابق، ص338.

3- ناصر الدين سعيدوني: مظاهر التأثير الإيبيري والوجود الأندلسي بالجزائر، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 2003م، ص36.

4- يحي بن خلدون: نفسه، ج1، ص216/ التنسي: المصدر السابق، ص140/ ابن الخطيب: رقم الحلل ، ص73.

5-ابن نصر: أبو الوليد إسماعيل بن فرج بن إسماعيل بن يوسف، تملَّك الأندلس سنة 713هـ/ 1313م بعد حروب ضد أبي الجيوش نصر، كانت عليه هزيمة وادي فرتونة سنة 716هـ- 1316م، ثم انتصر على النصارى سنة 719هـ، قتله ابن عمه محمد بن إسماعيل في قصره سنة 725هـ/ 1325م. ابن الخطيب: الإحاطة، ج1، ص377/ أعمال الأعلام، ق2، ص294.

بعدهم أن يأتوا بمثله[1]، لاسيما وأنَّ العلاقات كانت جيدة بين أبي حمو وأبي الوليد تبادلا فيها المراسلات والهدايا[2]. ومما يؤكد دور الأندلسيين هو تزيين القصور والمنتزهات[3] بالبساتين والزهور وهي من مظاهر الحياة التي كانت معروفة هناك.

ومن مظاهر التأثير المعماري الأندلسي أيضا الإضافات التي أُدخِلت على المسجد الأعظم بتلمسان في عهد يغمراسن حيث تمَّ توسعت بيت الصلاة من الناحية الشمالية لاستيعاب جموع المصلين وأُضيفت له القبة والصحن والمئذنة ما يُشبه مسجد قرطبة بالأندلس[4]، كما يبدو التأثير في أخذ بعض المساجد أسماء شخصيات أندلسية مهاجرة مثل مسجد سيدي الحلوي[5] الذي شيَّده أبو عنان سنة 754هـ- 1353م عند احتلاله تلمسان، وألحق به زاوية[6] ومدرسة، كما سُمِّيت بعض الدروب بمن سكنها من الأندلسيين[7] ولعلهم الذين أصدر فيهم ابن خطاب ظهيرا على لسان يغمراسن عندما استقبلهم بتلمسان، ونفس التأثير يكون قد مسَّ مدينة بجاية بحكم وجود جالية أندلسية كبيرة.

3- **الآثار والنتائج الاقتصادية:** قال ابن خلدون: " وأما أهل الأندلس فافترقوا في الأقطار عند تلاشي ملك العرب بها ومن خَلَفهم من البربر ... فانتشروا في عدوة المغرب وإفريقية ... وشاركوا أهل العمران بما لديهم من الصنائع "[8]. يتضح من خلال هذا النص أنَّ الأندلسيين شاركوا بفعالية في تنشيط الحياة الاقتصادية لما عُرفوا به من الجد وحب العمل، حتى أنّهم كانوا متى دخلوا في شغل عملوه في أقرب مدة، وأفرغوا فيه من أنواع الحذق والتجويد ما يُميلون به النفوس إليهم[9]، ولذلك كان التَّسوُّل عندهم من الأمور المشينة، يقول المقري: " وأما طريقة الفقراء على مذهب أهل الشرق في الدَّرْوَزَة[10] التي تُكسِلُ عن الكدِّ وتخرج الوجوه للطلب في الأسواق فمستقبحة عندهم إلى النهاية، وإذا رأوا شخصًا صحيحًا

1- تاريخ ابن خلدون، مج2، ص2161.

2- ابن الخطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة، ج1، ص382.

3- ابن الخطيب: رقم الحلل في نظم الدول، ص73/ يحي بن خلدون: المصدر السابق، ج1، ص215/ التنسي: المصدر السابق، ص140- 141.

4- الحسن الوزان: المصدر السابق، ج2، ص19/ عبد العزيز فيلالي: المرجع السابق، ص146.

5- عبد العزيز فيلالي: المرجع السابق، ص144، 148/ الحاج بن رمضان شاوش: المرجع السابق، ج2، ص66/ تاريخ إفريقيا العام، مج4، ص123.

6- ابن مريم: المصدر السابق، ص270.

7- نفسه، ص267.

8- المقدمة، ص331- 332.

9- المقري: نفح الطيب، مج4، ص135.

10- نفسه، مج1، ها6، ص210.

قادرًا على الخدمة يَطْلُبُ سَبُّوه وأهانوه، فضلا عن أن يتصدَّقوا عليه، فلا تجد بالأندلس سائلا إلاّ أن يكون صاحب عذر "[1].

من المؤكَّد أنَّ الأندلسيين قد جلبوا معهم مختلف الحرف وأساليب ممارستها والتي قد تكون غير معروفة لدى أهل المغرب الأوسط أو مُورست بطريقة بسيطة، ولذلك سيكون من المهم الاحتكاك بهم وأخذ تلك الأساليب عنهم، وفي ذلك يقول المقري: "وعلّموهم أشياء لم يكونوا يعلمونها ولا رأوها"[2].

أ- الصناعة: لاشكَّ أنَّ ما بلغه المغرب الأوسط من تطوُّر عمراني وسكاني ولاسيما في العهد الزياني قد انعكس على النشاط الصناعي لحاجة الناس إلى الضروريات والكماليات، إذ على مقدار عمران البلد يكون انتشار الصناعة وجودتها كما يقول ابن خلدون[3]، ولذلك أُقيمت دور الصناعة وبخاصة في الحواضر والتي لم تقتصر فيما يبدو على الأندلسيين المسلمين فقط، بل شملت أجناسا مختلفة من روم ويهود. يصف يحي بن خلدون الحركة الدؤوبة للنشاط الصناعي في تلمسان بأنَّ دار الصنعة كانت تموج بالفعلة على اختلاف أصنافهم وتباين لغاتهم وأديانهم، فمن دراق ورماح ودراع ولجام ووشاء وسراج وخباء ونجار وحداد[4] وصائغ ودباج وغير ذلك، فتستكُّ لأصواتهم وآلاتهم الأسماع وتحار في إحكام صنائعهم الأذهان[5]، وكيف لنا أن نتصوَّر إذن حجم دار الصنعة هذه وكمية ما تنتجه من سلع. وقد تميَّزت مصنوعات الأندلسيين بالجودة ففاقوا بها أهل البلد حتى أنهم أقطعوا معاشهم وأخملوا أعمالهم وصيَّروهم أتباعا لهم[6].

تعدُّ صناعة السفن من الصناعات التي كان للأندلسيين لهم فيها باع، ولذلك اعتمد عليهم المرابطون ثم الموحدون بعدهم، وقد اشتهر أفراد أسرة بني ميمون كقادة للأسطول في العهدين المذكورين[7] حيث زاد اهتمام الأمراء والخلفاء بهذه الصناعة لحماية السواحل من الاعتداءات الصليبية التي ظلت تُهدِّد سواحل العدوتين، فأنشئوا دورا لذلك بكل من مراسي

1- المقري: نفح الطيب، مج1، ص210- 211.

2- نفسه، مج4، ص135.

3- المقدمة، ص315.

4- ذكر الحسن الوزان وجود عدة مناجم للحديد بمدينة تَفِسْرة على بعد نحو خمسة عشر ميلا. وصف إفريقيا، ج2، ص24. تكون هذه المناجم قد استغلت في هذا الغرض.

5- بغية الرواد، ج2، ص323.

6- المقري: نفح الطيب، مج4، ص135.

7- ابن خلدون: المصدر السابق، مج2، ص1887/ أحمد مختار العبادي: في تاريخ المغرب والأندلس، ص329/ عز الدين عمر موسى: الموحدون في الغرب الإسلامي، ص265.

وهران وهنين وغيرهما[1] والتي أنتجت سنة 557هـ- 1162م مائة قطعة، ولاشك أنهم استعانوا في ذلك بصناع أندلسيين، وقد تمكّن هذا الأسطول في العهد الموحدي من رد عدوان صليبي قبالة مدينة تنس[2] قَدِمَ من مدينتي طرطوشة وبرشلونة إلا أنَّ معلوماتنا عن هذه الصناعة في العهد الزياني نادرة ويظهر أنهم ورثوا الأسطول الموحدي أو قاموا بإصلاح بعضها.

إذا كانت صناعة النسيج من الحرف العريقة حيث انتشرت ببوادي وحواضر المغرب الأوسط والتي عبَّرت عن بعض الجوانب الاجتماعية من حياة السكان، وقد ساعدهم في ذلك وجود المادة الأولية كالصوف والوبر والشعر التي وفّرتها الثروة الحيوانية بحكم الطابع القبلي الذي يعتمد الرعي كنشاط اقتصادي أساسي. وفي هذا المجال اشتهرت بجاية مثلا بصناعة العمائم التي يصفها صاحب الاستبصار بقوله: " وكانت لملوك صنهاجة عمائم شرب مذهبة يغلون في أثمانها وكانوا يعممونها بأتقن صنعة فتأتي تيجانا، وكان ببلادهم صناع لذلك ... وكانت لهم قوالب من عود في حوانيتهم يسمونها الرؤوس يعممون عليها تلك العمائم "[3]، في حين اختصت تلمسان بإنتاج مجموعة من المصنوعات الصوفية مثل المُحَرَّرات والأبدان والسفاسير والحنابل والأكسية[4]، فإنَّ الأنموذج الأندلسي كان حاضرا بقوة من خلال توافد بعض أهل المدن المعروفة بصناعة النسيج مثل ألمرية التي كان بها ثمانمائة طراز للحرير، يعملون الحلل والديباج المذهب والذي وصلت تجارته إلى أقاصي البلاد[5] ومنها تلمسان بحكم قرب مراسيها إذ يقع مرسى هنين في سمت هذه المدينة، أين أسَّس المهاجرون الأندلسيون بسهل الوريط مجموعة من الورشات ونقلوا إليها صناعة الأطرزة والمنسوجات[6].

1- أحمد مختار العبادي: في تاريخ المغرب والأندلس، ص337/ عز الدين عمر موسى: الموحدون في الغرب الإسلامي تنظيماتهم ونظمهم، ص265 وما بعدها.

2- أحمد عزاوي: رسائل موحدية، ج1، صص83- 86/ ج2، ص50. جرت هذه المعركة حسب الرسالة رقم 10 يوم الجمعة 16 رجب 567هـ إلا أنَّ المحقّق يُشكّك في هذا التاريخ ويجعله بين سنوات 555هـ- و 558هـ. نزل الرحالة ابن بطوطة بميناء تنس حوالي سنة 750هـ- 1349م فرارا من الروم بعد خروجه من جزيرة سردانية. رحلة ابن بطوطة، ص666.

3- الاستبصار، ص129/ يقول مارمول كربخال: " والبجائيون من صناع الأقمشة والفرشات والزرابي على الطراز المغربي والأندلسي. ج2، ص376.

4- الزهري: المصدر السابق، ص113.

5- الإدريسي: المصدر السابق، ج2، ص569/ المقري: المصدر السابق، مج1، ص161، 195/ ابن سعيد المغربي: بسط الأرض، ص74/ أبو الفدا: تقويم البلدان، ص177/ سيد عبد العزيز سالم: تاريخ ألمرية الإسلامية، نشر مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، 1984م، ص155.

6- المقري: المصدر نفسه، مج1، ص195/ عبد العزيز فيلالي: المرجع السابق، ص222.

علاوة على النسيج عُرفت مدينة مالقة الأندلسية بصناعة الفخار والخزف المزجَّج والمذهَّب[1] والذي بلغت شهرته الآفاق، ولاشك أنَّ هذه الصناعة قد انتقلت إلى مدن المغرب الأوسط مثل بجاية التي عُثِر بها على أوانٍ من الخزف المطلي عليها كتابات عربية بارزة وقارورات وبعض الأدوات الزجاجية، وكلها تدل على صناعة خزفية وزجاجية راقية[2] والتي لا يمكن أن تأتي إلا من الأندلس فانتشرت ورشات هذه الصناعة بتلمسان، ومن مظاهر هذا التأثير أنه لا يزال حتى الآن وفي كثير من المناطق (وبخاصة في الغرب الجزائري) يُطلق على الصحن اسم "المالقي".

ب- الزراعة: إذا كان سكان المدن (الحَضَر) قد مارسوا في الغالب الأنشطة الصناعية والحرفية داخل المدن[3] أو في أحوازها، فإنَّ سكان البوادي والأرياف قد اختصُّوا بالنشاط الفلاحي حيث مَارَسَ الأندلسيون المهاجرون ذلك في السهول وحول الأودية مثل الوريط ووادي الصومام[4]، كما عرفوا استنباط المياه وجرها وفق طرق هندسية، وأدخلوا نظام البستنة ولاسيما حول المدن كما أدخلوا أساليب زراعية لم تكن معروفة لدى أهالي المغرب الأوسط فكُثرَت المستغلات وتوسَّعت المساحة الزراعية وعمَّت الخيرات[5]، ويظهر أنَّ المنتوجات الزراعية الأساسية التي كانت معروفة آنذاك: الخضر والفواكه والأشجار المثمرة كالتين والعنب واللوز وحب الملوك (الكَرَز) والخوخ والرمَّان السفري[6] واللوز والجوز[7]، وقد وصف العبدري ذلك كله في تلمسان بقوله: "والدائر بالبلد كله مغروس بالكَرْم وأنواع الثمار"[8] وكل هذه الأصناف كانت معروفة في الأندلس ومن غير المستبعد أن يكون الأندلسيون قد أدخلوا هذه الأصناف وطوَّروا زراعتها وذلك لخبرتهم في تركيب الشجر أي التطعيم وإحكامهم لأسباب الفلاحة، مستفيدين في ذلك من مؤلَّفات المختصين في هذا المجال كابن بصال صاحب كتاب الفلاحة، وأبو زكريا يحي بن العوام، إضافة إلى

1- ابن بطوطة: المصدر السابق، ص679/ ابن الخطيب: معيار الاختيار، ص89/ ابن سعيد المغربي: المغرب في حلى المغرب، ج1، ص424/ المقري: المصدر نفسه، مج1، ص151، 195.

2- محمد مبارك الميلي: المرجع السابق، ج2، ص260.

3- الحسن الوزان: المصدر السابق، ج2، ص19.

4- روبار برانشفيك: المرجع السابق، ج2، ص159.

5- المقري: نفح الطيب، مج4، ص135.

6- السَّفري: نسبة إلى سفر بن عبيد الكلاعي الذي أدخل هذه الفاكهة إلى الأندلس من المشرق في القرن الثاني الهجري في عهد عبد الرحمن بن معاوية الذي نقل إليها غرائب الغروس وأكارم الشجر من كل ناحية حتى فاض على أرجائها. المقري: المصدر نفسه، مج2، ص13.

7- عن المنتجات الزراعية يُمكن العودة إلى يحي بن خلدون: المصدر السابق، ج1، ص86/ ابن الخطيب: معيار الاختيار، ص184/ الحسن الوزان: المصدر السابق، ج2، ص20/ المقري: المصدر نفسه، مج9، ص354.

8- رحلة العبدري، ص48- 49.

المنتجات السابقة انتشرت زراعة الحبوب كالقمح والشعير في السهول، ونظرا لارتفاع إنتاج هذه المادة تمَّ إحداث الأرحي الطاحنة بالماء على الأودية في بجاية[1] وتلمسان[2]. وعلى العموم فأنَّ الفلاحة عرفت نهضة بقدوم الأندلسيين ويظهر أنَّ ذلك لم يكن فقط بسبب ما أدخلوه من أنواع جديدة وإنما للأساليب الأكثر تطوُّرا التي استُخدِمت ويكون قد تعلَّمَها أو نقلها عنهم السكان المحليون.

ج- التجارة: ذكرنا سابقا أنَّ مهاجري الأندلس لم يكونوا من المسلمين عربا أو بربر فقط، بل هاجر معهم اليهود وبعض النصارى (أهل ذمة) وقد صنع هؤلاء مكانة لأنفسهم في المجتمع بفضل ممارستهم لبعض الأنشطة كالصناعة والتجارة.

لا تشير المصادر لممارسة الأندلسيين للتجارة بشكل كبير، وإن مارسوا ذلك فعلى المستوى المحلي أي داخل المدن، ومن هؤلاء شخصا ذكره ابن القنفذ يُسمى أبا القاسم بن الشيخ سعيد وهو من مدينة دانية وفد مع الجالية إلى بجاية واشتغل بتجارة العطارة[3]، لكن هذا النشاط سيطر عليه اليهود وبعض النصارى وبخاصة في بجاية[4] وفي تلمسان، ومن الأكيد أنهم احتكروا التجارة في كل المدن التي توجد بها جاليات لهم كوهران وقسنطينة ويعود ذلك لنفسيتهم المجبولة على حب المال والسيطرة على مصادره ثم لمعرفتهم بإدارة وتسيير النشاط التجاري، وبفضل رؤوس الأموال التي جلبوها معهم[5]، كما لا ننس أنَّ علاقاتهم بأقاربهم وبالأندلس عموما ظلت قائمة ومستمرة وهو ما مكّنهم من نسج علاقات تجارية، ومثّلوا أحيانا الوسيط التجاري بين المغرب الأوسط وأوروبا.

منذ تأسيس الدولة الحمادية واتّخاذ بجاية عاصمة انتقل مركز التجارة إلى المدن الساحلية وبعض المدن الداخلية التي أصبحت كمناطق اتصال بين المغرب الأوسط وأوروبا، في حين فقدت بعض المدن مثل تاهرت ريادتها التجارية بسبب الظروف السياسية وأعمال التخريب التي طالتها أثناء اجتياح ابن غانية لها، بينما ظلَّت الطرق البرية والصحراوية نحو بلاد السودان تحت سيطرة الأهالي في الغالب سواء كانوا من البربر أو العرب، ولكن هذا لا يلغي سيطرة بعض الجاليات كاليهود في الصحراء مثل منطقة توات.

1- مجهول: الاستبصار، ص130.

2- ذكر الوزان وجود عدة أرحية لطحن القمح على وادي الصفصاف شرقي تلمسان بنحو ثلاثة أميال وأخرى قريبا من المدينة في الجنوب. ج2، ص20.

3- ابن القنفذ: الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية، ص147.

4- روبار برانشفيك: المرجع السابق، ج1، ص417.

5- تاريخ إفريقيا العام، مج4، ص118/ روبار برانشفيك: المرجع نفسه، ج1، ص433.

د- النشاط البحري: ونقصد به هنا أساسا ما كان يجري بين المسلمين والنصارى من غزوات متبادلة، والتي تُمثِّل في الحقيقة امتدادًا للحروب الصليبية التي شنَّها هؤلاء في المشرق، في حين اعتبرها المسيحيون من أعمال القرصنة البحرية، وباستثناء بعض المدن الساحلية التي احتلها هؤلاء في إفريقية مثل المهدية أو في المغرب الأقصى، فإنَّ نشاط الصليبيين ضدَّ المغرب الأوسط تمثَّل في حملات عسكرية سريعة ومفاجئة على المدن الساحلية الوسطى والشرقية كتنس وبرشك وشرشال وجيجل وبونة، وعادة ما تنتهي بطردهم لكن بعد حصولهم على بعض الأسرى.

لا تشير المصادر إلى ممارسة الأندلسيين لهذا النشاط أو المشاركة فيه، ولكن يُحتَمل أن يكون لهم دورا في ذلك بحكم استقرارهم في المدن الساحلية التي كانت تُمثِّل مراكز لذلك النشاط وخبرتهم البحرية، أو ربما بدافع ديني كانتقام لطردهم من الأندلس. ومن المدن التي عُرفت بهذا النشاط، مدينة بجاية التي أصبحت بلدة غزاة كما يقول الغبريني، فكان غزاتها يغيرون على الجزر والسواحل المسيحية ويسوقون السبي الكثير منها، فيُنزَل بمكان يُسمى حومة المذبح وهو بمثابة سوق أعدَّ لذلك، ويبدو أنَّ هذا النشاط كان عملا مقبولا من الناحية الشرعية، فكان لا يُباع منه إلا بعد أن يُخمَّس[1]، وقد بلغ من كثرتهم[2] أن بيعَ بيضاوان من الروم بسوداء من الروم بسوداء من الوخش[3]، ولذلك اتخذ منها ابن غانية محطة لنشاطه. بينما يصف جورج مارسيي هذا النشاط من قِبل بحارة إفريقية والمغرب الأوسط بنظرة تَنِمُّ عن التعصُّب والحقد مُتَّهِمًا الأندلسيين بالمشاركة فيه قائلا: " كانت تونس وبجاية أعشاشا للقراصنة وفي الوقت نفسه موانئ تجارية آمنة، وقد ساعد وصول اللاجئين الأندلسيين على ازدهار هذه الحياة البحرية[4].

4- الآثار والنتائج الاجتماعية والثقافية: توافدت على المغرب الأوسط في فترات مختلفة ولأسباب متباينة أعدادًا معتبرة من المهاجرين إلى المغرب الأوسط سواء المسلمين منهم أو من اليهود[5] والنصارى، وإذا كان النصارى قد تركزوا في المدن وعملوا كجند لدى

1- الغبريني: المصدر السابق، ص21 .

2- نفسه، ص21/ روبار برانشفيك: المرجع السابق، ص417.

3- الوخش: الرديئ من كل شيء، ورذّال الناس وسُقَّاطهم، للواحد والجمع والمذكر والمؤنث. الفيروز أبادي: المصدر السابق، ص560/ ابن سعيد العقباني: تحفة الناظر، ص79- 80. والمقصود بهم هنا الخدم السودانيات.

4- جورج مارسيي: المرجع السابق، ص328.

5- تعود أكبر جالية يهودية مهاجرة تدخل بلاد المغرب عموما إلى سنة 791هـ- 1391م نتيجة الحملة الاضطهادية الكبيرة التي اندلعت في جميع أرجاء شبه الجزيرة الإيبيرية ولاسيما في مملكة قشتالة ومنطقة قطلونية وجزر البليار. روبار برانشفيك: المرجع السابق، ج1، ص433.

الموحدين والزيانيين[1] أو اشتغلوا في التجارة، فإنَّ اليهود استقروا في المدن كذلك وزاولوا النشاط التجاري، ويبدو أنَّ هؤلاء قد حظوا باستحسان السلطة العمومية والسكان المسلمين كما أنَّ الأخبار لا تدلُّ على احتجاج أو عداء السكان ضدهم[2] ورغم ذلك عاش أهل الذمَّة في غالب الأحيان فئة منعزلة عن المجتمع وذلك إما لثقافتهم ودينهم أو بسبب نشاطهم وليس عداءً من الأهالي كما قد يبدو أو يصوِّره البعض[3]، ومما يؤكد ذلك أنَّ السلطان أبو زيان بن أبي حمو (796- 801هـ/ 1394- 1399م) أسكنهم داخل تلمسان الحديثة وعاملهم معاملة حسنة إلا في حالة تعديهم الحدود فتُطبَّق عليهم أحكام الشريعة الإسلامية[4].

أما الأندلسيون فهم أكثر العناصر اندماجا في المجتمع ومنهم أندلسيي تلمسان[5]، عكس ما يذكره البعض من أنَّ الجالية الأندلسية بإفريقية والمغرب الأقصى كانت تشعر بوجود خصائص معيَّنة حضارية واجتماعية تفصلها عن بقية السكان مما حال دون انصهارها في المجتمع الإفريقي[6]، وهو ما ذهب إليه برانشفيك كذلك حيث يرى أنهم عاشوا في مجموعات منفصلة رافضة الاندماج مع العناصر الأهلية[7]، ثم يقول بعدها ولكنهم سرعان ما اندمجوا في المجتمع، وكأنَهَ يتراجع عن فكرته ويُؤكِّد اندماجهم قائلا: " ومع محافظتهم على مميزاتهم الخاصة والبعض من عاداتهم، فقد كانوا أقرب للأفارقة"[8]، أو يكون قد فهم أولا من تمسكهم بعاداتهم واستقرارهم في أماكن مخصوصة على أنها عزلة وعدم اندماج، حتى وإنْ صحَّ ذلك فإنَّ عزلتهم تلك حدثت مع بداية دخولهم ولفترة محدودة وهي أمر طبيعي فرضته ظروف الحياة الجديدة هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإنَّ وضعيتهم تلك اقتصرت

1- اتخذ يغمراسن في جنده الروم فكان لديه منهم زهاء ألفين من الفرسان رامحة وناشبة، ثم تخلَّص منهم في ما يُعرف بكائنة النصارى سنة 652هـ- 1225م، وذلك بعد عودته من إحدى حركاته إلى بلاد بني توجين حيث حاولوا اغتياله، ويقال أنَّ أخاه محمد بن زيان هو الذي دبَّر مكيدة قتله بمداخلته قائد الروم، فكان هو أول ضحاياها. يحي بن خلدون: المصدر السابق، ج1، ص206/ عبد الرحمن بن خلدون: المصدر السابق، مج2، ص2113، 2118/ تاريخ إفريقيا العام، مج4، ص123.

2- روبار برانشفيك: المرجع نفسه، ج1، ص433.

3- تاريخ إفريقيا العام، مج4، ص118/ جورج مارسي: المرجع السابق، ص308/ عز الدين عمر موسى: دراسات في تاريخ الغرب الإسلامي، دار الشروق، ط1، 1403هـ- 1983م، ص105/ يعترف بعض الكتاب الأوروبيين باستقبال البربر للمسيحيين في بلادهم سواء كلاجئين أو تجار ومجندين، رغم بعض الإجراءات التي اتخذها معهم الموحدون في بداية أمرهم والتي تبدو مجرد عمل دعائي مدفوعا بالحماس الديني، إذ سرعان ما اتخذ منهم الموحدون أنفسهم جندا في صفوفهم بعدما كانوا يعيبون في ذلك على المرابطين.

4- ابن سعيد العقباني: تحفة الناظر، ص144. قال نقلا عن المدونة: " وإذا خرج قومٌ من أهل الذمة محاربين أو متلصِّصين فأخافوا السبيل وقتلوا حُكِمَ فيهم بحكم الإسلام ".

5- عبد العزيز فيلالي: المرجع السابق، ص170، ص179.

6- محمد رزوق: المرجع السابق، ص45.

7- روبار برانشفيك: المرجع السابق، ج1، ص417، ج2، ص159.

8- روبار برانشفيك: المرجع السابق، ج2، ص159.

على إفريقية والمغرب الأقصى بخلاف المغرب الأوسط، ولذلك غادر الكثير من الأندلسيين المغرب الأقصى باعتباره مركز الخلافة الموحدية المسئولة عن ضياع الأندلس في نظرهم[1]، وتوجهوا نحو المغرب الأوسط. وحتى الذين التحقوا بإفريقية من بجاية كالكتاب والأطباء كان باستدعاء من سلاطين بني حفص في كثير من الأحيان.

شكّل اللاجئون الأندلسيون في المغرب الأوسط على قلّتِهم بالمقارنة مع إفريقية جالية معتبرة، اندمجت بمرور الزمن وأصبحت ضمن مكوِّنات المجتمع، وحسبنا أن نورد أمثلة عن بعض مظاهر ذلك، منها أنَّ معظم هؤلاء تحصّلوا على وظائف[2] سواء الإدارية والسلطانية، ويكفي أنَّ أربعة من أسرة بني الملاح[3] تولوا الوزارة في البلاط الزياني، أو في الأعمال الحرة الأخرى كالتجارة والصناعة والزراعة، وقد أوردنا سابقا نصا للمقري يفيد بأنَّ الأندلسيين داخلوا أهل البلد وشاركوهم فيها، وفي هذا الجانب نشير كذلك إلى بعض المصاهرات التي كانت تتم بين أهل المغرب الأوسط وبين الأندلسيين والتي تُمثِّل قمة الاندماج والتعايش، ومن أمثلة ذلك مصاهرة إبراهيم الآبلي للقاضي محمد بن غلبون عندما تزوَّج ابنته فولدت له محمد الفقيه[4].

يظهر أنَّ الأندلسيين اكتسبوا اعتزازا ومحبة لوطنهم الجديد، ومن المواقف التي يُمكن أن نستشفَّ منها ذلك الشعور، تَمنُّع محمد بن إبراهيم الآبلي من خدمة السلطان المريني يوسف بن يعقوب لما أخذ تلمسان فسار إلى الحج[5]، بينما شارك في موقعة طريف أواخر سنة 740هـ- 1340م مع أبي عنان ضد النصارى.

ومن النتائج الاجتماعية للهجرة كذلك استمرار الروابط الاجتماعية والأسرية أو لنقل صلة الرحم بين أهل الأندلس وأقاربهم في المغرب الأوسط، وهو ما نستنتجه مثلا من قصة

1- محمد رزوق: المرجع السابق، ص29.

2- مونتغمري وات: المرجع السابق، ص132.

3- التنسي: المصدر السابق، ص138/ يحي بن خلدون: المصدر السابق، ج1، ص212- 213/ عبد الرحمن بن خلدون: المصدر السابق، مج2، ص2133/ أحمد مختار العبادي: في تاريخ المغرب والأندلس، ص201.

4- محمد بن إبراهيم بن أحمد العبدري الآبلي التلمساني، الإمام العلامة، أخذ بتلمسان عن ابني الإمام، وبمراكش عن أبي العباس أحمد بن البناء بعد عودته من الحج، أخذ عنه كثير من الأئمة ومنهم ابن خلدون، توفي سنة 757هـ- 1356م. يحي بن خلدون: المصدر نفسه، ج1، ص120/ عبد الرحمن بن خلدون: المصدر نفسه، مج2، ص2343/ ابن حجر: المصدر السابق، س3، ص288/ ابن مريم: المصدر السابق، ص380/ التنبكتي: نيل الابتهاج، مج2، ص66/ ابن مرزوق: المسند الصحيح الحسن، ص266/ الحفناوي: المرجع السابق، ج1، ص584.

5- ابن مريم: المصدر السابق، ص381/ الحفناوي: المرجع السابق، ج1، ص585.

ابن دهاق[1] الذي جاء من مرسية لزيارة عمة له بتلمسان، والتي يُجهل أسباب وظروف قدومها، إلا أنها تُبيِّن مدى ترابط العلاقات بين الأندلسيين، وفي هذه الزيارة تعرَّف على الصوفي أبي عبد الله الحلوي الشوذي.

ومن الآثار الاجتماعية التي خلّفها تواجد المهاجرين بالمغرب الأوسط انتشار أسماء المتصوِّفة ولاسيما من الأندلسيين حيث كثيرا ما يسمي الناس مواليدهم بأسماء هؤلاء كأبي مدين والحلوي ... الخ، سواء احتراما لهم أو التبرُّك والاعتقاد فيهم.

ومن مظاهر الحياة اليومية التي تكون قد انتقلت من الأندلس إلى المغرب الأوسط مع المهاجرين الأندلسيين أو تأثّرت بهم على الأقل بعض أنواع الأطعمة التي كانت تُصنع في الأندلس، وقد ذكر ابن دهاق السابق في قصة لقائه بأبي عبد الله الحلوي نوعا منها وهي المشهدة[2] المعروفة بالقطايف.

أمَّا ثقافيا فقد انتقلت بعض المؤِّثرات اللغوية حيث انتشرت اللهجة الأندلسية بتلمسان ومنها قلب حرف القاف ألفا أو كافا فيُقرَأ مثلا اسم مرزوق: مرزوك أو مرزوء، قال ابن مرزوق: ورأيتُ هذا الحرف بخط بعض عدول أهل بلدنا القدماء بالكاف وهذا هو الجاري وهكذا ينطقون بهذا الاسم بوادي أهل تلمسان من زناتة وغيرهم[3].

من خلال تتبعنا لحركة الهجرة من الأندلس إلى المغرب الأوسط، ورغم ما يبدو من قلة عدد الأندلسيين المهاجرين بالمقارنة مع إفريقية كما مرَّ في الفصل الثاني، فإنّهم أصبحوا مع ذلك جالية معتبرة كان تأثيرها واضحا في كثير من المجالات العلمية والأدبية والاجتماعية والتي لا تزال بعض مظاهرها إلى اليوم، شكّلت مرجعية تاريخية لثقافة وحضارة المنطقة.

1- ابن دهاق: أبو إسحاق إبراهيم بن يوسف بن محمد الأوسي المعروف بابن المرأة، سكن مالقة ثم انتقل إلى مرسية، كان متقدما في علم الكلام، ذاكرًا للتفسير والحديث، توفي سنة 611هـ- 1214م. ابن الخطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة، ج1، ص325/ ابن فرحون: الديباج المذهَّب، ص147/ محمد بن محمد مخلوف: المرجع السابق، ص173.

2- المشهدة: وتُصنَّف في طعام الخبز وأنواع المجبنات والاسفنج، أما طريقة إعدادها فيكون بخلط سميد بماء ساخن حُلَّ فيه خميروملح حلاً بليغا ويُضاف إليه لبن حليب ويُحرَّك باليد حتى يصبح خاثرًا بحيث يلتصق باليد ثم يوضع في قدر ويقرَّب من النار بحيث يلحقها الحرارة من غير أن تمسَّها النار ويُترك حتى يختمر، ثم يُؤخذ الطاجن المعد لعملها وهو مثقب بقاعه أثقابا غير نافذة فتحمى على النار وتُمسح بخرقة قد ربط فيها ملح وغمست في سمن طيب، ثم يُصب العجين في الطاجن أقراصًا، فإذا تثقَّبت أزيلت وعمل غيرها، ثم تسوى في جفنة وتُسقى بعسل مغلي يضاف إليه زبد مذاب أو سمن ويُذر عليها فلفل وقرفة وسكر. ابن رزين التجيبي: فضالة الخوان في طيبات الطعام والألوان، حققه وقدم له محمد بن شقرون، إعداد إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، تونس، ط3، 2012م، ص71.

3- ابن مرزوق التلمساني: المناقب المرزوقية، دراسة وتحقيق سلوى الزاهر، مطبعة النجاح، الدار البيضاء، ط1، 1429هـ-2008م، ص145/ ناصر الدين سعيدوني: المرجع السابق، ص36.

يُمكن القول أنَّ الوجود الأندلسي في المغرب الأوسط ورغم اقتصاره أيضا على بعض المدن الساحلية أو المهمَّة قد قسَّم المجتمع إلى بيئتين اجتماعيتين متباينتين: بيئة حضرية متعددة الأعراق ومتشبِّعة بالثقافة الأندلسية التي انتقل الكثير من معالمها إلى المغرب الأوسط وتجلَّى في مظاهر الحياة الاجتماعية والثقافية والعمرانية، وتبدو هذه البيئة أكثر تنظيما وتعقيدًا، وبيئة بدوية محافظة على طابعها التقليدي، سواء في نظامها السياسي والعلاقات وظروف الحياة حيث ساد النظام القبلي القائم على البساطة والاعتماد على الرعي والتنقُّل، أو في جانبها الاجتماعي والثقافي حيث حافظت القبائل العربية والبربرية على نقاء عنصرها ومحافظتها على اللغة وثقافتها المحلية ولذلك كان ولا يزال سكان الصحراء مثلا أكثر فصاحة وسلامة لسان.

بناءً على كل ما سبق نقول إنَّ الهجرة الأندلسية وبعناصرها المختلفة وبقدر ما مَّثلته من مأساة بالنسبة للأندلسيين لما عانوه من تهجير وتشتُّت وفراق الأوطان، واعتبارها مرحلة انحطاط وضعف سياسي لا تَقِل من حيث خطورتها وانعكاساتها السلبية عمَّا أصاب الخلافة الإسلامية في المشرق، فقد تركت هذه الهجرة من جهة أخرى آثارًا إيجابية في شتى الميادين، كما ساهمت في بناء ملامح مجتمع المغرب الأوسط وحضارته من خلال امتزاج ثقافتين، ثقافة مغربية بطابع بربري عربي، وثقافة أندلسية مشبعة بكثير من مظاهر التحضُّر والتطوُّر، كما أبرزت من جهة أخرى مدى التلاحم والتآزر بين المسلمين وقت الشدائد والمحن رغم بعض التجاوزات.

نتائج وآثار الهجرة بين المغربين الأوسط والأقصى:

تميَّزت العلاقة بين المغربين الأوسط والأقصى بطابع خاص، سادها في معظم الأحيان الصراع العسكري بحكم الجوار ونزعات قبلية قديمة، فموقف المرينيين من المغرب الأوسط معروف ولا داع لذكر الحملات العسكرية المتتالية، ولذلك فإنَّ آثار الهجرة التي تمت بينهما بالرغم من ذلك فهي في الحقيقة امتدادا لتلك العلاقات، والتي كان من تجلياتها أن دخلت بعض القبائل العربية مثل المعقل في مساومات سياسية بين سلاطين المغربين وتجدُّد الحروب في عدة مرات أدخل المنطقة في حالة من عدم الاستقرار السياسي.

أما بالنسبة للجانب العلمي فقد ساهم كثير من فقهاء وعلماء المغرب الأوسط في تنشيط الحياة العلمية بالمغرب الأقصى سواء كمدرِّسين ومفتين أو موظفين كقضاة وكُتَّاب أو غير ذلك، ويكفي أن نذكر هنا أنَّ محمد بن مرزوق الخطيب التلمساني (ت781هـ- 1379م) قد عمل كاتبا للسلطان المريني أبي الحسن ومؤرِّخا لدولته من خلال كتابه: المسند الصحيح الحسن في مآثر مولانا أبي الحسن.

أما اجتماعيا فلعلَّ أهم نتيجة هي انتشار الأشراف في المغرب الأوسط، وبغَضِّ النظر عن مسألة الشرف من حيث حقيقة هؤلاء وأبعادهم وما طرحته من قضايا اجتماعية وحتى فقهية، فإنَّ تاريخ تواجدهم في المنطقة يمكن إرجاعه إلى فترتين أو مرحلتين: المرحلة الأولى عندما قدموا من المشرق خلال القرن الثاني الهجري وانتشروا في كثير من مدن المغرب الأوسط وأسسوا بعض الإمارات[1]، أما الثانية وهي التي تمَّ فيها دخولهم من المغرب الأقصى خلال القرن الرابع الهجري بعد قضاء العبيديين وحليفهم موسى بن أبي العافية المكناسي على دولتهم[2]، أو الأشراف الحسينيون الذين جاؤوا من صقلية عند استيلاء النورمانديين عليها أواخر القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي[3]، ثم استمرَّ تدفُّقهم في فترات مختلفة حسب الظروف السياسية، ولا نطيل في هذا الموضوع وإنما سنذكر بعض الفروع الشريفة التي دخلت المغرب الأوسط قادمة من المغرب الأقصى ابتداءً من القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي.

* **البوزيديون (البوازيد)[4]:** نسبة إلى أبي زيد بن علي بن مهدي بن سفيان بن يسار بن موسى بن عيسى بن محمد بن موسى بن سليمان بن موسى بن محمد بن عيسى بن إدريس الأصغر بن إدريس الأكبر الذي قدِم من فاس خلال القرن السادس الهجري واستقرَّ بجبل العمور ومنه انتشروا في مناطق أخرى، فمنهم فرقة بالعطاف وفرقة ببلد سويد تسمى هوارة بإزاء شلف، ومنهم فرقة بمستغانم، ومنهم فرع يدعون أولاد هجرس[5] نسبة إلى مَحمد بن علي المسمى هجرس (ت798هـ- 1395م)، بنواحي المسيلة والزاب.

* **بنو عبد القوي[6]:** نسبة إلى عبد القوي بن علي بن أحمد بن عبد القوي الثاني بن خالد بن يوسف بن أحمد بن بشار بن محمد (أو أحمد) بن مسعود بن طاووس بن يعقوب بن عبد

1- من المدن التي انتشر بها الأشراف السليمانيون تلمسان وتنس وهاز ومنطقة متيجة. ابن خلدون: المصدر السابق، مج1، ص1062. مج2، ص2079/ ابن عذاري: المصدر السابق، ج1، ص210/ البكري: المصدر السابق، ص147، 164.

2- ابن عذاري المراكشي: المصدر السابق، ج1، ص214/ ابن أبي زرع: الأنيس المطرب، ص83/ الطيب بن مختار الغريسي: المرجع السابق، ص333/ محمد الأعرج الغريسي: تسهيل المطالب لبغية الطالب، وهي شرح لمنظومة بغية الطالب في ذكر الكواكب لعيسى بن موسى مطبعة ابن خلدون، تلمسان، 1381هـ- 1961م، ص372- 373، 387- 388.

3- محمد الأعرج الغريسي: المرجع السابق، ص373.

4- محمد الأعرج الغريسي: المصدر السابق، ص400/ عبد الله حشلاف: سلسلة الأصول، ص73- 74/ العشماوي: السلسلة الوافية، ص303- 304/ قارة مبروك بن صالح: تاريخ مدن وقبائل الجزائر، المؤسسة الصحفية، المسيلة، الجزائر، ط2، 1434هـ- 2012م، ص152. أشراف وقبائل الجزائر، ص78.

5- قارة مبروك بن صالح: تاريخ مدن وقبائل الجزائر، ص158/ أشراف وقبائل الجزائر، صص86- 90.

6- عبد الله حشلاف: المرجع السابق، ص110/ التوجيني: المرجع السابق، ص14/ الأغا المزاري: المرجع السابق، ج2، ص325- 326.

القوي الأول بن أحمد بن محمد بن إدريس بن إدريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب، التحقوا بجبل العمور كذلك ومنه انتشر عقبه فاستوطن مهدي بن عيسى بن عبد القوي الثالث وأبناؤه نواحي تاهرت والبطحاء، بينما نزل أبناء محمد بن عبد القوي الثالث الراشدية.

* **شرفة ظهرة:** قدِموا من الساقية الحمراء خلال القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي واستقروا على ضفاف وادي يسر شرقي مدينة جزائر بني مزغنة[1]، وقد انتشر الأشراف بكل فروعهم في المغرب الأوسط، سواء في المناطق التلية أو في الصحراء لكنهم اندرجوا وانصهروا بمرور الزمن مع قبائل أخرى عربية وبربرية، ومهما يكن فإنَّ هؤلاء الأشراف قد مَّثلوا فئة متميِّزة ذات مكانة واحترام في المجتمع.

<u>قضايا عامة تتعلق بالهجرة</u>

قضايا الأحوال الشخصية: يُعتبر الجانب الاجتماعي أكثر المجالات تأثُرا بالهجرة وفي مختلف مظاهرها بحكم العلاقة المباشرة بين الظاهرة والحياة الاجتماعية، سواءٌ بالنسبة للفرد المهاجِر كالزوج أوالمقيم (الزوجة مثلا) أو بالنسبة للجماعة، وإذا كنا قد تطرَّقنا منذ قليل إلى هذا الجانب الذي يمسُّ الحياة العامة في الدولة، فإنَّ ثمة قضايا تتعلَّق بالمجتمع مباشرة لها صلة بالجانب الفقهي والشرعي وردت في شكل أسئلة (نوازل)، ولذلك سيكون اعتمادنا على كتب النوازل لاستخراج هذه الآثار ونتائجها وما طرحته من إشكالات أصبحت محل نظر الفقهاء لأنها سبَّبت ضررا وخصومات بين أفراد المجتمع، وقد لا نكون مُخطئين إذا قلنا إنَّ أبرز آثر للهجرة يظهر بصورة جلية في الجانب الاجتماعي.

سنتطرَّق في هذا المجال إلى بعض القضايا الأكثر شيوعًا في المجتمعبِ غَضِّ النظر عن أطرافها وعن إجاباتها، وننبه هنا أنَّ القضايا الواردة في الكتب النوازلية ليست بالضرورة من المغرب الأوسط وفي الفترة المدروسة بالذات، بل هي عامة لكل الغرب الإسلامي وفي أزمنة مختلفة ورغم ذلك فحمكها ثابت تقريبا، فما قد يَحدُثُ في إفريقية والأندلس مثلا ينطبق على المغرب الأوسط وغيره لاسيما وأنَّ هذه المناطق كانت كلها مالكية المذهب، وقد اعتبرنا مصطلح الغَيبة الذي يستعمله الفقهاء بمعنى الهجرة لأنها تأخذ حُكمه، وقد أورَدَ كل من ابن سهل[2] والبرزلي (ت841هـ- 1438م) والونشريسي (ت914هـ- 1508م) وغيرهم

1- الشريف كمال دحومان الحسني: المرجع السابق، ص53.

2- ابن سهل: أبو الحسن سهل بن محمد بن سهل بن مالك الأزدي، كان رأس الفقهاء وخطيب الخطباء وخاتمة رجال الأندلس، كان محدِّثا ضابطا حافظا للقرآن الكريم، مجوِّدًا له، وافر النصيب من الفقه وأصوله، متين الدين، له تعاليق جليلة على كتاب المستصفى في أصول الفقه، توفي سنة 639هـ- 1241م. ابن فرحون: المصدر السابق، ص205.

من الفقهاء الكثير من هذه النوازل والتي يدور أغلبها حول خمس قضايا تتعلق بالأسرة وهي: الزواج والطلاق والنفقة والحضانة والميراث، ثم قضايا ترتبط بالعلاقات بين أفراد المجتمع في المعاملات كالبيع والوكالة وغيرها، وسنقتصر على بعض هذه الأبواب من خلال أمثلة كنماذج لذلك، ونشير هنا فقط إلى أنَّ عدد النوازل ومواضيعها ومكانها له علاقة بظاهرة الهجرة من حيث حجمها وإطارها الجغرافي.

أ- الزواج والطلاق: تُمثِّل الهجرة صدارة القضايا المطروحة في هذا الصدد، فكثيرا ما يهاجر الزوج عن بلده لأي سبب من الأسباب، تلجأ عندها الزوجة أو وليها بطلب الطلاق لغيبة الزوج وعدم النفقة أو غيرها لاسيما إذا انقطع الأمل في عودة الزوج.
* سُئل السيوري[1] عمَّن غاب أبوه هاربًا خوفا على نفسه من القتل عمدا وعدوانا وبقيت ابنته في قرية أو مدينة لا تستطيع الوصول إليه ولا يقدر هو الاجتماع بها، فهل يصحُّ إنكاحها إذا خيف عليها الفساد ؟ فأجاب: تُزوَّج على قدر الإمكان ولا ينتظر أبوها للخوف الذي ذكرت[2].
* سُئل ابن عتاب[3] عمن غاب عن بِكر قبل بنائه بها غيبة طويلة إلى القيروان، فقام أبوها يريد تطليها عليه بعدم النفقة ... وأثبت مغيب الزوج، وأنَهَ لم يخلف لها شيئا ولا أرسل لها بشيء ولا رجع من مغيبه، وتلوَّمت عليه شهرين. فأجاب: إنْ قام الأب عنها بتوكيلها إياه على ذلك، فإنما تحلف فيه الزوجة لا الأب، فإذا حلفت طلّقت نفسها وليس للأب قيام في ذلك، إذ لها أن تتربص على زوجها وتنتظره وتنفق عليها من ماله أو من عمل يدها. وأجاب أبو عمر ابن القطان[4]: لا يمين عليها ولا على الأب في ذلك، ولها أنْ تُطلِّق نفسها على زوجها. وأجاب أبو عمر بن رشيق: لها النفقة من حين قامت بذلك، ويضرب السلطان للغائب أجل شهرين، فإذا انقضيا حلفت الزوجة وثبت هذا اليمين عند الحاكم ويكون لها أن

1- السيوري: أبو القاسم عبد الخالق بن عبد الوارث خاتمة علماء إفريقية وآخر شيوخ القيروان، ذو الشأن البديع في الحفظ والقيام بالمذهب، تفقَّه بأبي بكر بن عبد الرحمن وأبي عمران الفاسي، توفي سنة 460هـ- 1067م بالقيروان. الدباغ: معالم الإيمان، ج3، ص181/ محمد مخلوف: المرجع السابق، ص116.

2- الونشريسي: المعيار، ج10، ص125- 126.

3- ابن عتاب: أبو عبد الله محمد عبد الله بن عتَّاب بن محسن من أهل قرطبة وشيخ المفتين بها،لم تكن له رحلة ولذلك تفقَّهَ عليه أهل الأندلس، توفي سنة 462هـ- 1070م. ابن بشكوال: الصلة، مج2، ص174/ ابن فرخون: المصدر السابق، ص370/ القاضي عياض: ترتيب المدارك، مج2، ص353/ ابن سعيد المغربي: المغرب في حلى المغرب، ج1، ص165/ ابن سهل: ديوان الأحكام الكبرى أو الإعلام بنوازل الأحكام وقِطْرٍ من سِير الحكام، تحقيق يحي مراد، دار الحديث، القاهرة، 1428هـ- 2007م، ص743/ محمد مخلوف: المرجع السابق، ص119.

4- ابن القطان: أبو عمر أحمد بن محمد بن عيسى بن هلال، كبير المفتين بقرطبة، توفي سنة 460هـ- 1067م. ابن بشكوال: الصلة، مج1، ص104/ القاضي عياض: المصدر السابق، مج2، ص355/ابن سهل: المصدر السابق، ص743/ ابن فرحون: المصدر السابق، ص102/ محمد بن محمد مخلوف: المرجع السابق، ص119.

تُطلِّق نفسها طلقة واحدة وتتزوج ساعتئذ[1]. ومن ذلك أيضا من غاب عن زوجته ولا مال له يُنفق منه، فرأى بعض الفقهاء تطليقها منه، وعارضهم البعض وأرجئوا الحجة للغائب مدتها[2].

ب- النفقة: وهي من أكثر نتائج الهجرة لأنَّها تتعلق بحياة الأطفال الصغار وهي قضية لا تحتمل التأخير ، إذ كثيرا ما يتعذَّر على الزوجة العيش لعدم وجود ما تنفقه وبخاصة إذا غاب الزوج مدة طويلة وكان فقيرا وله أولاد ولم يترك لها مالا أغيره يقتاتون منه، فتلجأ عندها الزوجة إلى طلب النفقة بأي حال أو تطلب الطلاق. فقد سُئل المازري[3] عمن غاب عنها زوجها فأثبتت غيبته عند القاضي وعدم نفقته، وأن لا مال له إلا بيع الرَّبْع[4]. فأجاب: إذا ثبت الإعذار بالنفقة والحكم بيمينها وأنها حلفت، فمن يومئذ تجب النفقة لها[5].

وسُئل أيضا في قضية مشابهة، عمن تزوج بكرا من أبيها ثم غاب عنها نحو سنتين فطلب أخوها نفقتها وكسوتها ومهرها بتوكيلها إياه بعد غيبته، ثم قام الآن يطلب ذلك وذكر أنه أنفق عليها في المدة التي وكلته فيها من ماله، فهل يلزمه يمين الاستظهار أو هي أو هما معا. فأجاب: الطلب في النفقة للزوجة، وقد زالت ولاية الأب، ينظر القاضي فإن كان للزوج مال حاضر يُعدَى فيه فرض لها النفقة، وإن كان عديما خيَّرها إن شاءت أقامت بغير نفقة أو طلَّقت[6].

ج- الميراث: كثيرا ما يكون المال محل خصومات بين الورثة سواء أصول الرجل أو زوجته وأولاده، أو الزوج عن زوجته، ومن أمثلة ذلك سؤال ابن عرفة عمَّن غاب غيبة انقطاع، فتوفيت زوجته في غيبته فورثها هو ومن عَصَبها، فقدَّم له الناظر في الأحكام رجلا

1- الونشريسي: المصدر السابق، ج3، ص407- 408/ البرزلي: جامع مسائل الأحكام لما نزل من القضايا بالمفتين والحكام، تقديم وتحقيق محمد الحبيب الهيلة، دار الغرب الإسلامي، ط1، 2002م، ج1، ص394/ ج3، ص202، 230، 154/ ابن سهل: المصدر نفسه، ص237- 238.

2- البرزلي: المصدر السابق، ج2، ص394/ ابن سهل: المصدر السابق، ص172- 173، 191.

3- المازري: أبو عبد الله محمد بن علي بن عمر التميمي المعروف بالذكي، خاتمة العلماء المحققين وأحد الأعلام، سكن قلعة بني حماد ثم خرج منها، له شرح التلقين وشرح صحيح مسلم " المُعلِم بفوائد كتاب مسلم "، توفي سنة 536هـ- 1141م. الدباغ: المصدر السابق، ج3، ص202/ القاضي عياض: المصدر السابق، مج2، ص340/ اليافعي اليمني: المصدر السابق، ج3، ص204/ محمد بن محمد مخلوف: المرجع نفسه، ص127/ محمد محفوظ: المرجع السابق، ج4، ص232. ومازرة مدينة بصقلية. الإدريسي: المصدر السابق، ج2، ص600/ الحموي: المصدر السابق، مج4، ص195/ الحميري: المصدر السابق، ص521.

4- الرَّبْعُ: الدَّار بعينها حيث كانت، جمعها: رباع ورُبوع وأرباع، والمحلة والمنزل. الفيروز أبادي: المصدر السابق، ص667.

5- البرزلي: المصدر نفسه، ج2، ص344/ الونشريسي: المصدر نفسه، ج3، ص318.

6- الونشريسي: المعيار، ج3، ص309.

يُفاصل عنه في تركة زوجته، ففاصل عنه وقبض له مالا عينا ثم عمد الوالي بعد مدة فسجنه وطلب منه زكاة المال[1].

وسئل كذلك عن قصر غاب عنه أهله طويلا ثم رجع بعض ورثة أهله فسكنوه ولم يعرفوا أملاكهم وأسكنوا معهم أجانب، ثم جاء ورثة الباقين فمنعهم الأولون وأرادوا أيضا إخراج الأجانب. فكان السؤال: ما حكمهم معهم ومع ورثة الباقين ؟ فأجاب: أنَّ هؤلاء يستحقون جميعه ولا شيء للأجانب فيه[2].

د- البيع: يقوم أحيانا المهاجر ببيع بعض أملاكه في بلده الأصلي، وهو ما يؤدي إلى ضرر بزوجته أو إلى خصومات بين ورثته. وفي ذلك سئل العقباني[3] عن رجل غاب غيبة طويلة بجهة المغرب بحيث لا يُعلم له مستقر منها، وترك ببلده قاعة فباعها القاضي عليه وصرف ثمنها على أولاده، ثم قدِمَ رجل برسم يتضمن ابتياعها من ربِّها الغائب إلاّ أنَّ تاريخ تسجيل بيع القاضي إياها متقدِّمٌ عن تاريخ الذي قام به الرجل. فأجاب: بيع القاضي ماضٍ والأقدم تاريخًا أحقٌّ بالبيع، إلاّ أن يكون الثاني قبض المبيع ولم يقبضه الأول[4]. ويظهر أنَّ هذه القضية وقعت بالمغرب الأوسط بالنظر إلى الغائب الذي اتجه إلى المغرب الأقصى ولأنَّ هذه المسألة تكون قد طُرحت على العقباني وهو في بلده تلمسان أو في إحدى مدن المغرب الأوسط التي تولى بها القضاء كبجاية ووهران.

هـ- الحضانة: غالبا ما يكون النزاع في هذه القضايا بين الزوجين أو أصولهما، وفي هذه القضية سُئل الحفار[5] عن رجل توفيت زوجه وتركت ابنين هما في حضانة جدتهما للأم، ووالدهما زوج المتوفاة يريد الانتقال بهما إلى بلد آخَر، هل له أن ينقل أولاده معه أو يجب عليه أن يتركهما مع جدتهما، وهل يسقط عنه الفرض إن لم تُرد الجدة السفر معه إلى ذلك

1- الونشريسي: المصدر السابق، ج10، ص139/ ابن سهل: المصدر السابق، ص379.

2- الونشريسي: المصدر نفسه، ج4، ص291.

3- العقباني:أبو عثمان سعيد بن محمد بن محمد التلمساني إمامها وعلاّمتها، فقيه في المذهب، تفقّه على ابني الإمام وأخذ الأصول عن الآبلي، تولّى القضاء ببجاية وتلمسان وسلا ومراكش، وله في ولاية القضاء مدة تزيد عن أربعين سنة، توفي سنة 811هـ- 1408م. ابن فرحون: المصدر السابق، ص204/ التنبكتي: نيل الابتهاج، مج2، ص204/ كفاية المحتاج، ج1، ص144/ الونشريسي: وفيات الونشريسي، ص80/ محمد بن محمد مخلوف: المرجع السابق، ص250. وعقبان قرية بالأندلس منها أصل سلفه.

4- الونشريسي: المصدر نفسه، ج3، ص100، 318/ ج10، ص126.

5- الحفار: محمد بن علي بنمحمد بن أحمد بن سعد الأنصاري الغرناطي، إمامها ومحدِّثها ومفتيها، نشأ مُكبّا على العلم، لازم أبا سعيد بن لب وبه جل انتفاعه، توفي عن سن عالية سنة 811هـ- 1408م. التنبكتي: نيل الابتهاج، مج2، ص144. كفاية المحتاج، ج2، ص115/ محمد مخلوف: المرجع السابق، ص247.

البلد أو لا ؟ فأجاب: له أن يأخذ ابنيه من الجدة وتسقط حضانتها إلا إذا أرادت الجدة الانتقال معه، فإن لم تُرِد أخذ ابنيه منها[1].

و- التصرُّف في أملاك الغائب: قد يلجأ أحد أبناء الغائب أو وكيله إلى التصرُّف في أملاكه بيعا وشراءً أو مغارسة وهو ما يؤدي إلى نزاعات بين الورثة والمشتري أو المتصرِّف. وفي هذا سئل أبو الحسن الصغير[2] عن رجل غاب فعمد ابنه إلى موضع من أرض الغائب فغارس فيه رجلا، ثم بعد أن أطعم الغرس باع حصة أبيه لرجل وبقي في يد المشتري حتى غرس زيادة فيه نحو سبعة أعوام، وسلَّم سائر ورثة الغائب لهذا المشتري في ذلك البيع، ثم مات البائع وهو الابن ثم إنهم عمَّروا[3] الغائب ومُوِّت[4]، عندها قام ورثته وهم الذين سلَّموا في البيع فطلبوا المشتري فيما بيده وقالوا إنا سلَّمنا في وقت لا نملك. فأجاب بأنَّ ذلك لهم ويبطل البيع والتسليم والمغارسة وكل ما عُقد قبل التمويت لأنه عقد في غير ملك العاقد وهي مسألة كتاب بيع الغرر[5].

أوردَ ابن سهل في كتاب الأقضية بعض الأحكام المتعلقة بالغائب، والتي أعطيناه حكم المهاجر، فقال: والغائبون تختلف أحوال مغيبهم وتختلف الفتوى بسببها. وذكر منهم:

- الغائب يقرب موضعه بحيث يأخذه الإعذار، فهذا يعذر إليه القاضي فيما يثبت عليه.

- غائب أبعد مسافة فلا يلزم الإعذار إليه، ويقضي عليه دون إعذار.

- غائب يعمى خبره ولا يُعرف موضعه، فهذا ينظر السلطان فيه، ثم يحكم فيه بحكم المفقود.

- الأسير بدار الحرب، ومنهم المفقود في صف المسلمين في قتال العدو، ومنهم الذي يُفقد في فتن المسلمين. وكلٌّ واحد منهم الحكم عليه جائز على حسب الواجب، ولا يقطع القاضي الحجة لأحد من الغياب إن قضى عليه إلا الغائب الذي أُعذر إليه بقري موضعه فهو كالحاضر[6].

1- الونشريسي: المصدر السابق، ج4، ص48.

2- أبو الحسن الصُغَيِّر : علي بن محمد بن عبد الحق الزرويلي، شيخ الحفاظ في زمانه، كان إليه المفزع في المشكلات والفتوى، قيَّد عنه بعض تلامذته تقايد على المدوَّنة وعلى التهذيب وعلى الرسالة، وُلي قضاء تازى وفاس، توفي سنة 719هـ- 1319م وعمره حوالي 120 سنة. ابن القاضي: درة الحجال، ص402/ ابن القنفذ: شرف الطالب، ص230/ الونشريسي: المعيار، ج1، ص210/ وفيات الونشريسي، ص17/ محمد مخلوف: المرجع نفسه، ص215.

3-عَمِرَ، عَمْرًا وعَمارة: بقي زمانا. ومنها قولهم أُعَمِّرُكَ الله: أي تسأل له بطول عُمْره. الفيروز أبادي: المصدر السابق، ص403. والمقصود هنا أنهم اعتبروه قد أسنَّ.

4- أماتوا: وقع الموت في إبلهم. المصدر نفسه، ص136. والمقصود بها هنا أنهم اعتبروه ميِّتا بحكم السن.

5- الونشريسي: المعيار، ج8، ص174.

6- ابن سهل: المصدر السابق، ص388.

رابعا: آثار ونتائج الهجرة بين المغرب الأوسط وبلاد السودان.

ارتبط المغرب الأوسط ببلاد السودان وبخاصة الغربي منه كما ذكرنا غير ما مرة عبر منطقتين أو طريقين رئيسين هما طريق توات وطريق واركلا اللتان كانا يسلكهما التجار والحجاج، وقد نتجت عن حركة الهجرة المتبادلة بين المنطقتين آثارًا مختلفة ولاسيما في الميدان الاجتماعي والثقافي.

1- الميدان الاجتماعي: دخلت الكثير من العناصر السودانية إلى المغرب الأوسط سواء عن طريق تجارة الرقيق أو كمهاجرين صعدوا شمالا واستوطنوا بعض المناطق مثل توات[1] أو الذين جاؤوا مع الجيش المريني خلال حملاته على تلمسان، وقد أدى استقرار هؤلاء إلى تطعيم المجتمع بعنصر جديد، ساهم في الحياة الاجتماعية بعاداته وثقافته، وقد أشرنا سابقا إلى فتاوى الفقهاء في بعض القضايا التي طُرِحَت من جرَّاء ذلك.

أمَّا بالنسبة لهجرة أهل المغرب الأوسط إلى بلاد السودان فيبدو أنَّها اقتصرت على فئتي التجار والعلماء الذين استقروا في أهم مدن السودان مثل إيولاتن[2] (ولاتة) وتنبكتو أين لقوا كل الاحترام وحسن المعاملة حيث ساهموا هناك في تنشيط الحياة الثقافية والاقتصادية، كما يكون هؤلاء قد نقلوا معهم بعض الأخلاق ومظاهر الحياة الاجتماعية.

2- **الميدان الثقافي:** برزت نتائج الهجرة أكثر في هذا الجانب بفعل انتقال مؤثِّرات الثقافة العربية الإسلامية سواء من خلال الاحتكاك المباشر بالسكان بواسطة التجار أو عن طريق التعليم، وقد كان لسكان منطقة توات دورا كبيرا في ذلك[3] خاصة في ظل الرعاية المادية

1- يقال أنَّه خلال رحلة حج المانسا موسى سلطان مالي سنة 724هـ- 1324م تخلَّف كثير من أصحابه وانقطعوا بتوات وتوطَّنوا فيها. عبد الرحمن السعدي: تاريخ السودان، ص54/ محمود كعت: تاريخ الفتاش، ص82/ ابن بطوطة: رحلة ابن بطوطة، ص706.

2- أسَّس أبناء أبو عبد الله محمد المقري (ت756هـ- 1355م) وهم خمسة شركة تجارية بتلمسان، فكان اثنان منهم وهما عبد الواحد وعلي مستقران بمدينة إيولاتن حيث تزوَّجا هناك فكانت لهما بها الحوائط والديار وقد اكتسبا ود ملك التكرور فمكَّنهما من التجارة بجميع بلاده. المقري: نفح الطيب، مج7، ص196- 197/ لسان الدين بن الخطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة، ج2، ص192. كما يكون بعض أهل تلمسان قد استوطنوا مدن السودان، فقد ذكر ابن بطوطة رجلا يُعرف بابن شيخ اللبن كانت له علاقة بالسلطان منسى موسى. ومن الأسباب التي تكون قد شجَّعت على سكنى مدن السودان الاحترام والإكرام الذي كان يحظى به أهل المغرب الأوسط ولاسيما من أهل العلم، إضافة إلى انتشار الأمن في بلادهم. قال ابن بطوطة: " فلا يخاف المسافر فيها ولا المقيم من سارق ولا غاصب وعدم تعرُّضهم لمال من يموت من البيضان ". المصدر السابق، ص697- 698. ولم يقتصر ورود التجار فيما يبدو على المدن السودانية المتاخمة، بل وصل إلى الأعماق مثل غاو وغيرها. جوان جوزيف: الإسلام في ممالك وإمبراطوريات إفريقيا السوداء، ص82.

3- فرج محمود فرج: المرجع السابق، ص23/ عبد القادر زبادية: المرجع السابق، ص36.

والاحترام الذي لقوه هناك، يقول الحسن الوزان في ذلك: "وفي تنبكتو عدد كثير من القضاة والفقهاء والأئمة، يدفع الملك إليهم جميعا مرتَّبًا حسنًا"[1].

التعليم: انتشر التعليم بأهم مدن السودان التي استقرَّ فيها المهاجرون ولاسيما القرآن الكريم واللغة العربيةالتي كان من الضروري تعلُّمها باعتبارها لغة القرآن، ولذلك فإنَّ مواد التعليم الأساسية هي القراءات والعربية وقد ذكر ابن بطوطة أنَّ أحد طلبة تلمسان كانيُعلِّم القرآن بمالي[2]، ونتيجة لذلك أصبحت اللغة العربية من اللغات الرسمية المتداولة إضافة إلى اللغات المحلية، كما حرص السكان إضافة على ذلك إلى العناية بتحفيظ القرآن الكريم لأبنائهم حتى أنهم كانوا يجعلون لهم القيود إذا ظهر منهم تقصير في ذلك[3]، وذكر ابن بطوطة أنه مرَّ يومًا بشاب منهم حسن الصورة، عليه ثياب فاخرة، وفي رجله قيد ثقيل، فقال لمن معه: ما فعل هذا ؟ أقَتَل؟ فقيل له: إنَّما قُيِّد حتى يحفظ القرآن[4].

إضافة إلى مدارس التعليم، أُنشِئت المساجد التي حظيت باهتمام السلاطين، فقد أمر سلطان مالي المانسا موسى (ت738هـ- 1337م) الشاعر الغرناطي السهيلي[5] بتصميم جامع كبير بمدينة تنبكتو والإشراف عليه[6]، فكان ذلك بمثابة صرح علمي، أصبح مع مرور الزمن مركزا للتعليم فتقاطَرَ عليه الطلبة ووصل مستوى التعليم في تنبكتو إلى نفس المستوى الذي وصل إليه بقرطبة وتلمسان[7]، وقد صاحب انتشار المساجد مواظبة سكان السودان المسلمين على الصلوات وضربهم أولادهم عليها[8].

1- وصف إفريقيا، ج2، ص167.

2- ابن بطوطة: المصدر السابق، ص697- 698.

3- نفسه، ص698.

4- ابن بطوطة: المصدر السابق، ص698.

5- السهيلي: أبو إسحاق إبراهيم المعروف بابن الطويجن، من شعراء غرناطة، اشتغل في صغره موثّقا بسماط مدينة غرناطة، ويبدو أنه اهتم فيما بعد بهندسة البناء، ارتحل عن الأندلس إلى المشرق فحجَّ وهناك التقى بالمانسا موسى سلطان السودان سنة 724هـ- 1324م فاصطحبه معه إلى بلده، وهناك أراد المانسا أن يتخذ بيّتا في قاعدة سلطانه فأطرفه أبو إسحاق ببناء قبة مربعة الشكل استفرغ فيها إجادته وكان صَنَّاع اليدين وأضفى عليها من الكلس ووالى عليها بالأصباغ المشبعة فجاء من أتقن المباني، ووقعت من السلطان موقع الاستغراب لفقدان صناعة البناء بأرضهم، وقد استوطن ابن الطويجن مدينة تنبكتو إلى أن توفي بها يوم الاثنين 27 جمادى الأخيرة سنة 747هـ- 1346م وقيل سنة 744هـ- 1343م. ابن خلدون: المصدر السابق، مج2، ص1895/ ابن بطوطة: المصدر السابق، ص697، 701/ المقري: نفح الطيب، مج2، ص405/ محمود كعت: تاريخ الفتاش، ص81/ عبد الرحمن السعدي: المصدر السابق، ها1، ص124.

6- محمود كعت: المصدر السابق، ص82/ الحسن الوزان: المصدر السابق، ج2، ص165.

7- محمود كعت: المصدر نفسه، ها1، ص124/ جوان جوزيف: المرجع السابق، ص75.

8- ابن بطوطة: المصدر نفسه، ص698.

لم يكن لأهل السودان الغربي من الثقافة سوى الآداب المتمثلة في حكايات ممزوجة بالخرافة يتناقلونها بينهم بالمشافهة تروي بطولات الأجداد وأصول القبائل وحروب الملوك والصراع مع الطبيعة، ولمَّا اعتنقوا الإسلام واحتكُّوا بالمسلمين أصبحوا يُؤلفون بدورهم في التاريخ والفقه[1].

ومن عوامل انتشار الثقافة العربية الإسلامية مع المهاجرين دخول الكتب والمخطوطات التي استعمِلَت كمصادر ومراجع في التعليم أو كانت بمثابة سلعة تجارية، وتُعدُّ منطقة توات المموِّن الرئيس لبلاد السودان بهذه الكتب سواء الدينية منها كالفقه لحاجة الناس إليها أو غيرها من الكتب الأدبية والتاريخية لمَا توفَّرت عليه من خزائن ضخمة[2]، وقد ذكر ابن بطوطة بعد خروجه من مدينة تنبكتو أنه رأى عند أحد ملوك السودان كتاب المدهش في المواعظ وغرائب الأخبار لابن الجوزي (ت597هـ-1200م).

أدى دخول الكتب والمخطوطات وانتشار حركة التأليف إلى ظهور حرفة الوراقة التي نتج عنها رواج النَّسخ واهتمَّ الناس بجمع الكتب فنشأت عن ذلك العديد من المكتبات التي أصبحت بدورها كمصادر للعلم، ولعلَّ من أشهرهم أحمد بابا التنبكتي الذي أصبحت مؤلفاته في العقيدة والفقه والتاريخ مرجعا ليس بالنسبة لأهل السودان، بل لكافة الغرب الإسلامي[3].

أدى دخول الكتب والمخطوطات وانتشار حركة التأليف إلى ظهور حرفة الوراقة التي نتج عنها رواج النسخ فنشأت عن ذلك العديد من المكتبات التي أصبحت بدورها كمصادر للعلم، وقد أنشِئ لهذا الغرض " معهد أحمد بابا للدراسات العليا والبحوث الإسلامية " بجمهورية مالي سنة 2000م والذي يُعتبر كنتيجة للعلاقات التي ربطت بلاد المغرب ومنها المغرب الأوسط بهذا الجزء من بلاد السودان.

أمَّا بالنسبة للمذهب الإسلامي الذي انتشر في بلاد السودان فهو المذهب المالكي الذي أخذ به كل مسلمي الغرب الإسلامي تقريبا، وإذا كان ذلك بفضل المرابطين منذ القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر ميلادي فإنَّ إتمامه كان على يد المهاجرين، ومع منتصف القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر ميلادي أصبحت معظم مدن بلاد السودان الإسلامية مالكية المذهب مع وجود بعض المذاهب الأخرى وبخاصة الإباضي، وقد ذكر ابن بطوطة في رحلته أنَّ قرية زاغَري يسكنها جماعة من البيضان يذهبون مذهب الإباضية من

1- عبد القادر زبادية: المرجع السابق، ص81.

2- الحسن الوزان: نفسه، ج2، ص167/ ابن بابا حيدة: المرجع السابق، ص188/ عبد القادر زبادية: نفسه، ص36- 37.

3- محمدي محمد: **" الحياة العلمية في الساحل والصحراء من خلال أحمد بابا التنبكتي "** مجلة الثقافة الإسلامية، وزارة الشؤون الدينية والأوقاف، الجزائر، ع12، 1435هـ- 2014م، صص77- 92.

الخوارج ويُسمون صَغَنْغُو، والسُّنيون المالكيون يُسمون توري[1]، فطُبِعت الحياة في كثير من جوانبها بالطابع الإسلامي ومنها القضاء[2] وتنظيم الأسواق ... إلخ.

3- الميدان العمراني: تميَّزت معظم مدن بلاد السودان بالبساطة من حيث عمرانها، فكانت مدينة تنبكتو مثلا في أول الأمر عبارة عن زريبات أشواك وبيوت أخشاش، ثم تحوَّل الناس إلى بناء البيوت بالطين والحجارة وإقامة الحيطان والأسوار[3]، ويظهر أن ذلك كان بقدوم مهاجرين من مختلف المناطق ومنها المغرب الأوسط، وقد ذكرنا سابقا اهتمام ملوك السودان ببناء القصور ودور المهندسين والبنائين المهاجرين في تشييد المساجد.

إنَّ معالم تأثير الهجرة من المغرب الأوسط إلى بلاد السودان ولاسيما الغربي منه تبدو واضحة في عدة ميادين وذلك انطلاقا من منطقة توات بحكم قربها كما يكون هذا التأثير قد انتقل عبر تلمسان من خلال التجار، وما انتشار الإسلام والثقافة الإسلامية حتى اليوم إلا دليل على تلك العلاقة التاريخية.

1- رحلة ابن بطوطة، ص689.

2- تاريخ إفريقيا العام، مج4، ص213.

3- عبد الرحمن السعدي: تاريخ السودان، صص127- 129.


خاتمة

خاتمة: لم تنقطع الاتصالات بين المشرق وبلاد المغرب منذ الفتح الإسلامي إذ أصبح هذا الأخير ولاية من ولايات الدولة الإسلامية، ورغم ظهور الدول المستقلة لاحقا، فإنَّ العلاقة بينهما ظلت قائمة غالبا في شكل اعتراف وولاء سياسي أو روحي مذهبي، أما اجتماعيا وثقافيا فقد تواصلت حركة الرحلة والهجرة من المغرب إلى المشرق لطلب العلم أو الجهاد أو المجاورة بمكة والمدينة أو لأي أسباب وأهداف أخرى.

أما بالنسبة لبلاد الغرب الإسلامي، فإنَّ الهجرة بين أقاليمه ظلّت مستمرة كذلك سواء في الظروف العادية أو في فترات الاضطرابات السياسية والاختلافات المذهبية والأزمات الاقتصادية والتي كانت أكثر حجما بحكم القرب الجغرافي والعلاقات التاريخية.

إنَّ ما عاشه العالم الإسلامي من أحداث سياسية وفكرية خاصة ابتداءً من القرن السادس الهجري إلى نهاية العصر الوسيط كانت مجالا لاتساع نشاط الهجرة بما هيئته من ظروف ودوافع لذلك. وإذا كان المشرق الإسلامي قد تعرَّض للغزو الصليبي من الغرب منذ منتصف القرن الخامس الهجري/ أواخر القرن الحادي عشر الميلادي، ثم غزو التتار من الشرق خلال القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي، فإنَّ الغرب الإسلامي كان لحسن الحظ يشهد أكبر محاولة سياسية لتوحيد أقاليمه من خلال قيام دولة الموحدين التي تمكنت لأول مرة في تاريخ المنطقة كلها من جمع البلاد الممتدة من طرابلس إلى البحر المحيط إلى الأندلس تحت سلطة واحدة إلاّ أنَّ هذه الوحدة لم تدم سوى بضعة عقود، دخل بعدها الغرب الإسلامي في مرحلة خطيرة ومصيرية وهي مغرب ما بعد الموحدين، وليس ذلك بسبب ضياع كثير من مدن الأندلس الإسلامية فقط، وإنما لدرجة التردِّي والانحطاط السياسي الذي وصلت إليه المنطقة من تناحر واقتتال بلغت حد الاستعانة بالعدو الكافر على المسلم سواء في الأندلس، أو بين الدول الوارثة لعرش الموحدين في بلاد المغرب، التي انشغلت بالحروب في الوقت الذي بدأ فيه العالم المسيحي يستعد فيه لفتح باب النهضة، وفي ظل هذه الأحداث عاش المجتمع حالة من عدم الاستقرار كانت الهجرة أحد مظاهرها، إلا أنَّ هذه الظاهرة لم تكن بالضرورة مرتبطة تماما بالظروف التي ذكرناها بل هي مستقلة عنها في بعض جوانبها أو دوافعها، أي لا يجب أن نجعل الظروف السياسية والعسكرية وحدها المتحكّمة فيهاوإلاّ أصبحت الهجرة ظاهرة غير طبيعية.

قد يكون من المهم بالنسبة للهجرة ليس اعتبارها مجرَّد حركة انتقال للأفراد والجماعات من منطقة لأخرى، بل أنَّ أهمية أي ظاهرة اجتماعية تكمن في نتائجها وتداعياتها الإيجابية منها والسلبية آنيا أو مستقبلا، على المستوى المحلي أو الإقليمي وفي أي مجال من المجالات، وكيف تمّ التعامل معها من قِبل السلطة وأفراد المجتمع.

إنَّ حركة الهجرة التي عاشها المغرب الأوسط في الفترة موضوع الدراسة هي جزء من التفاعل والتطور الذي عرفه المجتمع على المستوى الداخلي أو ما طرأ عليه من مستجدَّات، ولنعود إلى بعض ما ذكرناه سابقا، فحركة بعض القبائل العربية مثلا تسبَّب في هجرة بعض القبائل البربرية لمواطنها، وقيام الدولة الموحدية أعطى فرصة الصعود لبني عبد الواد نحو التل، لكن لا يجب كما قلنا أن نربط ذلك كلية بالأوضاع والظروف السياسية، فثمة عوامل نفسية ودينية تدخل ضمن ذلك التطور.

من خلال فصول هذا البحث يُمكن أن نبدي بعض الملاحظات والاستنتاجات، اختصرتها في فقرات، مبتدئًا بالعامة منها إي ما تعلَّق بالعالم الإسلامي مشرقه ومغربه، ثم الخاصة بالمغرب الأوسط، والتي قد تكون بدورها مجالا للبحث والمناقشة.

* خضعت الهجرة في معظم فتراتها ومراحلها للظروف والأوضاع السياسية التي عاشتها منطقة الغرب الإسلامي عموما، سواء من خلال قيام الدولة الموحدية وما نتج عن ذلك من صراع مذهبي وفكري داخلي، أو من خلال حروب الموحدين ضد الصليبيين في إفريقية والأندلس وهزيمة العقاب التي مَّثلت نقطة التحوُّل في العلاقة بين عدوتي الغرب الإسلامي، أين ستشهد الأندلس هجرة غير مسبوقة نحو بلاد المغرب.

* تعدُّ هجرة الأندلسيين لبلدهم الأندلس إشكالا حضاريا وسياسيا واجتماعيا، وهنا قد يُطرح سؤال عارض: هل تُرجع الهجرة لأهل الأندلس أنفسهم الذين فرَّطوا في مدنهم وسلموها للعدو بسبب صراعهم ومنافستهم على المُلك، وهل يكون للفقهاء بعض المسؤولية في ذلك لدورهم السلبي في هذه القضية المصيرية، لاسيما وأنَّ النصارى كانوا مدفوعين برجال الدين، بينما راح الفقهاء يفتون بالخروج من بلاد الكفر ويُؤلفون في ذلك الكتب بدل الدعوة إلى الوحدة والمجابهة ؟ وهل يُمكن ربط ذلك بالثراء المادي والفني والأدبي الذي كانت نتيجته الدَّعة والركون إلى الراحة والتمتُّع بالملَّذات وترك الجهاد كما يرى البعض ؟ أم يعود إلى سياسة الدول التي حكمت أو حاولت حكم المنطقة ونقصد هنا بالذات الموحدين ثم المرينيين ؟ أم هي دورة طبيعية كان على الأندلس أن تصير إليها كما يرى ابن خلدون في قيام الدول وسقوطها ؟ ونحن هنا لسنا في مقام تحديد ومحاكمة من تسببوا في سقوط مدن الأندلس أو في تبرير ذلك وإنما محاولة إعطاء صورة متكاملة عن وضعية الأندلس السياسية والاجتماعية والتي أدى التمادي فيها إلى ما هو معروف.

* لا يجب أن ننظر إلى الهجرة بنظرة سلبية دائما أو نربطها بأوضاع وظروف سيئة كالحروب والفتن أو الأزمات الاقتصادية من مجاعات وغيرها، إذ تبدو أحيانا كحركة طبيعية للإنسان لاسيما إذا أدَّت إلى نتائج إيجابية كنشر الإسلام مثلا في بعض المناطق الوثنية كبلاد السودان، وإلى الترابط الاجتماعي والثقافي بين أقاليم العالم الإسلامي.

* يُلاحظ أنَّ مواقف المسلمين في كل أقاليم العالم الإسلامي إزَّاء من هاجر إليهم كانت متباينة إلى حد ما وبخاصة بين المشرق والمغرب، ففي الأندلس نلمس بعض الفتور والجفاء بين أهل هذه البلاد ومن هاجر إليهم وبصفة خاصة البربر، بينما بلغوا في المشرق مكانة رفيعة وخاصة، وقد يُفسَّر ذلك بنوعية فئة المهاجرين ودورهم وطبيعة نشاطهم وأهمية البلد المهاجر إليه، فأغلب الداخلين إلى الأندلس هم من العامة أو الجند وطبيعي أن يصدر منهم ما يُلامون عليه، في حين أنَّ من هاجر إلى المشرق هم العلماء وطلبة العلم، فسلوكهم الأدب والوقار، أما البلاد فهي إما أماكن مقدَّسة كالشام أو الحجاز أو أماكن علمية كالقاهرة أو تاريخية كبغداد والتي يصير المهاجر فيها إلى حالة من الصلاح والتقوى والابتعاد عن الفتن، كما لا ننسى الأعمال الجليلة التي قام بها المغاربة هناك سواء في الجهاد أو من خلال دورهم العلمي والمذهبي.

أما في بلاد المغرب فكان المهاجرون محل استغلال سياسي وعسكري، فالدولة الموحدية هجَّرت بعض القبائل العربية والبربرية إلى المغرب الأقصى والأندلس كمجندين للجهاد أو للقضاء على الثورات، ولنفس الغرض نقل بنو عبد الواد قبائل بني يزيد العربية إلى تلمسان لمواجهة قبائل المعقل، ثم استغلال هؤلاء كحلفاء لهم ضد الغزو المريني.

* ساهم بعض المهاجرون في إثراء الحياة العلمية من خلال حركة التأليف سواء في المجال الديني كالفقه والتفسير والحديث وغيره أو في مجالات أخرى كالتاريخ وهو ما يهمنا، سواء من خلال التأريخ لبلدانهم أو للبلدان التي استقروا بها، وبذلك أعطونا صورة أكثر وضوحا بحكم معرفتهم ببلدهم أو لقربهم من الملوك والسلاطين الذين خدموهم. أما بالنسبة للمغرب الأوسط وجاريه إفريقية والمغرب الأقصى فيمكن أن نورد الملاحظات الآتية:

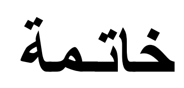
* بلغت بعض القبائل البربرية المهاجرة وبخاصة قبائل المغرب الأوسط درجة من النضج السياسي مكّنها من إقامة دول، ففي المغرب الأوسط أسَّس بنو عبد الواد دولتهم بعد صعودهم إلى التل، فيما تمكّن بنو مرين من تأسيس دولتهم بعد دخولهم المغرب الأقصى وكلاهما من بطون بني واسين، فهل يكون إخوانهم بنو توجين قد حولوا مجاراتهم وتأسيس ملكا خاصا بهم وهو ما أدخلهم في صراع ضدهم ؟ وعليه يمكن اعتبار هذا التطور السياسي كنتيجة إيجابية للهجرة بحيث نقلت هذه القبائل من حياة البداوة والظعن إلى حياة الاستقرار والتحضُّر، بينما لم يتمكّن العرب من ذلك باستثناء إمارة بني مزني ببسكرة.

* انطوت الهجرة أحيانا على أبعاد وأهداف سياسية والتي يكون مخُطّط لها أحيانا، وقد أشرنا في الفصل الثاني إلى ما قام به عبد المؤمن من إدخال قبيلة كومية إلى المغرب الأقصى، ونفس الهدف سعى إليه المرينيون وهو محاولة احتواء المغرب الأوسط من خلال استقبال الكثير من علمائه أو إيواء المعارضين لسلاطين بني عبد الواد أو ممن يُرجى منهم

التعاون أو قبول نفوذهم لاسيما في ظل السياسة المعروفة لسلاطين بني مرين اتجاه المغرب الأوسط.

* يُمكن القول أنَّ الهجرة التي تمت في العهدين الموحدي والزياني قد أعطت صورة شبه نهائية للمكوِّن السكاني للمغرب الأوسط لأنه سيتلقى مجموعات بشرية في شكل هجرات وبأعداد أكثر وذلك بعد سقوط غرناطة أواخر القرن التاسع الهجري/ القرن الخامس عشر الميلادي وهي الصورة التي استقرَّ عليها حتى العصر الحديث.

وفي الأخير لا أحسَبُ نفسي أني وفّيتُ الموضوع حقَّه ففيه من النقص ما فيه، وكما يُقال فالمعايب ليست بقليلة، ولكن عين الرضا عن كل عَيبٍ كليلة. وعليه قد تكون بعض عناصر هذه الأطروحة بدورها مجالا للبحث والإثراء.



خاتمة

خاتمة

لم تنقطع الاتصالات بين المشرق وبلاد المغرب منذ الفتح الإسلامي إذ أصبح هذا الأخير ولاية من ولايات الدولة الإسلامية، ورغم ظهور الدول المستقلة لاحقا، فإنَّ العلاقة بينهما ظلت قائمة غالبا في شكل اعتراف وولاء سياسي أو روحي مذهبي، أما اجتماعيا وثقافيا فقد تواصلت حركة الرحلة والهجرة من المغرب إلى المشرق لطلب العلم أو الجهاد أو المجاورة بمكة والمدينة أو لأي أسباب وأهداف أخرى.

أما بالنسبة لبلاد الغرب الإسلامي، فإنَّ الهجرة بين أقاليمه ظلَّت مستمرة كذلك سواء في الظروف العادية أو في فترات الاضطرابات السياسية والاختلافات المذهبية والأزمات الاقتصادية والتي كانت أكثر حجما بحكم القرب الجغرافي والعلاقات التاريخية.

إنَّ ما عاشه العالم الإسلامي من أحداث سياسية وفكرية خاصة ابتداءً من القرن السادس الهجري إلى نهاية العصر الوسيط كانت مجالا لاتساع نشاط الهجرة بما هيئته من ظروف ودوافع لذلك. وإذا كان المشرق الإسلامي قد تعرَّض للغزو الصليبي من الغرب منذ منتصف القرن الخامس الهجري/ أواخر القرن الحادي عشر الميلادي، ثم غزو التتار من الشرق خلال القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي، فإنَّ الغرب الإسلامي كان لحسن الحظ يشهد أكبر محاولة سياسية لتوحيد أقاليمه من خلال قيام دولة الموحدين التي تمكنت لأول مرة في تاريخ المنطقة كلها من جمع البلاد الممتدة من طرابلس إلى البحر المحيط إلى الأندلس تحت سلطة واحدة، إلاّ أنَّ هذه الوحدة لم تدم سوى بضعة عقود، دخل بعدها الغرب الإسلامي في مرحلة خطيرة ومصيرية وهي مغرب ما بعد الموحدين، وليس ذلك بسبب ضياع كثير من مدن الأندلس الإسلامية فقط، وإنما لدرجة التردِّي والانحطاط السياسي الذي وصلت إليه المنطقة من تناحر واقتتال بلغت حد الاستعانة بالعدو الكافر على المسلم سواء في الأندلس، أو بين الدول الوارثة لعرش الموحدين في بلاد المغرب، التي انشغلت بالحروب في الوقت الذي بدأ فيه العالم المسيحي يستعد فيه لفتح باب النهضة، وفي ظل هذه الأحداث عاش المجتمع حالة من عدم الاستقرار كانت الهجرة أحد مظاهرها، إلا أنَّ هذه الظاهرة لم تكن بالضرورة مرتبطة تماما بالظروف التي ذكرناها بل هي مستقلة عنها في بعض جوانبها أو دوافعها، أي لا يجب أن نجعل الظروف السياسية والعسكرية وحدها المتحكّمة فيها وإلاّ أصبحت الهجرة ظاهرة غير طبيعية.

قد يكون من المهم بالنسبة للهجرة ليس اعتبارها مجرَّد حركة انتقال للأفراد والجماعات من منطقة لأخرى، بل أنَّ أهمية أي ظاهرة اجتماعية تكمن في نتائجها وتداعياتها الإيجابية منها والسلبية آنيا أو مستقبلا، على المستوى المحلي أو الإقليمي وفي أي مجال من المجالات، وكيف تمّ التعامل معها من قِبل السلطة وأفراد المجتمع.

إنَّ حركة الهجرة التي عاشها المغرب الأوسط في الفترة موضوع الدراسة هي جزء من التفاعل والتطور الذي عرفه المجتمع على المستوى الداخلي أو ما طرأ عليه من مستجدَّات، ولنعود إلى بعض ما ذكرناه سابقا، فحركة بعض القبائل العربية مثلا تسبَّب في هجرة بعض القبائل البربرية لمواطنها، وقيام الدولة الموحدية أعطى فرصة الصعود لبني عبد الواد نحو التل، لكن لا يجب كما قلنا أن نربط ذلك كلية بالأوضاع والظروف السياسية، فثمة عوامل نفسية ودينية تدخل ضمن ذلك التطور.

من خلال فصول هذا البحث يُمكن أن نبدي بعض الملاحظات والاستنتاجات، اختصرتها في فقرات، مبتدئًا بالعامة منها إي ما تعلَّق بالعالم الإسلامي مشرقه ومغربه، ثم الخاصة بالمغرب الأوسط، والتي قد تكون بدورها مجالا للبحث والمناقشة.

* خضعت الهجرة في معظم فتراتها ومراحلها للظروف والأوضاع السياسية التي عاشتها منطقة الغرب الإسلامي عموما، سواء من خلال قيام الدولة الموحدية وما نتج عن ذلك من صراع مذهبي وفكري داخلي، أو من خلال حروب الموحدين ضد الصليبيين في إفريقية والأندلس وهزيمة العقاب التي مَّثلت نقطة التحوُّل في العلاقة بين عدوتي الغرب الإسلامي، أين ستشهد الأندلس هجرة غير مسبوقة نحو بلاد المغرب.

* تعدُّ هجرة الأندلسيين لبلدهم للأندلس حضاريا وسياسيا واجتماعيا، وهنا قد يُطرح سؤال عارض: هل تُرجع الهجرة لأهل الأندلس أنفسهم الذين فرَّطوا في مدنهم وسلموها للعدو بسبب صراعهم ومنافستهم على الـمُلك، وهل يكون للفقهاء بعض المسؤولية في ذلك لدورهم السلبي في هذه القضية المصيرية، لاسيما وأنَّ النصارى كانوا مدفوعين برجال الدين، بينما راح الفقهاء يفتون بالخروج من بلاد الكفر ويُؤلفون في ذلك الكتب بدل الدعوة إلى الوحدة والمجابهة ؟ وهل يُمكن ربط ذلك بالثراء المادي والفني والأدبي الذي كانت نتيجته الدَّعة والركون إلى الراحة والتمتُّع بالملَّذات وترك الجهاد كما يرى البعض ؟ أم يعود إلى سياسة الدول التي حكمت أو حاولت حكم المنطقة ونقصد هنا بالذات الموحدين ثم المرينيين ؟ أم هي دورة طبيعية كان على الأندلس أن تصير إليها كما يرى ابن خلدون في قيام الدول وسقوطها ؟ ونحن هنا لسنا في مقام تحديد ومحاكمة من تسببوا في سقوط مدن الأندلس أو في تبرير ذلك وإنما محاولة إعطاء صورة متكاملة عن وضعية الأندلس السياسية والاجتماعية والتي أدى التمادي فيها إلى ما هو معروف.

* لا يجب أن ننظر إلى الهجرة بنظرة سلبية دائما أو نربطها بأوضاع وظروف سيئة كالحروب والفتن أو الأزمات الاقتصادية من مجاعات وغيرها، إذ تبدو أحيانا كحركة طبيعية للإنسان لاسيما إذا أدَّت إلى نتائج إيجابية كنشر الإسلام مثلا في بعض المناطق الوثنية كبلاد السودان، وإلى الترابط الاجتماعي والثقافي بين أقاليم العالم الإسلامي.

* يُلاحظ أنَّ مواقف المسلمين في كل أقاليم العالم الإسلامي إزَّاء من هاجر إليهم كانت متباينة إلى حد ما وبخاصة بين المشرق والمغرب، ففي الأندلس نلمس بعض الفتور والجفاء بين أهل هذه البلاد ومن هاجر إليهم وبصفة خاصة البربر، بينما بلغوا في المشرق مكانة رفيعة وخاصة، وقد يُفسَّر ذلك بنوعية فئة المهاجرين ودورهم وطبيعة نشاطهم وأهمية البلد المهاجر إليه، فأغلب الداخلين إلى الأندلس هم من العامة أو الجند وطبيعي أن يصدر منهم ما يُلامون عليه، في حين أنَّ من هاجر إلى المشرق هم العلماء وطلبة العلم، فسلوكهم الأدب والوقار، أما البلاد فهي إما أماكن مقدَّسة كالشام أو الحجاز أو أماكن علمية كالقاهرة أو تاريخية كبغداد والتي يصير المهاجر فيها إلى حالة من الصلاح والتقوى والابتعاد عن الفتن، كما لا ننسى الأعمال الجليلة التي قام بها المغاربة هناك سواء في الجهاد أو من خلال دورهم العلمي والمذهبي.

أما في بلاد المغرب فكان المهاجرون محل استغلال سياسي وعسكري، فالدولة الموحدية هجَّرت بعض القبائل العربية والبربرية إلى المغرب الأقصى والأندلس كمجندين للجهاد أو للقضاء على الثورات، ولنفس الغرض نقل بنو عبد الواد قبائل بني يزيد العربية إلى تلمسان لمواجهة قبائل المعقل، ثم استغلال هؤلاء كحلفاء لهم ضد الغزو المريني.

* ساهم بعض المهاجرون في إثراء الحياة العلمية من خلال حركة التأليف سواء في المجال الديني كالفقه والتفسير والحديث وغيره أو في مجالات أخرى كالتاريخ وهو ما يهمنا، سواء من خلال التأريخ لبلدانهم أو للبلدان التي استقروا بها، وبذلك أعطونا صورة أكثر وضوحا بحكم معرفتهم ببلدهم أو لقربهم من الملوك والسلاطين الذين خدموهم. أما بالنسبة للمغرب الأوسط وجاريه إفريقية والمغرب الأقصى فيمكن أن نورد الملاحظات الآتية:

* بلغت بعض القبائل البربرية المهاجرة وبخاصة قبائل المغرب الأوسط درجة من النضج السياسي مكّنها من إقامة دول، ففي المغرب الأوسط أسَّس بنو عبد الواد دولتهم بعد صعودهم إلى التل، فيما تمكّن بنو مرين من تأسيس دولتهم بعد دخولهم المغرب الأقصى وكلاهما من بطون بني واسين، فهل يكون إخوانهم بنو توجين قد حولوا مجاراتهم وتأسيس ملكا خاصا بهم وهو ما أخلهم في صراع ضدهم ؟ وعليه يمكن اعتبار هذا التطور السياسي كنتيجة إيجابية للهجرة بحيث نقلت هذه القبائل من حياة البداوة والظعن إلى حياة الاستقرار والتحضُّر، بينما لم يتمكّن العرب من ذلك باستثناء إمارة بني مزني ببسكرة.

* انطوت الهجرة أحيانا على أبعاد وأهداف سياسية والتي يكون قد مُخُطِّط لها وقد أشرنا في الفصل الثاني إلى ما قام به عبد المؤمن من إدخال قبيلة كومية إلى المغرب الأقصى، ونفس الهدف سعى إليه المرينيون وهو محاولة احتواء المغرب الأوسط من خلال استقبال الكثير

من علمائه أو إيواء المعارضين لسلاطين بني عبد الواد أو ممن يُرجى منهم التعاون أو قبول نفوذهم لاسيما في ظل السياسة المعروفة لسلاطين بني مرين اتجاه المغرب الأوسط.

* يُمكن القول أنَّ الهجرة التي تمت في العهدين الموحدي والزياني قد أعطت صورة شبه نهائية للمكوِّن السكاني للمغرب الأوسط لأنه سيتلقى مجموعات بشرية في شكل هجرات وبأعداد أكثر وذلك بعد سقوط غرناطة أواخر القرن التاسع الهجري/ القرن الخامس عشر الميلادي وهي الصورة التي استقرَّ عليها حتى العصر الحديث.

وفي الأخير لا أحسَبُ نفسي أني وفَّيتُ الموضوع حقَّه ففيه من النقص ما فيه، وكما يُقال فالمعايب ليست بقليلة، ولكن عين الرضا عن كل عَيبٍ كليلة. وهي محاولة جادة للمساهمة في إثراء هذا الموضوع وليكون مرجعا لطلبة الليسانس في تاريخ المغرب الأوسط وفي مثل هذا التخصُّص بالذات

الملاحق

الملحق رقم: 01.

توزيع البركة على العرب وعلى الموحدين.

المبلغ / الصفة	العرب	الموحدون
الفارس الكامل	25 دينار	10 دينار
الفارس غير الكامل	15دينار	08 دينار
الرجل الكامل	07 دينار	05 دينار
الرجل غير الكامل	—	03 دينار
شيوخ العرب	50 دينار	—
رؤساء القبائل	200 دينار	—

المصدر: ابن صاحب الصلاة: المن بالإمامة، ص 348.

يتضح من خلال الجدول أن الخلفاء الموحدين كانوا يفضلون العرب على قبائل الموحدين في توزيع البركة كأسلوب لجلب العرب وتشجيعهم على الهجرة إلى المغرب الأقصى والأندلس.

الملحق رقم:02

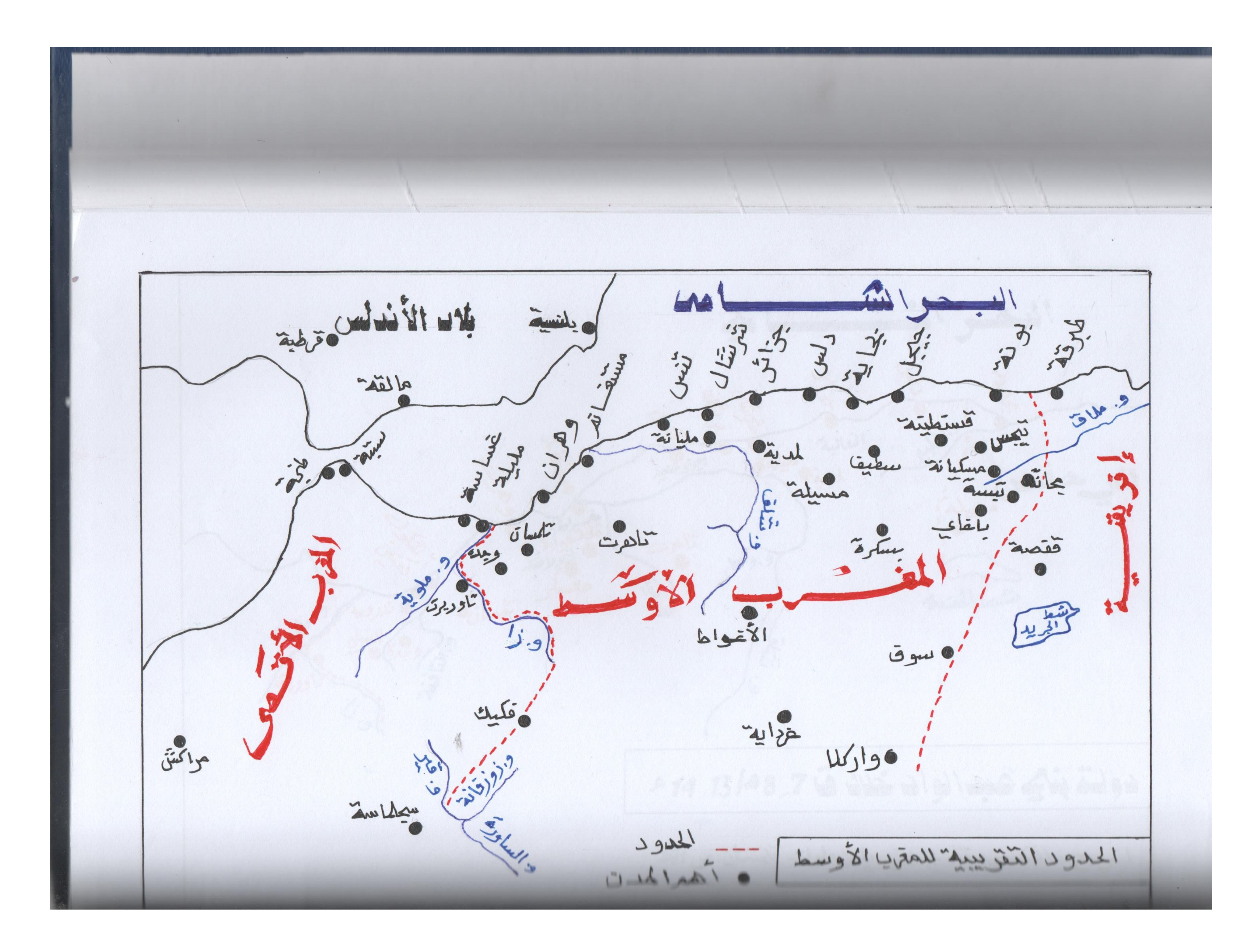
جدول يمثل هجرة بعض القبائل العربية خلال القرنين السادس والسابع الهجريين إلى منطقة توات.

سنة القدوم	القبائل
550هـ- 1155م	شرفاء الحموديون
550هـ- 1155م	أولاد عليش
608هـ- 1211م	أولاد أحمد عزي
609هـ- 1212م	أولاد عبو
640هـ- 1242م	أولاد الصابون
656هـ- 1258م	البرامكة
660هـ- 1261م	أولاد عثمان
673هـ- 1274م	أولاد علي
675هـ- 1276م	المحاجب
698هـ- 1299م	قبيلة أحزوم

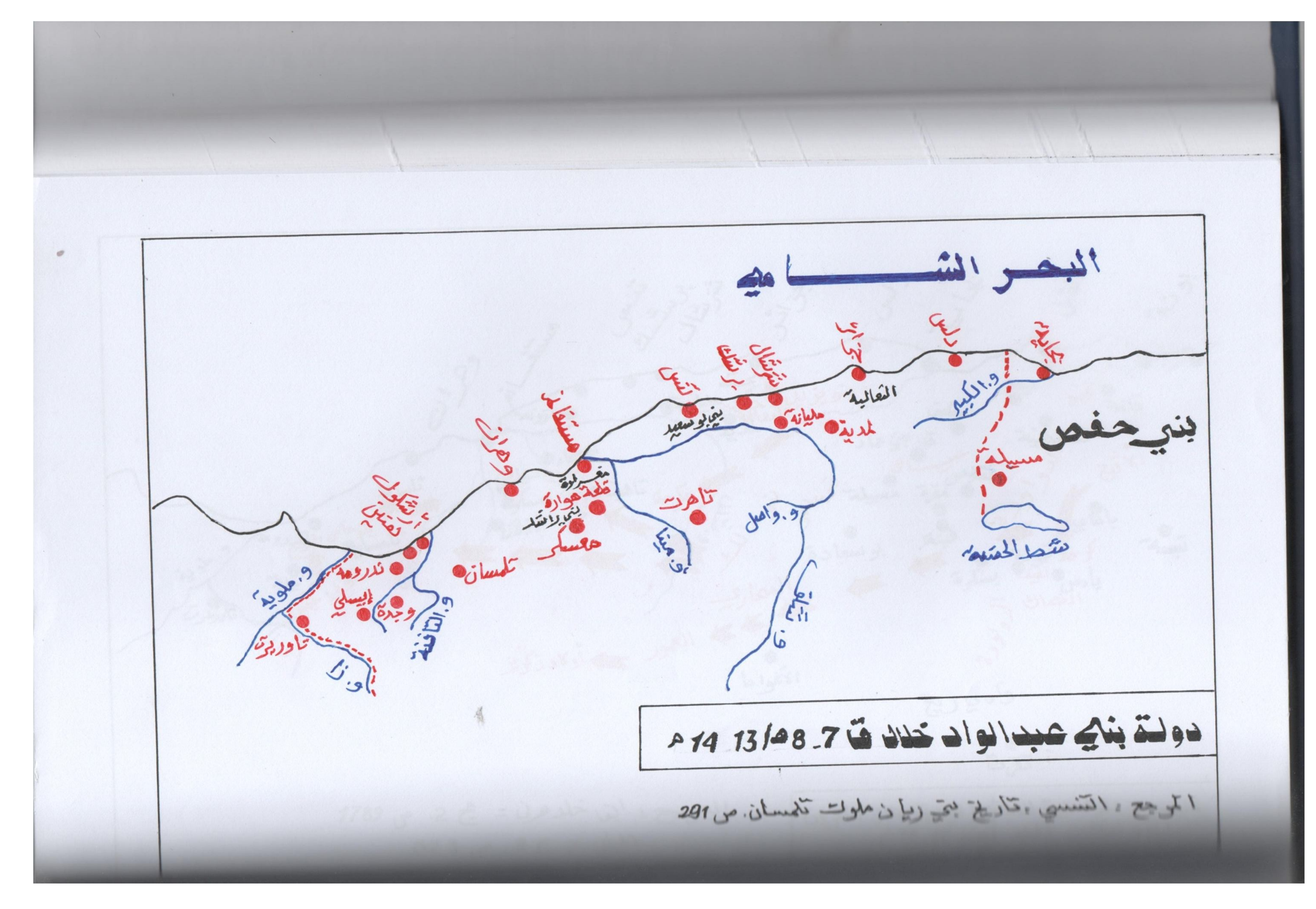
المرجع: الشيخ محمد باي بلعالم: الرحلة العلية إلى منطقة توات، ج1، ص111/ ج2، ص522.

تعد منطقة توات من أهم المناطق التي استقبلت هجرات عربية وبربرية في فترات مختلفة وذلك لوفرة الأمن وبعدها عن السلطان ووقوعها على الطريق التجاري نحو بلاد السودان.

الخرائط

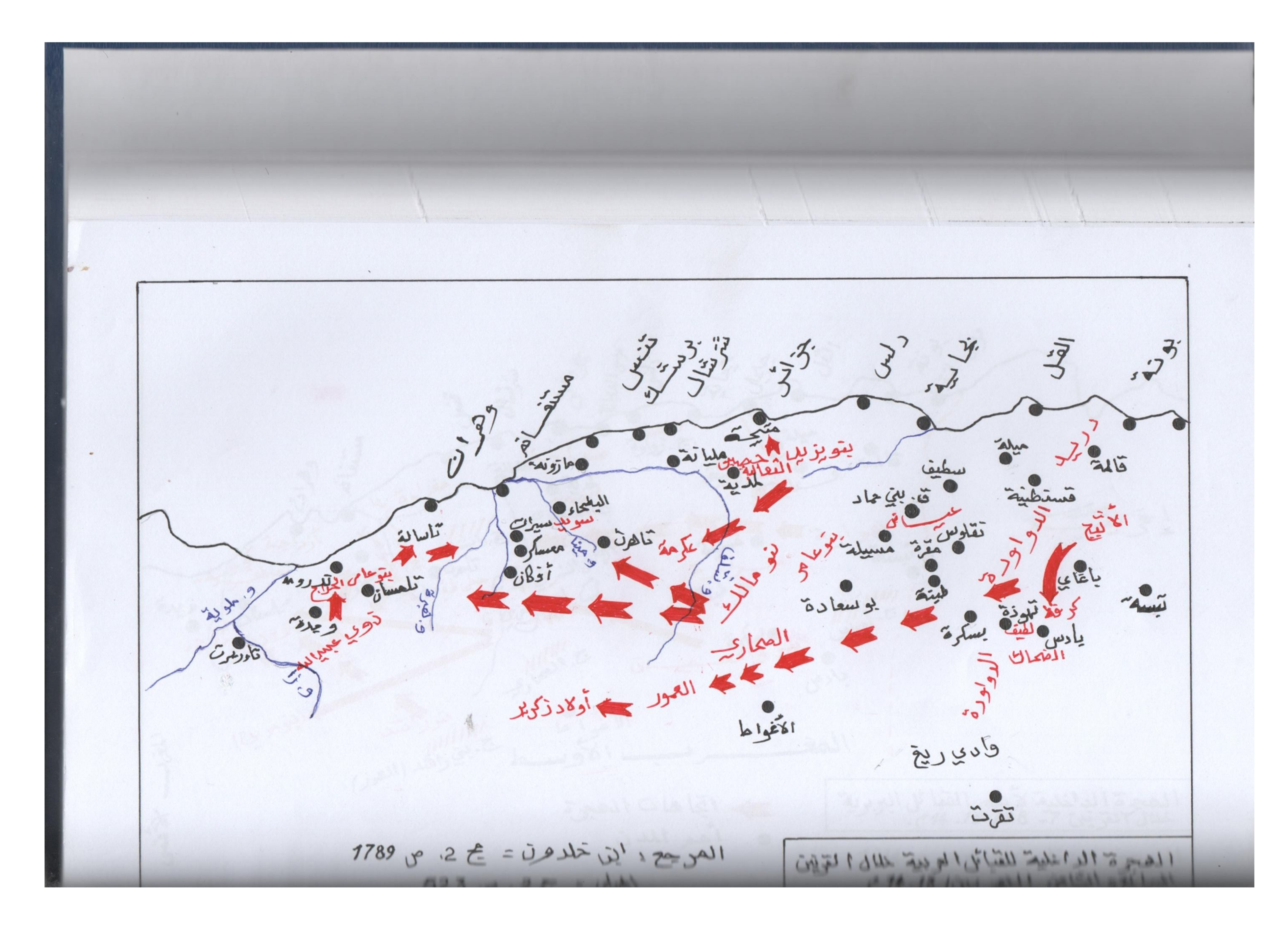


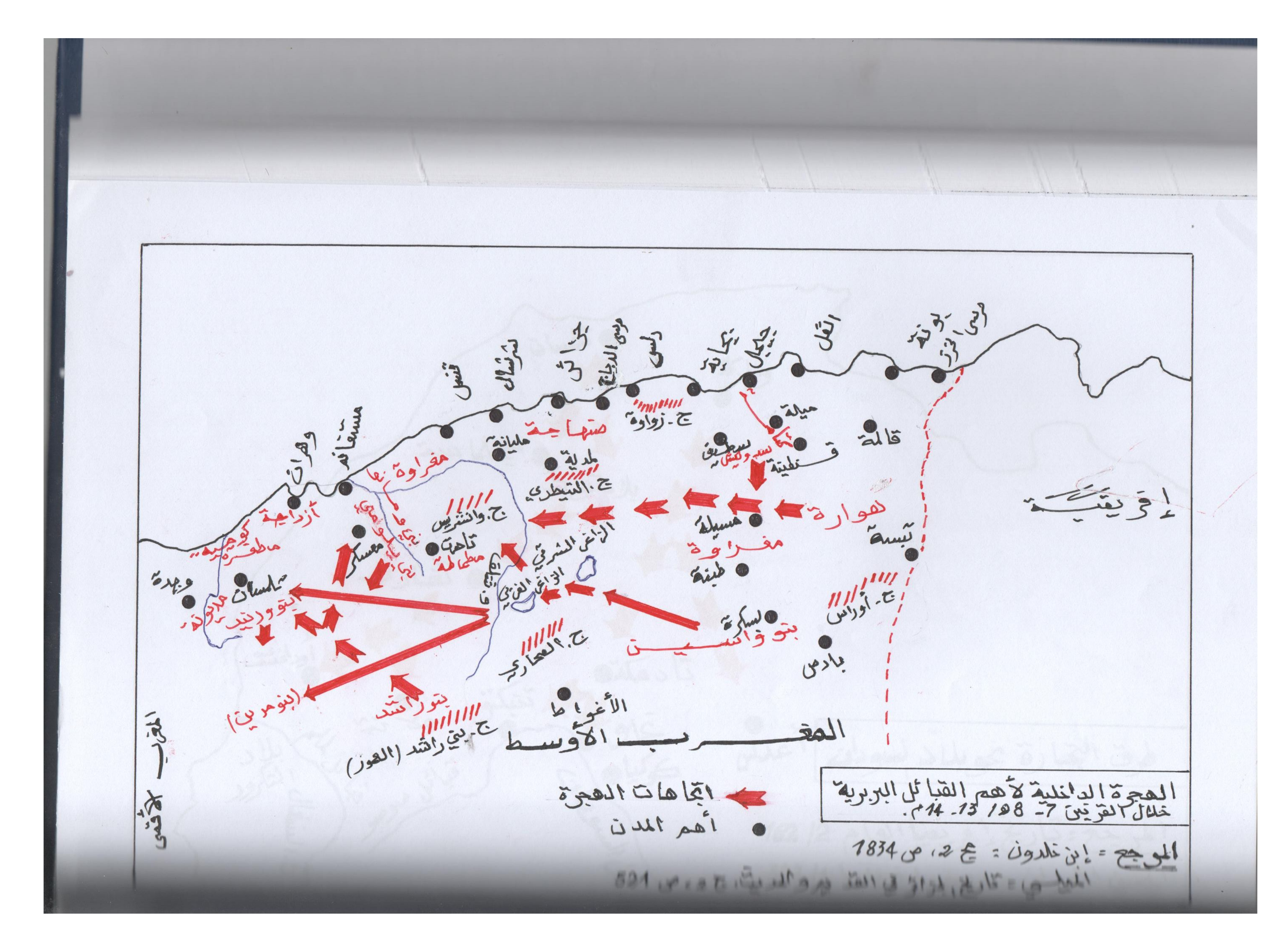
البحر الشامي
بلاد الأندلس
بلنسية
قرطبة
مالقة
سبتة
طنجة
غساسة
مليلة
وهران
مستغانم
تنس
مليانة
تنرشتال
جزائر
دلس
بجاية
جيجل
بونة
طبرقة
قسنطينة
تبسة
مسكيانة
سطيف
مدية
مسيلة
بسكرة
تيهرت
تلمسان
وجدة
تاوريرت
و. ملوية
و. زا
فكيك
مراكش
سجلماسة
وزوزفانة
و. الساورة
الأغواط
سوق
ورايلة
واركلا
قفصة
شط الجريد
و. ملاق
المغرب الأقصى
المغرب الأوسط
إفريقية
الحدود
أهم المدن
الحدود التقريبية للمغرب الأوسط

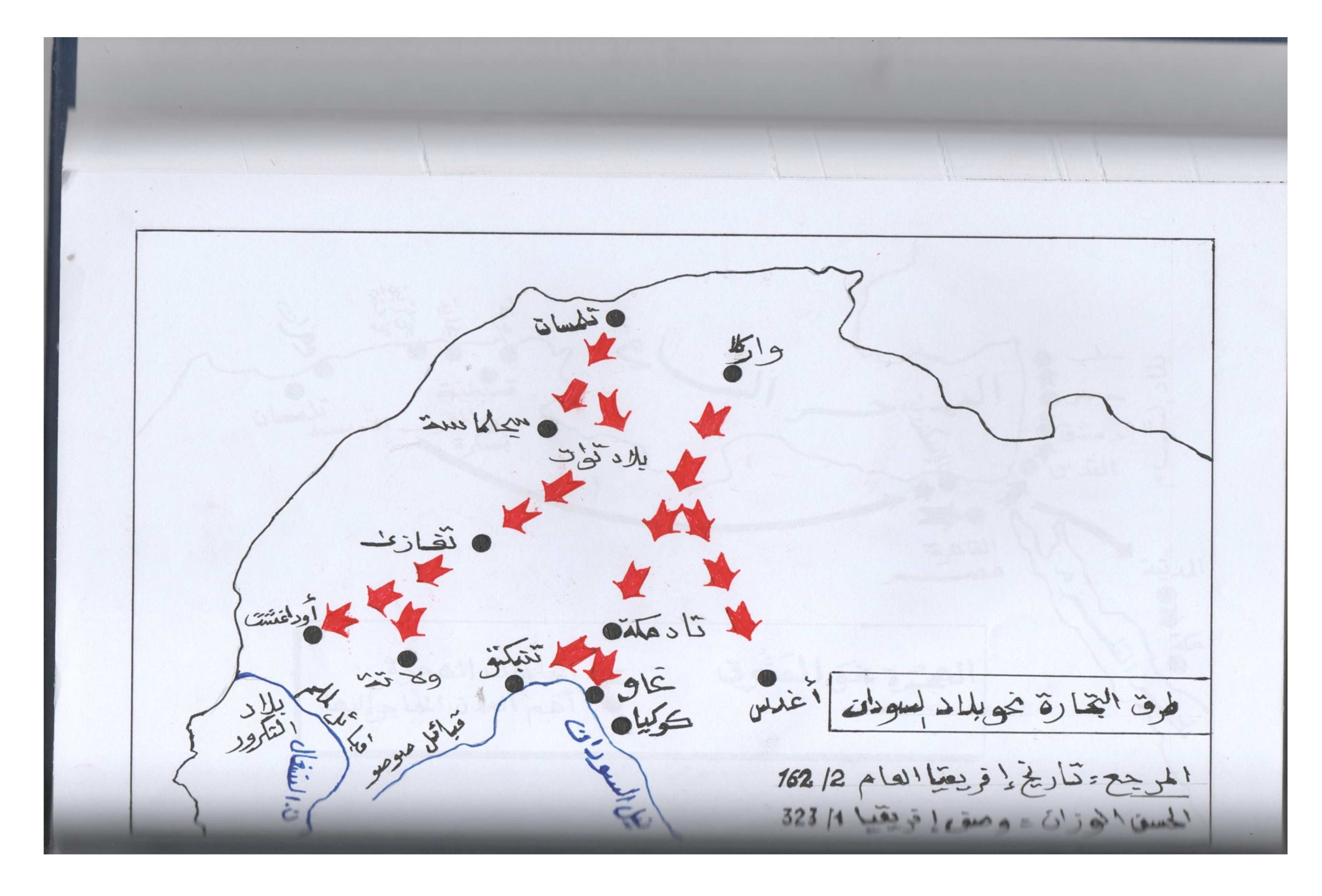


دولة بني عبد الواد خلال ق 7-8 هـ/13-14 م

المرجع : التنسي ، تاريخ بني زيان ملوك تلمسان، ص 281


الهجرة الداخلية للقبائل العربية خلال القرنين
المرجع : ابن خلدون = ج 2، ص 1789
وهران
مستغانم
تنس
برشك
شرشال
جزائر
دلس
بجاية
القل
بونة
تاورطرت
وجدة
تلمسان
ندرومة
تاسالة
مازونة
البطحاء
سيرات
معسكر
أوزكان
تاهرت
مليانة
متيجة
المدية
سطيف
ق. بني حماد
مسيلة
تقاوس
مقرة
طبنة
بوسعادة
بسكرة
تهودة
بادس
باغاي
قسنطينة
ميلة
قالمة
تبسة
الأغواط
وادي ريغ
تقرت
و. ملوية
ذوي عبيد الله
بنو عامر
عكرمة
سويد
يتوبزيد
حصين
الثعالبة
بنو مالك
بنو عامر
عياض
الدواودة
الأثبج
كرفة
لطيف
الضحاك
الدواودة
دريد
الصحاري
العمور
أولاد زكرير

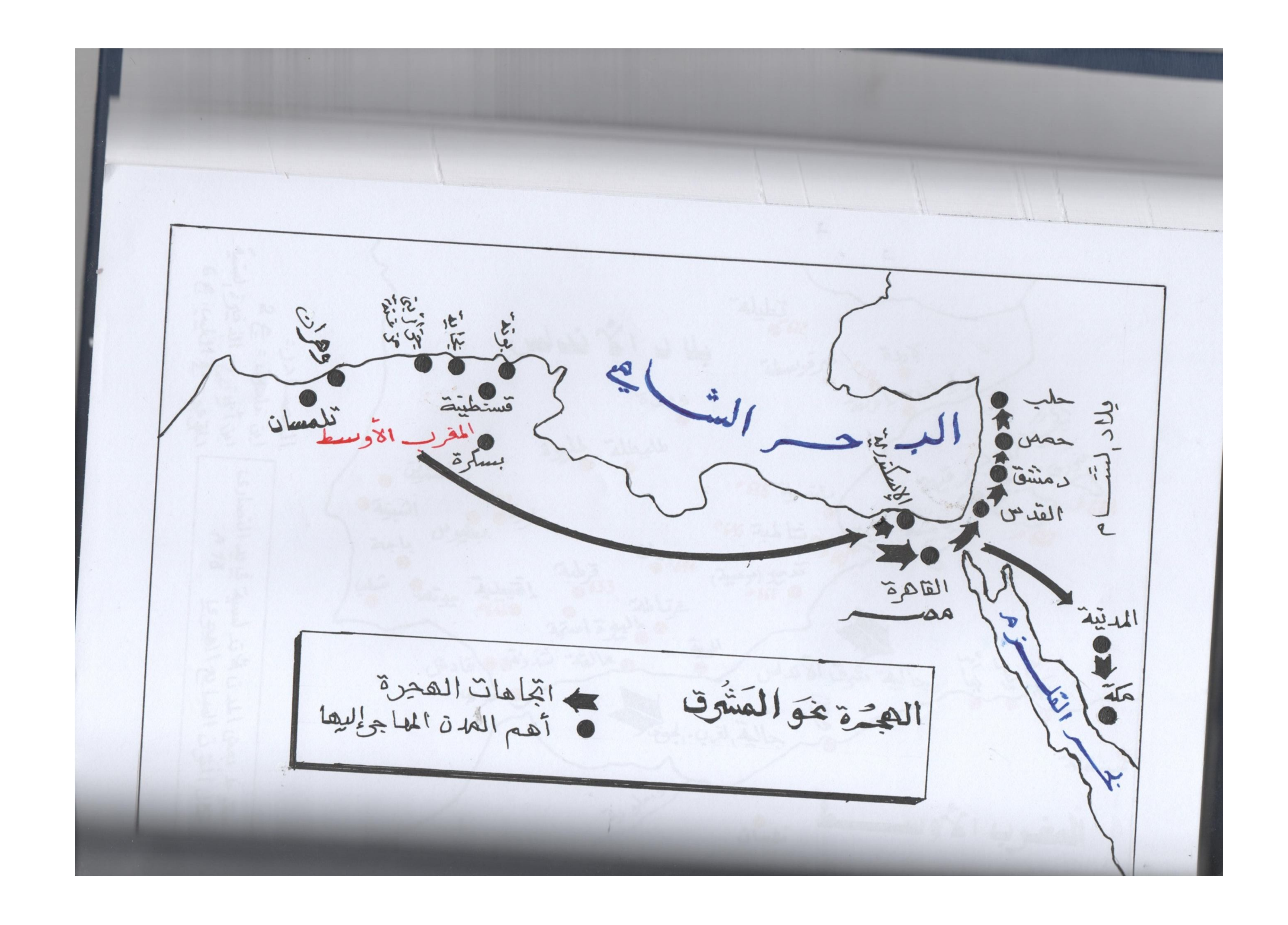

الهجرة الداخلية لأهم القبائل البربرية
خلال القرنين 7- 8هـ/ 13- 14م.
اتجاهات الهجرة
أهم المدن
المرجع = ابن خلدون : ج 2، ص 1834
المغرب الأوسط
المغرب الأقصى
إفريقية
وجدة
تلمسان
وهران
مستغانم
تنس
شرشال
مليانة
الجزائر
مرسى الدجاج
دلس
بجاية
جيجل
القل
بونة
مرسى الخرز
ميلة
قسنطينة
سطيف
قالمة
تبسة
المسيلة
طبنة
بسكرة
بادس
الأغواط
تاهرت
معسكر
المدية
ج. زواوة
ج. التيطري
ج. وانشريس
ج. أوراس
ج. العمارى
ج. بني راشد (العمور)
صنهاجة
مغراوة
هوارة
مطماطة
بنو واسين
بنو راشد
بنو توجين
الزاغر الشرقي
الزاغر الغربي

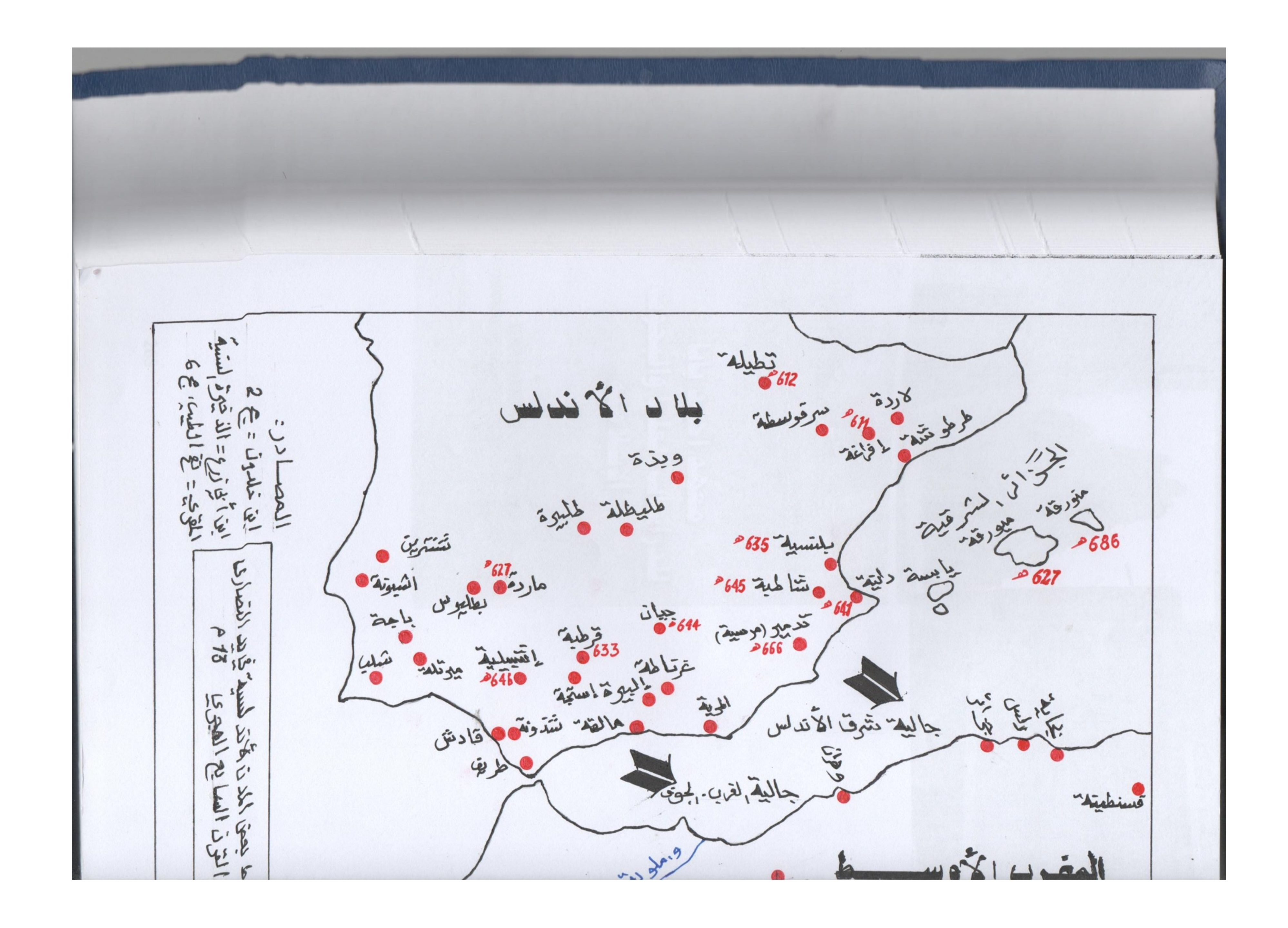


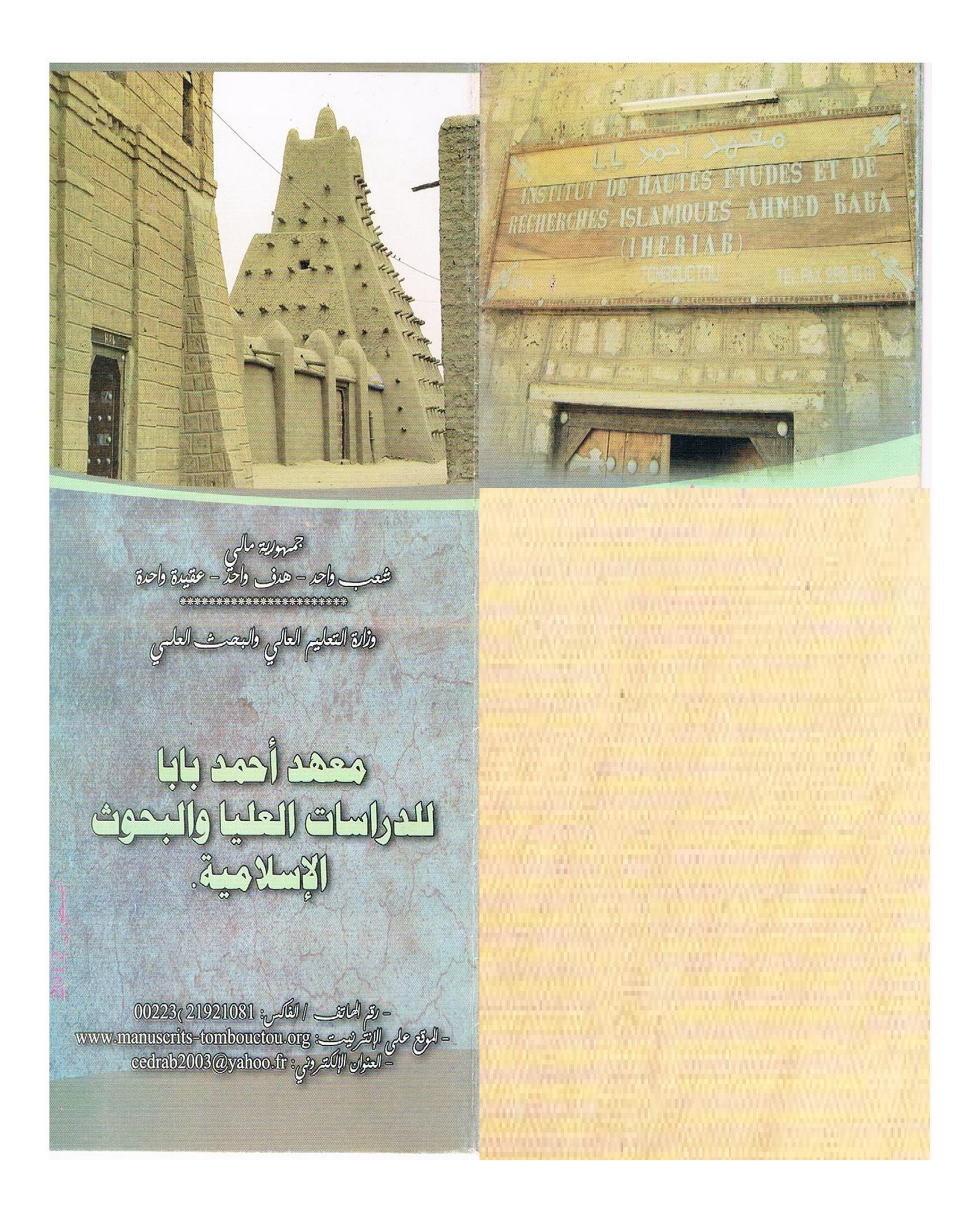
طرق التجارة نحو بلاد السودان

المرجع: تاريخ إفريقيا العام 2/ 162

الحسن الوزان = وصف إفريقيا 1/ 323


البحر الشامي
وهران
تلمسان
قسنطينة
بجاية
بونة
المغرب الأوسط
بسكرة
الإسكندرية
القاهرة
مصر
بلاد الشام
حلب
حمص
دمشق
القدس
المدينة
مكة
بحر القلزم
الهجرة نحو المشرق
اتجاهات الهجرة
أهم المدن المهاجر إليها


بلاد الأندلس
المغرب الأوسط
تطيلة 612هـ
لاردة
سرقوسطة
طرطوشة
إفراغة
ويذة
طليطلة
طلبيرة
بلنسية 635هـ
شاطبة 645هـ
دانية 641هـ
تدمير (مرسية) 666هـ
جيان 644هـ
قرطبة 633هـ
غرناطة
البيرة
استجة
المرية
مالقة
شذونة
قادش
طريف
إشبيلية 646هـ
ماردة 627هـ
بطليوس
الشبونة
باجة
شلب
ميرتلة
يابسة
ميورقة 627هـ
منورقة 686هـ
جالية شرق الأندلس
جالية الغرب الجوفي
وهران
بجاية
تدلس
قسنطينة
المصادر:
ابن خلدون ج 2


معهد أحمد بابا
INSTITUT DE HAUTES ETUDES ET DE
RECHERCHES ISLAMIQUES AHMED BABA
(IHERIAB)
TOMBOUCTOU
جمهورية مالي
شعب واحد - هدف واحد - عقيدة واحدة
****
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
معهد أحمد بابا
للدراسات العليا والبحوث
الإسلامية.
- رقم الهاتف / الفاكس: 21921081)00223
- الموقع على الإنترنيت: www.manuscrits-tombouctou.org
- العنوان الإلكتروني: cedrab2003@yahoo.fr

الفهارس

فهرس الأعلام.

فهرس القبائل.

فهرس الأماكن.

المصادر والمراجع المعتمدة في البحث

- القرآن الكريم برواية ورش.

كتب التفسير:

- **ابن كثير** عماد الدين أبي الفداء إسماعيل القرشي الدمشقي (ت774هـ - 1372م)، دار الثقافة، الجزائر، ط1، 1410هـ- 1990م.

كتب الحديث:

- **البخاري** أبو عبد الله محمد بن إسماعيل (ت256هـ- 870م): صحيح البخاري، ضبط النص محمود محمد محمود وحسن نصار، دار الكتب العلمية، بيروت، ط5، 1428هـ- 2007م.

- **الشوكاني** محمد بن علي بن محمد (ت1250هـ- 1834م): نيل الأوطار من أسرار منتقى الأخبار، دار ابن حزم، بيروت، ط1، 1421هـ- 2000م.

- **مالك** أبو عبد الله بن أنس بن مالك بن أبي عامر (ت179هـ- 795م): الموطَّأ، رواية يحي بن يحي الليثي، تعليق الشيخ محمد فؤاد عبد الباقي، دار ابن الجوزي، القاهرة، ط1، 1432هـ- 2011م.

- **النووي** أبي زكريا محي الدين يحي بن شرف (ت676هـ- 1277م): صحيح رياض الصالحين، هذبه وحققه وضبطه أبو أسامة سليم بن عيد بن محمد الهلالي، مؤسسة غراس، الكويت، دت.

أولا: المصادر باللغة العربية:

1- ابن الأبار أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي بكر (ت658هـ- 1260م): تحفة القادم، تحقيق وتعليق إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1406هـ- 1986م.

2- ابن الأبار: الحلة السيراء، تحقيق علي إبراهيم محمود، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1428هـ 2008م.

3- ابن الأبار: الحلة السيراء، حققه وعلق حواشيه حسين مؤنس، دار المعارف، القاهرة، ط،2، 1985م.

4- ابن الأبار: التكملة لكتاب الصلة، طبع وتعليق ألفريد بل وابن أبي شنب، المطبعة الشرقية، الجزائر، 1338هـ- 1919م.

5- ابن الأثير أبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن عبد الكريم (ت630هـ- 1233م): الكامل في التاريخ، اعتنى به محمد العرب، المكتبة العصرية، بيروت، 1430هـ- 2009م.

6- ابن الأحمر أبو الوليد إسماعيل بن يوسف الخزرجي الأنصاري (ت807هـ - 1404م): تاريخ الدولة الزيانية، تحقيق هاني سلامة، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ط1، 1421هـ - 2001م.

7- ابن الأحمر: بيوتات فاس الكبرى، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، 1972م.

8- إدريس عماد الدين الداعي اليمني (ت872هـ- 1468م): تاريخ الخلفاء الفاطميين بالمغرب وهو السبع الخامس من كتاب عيون الأخبار وفنون الآثار، تحقيق محمد اليعلاوي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط2، 2006م.

9- الإدريسي أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله الشريف (ت558هـ- 1163م): نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، نشر مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ط1، 1431هـ- 2010م.

10- **الأصطخري** أبو إسحاق إبراهيم بن محمد الكرخي الفارسي (ت346هـ- 957م): المسالك والممالك، مطبعة ليدن، 1927م.

11- **ابن أبي أصيبعة** أحمد بن القاسم الخزرجي (ت668هـ- 1269م): عيون الأنباء في طبقات الأطباء، نشره أوجست مُلَر، منشورات معهد تاريخ العلوم العربية الإسلامية، فرانكفورت، طبعة القاهرة، 1416هـ- 1995م.

12- **أوروسيوس** باولوس (مؤرخ روماني، توفي في النصف الأول من القرن الخامس ميلادي): تاريخ العالم، تحقيق الترجمة العربية وتقديم عبد الرحمن بدوي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط2، 1982م.

13- **البرزالي** أبي محمد القاسم بن أبي الفضل محمد بن يوسف بن محمد بن يوسف بن محمد بن أبي يداس (ت739هـ- 1338م): الوفيات، ضبط النص وعلّق عليه أبو يحي عبد الله الكندري، دار غراس، الكويت، ط1، 1426هـ- 2005م.

14- **البرزلي** أبي القاسم بن أحمد بن محمد بن المعتل البلوي القيرواني أبو الفضل (ت841هـ-1438م): جامع مسائل الأحكام لما نزل من القضايا بالمفتين والحكام، تقديم وتحقيق محمد الحبيب الهيلة، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 2000م.

15- **ابن بسام** أبو الحسن علي التغلبي الشنتريني (ت542هـ- 1147م): الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تحقيق إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 2000م.

16- **ابن بشكوال** أبو القاسم خلف بن عبد الملك بن مسعود بن موسى (ت578هـ- 1182م): كتاب الصلة، تحقيق بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، تونس، ط1، 2010م.

17- **ابن بطوطة** أبو عبد الله محمد بن إبراهيم اللواتي (ت779هـ - 1182م): رحلة ابن بطوطة المسماة تحفة النظار في غرائب الأمصار، شرحه وكتب هوامشه طلال حرب، دار الكتب العلمية، بيروت، ط5، 2011م.

18- **البغدادي** أبو منصور عبد القاهر بن طاهر (ت429هـ - 1037م): الفرق بين الفرق، اعتنى به وعلق عليه إبراهيم رمضان، دار المعرفة، بيروت، ط4، 1429هـ - 2008م.

19- **البكري** أبو عبيد الله بن عبد العزيز بن محمد (ت487هـ - 1094م): المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب وهو جزء من كتاب المسالك والممالك، تحرير وتقديم وتعليق حماه الله ولد السالم، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1434هـ- 2013م.

20- **البلاذري** أبو الحسن أحمد بن يحي بن جابر بن داود (ت279هـ - 892م): فتوح البلدان، لجنة تحقيق التراث، مكتبة الهلال، بيروت، 1421هـ - 2000م.

21- **البلخي** أبو زيد بن أحمد بن سهل الشامستياني (ت322هـ - 934م): البدء والتاريخ، وضع حواشيه خليل عمران المنصور، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1417هـ - 1997م.

22- **البيذق** أبو بكر بن علي الصنهاجي (ت555هـ- 1161م):أخبار المهدي بن تومرت، تحقيق عبد الحميد حاجيات، عالم المعرفة، الجزائر، 2011م.

23- **التبريزي** أبو الخير بدل بن أبي المعمر بن إسماعيل (ت636هـ- 1238م): النصيحة للراعي والرعية من الأحاديث النبوية والآثار المروية، حققه وعلق عليه أبو الزهراء عبيد الله الأثري، دار الصحابة للتراث، طنطا، ط1، 1411هـ- 1991م.

24- التجاني أبو محمد عبد الله بن محمد بن أحمد (كان بقيد الحياة سنة 706هـ- 1306م): رحلة التجاني، تقديم حسن حسني عبد الوهاب، الدار العربية للكتاب، تونس، 1981م.

25- ابن تغري بردي جمال الدين أبو المحاسن يوسف (ت874هـ - 1469م): النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، تهذيب رجب محمود إبراهيم بخيت، مكتبة جزيرة الورد، القاهرة، ط1، 1430هـ - 2009م.

26- التنبكتي أحمد بابا (ت 1036هـ - 1626م): نيل الابتهاج بتطريز الديباج، تحقيق علي عمر، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ط1، 1423هـ - 2004م.

27- التنبكتي: كفاية المحتاج لمعرفة من ليس في الديباج، تحقيق علي عمر، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ط1، 1425هـ- 2004م.

28- التنسي محمد بن عبد الله بن عبد الجليل (ت899هـ- 1494م): تاريخ بني زيان ملوك تلمسان، مقتطف من نظم الدر والعقيان في بيان شرف بني زيان، حققه وعلّق عليه محمود بوعياد، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1405هـ- 1985م.

29- التوجيني أبي زيد عبد الرحمن بن عبد الله (ق11هـ/ 17م): عقد الجمان النفيس في ذكر الأعيان من أشراف غريس، دار الخليل القاسمي، بوسعادة، 2005م.

30- ابن تومرت محمد (ت524هـ- 1130م): أعز ما يطلب، تقديم وتحقيق عمار طالبي، موفم للنشر، الجزائر، 2011م.

31- ابن تيمية أبي العباس تقي الدين أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام النميري الحراني (ت728هـ- 1327م): السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية، ضبط وتعليق وتخريج محمد خالد العطار، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 1422هـ- 2002م.

32- ابن تيمية: الاستقامة، دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط1، 1424هـ- 2004م.

33- ابن جبير أبو الحسين محمد بن أحمد الكناني البلنسي (ت614هـ- 1217م): رحلة ابن جبير، ضبطه ووضع فهارسه محمد زينهم، دار المعرفة، القاهرة، د.ت.

34- الجزنائي أبو الحسن (عاش خلال القرن التاسع الهجري/ ق15م): تاريخ مدينة فاس المعروف بـ زهرة الآس في بناء مدينة فاس، دراسة وتحقيق وتعليق مديحة الشرقاوي، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ط1، 1422هـ- 2001م.

35- ابن الحاج أبو عبد الله محمد بن محمد بن محمد العبدري المالكي الفاسي (ت737هـ- 1336م): المدخل، مكتبة دار التراث، القاهرة، دت.

36- ابن الحاج النميري أبو القاسم برهان الدين إبراهيم بن عبد الله بن محمد بن إبراهيم (توفي بعد سنة774هـ- 1372م): فيض العباب وإفاضة قداح الآداب في الحركة السعيدة إلى قسنطينة والزاب، دراسة وإعداد محمد ابن شقرون، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1990م.

37- ابن حبان أبي حاتم محمد بن حبان بن أحمد التميمي البستي (ت354هـ- 965م): تاريخ الصحابة الذين روي عنهم الأخبار، تحقيق بوران الضناوي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1408هـ- 1988م.

38- ابن حجر شهاب الدين أحمد بن علي بن محمد بن محمد العسقلاني (ت852هـ- 1448م): الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، صححه سالم الكرنكوى، دار إحياء التراث العربي، بيروت، دت.

39- ابن حزم أبي محمد علي بن أحمد الأندلسي الظاهري (ت456هـ - 1064م): جمهرة أنساب العرب تحقيق وتعليق عبد السلام محمد هارون، دار المعارف، القاهرة، ط6، 1999م.

40- ابن حزم: الفِصَل في الملل والأهواء والنِحل، وضع حواشيه أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط3، 1428هـ- 2007م.

41- الحسن الوزان بن محمد الفاسي (ت957هـ- 1550م): وصف إفريقيا، ترجمه عن الفرنسية محمد حجي ومحمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط2، 1983م.

42- ابن حماد أبو عبد الله محمد بن علي الصنهاجي (ت626هـ - 1228م): أخبار ملوك بني عبيد وسيرتهم، تحقيق وتعليق جلول أحمد بدوي، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984م.

43- الحنبلي مجير الدين عبد الرحمن بن محمد بن عبد الرحمن الصليحي (ت928هـ- 1522م): الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، دار الجيل، لبنان، 1973م.

44- أبو حمو موسى الثاني بن يوسف بن عبد الرحمن بن يحي بن يغمراسن بن زيان (ت791هـ- 1389م): واسطة السلوك في سياسة الملوك، تحقيق وتعليق محمود بوترعة، دار النعمان للطباعة والنشر، الجزائر، 2012م.

45- الحميدي أبو عبد الله محمد بن أبي نصر فتوح بن عبد الله الأزدي (ت488هـ - 1289م): جذوة المقتبس في تاريخ علماء الأندلس، حققه وعلق عليه بشار عواد معروف ومحمد بشار عواد، دار الغرب الإسلامي، تونس، ط1، 1429هـ- 2008م.

46- الحميري أبو عبد الله محمد بن عبد المنعم الصنهاجي (ت750هـ - 1349م): الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق إحسان عباس، مكتبة لبنان، بيروت، ط2، 1984م.

47- ابن حوقل أبو القاسم محمد بن علي النصيبي (ت380هـ- 990م): صورة الأرض، نشر شركة نوابغ الفكر، القاهرة، ط1، 1430هـ - 2009م.

48- ابن حيان القرطبي أبو مروان حيان بن حيان بن حسين بن حيان (ت469هـ- 1076م): المقتبس في أخبار بلد الأندلس، شرحه واعتنى به صلاح الدين الهواري، المكتبة العصرية، بيروت، ط1، 1426هـ - 2006م.

49- ابن خرداذبة أبي القاسم عبيد الله بن عبد الله الفارسي (ت300هـ- 912م): المسالك والممالك، طبعة ليدن، 1884م.

50- ابن خطاب أبي بكر محمد بن عبد الله بن داود الغافقي المرسي (ت686هـ- 1287م): فصل الخطاب في ترسيل ابن خطاب، دراسة وتحقيق حسان الغيلاني، جامعة مدريد، قسم الدراسات العربية الإسلامية، 1994م.

51- ابن الخطيب لسان الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن سعيد السلماني (ت776هـ- 1374م): الإحاطة في أخبار غرناطة، تحقيق محمد عبد الله عنان، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط1، 1395هـ - 1975م.

52- ابن الخطيب: أعمال الأعلام في من بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام، تحقيق وتعليق إ. ليفي بروفنسال، القسم الثاني، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 1426هـ - 2006.

53- ابن الخطيب: أعمال الأعلام، تحقيق وتعليق أحمد مختار العبادي ومحمد إبراهيم الكتاني، القسم الثالث، دار الكتاب، الدار البيضاء، 1964م.

54- **ابن الخطيب**: رقم الحلل في نظم الدول، المطبعة العمومية، تونس، 1316هـ.

55- **ابن الخطيب**: معيار الاختيار في ذكر المعاهد والديار، تحقيق ودراسة محمد كمال شبانة، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 1423هـ- 2002م.

56- **ابن الخطيب**: كناسة الدكان بعد انتقال السكان، تحقيق محمد كمال شبانة، مكتبة الثقافة الدينية، ط1، 1423هـ- 2003م.

57- **ابن خلدون** أبو زيد عبد الرحمن بن محمد الحضرمي (ت808هـ- 1406م): العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، اعتنى به وراجعه درويش الجويدي، المكتبة العصرية، بيروت، 1430هـ- 2009م.

58- **ابن خلدون**: المقدمة، دار الكتب العلمية، بيروت، ط9، 1427هـ- 2009م.

59- **ابن خلدون** أبو زكريا يحي (ت780هـ- 1378م): بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، ج1، تقديم وتحقيق عبد الحميد حاجيات، المكتبة الوطنية، الجزائر، 1400هـ- 1980م.

60- **ابن خلدون** أبو زكريا يحي: بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، ج2، تقديم وتحقيق وتعليق بوزياني الدراجي، دار الأمل للدراسات والنشر والتوزيع، الجزائر، 2007م.

61- **الداودي** أبو جعفر أحمد بن نصر الأسدي (ت402هـ- 1011م): كتاب الأموال، تحقيق رضا محمد سالم شحادة، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1429هـ- 2008م.

62- **الدباغ** أبو زيد عبد الرحمن بن محمد الأنصاري (ت696هـ- 1296م): معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان، أكمله الفضل أبو القاسم بن عيسى بن ناجي التنوخي (ت839هـ- 1435م)، ج1، تصحيح وتعليق إبراهيم شبوح، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط2، 1388هـ- 1968م/ ج2، ج3، تحقيق محمد ماضور، المكتبة العتيقة، تونس، دت .

63- **الدرجيني** أبو العباس أحمد بن سعيد (ت670هـ- 1271م): طبقات المشايخ بالمغرب، تحقيق إبراهيم طلاي، د.ت.

64- **ابن أبي دينار** أبو عبد الله محمد ابن أبي القاسم الرعيني القيرواني (ت1110هـ- 1698م): المؤنس في أخبار إفريقية وتونس، تحقيق محمد شمام، المكتبة العتيقة، تونس، ط2، 1967م.

65- **الذهبي** شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان (ت748هـ- 1347م): العبر في خبر من غبر، تحقيق أبو هاجر محمد السعيد بن بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية، بيروت، دت.

66- **الذهبي**: تذكرة الحفاظ، نشر دار الكتب العلمية، بيروت، دت.

67- **الذهبي**: دول الإسلام، تحقيق وتعليق حسن إسماعيل مروة، دار صادر، بيروت، ط2، 1427هـ- 2006م.

68- **رسائل موحدية** - مجموعة جديدة — تحقيق ودراسة أحمد عزاوي، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، القنيطرة، ط1، 1416هـ- 1995م.

69- **مجموعة رسائل موحدية من إنشاء كتاب الدولة المؤمنية**، تحرير وتعليق ليفي بروفنسال، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ط1، 1431هـ- 2010م.

70- **ابن رزين التجيبي** أبو الحسن علي بن محمد بن أبي القاسم محمد بن أبي بكر (عاش خلال القرن السابع الهجري/ ق13م): فضالة الخوان في طيبات الطعام والألوان، حققه وقدم له محمد بن شقرون وأشرف على إعداده إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، تونس، ط3، بيروت، 2012م.

71- **الرقيق القيرواني** أبو إسحاق إبراهيم بن قاسم (ت420هـ- 1029م): تاريخ إفريقية والمغرب، تقديم وتحقيق وتعليق محمد زينهم محمد عزب، دار الفرجاني للنشر والتوزيع، تونس، ط1، 1414هـ- 1994م.

72- **ابن الزبير** أبي جعفر أحمد بن إبراهيم الثقفي العاصمي الغرناطي (ت708هـ- 1308م): صلة الصلة، تحقيق عبد السلام الهراس والشيخ سعيد أعراب، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المملكة المغربية، 1413هـ- 1993م.

73- **الزجالي** أبي يحي عبيد الله بن أحمد القرطبي (ت694هـ- 1294م): أمثال العوام في الأندلس، مستخرجة من كتابه ري الأوام ومرعى السوام في نكت الخواص والعوام، حققه وشرحه محمد بن شريفة، منشورات وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية والتعليم الأصلي، مصر، دت.

74- **ابن أبي زرع** أبو الحسن علي بن عبد الله (كان بقيد الحياة سنة 726هـ- 1326م): الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، دار المنصور للطباعة، الرباط، 1972م.

75- **ابن أبي زرع**: الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، 1392هـ- 1972م.

76- **أبو زكريا يحي** بن أبي بكر الورجلاني (ت471هـ- 1078م): سير الأئمة وأخبارهم، تحقيق وتعليق إسماعيل العربي، المكتبة الوطنية، الجزائر، 1399هـ- 1979م.

77- **الزركشي** أبي عبد الله محمد بن إبراهيم (ت883هـ- 1478م): تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية، تحقيق وتعليق محمد ماضور، المكتبة العتيقة، تونس، ط2، 1966م.

78- **ابن أبي زَمَنين** أبي عبد الله محمد بن عبد الله بن عيسى بن محمد المري الألبيري (ت399هـ- 1008م): رياض الجنة بتخريج أصول السنة، تحقيق وتخريج وتعليق عبد الله بن محمد عبد الرحيم بن حسين البخاري، مكتبة الغرباء الأثرية، المدينة المنورة، ط1، 1415هـ .

79- **الزهري** أبو عبد الله محمد بن أبي بكر (توفي في أواسط القرن السادس الهجري): كتاب الجعرافية، حققه محمد حاج صادق، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، دت.

80- **ابن زولاق** أبي محمد الحسن بن إبراهيم بن الحسين بن الحسن بن علي (ت387هـ- 997م): تاريخ مصر وفضائلها، تحقيق علي عمر، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 1422هـ- 2002م.

81- **ابن الزيات** يوسف بن يحي التادلي (ت627هـ- 1230م): التشوف إلى رجال التصوف، تحقيق علي عمر، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ط1، 1427هـ- 2007م.

82- **ابن أبي زيد القيرواني** أبي محمد عبد الله (ت386هـ- 996م): الجامع في السنن والآداب والمغازي والتاريخ، حققه وقدم له وعلق عليه محمد أبو الأجفان وعثمان بطيخ، المكتبة العتيقة، تونس، ط2، 1403هـ- 1983م.

83- **ابن سباهي** زادة محمد بن علي البروسوي (ت997هـ- 1589م): أوضح المسالك إلى معرفة البلدان والممالك، تحقيق المهدي عبد الراضية، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1427هـ- 2006م.

84- **السبتي** أبي عبد الله محمد بن عمر بن رشيد الفهري (ت721هـ- 1321م): ملء العيبة بما جمع بطول الغيبة في الوجهة الوجيهة إلى الحرمين مكة وطيبة، تقديم وتحقيق محمد الحبيب بن الخوجة، دار الغرب الإسلامي، ط1، 1408هـ- 1988م.

85- ابن سعيد العقباني أبي عبد الله محمد بن أحمد بن قاسم التلمساني (ت871هـ- 1467م): تحفة الناظر وغنية الذاكر في حفظ الشعائر وتغيير المناكر، تحقيق علي الشنوفي، المعهد الفرنسي للدراسات الشرقية بدمشق، 1967م.

86- ابن سعيد أبو الحسن علي بن يوسف المغربي (ت685هـ- 1226م): كتاب الجغرافيا، تحقيق وتعليق إسماعيل العربي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ط2، 1982م.

87- ابن سعيد المغربي: المغرب في حلى المغرب، حققه وعلق عليه شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة، ط4، دت.

88- ابن سعيد المغربي: بسط الأرض في الطول والعرض، تحقيق خوان قرنيط خينيس، مطبعة كريماديس، تطوان، 1958م.

89- ابن سماك العاملي أبو القاسم محمد بن أبي العلاء (كانحيًّا سنة 812هـ- 1409م): الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، دراسة وتحقيق عبد القادر بوباية، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2010م.

90- ابن سهل أبي الأصبغ عيسى بن عبد الله الأسدي الجياني (ت486هـ- 1093م): ديوان الأحكام الكبرى أو الإعلام بنوازل الأحكام وقِطْر من سِير الحكام، تحقيق يحي مراد، دار الحديث، القاهرة، 1428هـ- 2007م.

91- السيوطي عبد الرحمن بن أبي بكر جلال الدين (ت911هـ- 1505م): تاريخ الخلفاء، ضبطه محمد خالد العطار، دار الفكر، لبنان، ط1، 1431هـ- 2010م.

92- السيوطي: بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر، ط2، 1399هـ- 1979م.

93- السيوطي: حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة، تحقيق علي محمد عمر، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط1، 1428هـ- 2007م.

94- ابن شبَّه أبو زيد عمر بن عبيدة بن زيد النميري البصري (ت262هـ- 875م): تاريخ المدينة المنورة، حققه فهيم محمد شلتوت، دت.

95- ابن الشحنة أبو الفضل محمد بن محمد بن محمد بن محمد بن محمود الحلبي (ت890هـ- 1485م): الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب، تقديم عبد الله محمد الدرويش، دار الكتاب العربي، دمشق، 1404هـ- 1984م.

96- ابن شداد أبو المحاسن بهاء الدين يوسف بن رافع بن تميم بن عتبة بن محمد الأسدي (ت632هـ- 1234م): النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، أو سيرة صلاح الدين، تحقيق جمال الدين الشيال، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط2، 1415هـ- 1994م.

97- ابن الشماع أبي عبد الله محمد بن أحمد (ت861هـ- 1457م): الأدلة البينة النورانية في مفاخر الدولة الحفصية، تحقيق وتقديم الطاهر بن محمد المعموري، الدار العربية للكتاب، 1984م.

98- شمس الدين أبي المحاسن محمد بن علي بن الحسن الحسيني الدمشقي (ت765هـ- 1364م): ذيل تذكرة الحفاظ، تحقيق حسام الدين المقدسي، دار الكتب العلمية، بيروت، دت.

99- الشهرستاني أبي الفتح محمد بن عبد الكريم بن أحمد (ت548هـ- 1153م): المِلل والنِّحل، تحقيق محمد عبد القادر الفاضلي، المكتبة العصرية، بيروت، 1423هـ- 2003م.

100- ابن صاحب الصلاة أبي مروان عبد الملك بن محمد بن أحمد بن محمد بن إبراهيم (ت594هـ-1198م): تاريخ المن بالإمامة على المستضعفين بأن جعلهم الله أئمة وجعلهم الوارثين وظهور الإمام المهدي بالموحدين على الملثمين وما في مساق ذلك من خلافة الإمام الخليفة أمير المؤمنين وآخر الخلفاء الراشدين، السفر الثاني، تحقيق عبد الهادي التازي، دار الغرب الإسلامي، ط3، دت.

101- ابن الصغير المالكي (كان بقيد الحياة سنة 290هـ- 903م): أخبار الأئمة الرستميين، تحقيق إبراهيم ناصر وإبراهيم بحاز، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1406هـ- 1986م.

102- الضبي أحمد بن يحي بن أحمد بن عميرة (ت599هـ- 1203م): بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس، تحقيق إبراهيم الأبياري، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط1، 1410هـ- 1989م.

103- الطرطوشي أبي بكر محمد بن الوليد بن خلف بن سليمان بن أيوب الفهري الأندلسي (ت530هـ-1135م): الحوادث والبدع، ضبط نصه وعلق عليه علي بن حسن بن علي بن عبد الحميد الحلبي الأثري، دار ابن الجوزي، الاحساء، ط1، 1414هـ- 1994م.

104- ابن عبد الحكم عبد الرحمن بن عبد الله (ت257هـ- 870م): فتوح إفريقية والأندلس، تحقيق عبد الله أنيس الطباع، دار الكتاب اللبناني، دت.

105- ابن عبد الحليم صالح الإيلاني (كان بقيد الحياة سنة 712هـ- 1312م): مفاخر البربر، دراسة وتحقيق عبد القادر بوباية، دار أبي رقراق، الرباط، ط2، 2008م.

106- عبد الرحمن السعدي (ت1066هـ- 1656م): تاريخ السودان، تحرير وتعليق وتقديم حماه الله ولد السالم، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1433هـ- 2012م.

107- العبدري أبو عبد الله محمد بن محمد بن علي بن أحمد بن سعود البلنسي (ت720هـ- 1320م): رحلة العبدري أو الرحلة المغربية، حققها وقدَّم لها علي إبراهيم كردي، دار سعد الدين للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، ط2، 1426هـ- 2005م.

108- عبد الله بن بلكين بن باديس بن حبوس بن ماكسن بن زيري بن مناد (ت484هـ- 1091م): التبيان عن الحادثة الكائنة بدولة بني زيري في غرناطة، حرره علي عمر، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 1427هـ- 2006م.

109- عبد الواحد المراكشي أبو محمد بن علي التميمي (ت647هـ- 1249م): المعجب في تلخيص أخبار المغرب، تحقيق محمد سعيد العريان، لجنة إحياء التراث الإسلامي، مصر، دت.

110- ابن العبري غريغوريوس أبي الفرج بن أهرون الطبيب الملطي (ت1286م- 685هـ): تاريخ مختصر الدول، وقف على تصحيحه وفهرسته الأب أنطون صالحاني اليسوعي، دار الرائد اللبناني، الحازمية، ط3، 1994م- 1415هـ .

111- العدواني محمد بم محمد بن عمر السوفي (عاش في القرن11هـ/ 17م): تاريخ العدواني، تقديم وتحقيق وتعليق أب القاسم سعد الله، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط2، 2005م.

112- ابن العديم كمال الدين أبي القاسم عمر بن أحمد بن هبة الله (ت660هـ- 1261م): زبدة الحلب من تاريخ حلب، اعتنى بنشره وتحقيقه ووضع فهارسه سامي الدهان، المعهد الفرنسي بدمشق للدراسات العربية، دت.

113- ابن عذاري المراكشي أبو عبد الله محمد بن أحمد (كان بقيد الحياة سنة 712هـ-1312م): البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق ومراجعة ج.س كولان وليفي بروفنسال، دار الثقافة، بيروت، ط3، 1983م، ج1، ج2، ج3/ ج4، تحقيق ومراجعة إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، ط3،

1983م/ قسم الموحدين، تحقيق محمد إبراهيم الكتاني وآخرون، الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، دار الثقافة، الدار البيضاء، ط1، 1406هـ- 1985م.

114- العذري أبي العباس أحمد بن عمر بن أنس المعروف بابن الدلائي (ت478هـ- 1085م): نصوص عن الأندلس من كتاب ترصيع الأخبار وتنويع الآثار، والبستان في غرائب البلدان والمسالك إلى جميع الممالك، تحقيق عبد العزيز الأهواني، منشورات معهد الدراسات الإسلامية في مدريد، دت.

115- ابن العربي أبي بكر محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الله بن أحمد الإشبيلي المالكي (ت543هـ- 1148م): العواصم من القواصم، تحقيق عمار الطالبي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981م.

116- ابن عميرة أبي المطرف أحمد بن عبد الله المخزومي البلنسي (ت658هـ- 1260م): تاريخ ميورقة، دراسة وتحقيق محمد بن معمر، دار الكتب العلمية، بيروت، 2007م.

117- عياض اليحصبي أبي الفضل بن موسى بن عياض بن عمروالقاضي (ت544هـ- 1149م): ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعيان مذهب مالك، ضبط وتصحيح محمد سالم هاشم، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1418هـ- 1998م.

118- العياشي أبو سالم عبد الله عفيف الدين بن محمد بن أبي بكر بن يوسف بن موسى: (ت1090هـ 1679م): الرحلة العياشية، حققها وقدَّم لها سعيد الفاضلي وسليمان القرشي، دار السويدي للنشر والتوزيع، أبو ظبي، ط1، 2006م.

119- ابن غازي أبو عبد الله بن أحمد بن محمد المكناسي (ت919هـ- 1513م): الروض الهتون في أخبار مكناسة الزيتون، دراسة وتحقيق عطا أبو رية وسلطان بن مليح الأسمري، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ط1، 1428هـ- 2007م.

120- الغبريني أبي العباس أحمد بن أحمد بن عبد الله (ت714هـ- 1314م): عنوان الدراية فيمن عُرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية، تحقيق محمد بن أبي شنب، دار البصائر، الجزائر، ط1، 2007م.

121- الفاسي أبي الطيب تقي الدين محمد بن أحمد بن علي (ت832هـ- 1428م): شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام، تحقيق علي عمر، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ط1، 1428هـ- 2008م.

122- الفاسي: عقيدة ابن عربي وحياته وما قاله المؤرخون والعلماء فيه، ضبط النص وعلق عليه حسن علي عبد الحميد، مكتبة ابن الجوزي، الدمام، ط1، 1408هـ- 1988م.

123- الفتح بن خاقان أبي نصر بن محمد بن عبيد الله القيسي الإشبيلي (ت535هـ- 1140م): تاريخ الوزراء والكتاب والشعراء في الأندلس، المعروف بـ مطمح الأنفس ومسرح التأُنس في مُلح أهل الأندلس، تقديم وتحقيق وتعليق مديحة الشرقاوي، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ط2، 1428هـ- 2007م.

124- أبو الفدا عماد الدين إسماعيل بن علي بن محمود بن عمر بن شاهنشاه بن أيوب (ت732هـ- 1331م): المختصر في أخبار البشر، تقديم حسين مؤنس، تحقيق محمد زينهم عزب، دار المعرف، القاهرة، ط1، دت.

125- أبو الفدا: تقويم البلدان، اعتنى بتصحيحه وطبعه رينود والبارون دوسلان، باريس، 1840م.

126- ابن فرحون المالكي أبي الحسن إبراهيم بن نور الدين علي بن محمد (ت799هـ- 1397م): الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب، دراسة وتحقيق مأمون بن محي الدين الجنان، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1417هـ- 1996م.

127- ابن فرحون المالكي: تبصرة الحكام في أصول الأقضية ومناهج الأحكام، خرَّج أحاديثه وعلَّق عليه وكتب حواشيه جمال مرعشلي، عالم الكتب، الرياض، 1423هـ- 2003م.

128- ابن فضل الله العمري أبي العباس شهاب الدين أحمد بن يحي (ت749هـ- 1348م): مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، السفر الأول، تحقيق عبد الله بن يحي السريحي، المجمع الثقافي، أبو ظبي، 1424هـ- 2003م/ السفر الرابع، تحقيق حمزة أحمد عباس، المجمع الثقافي، أبو ظبي، ط1، 2002م.

129- الفيروز أبادي محمد بن يعقوب بن محمد بن إبراهيم (ت718هـ- 1317م): القاموس المحيط، تحقيق يحي مراد، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 1429هـ- 2008م.

130- ابن القاضي أبي العباس أحمد بن محمد بن أبي العافية المكناسي (ت1025هـ- 1616م): درة الحجال في غُرة أسماء الرجال، حققه وعلّق عليه مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1423هـ- 2002م.

131- ابن القاضي: جذوة الاقتباس فيمن حل من الأعلام مدينة فاس، تحقيق وتعليق محمد بن عزوز، دار ابن حزم، الدار البيضاء، ط1، 1435هـ- 2014م.

132- ابن القطان أبو محمد حسن بن علي بن محمد عبد الملك الكتامي (عاش في القرن 7هـ- 13م): نظم الجمان لترتيب ما سلف من أخبار الزمان، دراسة وتقديم وتحقيق محمود علي مكي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1990م.

133- القفطي أبي الحسن جمال الدين علي بن يوسف (ت624هـ- 1227م): انباه الرواة على أنباه النحاة، تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي، القاهرة، ط1، 1406هـ، 1986م.

134- ابن القلانسي أبي يعلى حمزة بن أسد التميمي الدمشقي (ت555هـ- 1160م): ذيل تاريخ دمشق، مطبعة الآباء اليسوعيين، بيروت، 1908م.

135- القلقشندي أبو العباس أحمد بن علي (ت821هـ- 1418م): نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب، تحقيق إبراهيم الأبياري، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط3، 1991م.

136 - ابن قنفذ أبي العباس أحمد بن حسن بن علي القسنطيني (ت810هـ- 1407م): شرف الطالب في أسنى المطالب، تحقيق محمد بن يوسف القاضي، شركة نوابغ الفكر، القاهرة، ط1، 1430هـ- 2009م.

137- ابن قنفذ: الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية، تقديم وتحقيق محمد الشاذلي النيفر وعبد المجيد التركي، الدار التونسية للنشر، 1968م.

138- ابن القنفذ: أنس الفقير وعز الحقير، اعتنى بنشره وتصحيحه محمد الفاسي وأدولف فور، المركز الجامعي للبحث العلمي، الرباط، 1984م.

139- الكندي عمر بن محمد بن يوسف (ت350هـ- 961م): فضائل مصر، تحقيق إبراهيم أحمد العدوي وعلي محمد عمر، دار الفكر، بيروت، ط1، 1391هـ- 1971م.

140- مارمول كربخال (القرن العاشر الهجري/ ق16م): إفريقيا، ترجمه عن الفرنسية محمد حجي وآخرون، الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، مكتبة المعارف، الرباط، 1404هـ- 1984م.

141- الماوردي أبي الحسن علي بن محمد بن حبيب البصري (ت450هـ- 1058م): الأحكام السلطانية والولايات الدينية، تحقيق القاضي نبيل عبد الرحمن حياوي، دار الأرقم بن أبي الأرقم، بيروت، دت.

142- المبارك الحمصي بن يحي بن المبارك الغساني (ت658هـ- 1260م): مختصر جمهرة النسب لابن الكلبي، تحقيق علي محمد عمر، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ط1، 1432هـ- 2012م.

143- **محمود كعت** بن الحاج المتوكل (ت1002هـ- 1593م): تاريخ الفتاش في ذكر الملوك وأخبار الجيوش وأكابر الناس، تحرير وتقديم، حماه الله ولد السالم، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1433هـ- 2012م.

144- **ابن المرتضى** أحمد بن يحي (ت840هـ- 1436م): البحر الزخار الجامع لمذاهب علماء الأمصار، دار الحكمة اليمانية، صنعاء، ط1، 1366هـ- 1947م.

145- **ابن مرزوق** محمد بن أحمد بن محمد بن محمد بن أبي بكر (ت781هـ- 1379م): المسند الصحيح الحسن في مآثر مولانا أبي الحسن، دراسة وتحقيق ماريا خيسوس بيغيرا، تقديم محمود بوعياد، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1401هـ- 1981م.

146- **ابن مرزوق** محمد بن أحمد بن محمد بن محمد بن أبي بكر (ت781هـ- 1379م): المناقب المرزوقية، دراسة وتحقيق سلوى الزاهري، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المملكة المغربية، الدار البيضاء، ط1، 1429هـ- 2008م.

147- **ابن مريم** محمد بن أحمد بن محمد الشريف المليتي التلمساني (كان حيا سنة 1025هـ- 1617م): البستان في ذكر العلماء والأولياء بتلمسان، تحقيق عبد القادر بوباية، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1435هـ- 2014م.

148- **المسعودي** أبي الحسن علي بن الحسين بن علي (ت346هـ- 957م): مروج الذهب ومعادن الجوهر، شرحه وضبطه عفيف نايف حاطوم، دار صادر، بيروت، ط1، 1426هـ- 2005م.

149- **المقري** أبو العباس أحمد بن محمد بن أحمد (ت1041هـ- 1631م): نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب، شرحه وضبطه وعلق عليه وقدم له مريم قاسم طويل ويوسف علي طويل، المعرفة الدولية، الجزائر، 2011م.

150- **المقري**: أزهار الرياض في أخبار عياض، تحقيق علي عمر، المعرفة الدولية للنشر والتوزيع، الجزائر، 2011م.

151- **المقريزي** تقي الدين أحمد بن علي (ت845هـ- 1441م): اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا، تحقيق جمال الدين الشيال، نشر وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، القاهرة، ط2، 1996م.

152- **ابن منظور** أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم (ت711هـ- 1311م): لسان العرب، تحقيق عامر أحمد حيدر، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2005م.

153- **مؤلف مجهول**: (توفي في النصف الأول من القرن الرابع الهجري): أخبار مجموعة في فتح الأندلس وذكر أمرائها رحمهم الله والحروب الواقعة بها بينهم، تحقيق إبراهيم الأبياري، دار الكتاب العربي، القاهرة، ط2، 1410هـ- 1989م.

154- **مؤلف مجهول** (عاش في القرن السادس الهجري): الاستبصار في عجائب الأمصار، نشر وتعليق سعد زغلول عبد الحميد، دار النشر المغربية، الدار البيضاء، 1985م.

155- **مؤلف مجهول** (عاش في القرن الثامن الهجري/ 14م): زهر البستان في دولة بني زيان، السفر الثاني، تحقيق وتقديم عبد الحميد حاجيات، عالم المعرفة، الجزائر، 2011م.

156- **مؤلف مجهول** (عاش في القرن التاسع الهجري): تاريخ الأندلس، دراسة وتحقيق عبد القادر بوباية، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2007م.

157- النباهي أبي الحسن علي بن عبد الله بن محمد بن محمد بن الحسن الجذامي (كان بقيد الحياة سنة 793هـ- 1391م): تأريخ قضاة الأندلس المسمى المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط5، 1403هـ- 1983م.

158- النعمان أبو حنيفة بن محمد بن منصور بن أحمد بن حيون التميمي (ت363هـ- 974م): تاريخ افتتاح الدعوة وابتداء الدولة، تحقيق فرحات الدشراوي، الشركة التونسية للتوزيع، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ط2، 1986م.

159- النعيمي عبد القادر بن محمد بن عمر بن محمد بن يوسف بن عبد الله الدمشقي (ت927هـ- 1521م): الدارس في تاريخ المدارس، تحقيق جعفر الحسني، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ط2، 1427هـ- 2006م.

160- النويري شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب البكري (ت732هـ- 1331م): تاريخ المغرب الإسلامي من كتاب نهاية الأرب في معرفة فنون الأدب، تحقيق وتعليق مصطفى أبو ضيف أحمد عمر، دار النشر المغربية، الدار البيضاء، 1984م.

161- النهرواني أبو حكيم إبراهيم بن دينار بن الحسين بن حامد بن إبراهيم (ت556هـ-1161م)**:** الإعلام بأعلام بيت الله الحرام، مطبعة ݣتنغة، ليبزيك، 1857م.

162- ابن الوردي سراج الدين أبي حفص عمر (ت861هـ- 1456م): خريدة العجائب وفريدة الغرائب، صححه وعلّق عليه محمود فاخوري، دار الشرق العربي، بيروت، د.ت.

163- الهمداني أبو محمد لسان اليمن الحسن بن أحمد بن يعقوب (ت366هـ- 976م): صفة جزيرة العرب، تحقيق محمد بن علي الأكوع الحوالي، مكتبة الإرشاد، صنعاء، ط1، 1410هـ- 1990م.

164- الونشريسي أبي العباس أحمد بن يحي (ت914هـ- 1508م): المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل إفريقية والأندلس والمغرب، إخراج محمد حجي وآخرون، نشر وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالمملكة المغربية، الرباط، 1401هـ- 1981م.

165- الونشريسي: الولايات ومناصب الحكومة الإسلامية والخطط الشرعية، نشر وتعليق محمد الأمين بلغيث، لافوميك، الجزائر، دت.

166- الونشريسي: وفيات الونشريسي، تحقيق محمد بن يوسف القاضي، شركة نوابغ الفكر، القاهرة، ط1، 1430هـ- 2009م.

167- اليافعي أبي محمد عبد الله بن أسعد بن علي بن سليمان بن فلاح عفيف الدين أبو السعادات اليمني (ت768هـ- 1366م): مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان، وضع حواشيه خليل المنصور، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1418هـ- 1997م.

168- ياقوت الحموي أبو عبد الله شهاب الدين (ت626هـ- 1228م): معجم البلدان، تحقيق محمد عبد الرحمن المرعشلي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط1، 1429هـ- 2008م.

169- اليعقوبي أحمد بن أبي يعقوب إسحاق بن جعفر بن وهب بن واضح (ت284هـ- 897م): كتاب البلدان، تحقيق أحمد أمين ضناوي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2002م.

170- اليماني تاج الدين عبد الباقي بن عبد المجيد (ت743هـ- 1342م): بهجة الزمن في تاريخ اليمن، تحقيق مصطفى حجازي، دار الكلمة، صنعاء، ط2، 1985م.

ثانيا: المصادر باللغة الأجنبية

171- SALLUSTE : la guerre de Jugurtha, traduction de Charles dursoir, éditions GARNIER, TAFAT- essai, 2012.

ثالثا: المراجع باللغة العربية

172- أحمد عمر مصطفى أبو ضيف: القبائل العربية في المغرب في عصري الموحدين وبني مرين، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1982م.

173- أرسلان شكيب: الحلل السندسية في الأخبار والآثار الأندلسية، المكتبة التجارية، فاس، ط1، 1355هـ- 1936م.

174- الأغواطي الحاج بن الدين: رحلة الأغواطي، أوردها أبو القاسم سعد الله ضمن كتابه أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1986م.

175- انطون فرح: ابن رشد وفلسفته، تقديم أدونيس العكرة، دار الطليعة، بيروت، ط1، 1981م.

176- الباروني سليمان: الأزهار الرياضية في أئمة وملوك الإباضية، دار بوسلامة للطباعة والنشر والتوزيع، تونس، ج2، دت.

177- بن بكارة الهاشمي: حاشية رياض النزهة على منظومة نسمات رياح الجنة في فضائل أهل البيت وأولياء الله وأذكار الكتاب والسنة، أورده ضمن مجموع النسب والحسب في أربعة كتب، مطبعة ابن خلدون، تلمسان، 1381هـ- 1961م.

178- بن بكير يوسف الحاج سعيد: تاريخ بني ميزاب، دراسة اجتماعية واقتصادية وسياسية، المطبعة العربية، غرداية، ط2، 1427هـ- 2006م.

179- بلعالم محمد باي: الرحلة العلية إلى منطقة توات، المعرفة الدولية للنشر والتوزيع، الجزائر، 2015م.

180- بوتشيش القادري إبراهيم: تاريخ المغرب الإسلامي قراءات جديدة في بعض قضايا المجتمع والحضارة، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، 1994م.

181- بوزياني الدراجي: القبائل الأمازيغية أدوارها ومواطنها وأعيانها، دار الكتاب العربي، الجزائر، ط2، 2003م.

182- بوزياني الدراجي: دول الخوارج والعلويين في بلاد المغرب والأندلس، دار الكتاب العربي، الجزائر، 2007م.

183- البوعبدلي المهدي: تاريخ المدن، جمع وإعداد عبد الرحمن دويب، عالم المعرفة، الجزائر، 2013م.

184- بوعزيز يحي: أعلام الفكر والثقافة في الجزائر المحروسة، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1995م.

185- بولطيف لخضر محمد: فقهاء المالكية والتجربة السياسية الموحدية في الغرب الإسلامي، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، فرجينيا، ط1، 1429هـ- 2009م.

186- بونار رابح: المغرب العربي تاريخه وثقافته، الشركة الوطنية للنش والتوزيع، الجزائر، ط2، 1984م.

187- بيرم محمد الخامس: صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار، تحقيق علي بن الطاهر الشنوفي، المجمع التونسي للعلوم والآداب والفنون، بيت الحكمة، ط2، 1999م.

188- التليدي عبد الله بن عبد القادر: المطرب بمشاهير أولياء المغرب، دار البشائر الإسلامية، بيروت، ط3، 1433هـ- 2012م.

189- التهامي إبراهيم: جهود علماء المغرب في الدفاع عم عقيدة أهل السنَّة، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط1، 1426هـ- 2005م.

190- الثعالبي عبد العزيز: تاريخ شمال إفريقيا من الفتح الإسلامي إلى غاية الدولة الأغلبية، جمع وتحقيق أحمد بن ميلاد ومحمد إدريس، تقديم ومراجعة حمادي الساحلي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط2، 1410هـ- 1990م.

191- جابر أبو بكر الجزائري: منهاج المسلم، دار الكتب السلفية، القاهرة، ط8، 1412هـ- 1992م.

192- الجنحاني حبيب: دراسات في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للمغرب الإسلامي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط2، 1986م.

193- جوزيف نسيم يوسف: تاريخ العصور الوسطى الأوروبية وحضارتها، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 2015م.

194- الحاجري محمد طه: مرحلة التشيع في المغرب العربي وأثرها في الحياة الأدبية، دار النهضة العربية، بيروت، ط1، 1983م.

195- حارش محمد الهادي: التاريخ المغاربي القديم السياسي والحضاري، دار هومة، الجزائر، 2014م.

196- الحجوي الثعالبي محمد بن الحسن: الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي، مطبعة دار المعارف، الرباط، 1336هـ- 1918م.

197- حركات إبراهيم: المغرب عبر التاريخ، نشر وتوزيع دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، ط2، 1984م.

198- حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 2010م.

199- حسن حسني عبد الوهاب: خلاصة تاريخ تونس، الدار التونسية للنشر، تونس، 1983م.

200- حسن علي حسن: الحضارة الإسلامية في المغرب والأندلس عصر المرابطين والموحدين، مكتبة الخانجي، مصر، ط1، 1980م.

201- حشلاف عبد الله بن محمد: سلسلة الأصول في شجرة أبناء الرسول، المطبعة التونسية، تونس، 1347هـ- 1929م.

202- الحفناوي أبو القاسم محمد: تعريف الخلف برجال السلف، دار كردادة للنشر والتوزيع، بوسعادة، ط1، 1433هـ- 2012م.

203- حمادي الإدريسي عبد الله: الفوات من تاريخ توات وصحاري الجهات، دار الكتاب الملكي، وزارة الثقافة، الجزائر، ط1، 1434هـ- 2013م.

204- بن حموش مصطفى أحمد: فقه العمران الإسلامي من خلال الأرشيف العثماني بالجزائر 956- 1246هـ/ 1549- 1830م ، دار البحوث والدراسات الإسلامية وإحياء التراث، دبي، ط1، 1421هـ- 2000م.

205- دبوز محمد علي: تاريخ المغرب الكبير، عالم المعرفة، الجزائر، ط1، 2013م.

206- دحومان كمال الحسني: أشراف الجزائر ودورهم الحضاري في المجتمع الجزائري، دار الخلدونية، الجزائر، ط1، 1430هـ- 2009م.

207- الدردير أبو البركات أحمد بن محمد العدوي (ت1201هـ- 1786م): أقرب المسالك لمذهب الإمام مالك، نشر وتوزيع مكتبة رحاب، الجزائر، دت.

208- الدغلي محمد سعيد: الحياة الاجتماعية في الأندلس وأثرها في الأدب العربي والأدب الأندلسي، دار أسامة، ط1، 1404هـ- 1984م.

209- رزوق محمد: دراسات في تاريخ المغرب، إفريقيا الشرق، مكتبة الإسكندرية، ط1، 1991م.

210- بن رمضان شاوش الحاج محمد: باقة السوسان في التعريف بحاضرة تلمسان عاصمة دولة بني زيان، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2011م.

211- زبادية عبد القادر: الحضارة العربية والتأثير الأوروبي في إفريقيا الغربية جنوب الصحراء، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1989م.

212- الزياني محمد بن يوسف: دليل الحيران وأنيس السهران في أخبار مدينة وهران، تحقيق وتقديم الشيخ المهدي البوعبدلي، اعتنى به عبد الرحمن دويب، عالم المعرفة، الجزائر، ط1، 2013م.

213- سالم سيد عبد العزيز: تاريخ ألمرية الإسلامية، نشر مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، 1984م.

214- ابن سحنون أحمد بن محمد بن علي الراشدي: الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني، تحقيق وتقديم المهدي البوعبدلي، اعتنى به عبد الرحمن دويب، عالم المعرفة، الجزائر، ط1، 2013م.

215- سعد زغلول عبد الحميد: تاريخ المغرب العربي من الفتح إلى بداية عصر الاستقلال، منشأة المعارف، الإسكندرية، 2003م.

216- الشقفة محمد بشير: الفقه المالكي في ثوبه الجديد، دار القلم، دمشق، ط1، 1428هـ- 2007م.

217- شنيتي محمد البشير: التغيرات الاقتصادية والاجتماعية في المغرب أثناء الاحتلال الروماني، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984م.

218- الصالحي الدمشقي محمد بن عيسى بن عثمان (ت1152هـ- 1740م): المواكب الإسلامية في الممالك والمحاسن الشامية، تحقيق ودراسة حكمت إسماعيل، مراجعة محمد المصري، وزارة الثقافة، دمشق، 1993م.

219- طبَّارة عفيف عبد الفتاح: الخطايا في نظر الإسلام، مكتبة الشركة الجزائرية، الجزائر، د.ت.

220- طقوش محمد سهيل: تاريخ الفاطميين في شمالي إفريقية ومصر وبلاد الشام، دار النفائس، بيروت، ط2، 2007م.

221- عاشور عبد الفتاح: أضواء جديدة على الحروب الصليبية، الدار المصرية للتأليف والترجمة، توزيع دار القلم، القاهرة، 1964م.

222- العبادي أحمد مختار: في تاريخ المغرب والأندلس، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، 2008م.

223- العربي إسماعيل: دولة بني زيري ملوك غرناطة، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1982م.

224- العشماوي أحمد بن محمد بن أبي القاسم: السلسلة الوافية والياقوتة الصافية في أنساب أهل البيت المطهر أهله بنص الكتاب، أورده الهاشمي بن بكارة ضمن مجموع النسب والحسب، مطبعة ابن خلدون، تلمسان، 1391هـ- 1961م.

225- عمارة علاوة: دراسات في التاريخ الوسيط للجزائر والغرب الإسلامي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2009م.

226- عمارة محمد: قاموس المصطلحات الاقتصادية في الحضارة الإسلامية، دار الشروق، بيروت، ط1، 1413هـ- 1993م.

227- عمر موسى عز الدين: النشاط الاقتصادي في المغرب الإسلامي خلال القرن السادس الهجري، دار الشروق، القاهرة، ط1، 1403هـ- 1983م.

228- عمر موسى عز الدين: الموحدون في الغرب الإسلامي تنظيماتهم ونظمهم، دار الغرب الإسلامي، ط1، 1411هـ- 1991م.

229- عمر موسى عز الدين: دراسات في تاريخ المغرب الإسلامي، دار الشروق، ط1، 1403هـ- 1983م.

230- بن عميرة محمد: دور زناتة في الحركات المذهبية بالمغرب الإسلامي، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984م.

231- عنان محمد عبد الله: دولة الإسلام في الأندلس- عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط2، 1411هـ- 1990م.

232- عناني محمد زكريا: الموشحات الأندلسية، عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 1998م.

233- ابن العنتري محمد الصالح: فريدة منيسة في حال دخول الترك بلد قسنطينة واستيلائهم على أوطانها المعروف بتاريخ قسنطينة، مراجعة وتقديم وتعليق يحي بوعزيز، دار البصائر، الجزائر، 2009م.

234- العوامر إبراهيم الساسي: الصروف في تاريخ الصحراء وسوف، تحقيق الجيلالي بن إبراهيم العوامر، منشورات ثالة، الجزائر، 2007م.

235- عويس عبد الحليم: دولة بني حماد صفحة رائعة من التاريخ الجزائري، دار الصحوة للنشر والتوزيع، القاهرة، ط2، 1411هـ- 1991م.

236- ابن عيشون أبي عبد الله محمد الشراط (ت1109هـ- 1697م): الروض العطر الأنفاس في أخبار الصالحين من أهل فاس، دراسة وتحقيق زهراء النظام، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، 1997م.

237- غانم محمد الصغير: المملكة النوميدية والحضارة البونية، دار الأمة، الجزائر، ط1، 1998م.

238- الغريسي الطيب بن مختار: القول الأعم في بيان أنساب قبائل الحشم، نشر بلهاشمي بن بكارة، المطبعة الخلدونية، تلمسان، 1381هـ- 1961م.

239- فرج محمود فرج: إقليم توات خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2007م.

240- الفقي عصام الدين عبد الرؤوف: تاريخ المغرب والأندلس، مكتبة نهضة الشرق، القاهرة، دت.

241- فيلالي عبد العزيز: العلاقات السياسية بين الدولة الأموية في الأندلس ودول المغرب، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1982م.

242- فيلالي عبد العزيز: تلمسان في العهد الزياني، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، ج1، 2002م.

243- لقبال موسى: دور كتامة في الخلافة الفاطمية بالمغرب، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1979م.

244- مؤنس حسين: معالم تاريخ المغرب والأندلس، مكتبة الأسرة، الإسكندرية، 2004م.

245- المباركفوري صفي الرحمن: الرحيق المختوم، دار الوفاء للطباعة والنشر، القاهرة، توزيع شركة الشهاب، الجزائر، 1408هـ- 1987م.

246- محفوظ محمد: تراجم المؤلفين التونسيين، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط2، 1994م.

247- محمد باشا بن الأمير عبد القادر: تحفة الزائر في مآثر الأمير عبد القادر وأخبار الجزائر، تحقيق محمد السيد عثمان، دار الكتب العلمية، بيروت، 1434هـ- 2013م.

248- محمد الطيب بن الحاج عبد الرحيم المشهور بابن بابا حيدة: القول البسيط في أخبار تمنطيط، حققه فرج محمود فرج وأورده ضمن كتابه: إقليم توات خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2007م.

249- مخلوف محمد بن محمد: شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، دار الفكر للطباعة والنشر، دت.

250- المزاري بن عودة: طلوع سعد السعود في أخبار وهران والجزائر وإسبانيا وفرنسا، تحقيق ودراسة يحي بوعزيز، دار البصائر، الجزائر، 2009م.

251- المشرفي عبد القادر: بهجة الناظر في أخبار الداخلين تحت ولاية الإسبانيين بوهران من الأعراب كبني عامر، تحقيق وتقديم محمد بن عبد الكريم، دت.

252- المطوي محمد العروسي: السلطنة الحفصية تاريخها السياسي ودورها في المغرب الإسلامي، دار الغرب الإسلامي، 1406هـ- 1986م.

253- المعموري الطاهر: الغزالي وعلماء المغرب، الدار التونسية للنشر، 1990م.

254- ممدوح حسين: الحروب الصليبية في شمال إفريقية وأثرها الحضاري، دار عمار، عمان، ط1، 1419هـ- 1998م.

255- بن منصور عبد الوهاب: قبائل المغرب، المطبعة الملكية، الرباط، 1968م.

256- المنوني محمد: حضارة الموحدين، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، ط1، 1989م.

257- الميلي مبارك بن محمد: تاريخ الجزائر في القديم والحديث، تقديم وتصحيح محمد الميلي، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984م.

258- موهوبي عبد القادر: ومضات تاريخية واجتماعية لمدن وادي ريغ، دار البصائر، الجزائر، 2011م.

259- الناصري أبي راس: عجائب الاسفار ولطائف الأخبار، تحقيق محمد غالم، نشر مركز البحث في الأنثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية، وهران، 2005م.

260- الناصري السلاوي: الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، تحقيق ولدي المؤلف جعفر الناصري ومحمد الناصري، دار الكتاب، الدار البيضاء، 1954م.

261- النجار عبد المجيد: تجربة الإصلاح في حركة المهدي بن تومرت، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، فرجينيا، ط2، 1415هـ- 1995م.

262- نويهض عادل: معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام إلى العصر الحاضر، مؤسسة نويهض الثقافية، بيروت، ط2، 1400هـ- 1980م.

263- هلال عمار: العلماء الجزائريين في البلدان العربية والإسلامية فيما بين القرنين 3- 14هـ/ 9-20م، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ط2، 2005م.

264- الوكيل عبد الرحمن: هذه هي الصوفية، دار الكتب العلمية، بيروت، ط3، 1979م.

265- الولاتي أبي عبد الله محمد بن أبي بكر البرتلي (ت1219هـ- 1804م): فتح الشكور في معرفة أعيان علماء التكرور، تحقيق محمد إبراهيم الكتاني ومحمد حجي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، منشورات الجمعية المغربية للتأليف والترجمة، ط1، 1401هـ- 1981م.

266- ولد السالم حماه الله: تاريخ بلاد شنقيط (موريتانيا)، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2010م.

ثالثا: المراجع المعرَّبة:

267- أنجل جنثالث بالنثيا: تاريخ الفكر الأندلسي، ترجمة حسن مؤنس، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، دت.

268- جورج مارسيي: بلاد المغرب وعلاقاتها ببلاد المشرق الإسلامي في العصور الوسطى، ترجمه عن الفرنسية محمود عبد الصمد هيكل، راجعه واستخرج نصوصه مصطفى أبو ضيف أحمد، منشأة المعارف، الإسكندرية، 1999م.

269- خوان جوزيف: الإسلام في ممالك وإمبراطوريات إفريقيا السوداء، ترجمة مختار السويفي، دار الكتب الإسلامية، بيروت، ط1، 1404هـ- 1984م.

270- روبار برانشفيك: تاريخ إفريقية في العهد الحفصي من القرن 13م إلى نهاية القرن 15م، نقله إلى العربية حمادي الساحلي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1988م.

271- روجي إدريس الهادي: الدولة الصنهاجية - تاريخ إفريقية في عهد بني زيري - من القرن 10 إلى القرن 12م، نقله إلى العربية حمادي الساحلي، دار الغرب الإسلامي، ط1، 1992م.

272- شارل أندري جوليان: تاريخ إفريقيا الشمالية من الفتح الإسلامي إلى سنة 1830م، تعريب محمد مزالي والبشير بن سلامة، الدار التونسية للنشر، 1398هـ - 1978م.

273- مونتغمري وات: في تاريخ إسبانيا الإسلامية، ترجمه محمد رضا المصري، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، بيروت، ط2، 1998م.

رابعا: المراجع باللغة الأجنبية

274- E.F GAUTIER : le passé de l’Afrique du nord, les siècles obscurs, petite bibliothèque, PAYOT, paris, 1962.

275- ERNEST MERCIER : histoire de l’Afrique septentrionale (BERBERIE) depuis les temps les plus reculés jusqu'à la conquête française 1830, ERNEST LEROUX éditeur, PARIS, 1868.

276- MOHAND AKLI HADDADOU : dictionnaire toponymique et historique de l'Algérie, édition Achab, ALGERIE , 2012.

277- w. MARCAIS et G. MARCAIS : les monuments arabes de Tlemcen, ouvrage publié sous les auspices du gouvernement générale de LALGERIE , paris ancienne, librairie des écoles française d'Athènes et de Rome du collège de France, 1904.

278- E. CARETTE : origine et migration des principales tribus de L'ALGERIE, imprimerie impériale , paris, 1853.

279- archive d'outre-mer, département d'Alger, fonds de la préfecture, répertoire numérique de la sous-série **2U**, culte musulman, revue des études islamique, paris, 1954.

خامسا: الموسوعات:

280- عمارة محمد وآخرون: موسوعة الحضارة العربية الإسلامية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر والتوزيع، دار الفارس، عمان، ط1، 1995م، مج2.

281- الحفني عبد المنعم: موسوعة الفِرق والجماعات والمذاهب الإسلامية

سادسا: المجلات:

282- مجلة الأصالة، تصدرها وزارة الشؤون الدينية والتعليم الأصلي، الجزائر، ع13، 1393هـ- 1973م.

283- مجلة الأصالة، ع26، 1395هـ- 1975م.

284- مجلة آفاق الثقافة والتراث، مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث، دبي، ع14، السنة الرابعة، 1417هـ- 1996م.

285- مجلة آفاق الثقافة والتراث، ع31، السنة الثامنة، 1421هـ- 2000م.

286- مجلة الثقافة، تصدرها وزارة الإعلام والثقافة، الجزائر، ع59، السنة العاشرة، 1400هـ- 1980م.

287- مجلة الثقافة الإسلامية، تصدرها وزارة الشؤون الدينية والأوقاف، الجزائر، ع12، 1435هـ- 2014م.

288- مجلة الخلدونية، تصدرها كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة تيارت، ع8، 2015م.

289- مجلة دراسات تاريخية، تصدر عن مركز البصيرة للبحوث والاستشارات والخدمات التعلمية، الجزائر، ع1، 1435هـ- 2013م.

290- مجلة الدراسات التاريخية والاجتماعية، جامعة نواكشوط، ع7، 2016م.

291- مجلة عصور الجديدة، يصدرها مختبر تاريخ الجزائر، جامعة وهران 1 أحمد بن بلة، ع2، 1432هـ- 2011م.

292- مجلة عصور الجديدة، ع3- 4، 2011- 2012م.

293- مجلة عصور الجديدة، ع5، 1433هـ- 2012م.

294- مجلة عصور الجديدة، ع7- 8، 2012- 2013م.

295- مجلة الهجرة والرحلة، يصدرها مخبر الأبحاث الاجتماعية والتاريخية، جامعة منتوري، قسنطينة، ع3، 2010م.

296- التراث الحضاري المشترك بين إسبانيا والمغرب، سلسلة الدورات، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية، الرباط، الهلال العربية للطباعة والنشر، 1412هـ- 1992م.

297- la revue africaine, journal des travaux de la société historique algérienne, gouvernement général de l'Algérie, quatrième année, 1870.

فهرس الموضوعات

الكلمات المفتاحية

الهجرة- التغريب- النفي- المجاورة- الهجرة الصادرة- الهجرة الواردة- المغرب الأوسط- الأندلس- بلاد السودان- آثار الهجرة- القبائل البربرية- القبائل العربية

ملخص الأطروحة

تتناول هذه الأطروحة الهجرة كظاهرة اجتماعية عرفها المغرب الأوسط وبصفة خاصة خلال القرنين 7-8هـ/ 13-14م والتي حركتها أسباب ودوافع متعددة سياسية والتي ترتبط بظروف مر بها الغرب الإسلامي والعالم الإسلامي ككل ومنها قيام الدولة الموحدية وما ارتبط بها من أحداث أو الحروب الصليبية في الأندلس والمشرق، إضافة إلى عوامل أخرى اجتماعية واقتصادية وثقافية

إن حركة الهجرة التي عاشها المغرب الأوسط في الفترة المذكورة والتي شملت القبائل العربية والبربرية وعناصر أخرى كاليهود والنصارى انعكست على الحياة الاجتماعية والاقتصادية، فقد كون هؤلاء تركيبة مجتمع المغرب الأوسط وساهموا في تنويع الأنشطة من فلاحة وتجارة وحرف

كان للهجرة آثارا ونتائج اجتماعية واقتصادية وسياسية وفكرية، فقد ساهمت في تكوين وبنية وثقافة مجتمع المغرب الأوسط، وساهمت في التواصل الفكري بين مناطق العالم الإسلامي، وفي الأخير يمكن القول أن الهجرة ليست مجرد حركة انتقال للسكان، بل هي أعمق من ذلك بالنظر لأبعادها وآثارها

ملخص

تتناول هذه الأطروحة الهجرة كظاهرة اجتماعية عرفها المغرب الأوسط وبصفة خاصة خلال القرنين 7-8هـ/ 13-14م والتي حركتها أسباب ودوافع متعددة سياسية والتي ترتبط بظروف مر بها الغرب الإسلامي والعالم الإسلامي ككل ومنها قيام الدولة الموحدية وما ارتبط بها من أحداث أو الحروب الصليبية في الأندلس والمشرق، إضافة إلى عوامل أخرى اجتماعية واقتصادية وثقافية. إن حركة الهجرة التي عاشها المغرب الأوسط في الفترة المذكورة والتي شملت القبائل العربية والبربرية وعناصر أخرى كاليهود والنصارى انعكست على الحياة الاجتماعية والاقتصادية، فقد كون هؤلاء تركيبة مجتمع المغرب الأوسط وساهموا في تنويع الأنشطة من فلاحة وتجارة وحرف. كان للهجرة آثارا ونتائج اجتماعية واقتصادية وسياسية وفكرية، فقد ساهمت في تكوين وبنية وثقافة مجتمع المغرب الأوسط، وساهمت في التواصل الفكري بين مناطق العالم الإسلامي، وفي الأخير يمكن القول أن الهجرة ليست مجرد حركة انتقال للسكان، بل هي أعمق من ذلك بالنظر لأبعادها وآثارها.

الكلمات المفتاحية:

الهجرة؛ التغريب؛ الغرب الإسلامي؛ الهجرة الصادرة؛ الهجرة الواردة؛ المغرب الأوسط- الأندلس؛ بلاد السودان؛ القبائل البربرية؛ القبائل العربية.

نوقشت يوم جوان 2017